

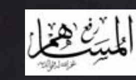
فبهداهم اقتده

قراءة تأصيلية في سير وقصص الأنبياء عليهم السلام

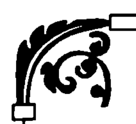
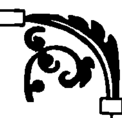
بقلم

عثمان بن محمد الخميس





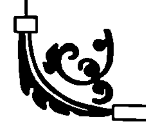


فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ

قِرَاءَةٌ تَأْصِيلِيَّةٌ فِي سِيَرِ وَقَصَصِ الأَنْبِيَاءِ عليهم السلام

بقلم
عُثْمَان بن محمد الخميس

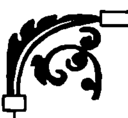
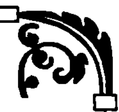







بسم الله الرحمن الرحيم



الطبعة الأولى
١٤٣١هـ ـ ٢٠١٠م

للتواصل
٩٩٤٨٨٦٠٨ (٩٦٥)
elaphislamic@hotmail.com



دار إيلاف الدولية للنشر والتوزيع
الكويت ـ الجهراء: هاتف: ٢٤٥٥٧٥٥٩ (٩٦٥)، فاكس: ٢٤٥٥٧٥٥٨ (٩٦٥)
حولي: شارع الحسن البصري، تلفاكس: ٢٢٦٤١٧٩٧ (٩٦٥)



إهـــداء

أهدي كتابي هذا إلى مَنْ أوصاني الله بهما، وأمرني ببرهما لما لهما عليّ من حقوق، وأعلم علم اليقين أني مهما فعلت فلن أوفّيهما حقّهما، ولكن هذا جهد المقل؛ استجابةً لأمر الله - تبارك وتعالى -: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ۝٢٤﴾ [الإسراء]، راجياً من كل من يقرأ كتابي هذا أن لا ينساهما من الدعاء بالمغفرة والرحمة.



وكتبه عثمان الخميس

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فهو المهتدي، ومن يضلله فلن تجد له ولياً مرشداً، وأشهد أن لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [آل عمران].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾ [النساء].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾ [الأحزاب].

أما بعد:

فإن المتأمل في هذا الكون بسمائه وأرضه، ونجومه وكواكبه، وشجره وزرعه وثمره لا شك أن عقله يهديه إلى وجود خالق عظيم مدبر لهذا الكون، ولكن ما صفات هذا الخالق؟ ولماذا خلقنا؟ وبماذا أمرنا؟ وعن ماذا نهانا؟ وما جزاء من يطيع وما جزاء من لا يطيع؟

كل هذه الأمور لا يمكن أبداً للعبد الضعيف أن يتعرف عليها إلا أن يخبره هذا الخالق، فمن رحمة الله تبارك وتعالى بخلقه أن أرسل إليهم رسلاً مبشرين ومنذرين يُعَرِّفُون الناس بهذا الرب ﷻ، من هو؟ ما



أسماؤه؟ ما صفاته؟ ماذا يريد منا؟ عن ماذا ينهانا؟ ما جزاء من يطيع؟ ما جزاء من يعصي؟

هؤلاء الرسل هم الواسطة بين الله تبارك وتعالى وبين خلقه في التبليغ، يُبَلِّغون عن الله تبارك وتعالى ما يريد أن يوصله إلى عباده، فيُعرّفونَ النَّاسَ ما ينْفَعُهم في معاشهم، وفي معادهم، يُعَرّفونهم ما يرضي ربهم وما يسخطه ﷻ، فيعمل الناس على تحقيق محاب الله ـ جل وعلا ـ، ويعملون كذلك على تجنب ما يغضب الله ـ جل وعلا ـ.



حاجة الناس إلى الأنبياء والمرسلين

إن الناس ـ بلا شك ـ بحاجةٍ عظيمةٍ لهؤلاء الرسل، يقول الإمام ابن قيم الجوزية رَحِمَهُ اللَّهُ: «حاجة الناس إلى الشريعة ضرورية فوق حاجتهم إلى كل شيء، وذلك أن الشريعة مبناها على تعريف مواقع رضا الله تبارك وتعالى وسخطه في حركات العباد الاختيارية، والتي هي مبناها على الوحي المَحْض، والحاجة إلى التنفس ـ فضلاً عن الطعام والشراب ـ غايةُ ما يُقَدَّر في عدم التنفس والطعام والشراب موتُ البدن وتعطل الروح عنه. وأما ما يُقَدَّر عند عدم الشريعة؛ ففساد القلب والروح جملةً وهلاك البدن، وشتان بين هذا وهلاك البدن بالموت، فليس الناس قطّ أحوج إلى شيء أحوج منهم إلى معرفة ما جاء به الرسول والقيام بالدعوة إليه، والصبر عليه، وجهاد من خرج عنه حتى يرجع إليه، وليس للعالم صلاح بدون ذلك البتة ولا سبيل إلى الوصول إلى السعادة والفوز الكبير إلا بالعبور على هذا الجسر».

وكلامنا في هذا الكتاب هو عن سِيَر وقصص الأنبياء الذين قال الله تبارك وتعالى فيهم: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ﴾ [الأنعام: ٩٠] هذه القصص، قصص الأنبياء ستكون محور حديثنا في هذا الكتاب.

فنبدأ بمقدمة عن هؤلاء الأنبياء، من هم؟ وما صفاتهم؟ وما حقوقهم؟ وكيف نتعرف عليهم؟ وما الفرق بينهم؟ هذا ما سنتناوله إن شاء الله تبارك في هذه المقدمة.





النبوة منحة إلهية

لا يمكن أبداً أن يكون العبد نبياً بالاكتساب، بل هي منحة إلهية، ولذلك نبّأ الله تبارك وتعالى عيسى ويحيى وهما صغيران كما هو معلوم[١]، فنبأ عيسى وهو في المهد ونبأ يحيى وهو صغير صلوات الله وسلامه عليهما، ولذلك قال الكفار: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١]، فردُ الله عليهم بقوله: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ [الزخرف: ٣٢]، فهذه رحمة من الله تبارك وتعالى يجعلها حيث شاء، ولذلك قال ـ جل وعلا ـ: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤] إذاً هو اختيار من الله ـ جل وعلا ـ يختار من يراه مناسباً لحمل هذه المسؤولية.



(١) قال تعالى عن يحيى عليه السلام: ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ وَءَاتَيْنَٰهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾﴾ [مريم]، وقال ﷻ عن عيسى عليه السلام: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ الْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾﴾ [مريم].



أسباب تعدد الرسل

الرسل كثر كما هو معلوم ولكثرتهم أسباب:

السبب الأول: كثرة الأمم: فإذا جمعت إلى كثرة الأمم قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤] عرَفْتَ عند ذلك عددَ الرسل الذين أرسلهم الله تبارك وتعالى من حيث الكثرةُ، فهم كُثُر؛ لأن الأمم كُثر، وقال الله ـ جل وعلا ـ: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]، خاصَّةً إذا أضفتَ إلى هذا أن الأنبياء والمرسلين في السابق كانوا يبعثون إلى أقوامهم خاصةً، في زمن خاص، في مكان خاص، والذي بُعِثَ إلى الناس كافة هو محمد ﷺ، وقد جاء في الأحاديث بيان عدد الأنبياء.

عن أبي ذر رضي الله عنه أنه سأل النبي ﷺ عن عدد المرسلين، فقال: «**جمٌّ غفير، ثلاثمئة وبضعة عشر**»[1]، هؤلاء المرسلون، وسأله عن عدد الأنبياء، فقال: «**مئة وأربعة وعشرون ألف نبي**». فالعدد إذاً كبير جداً، هذا عدد الأنبياء الذين نبّأهم الله تبارك وتعالى على خلافٍ بين أهل العلم في صحة هذا الحديث ولكن يكفينا قول الله ـ جل وعلا ـ: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ۝٢٤﴾ [فاطر].

السبب الثاني: حاجة الناس إلى المرسلين: وقد ذكرنا قريباً أن الناس لا يستطيعون أبداً أن يعبدوا الله تبارك وتعالى على بصيرة حتى يعلموا ما يريد الله ـ جل وعلا ـ منهم، ولن يعلموا هذا إلا عن طريق المرسلين.

---

(١) أخرجه أحمد (٥/١٧٨، ١٧٩، ٢٦٥)، وابن حبان (٣٦١)، والطبراني (٧٨٧١)، وضعف إسناده الأرناؤوط. وقد ذكر طرقه الشيخ الألباني في «الصحيحة» (٢٦٦٨)، وصححه لغيره.



الإيمان بالرسل من أصول الإيمان

والإيمان بالرسل أصل من أصول هذا الدين العظيم، ولذلك لما جاء جبريل وسأل النبي ﷺ عن الإيمان قال: «**أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره**»[(١)]. وقال الله ـ جل وعلا ـ: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥]، وقال ـ جل وعلا ـ: ﴿لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ قِبَلَ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ وَلَـٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَـٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [البقرة: ١٧٧]، وقال ـ جل وعلا ـ: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ﴾ [الحديد: ٢١].

فالقصد؛ أن الإيمان بالرسل أصلٌ من أصول الإيمان، لا يقبل الله تبارك وتعالى إيمانَ أحدٍ حتى يؤمن برسل الله تبارك وتعالى.



---

(١) أخرجه البخاري (٥٠)، ومسلم (٩) من حديث أبي هريرة ﷺ، وأخرجه أيضاً مسلم (٨) من حديث عمر بن الخطاب ﷺ.

الأنبياء والرسل
هم أشرف الخلق وأكملهم

الأنبياء والمرسلون أفضل من جميع البشر فهم الخُلَّص من عباد الله تبارك وتعالى ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [الأنعام]، اصطفاهم الله - جل وعلا -، وهذا الاصطفاء من الله لا يكون أبداً محاباةً، ولكن الاصطفاء من الله - جل وعلا - يكون معه زيادة تكليف دائماً، فالمعلوم أن الذكر أفضل من الأنثى، ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ ۚ﴾ [النساء: ٣٤]، ولهذا أوجب على الرجال ما لم يوجِبْ على النساء، فيجب عليهم حضور الجماعات، ويجب عليهم الجهاد، ويجب عليهم الدعوة، والهجرة والخروج في سبيل الله تبارك وتعالى للدعوة، ونشر هذا الدين العظيم، وغير ذلك كثير مما لم تؤمرْ به النساء، ولذلك لما استأذنت عائشة النبي ﷺ في الجهاد؛ قال ﷺ: «**جهادكن الحج**»(١).

إذاً وافق زيادة التفضيل زيادة التكليف، ولما فُضِّلَ الأحرارُ على

(١) أخرجه البخاري (٢٨٧٥). وفي لفظ أخرجه ابن ماجه (٢٩٠١): قلت: يا رسول الله على النساء جهاد؟ قال: «**نعم، عليهن جهاد لا قتال فيه: الحج والعمرة**»، وصححه الألباني رحمه الله.



العبيد أوجبَ على الأحرار ما لم يوجبْ على العبيد، حتى قال بعض أهل العلم: إنه لا يجب على العبد الحج، ولا يجب عليه الجهاد، ولا تجب عليه صلاة الجماعة، وهكذا غيرها كثير؛ لأن زيادة التفضيل فيها زيادة التكليف.

وفضَّل الله تبارك وتعالى الأنبياء على سائر الخلق، وزاد من تكليف الأنبياء، وأوجب عليهم ما لم يوجب على الناس من الأمر بالدعوة إلى الله، حتى قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [آل عمران: ١٦١]، فالشاهد أن الله تعالى فضّل الأنبياء وزاد من تكليفهم، ولذلك يجوز لنا في القتال أن نفرَّ إذا كان العدو أكثر من الضعف، أما النبي فإنه لا يجوز له أن يفرَّ بأي حال من الأحوال، فأوجب عليه ما لم يوجب على غيره.

والمرسلون أفضل من الأنبياء فزاد تكليفهم على الأنبياء كما سيأتي في تعريف النبي والرسول.

وأولوا العزم إنما سُموا أولوا العزم؛ للمشقة التي لاقَوْها في الدعوة إلى الله تبارك وتعالى، فهذا إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ، وموسى، ونوح، وعيسى، ومحمد ﷺ، هؤلاء الرسل الخمسة قاسوا مِنَ المعاناة، والجهد، والبذل في سبيل الدعوة إلى الله تبارك وتعالى ما لم يقُمْ به غيرهم، وما كان هذا إلا لأن الله فضّلهم على غيرهم من البشر، فزاد من تكليفهم، فكلنا نعرف قصة موسى، وما لاقاه إبراهيم، وما وقع له مع أبيه، ومع ملك بابل، ومع أهله، ومع قومه، ومع أولاده، وكلنا يعرف نوحاً، وكم مكثَ في قومه يدعو إلى الله تبارك وتعالى، وأما عيسى؛ فإنه بذل الشيء الكثير، ولم ينته دوره بعد، وسينزل مرةً ثانية إلى هذه الأرض حتى يكمل دعوته، ولا يخفى على الجميع دور سيدنا محمد ﷺ في الدعوة إلى الله ﷻ.



فالأنبياء إذاً هم خير البشر، وقد أجمع أهل العلم على أن من فضل غير الأنبياء عليهم فإنه كافر.

لكن الأنبياء أنفسهم يَفْضُل بعضُهم بعضاً، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [الإسراء: ٥٥] وقال: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، فالله يُفَضّل بعض الأنبياء وبعض المرسلين على بعض، ولذلك قلنا: إن الرسل أفضل من الأنبياء، وأولوا العزم أفضل من سائر الرسل، وسيدنا محمد ﷺ هو سيد أولي العزم، ولذلك جاء عنه أنه قال: «**أنا سيد ولد آدم ولا فخر**»[1]، وقال الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَـٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ۝٧﴾ [الأحزاب]، ويقول ﷺ: «**فضلت على الأنبياء بسِتٍ: أُعْطِيتُ جوامع الكلم، ونُصِرْتُ بالرعب مسيرة شهر**»[2]، وذلك في تبوك لما خرج ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ إلى تبوك نَصَرَهُ الله بالرعب، فألقى الرعب في قلوب النصارى، ففروا وتركوا الغنائم، ولم يقاتل، ورجع بالغنائم ﷺ.

وقال: «**وأحلت لي الغنائم**»، وذلك أن الأنبياء السابقين إذا كانوا في قتال لا يغنمون شيئاً، وإنما إذا انتهى القتال جُمعت الغنائم في مكان، فنزلت نار من السماء، فأخذتها[3]، ولم تُحلَّ الغنائم إلا لنبينا محمد ﷺ.

---

(١) بهذا اللفظ أخرجه الترمذي (٣١٤٨، ٣٦١٥)، وابن ماجه (٤٣٠٨) من حديث أبي سعيد ﷺ.
وأخرجه مسلم (٢٢٧٨) من حديث أبي هريرة ﷺ بلفظ: «**أنا سيد ولد آدم يوم القيامة**».

(٢) أخرجه البخاري بنحوه (٢٩٧٧)، أخرجه مسلم بلفظه (٥٢٣) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٣) أخرج الترمذي (٣٠٨٥) عن أبي هريرة ﷺ مرفوعاً: «**لم تحلَّ الغنائم لأحدٍ سودِ الرؤوسِ من قبلكم كانت تنزل نار من السماء فتأكلها**»، وهو في «صحيح الجامع» (٥١٩٦). وقد ورد أيضاً أكل النار للغنائم كما في قصة حبس الشمس على يوشع بن نون ﷺ أخرجه البخاري (٣١٢٤)، ومسلم (١٧٤٧).



وقال: «**وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فعنده مسجده وطهوره**»(١) يصلي المسلم في أي مكان عدا الأماكن التي جاء النهي عنها كالمقبرة والحمام(٢)، وقال: «**وأرسلت إلى الناس كافة**»(٣).

ورُسُل الله هم الكُمّل من الناس كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، فهم الكُمّل في الخَلق، خَلْقُهم حسن، أحسن الله تقويمهم ﷺ، وسيأتينا في قصة موسى عليه السلام لما قالوا: إنه آدر، وكيف برّأه الله مما قالوا.

وكذا هم الكُمّل في الخُلُق كما قال الله تبارك وتعالى عن نبيه محمد ﷺ: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ [القلم]، وقالت بنت الرجل الصالح: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦].

وهم الكُمّل في النسب، فلم يبعث الله تبارك وتعالى نبياً من العبيد، وإنما الأنبياء كلهم أحرار.

وكذلك هم الكُمّل في العقل، فعقولهم راجحة، وذكاؤهم حاد كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦۚ﴾ [الأنعام: ٨٣] فالله تبارك وتعالى أعطاه الحجة والبيان لمَّا ناظر قومه، ولما ناظَرَ الملك أظهر الله تبارك وتعالى الحجة معه، وكذا موسى، وكذا محمد ﷺ، ونوح، وغيرهم من الأنبياء.

وهم كُمّل في الصبر في الدعوة إلى الله تبارك وتعالى، وكُمّل في الجهاد، وكُمّل في العبادة، فهم الكُمّل من خَلْقِ الله صلوات الله وسلامه عليهم.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٥)، ومسلم (٥٢١) من حديث جابر رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أبو داود (٤٩٢)، والترمذي (٣١٧)، وابن ماجه (٧٤٥) من حديث أبي سعيد رضي الله عنه، وهو في «صحيح الجامع» (٢٧٦٧).

(٣) انظر التخريج قبل السابق.



الأمة الإسلامية
هم أكثر الناس تعظيماً للأنبياء

هذا هو كلامنا في أنبيائنا صلوات الله وسلامه عليهم، ولكن أبى بعضُ الفجار الكفار إلا أن يطعنوا في أنبياء الله صلوات الله وسلامه عليهم، فهذا الكتاب الذي يُسمى بـ«الكتاب المقدس» عند اليهود والنصارى، وهو الذي يشتمل «العهد القديم» الذي هو التوراة، ويشتمل «العهد الجديد» الذي هو الإنجيل، والتوراة يؤمن بها جميعهم، وأما العهد الجديد؛ فإن اليهود لا يؤمنون به؛ لأن اليهود لا يؤمنون بعيسى صلوات الله وسلامه عليه، وإنما يزعمون أنهم يؤمنون بموسى فقط، وأنا أنقل بعض كلامهم في أنبياء الله من الطعون التي لا يجوز أبداً أن تنسب إلى الصالحين من البشر فضلاً عن أن تُنسب إلى الكُمّل من البشر، وهم أنبياء الله صلوات الله وسلامه عليهم.

وسأذكر بعض رواياتهم التي ينسبونها إلى أنبياء الله ـ وهم بريئون منها ـ، وأنا آسف جداً عما سأذكره، ولكن حتى يُعلم من هم أتباع الرسل، ومن هم الذين يعطون الرسل حقهم.

فقالوا عن نوح ﷺ: «وابتدأ نوح يكون فلّاحاً وغرس كرماً، وشرب من الخمر، فسكر، وتعرى داخل خبائه، فأبصر حام أبو كنعان عورة أبيه، وأخبر أخويه خارجاً»[1].

ويقولون عن لوط ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «وصعد لوط من

(١) «سفر التكوين»، الإصحاح التاسع.



صوغر، وسكن في الجبل، وابنتاه معه؛ لأنه خاف أن يسكن في صوغر، فسكن في المغارة هو وابنتاه، وقالت البكر للصغيرة: أبونا قد شاخ، وليس في الأرض رجل ليدخل علينا كعادة كل الأرض، هلّم نسقي أبانا خمراً، ونضطجع معه، فنحيي من أبينا نسلاً، فسقتا أباهما خمراً في تلك الليلة، ودخلت البكر، واضطجعت مع أبيها، ولم يعلم باضطجاعها، ولا بقيامها، وحدث في الغد أن البكر قالت للصغيرة: إني قد اضطجعت البارحة مع أبي، نسقيه خمراً الليلة أيضاً، فادخلي واضطجعي معه، فنحيي من أبينا نسلاً، فسقتا أباهما خمراً في تلك الليلة أيضاً، وقامت الصغيرة واضطجعت معه، ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها، فحبلت[١] ابنتا لوط من أبيهما»[٢]، والعياذ بالله.

وهذا يعقوب عليه الصلاة والسلام قالوا عنه: «فبقي يعقوب وحده، وصارعه إنسان حتى طلوع الفجر، ولما رأى أنه لا يقدر عليه ضرب حق فخذه[٣]، فانخلع حق فخذ يعقوب في مصارعته معه، وقال: أطلقني[٤] لأنه قد طلع الفجر، فقال: لا أطلقك إن لم تباركني، فقال له: ما اسمك؟ فقال: يعقوب، قال: لا يُدعى اسمك فيما بعد يعقوب، بل إسرائيل؛ لأنك جاهدت مع الله» فصار هذا الذي يصارع يعقوب هو الله ـ جل وعلا ـ[٥]، تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيراً.

وقالوا عن هارون ﷺ: «ولما رأى الشعب أن موسى أبطأ في النزول من الجبل، اجتمع الشعب إلى هارون، وأخذ هارون من أيديهم الذهب الذي أمرهم به، وصوره بالإزميل، وصنعه عجلاً مسبوكاً، فقالوا: هذه آلهتك يا إسرائيل»[٦] فهارون عندهم هو الذي صنع العجل وليس السامري.

---

(١) أي: حملت.
(٢) «سفر التكوين» فقرة (١٩).
(٣) يعني: أعلاه.
(٤) يعني: الرجل يقول ليعقوب.
(٥) «سفر التكوين» فقرة (٣٣).
(٦) «سفر الخروج» الإصحاح (٣٢)



وقالوا عن داود عليه السلام: «إنّ داود صعد على السطح فرأى امرأة تستحم، وكانت جميلة المنظر، فأرسل وسأل عنها، فقالوا هذه بتشع بنت اليعام امرأة أوريا الحثي، فأرسل داود رسلاً، وأخذها، فدخلت إليه فاضطجع معها»[١].

وقالوا عن سليمان عليه السلام: «وكان في زمان شيخوخة سليمان أن نساءه أملن قلبه وراء آلهة أخرى، فلم يكن قلبه كاملاً مع الرب إلهه كقلب داود أبيه، فذهب سليمان وراء عشتروث آلهة الصيدونيين وملكوم رجس العمونيين، وعمل سليمان الشر في عيني الرب، ولم يتبع الرب تماماً كداود أبيه، وعبد الأصنام من بعد ذلك»[٢].

هذا كلامهم في أنبياء الله صلوات الله وسلامه عليهم، ونكتفي بذكر هذه الروايات، وإلا فالكتاب مليء بأمثال هذه الأمور.



(١) «صموئيل الثاني» الإصحاح (١١).
(٢) «سفر الملوك» الإصحاح (١١).



الحكمة في كون الرسل من البشر

ورسل الله بشر كسائر البشر تماماً، فليسوا من الملائكة، وإنما هم من البشر كما قال الله تبارك وتعالى على لسان نبيه ﷺ: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ﴾ [الكهف: ١١٠]، وقال الله ـ جل وعلا ـ: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾﴾ [الإسراء] وكذا في سورة القمر قال: ﴿فَقَالُوٓاْ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾﴾ [القمر].

وكون الرسل من البشر لا شك أن حكمته ظاهرة جداً؛ حتى يتمكن العباد من الأخذ منهم، والاقتداء بهم، كما قال ﷻ: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾﴾ [الأنعام] أي: لو جعلنا الرسول مَلَكاً لما كان يمكنهم أصلاً أن يحادثوه أو يكلموه، كيف والنبي ﷺ لما رأى جبريل على صورته الحقيقية صرع صلوات الله وسلامه عليه، وكان لجبريل ستمائة جناح[(١)] قد سد في الأفق[(٢)]، فكيف يتحمل الناس رؤية الملائكة، ويجلسون معهم؟! لا يستطيعون أبداً، إذاً ماذا سيكون؟ سيصور الله الملائكة على صورة البشر كما جاء جبريل وسأل النبي ﷺ عن الإسلام والإيمان والإحسان[(٣)]، فإذا جاء المَلَكُ

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢٣٢)، ومسلم (١٧٤) من حديث ابن مسعود ﷺ.
(٢) أخرجه البخاري (٣٢٣٥)، ومسلم (١٧٧) من حديث عائشة ﷺ.
(٣) أخرجه البخاري (٥٠)، ومسلم (٩) من حديث أبي هريرة ﷺ، وأيضاً أخرجه مسلم (٨) من حديث عمر بن الخطاب ﷺ.



على صورة رجل وقال: أنا مَلَكٌ ولكن على صورة رجل، قالوا: لا، ائتنا بالمَلَكِ، والمَلَكُ لا يأتيهم؛ لأنهم لا يتحملون، إذاً كيف يَقْبَلون؟ لا يمكن أبداً، ولذلك قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ۝٩﴾ [الأنعام] يعني: ما استفادوا شيئاً من كونه ملكاً[١].



(١) قال الحافظ ابن كثير رحمه الله: «أي: لو بعثنا إلى البشر رسولاً ملكياً لكان على هيئة رجل؛ لتُفْهَم مخاطبته والانتفاع بالأخذ عنه، ولو كان كذلك لالتبس عليهم الأمر كما يلبسون على أنفسهم في قبول رسالة البشري». «تفسير ابن كثير» (٣/ ٢٤١).



الرسل الذين ذكرهم الله ﷻ في القرآن

الرسل الذين ذكرهم الله تبارك وتعالى في القرآن خمسة وعشرون، كما جمعها الشاعر في قوله:

في تلك حجتنا منهم ثمانية ... من بعد عشر، ويبقى سبعة وهمُ
إدريس، هود، شعيبٌ، صالحٌ وكذا ... ذو الكفل، آدم بالمختار قد خُتموا

هؤلاء هم رسل الله الذين ذكروا في القرآن في قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [الأنعام] فهؤلاء ثمانية عشر رسولاً أو نبياً، ذكرهم الله تبارك وتعالى، وبقي سبعة من الرسل وهم: آدم، وهود، وصالح، وشعيب، وإدريس، وذو الكفل، ومحمد صلى الله عليهم أجمعين.

هؤلاء الرسل أربعة منهم من العرب وهم: شعيب، وهود، وصالح، ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين. والعجيب أن هوداً وصالحاً لا ذكر لهم في التوراة والإنجيل أبداً، وقد قال بعض أهل العلم: لعل هذا من الحسد الذي دفع اليهود إلى حذف اسمي هذين النبيين؛ لأنهما من العرب.





هل هؤلاء هم كل الأنبياء؟

هناك آخرون مختلف فيهم، أو جاءوا في السنة، منهم:

ـ شيث: عن أبي ذر مرفوعاً أنه قال: «**إنه أنزل عليه خمسون صحيفة**» أخرجه ابن حبان بإسناد حسن[1].

ـ يوشع: وهو يوشع بن نون ـ صاحب موسى عليه السلام ـ، وهو نبي جاءت السنة بالنص عليه[2].

وأما الأنبياء المختلف فيهم، فهم:

ـ شمويل: الذي قال الله تبارك وتعالى عنه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٤٦] قالوا: هذا النبي اسمه شمويل، والله أعلم؛ لأن هذا إنما جاء في أخبار بني إسرائيل، وسيأتينا بالتفصيل كيفية التعامل مع أخبار بني إسرائيل.

ـ تُبّع: وقد جاء عن النبي ﷺ أنه قال: «**ما أدري أتُبّع نبياً أم لا وما أدري ذا القرنين نبياً أم لا**»[3]، فنحن نقول كذلك: إذا كان محمد ﷺ

(١) أخرجه ابن حبان (٣٦١).

(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٣٢٥)، والبخاري (٣١٢٤)، ومسلم (١٧٤٧)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وقد وقعت تسميته عند الإمام أحمد، وانظر: «السلسلة الصحيحة» (٢٠٢).

(٣) أخرجه الحاكم (١٠٤)، وصححه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، وفي لفظ: «ما أدري تبع ألعيناً كان أم لا» أخرجه أبو داود (٤٦٧٤)، وقد صوب الشيخ الألباني هذا اللفظ على لفظ الحاكم. «السلسلة الصحيحة» (٢٢١٧).



لا يدري فنحن من باب أولى لا ندري أتبّع كان نبياً أم لا، وكذا بالنسبة لذي القرنين هل كان نبياً أو لا؟

ـ **الخضر**: وهو كذلك مما اختلف فيه أهل العلم، هل هو نبي أو ليس بنبي، من قال إنه نبي استدل بقول الله تبارك وتعالى عنه: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾ [الكهف: ٨٢]، وهذا قول أكثرهم، وهو الظاهر، والله العالم(١).

ـ **دانيال**: وذكروا أنه من الأنبياء الذين وجد الصحابة اسمه مكتوباً في فتوح بعض البلاد.



(١) ذكر الحافظ قوله تعالى حكاية عن الخضر عليه السلام: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى﴾ [الكهف: ٨٢] ورجح نبوته، فقال تعليقاً على الآية: «وهذا ظاهره أنه فعله بأمر من الله، والأصل عدم الواسطة، ويحتمل أن يكون بواسطة نبي آخر لم يذكره، وهو بعيد، ولا سبيل إلى القول بأنه إلهام لأن ذلك لا يكون من غير النبي وحياً حتى يعمل به ما عمل من قتل النفس، وتعريض الأنفس للغرق... وأيضاً فكيف يكون النبي تابعاً لغير نبي؟!»اهـ «الزهر النضر» ص٢٦.



الأنبياء من الذكور فقط

الرسل والأنبياء جميعهم من الذكور فما بعث الله نبية من النساء وإنما جميع الأنبياء من الذكور كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ﴾ [الأنبياء: ٧]، فجميع الأنبياء من الذكور وهذا له حِكَمٌ ظاهرة، منها:

أولاً: أن الرسول يحتاج إلى أن يقابل الناس سراً وجهراً وأن يخرج ويسافر في الدعوة إلى الله تبارك وتعالى، وهذا لا تتمكن منه النساء.

ثانياً: الأصل أنّ القوامة للرجل على المرأة فلو كانت نبية ستكون القوامة لزوجها عليها ولا يمكن أن يكون لأحد قوامة على نبي.

ثالثاً: ثبت عن النبي ﷺ أنه قال عن النساء: «**ناقصات دين**»[1]، وذلك أنه يأتي عليها أيامٌ لا تُصلي، ولا تصوم، وتنقص من عباداتها، وهذا لا يمكن أن يكون في أنبياء الله صلوات الله وسلامه عليهم. فلذلك كان من حكمة الله ـ جل وعلا ـ أن جعل الأنبياء والرسل كلهم من الرجال.



(١) أخرجه البخاري (٢٩٣) من حديث أبي سعيد ﷺ، ومسلم (١١٤) من حديث عبد الله بن عمر ﷺ.



خصائص الأنبياء والمرسلين عليهم السلام

اختص الله تبارك وتعالى أنبياءه ورسله بخصائص تميزهم عن باقي البشر، وهي:

١ ـ **الوحي من الله**: وذلك أن الله يوحي إليهم.

٢ ـ **العصمة**: عصم الله الأنبياء والمرسلين، وسيأتي تفصيل الكلام في عصمة الأنبياء والمرسلين.

٣ ـ **تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم**: قد تنام عين النبي، ولكن قلبه لا ينام أبداً[١].

٤ ـ **يُخيرون عند الموت**: ما يموت نبي حتى يخير كما أخبر النبي ﷺ[٢].

٥ ـ **الأرض لا تأكل أجسادهم**: فلو حفرت قبر أي نبي لوجدت جسده كما لو دُفِنُ اليوم، فقد حَرّم الله على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء[٣].

٦ ـ **يُقبرون حيث يموتون**: ولذلك لما مات النبي ﷺ دفنوه في بيته، وكلُّ نبي يُدفن حيث يموت.

٧ ـ **لا يُورِّثون مالاً**: كما قال أبو بكر عن النبي ﷺ أنه قال: «إنا

---

(١) أخرجه البخاري (١١٤٧)، ومسلم (٧٣٨) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) أخرجه البخاري (٤٤٣٥)، ومسلم (٢٤٤٤).

(٣) أخرجه أبو داود (١٠٤٧، ١٥٣١)، والنسائي (١٣٧٤)، وابن ماجه (١٠٨٥، ١٦٣٦) من حديث أوس بن أوس رضي الله عنه، وهو في «صحيح الجامع» (٢٢١٢).



معاشر الأنبياء لا نورث»[(١)][(٢)].

٨ ـ **الأنبياء يورثون العلم**: قال رسول الله ﷺ: «**إن الأنبياء لا يورثون درهماً، ولا ديناراً، إنما ورثوا العلم**»[(٣)].

٩ ـ **الذكورة**: وقد تقدم.

١٠ ـ **الحرية**: فلم يبعث الله عز وجل الأنبياء عبيداً، بل بعثهم أحراراً غير مملوكين.

١١ ـ **الكمال**: فالأنبياء أكمل البشر خَلْقاً وخُلُقاً.

١٢ ـ **الصلاة عليهم**: فقد خصهم الله بلفظ: «صلى الله عليه وسلم»، ولو صُلِّي على غير الأنبياء جاز، ولكن الأفضل ألا تطلق هذه الكلمة إلا على الأنبياء، وقد قال النبي ﷺ: «**اللهم صلِّ على آل أبي أوفى**»[(٤)] وأنت تقول في صلاتك: «اللهم صل على محمد، وعلى آل محمد» ولكن كلمة «صلى الله عليه وسلم» ذكر أهل العلم أن الأصل ألا تُطلق إلا على الأنبياء.

١٣ ـ **الاصطفاء**: فالأنبياء مصطفون كما قال الله تبارك وتعالى:

---

(١) أخرجه البخاري (٣٠٩٣)، ومسلم (١٧٥٩).

(٢) قال ابن القيم رحمه الله: «وهذا من كمال الأنبياء وعظم نصحهم للأمم، وتمام نعمة الله عليهم وعلى أممهم، أن أزاح جميع العلل، وحسم جميع المواد التي تُوهِمُ بعض النفوس أن الأنبياء من جنس الملوك الذين يريدون الدنيا ومُلْكَها! فحماهم عليهم السلام من ذلك أتم الحماية. ثم لما كان الغالب على الناس أن أحدهم يريد الدنيا لولده من بعده، ويسعى ويتعب ويحرم نفسه لولده، سدّ هذه الذريعة عن أنبيائه ورسله، وقطع هذا الوهم الذي عساه أن يخالط كثيراً من النفوس التي تقول: فلعلَّهُ إنْ لم يطلب الدنيا لنفسه فهو يحصلها لولده!» اهـ. «مفتاح دار السعادة» (١/ ٢٦٢، ٢٦٣).

(٣) أخرجه البخاري في «صحيحه» معلقاً في باب العلم قبل القول والعمل، وأخرجه أبو داود (٣٦٤١)، والترمذي (٢٦٨٢)، وابن ماجه (٢٢٣).

(٤) أخرجه البخارى (١٤٩٧)، ومسلم (١٠٧٨).



﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾﴾ [ص]، وقال: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

١٤ ـ **الدعوة المستجابة**: فلكل نبي دعوة مستجابة(١).

١٥ ـ **الحوض**: فلكل نبي حوض كما أخرج أحمد في «المسند» أن كل نبي له حوض يوم القيامة(٢).

١٦ ـ **أنهم جميعاً أهل قرى**: فما بعث الله نبياً بدوياً، بل جميع الأنبياء من أهل القرى، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِم﴾ [يوسف: ١٠٩].

١٧ ـ **لا يحتلمون**(٣): وذلك أن الاحتلام من الشيطان، والشيطان لا تسلط له على الأنبياء.

١٨ ـ **ورؤيا الأنبياء حق**.



(١) أخرجه البخاري (٦٣٠٤)، ومسلم (١٩٩) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٤٤٣)، وصحح إرساله، وقال الألباني: «وجملة القول: إن الحديث بمجموع طرقه حسن أو صحيح، والله أعلم». «السلسلة الصحيحة» (١٥٨٩).

(٣) ورد عن عائشة وأم سلمة ﵄ أن النبي ﷺ كان يصبح جُنُباً من غير حلم ثم يصوم، أخرجه البخاري (١٩٢٦)، ومسلم (١١٠٩).
قال النووي ﵀: «وفيه دليل لمن يقول بجواز الاحتلام على الأنبياء، وفيه خلاف قدمناه، الأشهر امتناعه، قالوا: لأنه من تلاعب الشيطان، وهم منزهون عنه، ويتأولون هذا الحديث على أن المراد: يصبح جُنُباً من جماع، ولا يجنب من احتلام لامتناعه منه، ويكون قريباً من معنى قول الله تعالى: ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [البقرة: ٦١]، ومعلوم أن قتلهم لا يكون بحق» اهـ.

مظاهر من الغلو في الأنبياء

ولما كان الأنبياء بهذا الكمال والبهاء وقع من البعض غلو في الأنبياء فمن هذا الغلو ما وقع للنصارى من تأليه عيسى، ودعاء اليهود أن عزيراً ابن الله، ولذلك قال النبي ﷺ: «**لا تطروني كما أطْرَت النصارى عيسى ابن مريم، ولكن قولوا عبد الله ورسوله**»[١] صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

ومن الغلو ـ الذي نسأل الله تبارك وتعالى أن يزيله ـ ما نراه في بعض المساجد أو في البيوت، أو مع بعض الناس، أنهم يضعون اسم محمد ﷺ بجانب اسم الله، هكذا: (الله: محمد)، وهذا من الغلو، بل لا بد أن يكون (الله) فوق، و(محمد) تحت، فهذا خالق وذاك مخلوق، نحن نحب محمداً ﷺ، ولكن لا يجوز أبداً أن نجعل منزلته كمنزلة الله تبارك وتعالى، بل هو عبد مربوب مخلوق لله تبارك وتعالى، أو تُجعل بعض الميداليات (الله: محمد) وهذا غلو.

وأما الشهادة فإنه يأتي تبعاً: (لا إله إلا الله محمد رسول الله)، أما أن تكون كلمة (محمد) موافقةً لكلمة (الله) فهذا خطأ، وقد أنكر النبي ﷺ على الذي قال: ومن يعصهما، فقال ﷺ: «**أجعلتني لله نداً، بئس خطيب القوم أنت**»[٢]، مع أن الرجل لا يقصد، لكن الكلمة خطأ.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٤٥) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، والإطراء: مجاوزة الحد في المدح والكذب عليه، قاله أبو السعادات.

(٢) أخرجه مسلم (٨٧٠)، وأبو داود (١٠٩٩، ٤٩٨١)، والنسائي (٣٢٧٩)، بدون زيادة: «**أجعلتني لله نداً**»، وقد وردت في حديث آخر وهو حديث حسن، كما في =



ومن الغلو ما يدعيه البعض مِنْ أنَّ النبي ﷺ ليس له ظل، لماذا؟ قال: حتى لا يطأ أحد على ظل النبي ﷺ، مع أن النبيَّ ﷺ كُسرتْ رباعيته[١]، وشُجَّ وجهُهُ وأُلقي سلا البعير بين كتفيه صلوات الله وسلامه عليه، وأُدميت قدماه في سبيل الله ـ جل وعلا ـ.

وأما ما يقال مِنْ إن الأنبياء يولدون مختونين، فهذا علمه عند الله، لم يثبت من هذا شيء أبداً، لا في محمد ولا غيره، ولكن في كتاب «صحيح البخاري» أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام اختتن وقد بلغ الثمانين من عمره[٢].

ومن الغلو كذلك: قول بعض الناس «الله ورسوله أعلم»، وهذا غلو إلا إذا كان في أمر الشرع، فإذا سُئل في مسألة شرعية: ما حكم كذا؟ فإنه يجوز له أن يقول: «الله ورسوله أعلم»؛ لأن الرسول يعلم جميع أمر الشرع صلوات الله وسلامه عليه، لكن لا يجوز أبداً أن يقال أين فلان؟ فنقول: الله ورسوله أعلم، فالرسول لا يعلم أين فلان، الله وحده هو الذي يعلم ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [النمل] فلا يجوز أن نقول الله ورسوله أعلم إلا في الأمور الشرعية فقط أما غير الأمور الشرعية فنقول الله أعلم فقط[٣].

= «السلسلة الصحيحة» (١٣٩)، وانظر تعليق الشيخ الألباني رحمه الله عليه هناك.

(١) رباعيته: أي سنه التي بين الثنية والناب. «فتح الباري» (٧/ ٤٢٣).

(٢) أخرجه البخاري (٣٣٥٦)، ومسلم (٢٣٧٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) قال الشيخ بكر أبو زيد: «الأصل أن يقال: الله أعلم؛ لأن النبي ﷺ لا يعلم إلا ما يعلمه الله به، وجملة الكلام في هذا الإطلاق في مقامين: الأول: قول ذلك في حياة النبي ﷺ كما في حديث معاذ رضي الله عنه المشهور.. فهذا من أدب الصحابة رضي الله عنهم، وحسن أدبهم في التعلم.

الثاني: قولها بعد وفاة النبي ﷺ، وقد جرى إطلاقها عند بعض أهل العلم. لكن لم يحصل الوقوف على إطلاق الصحابة رضي الله عنهم لها بعد وفاته ﷺ بل الظاهر خلافه.
وللفائدة راجع: «معجم المناهي اللفظية» ص١٢٨.



كذا من الغلو أن يُدعى الأنبياء من دون الله تبارك وتعالى؛ لأن هذا شرك بالله تبارك وتعالى، وهو محرم، وقد قال الله تعالى: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾﴾ [الشعراء]، وقال: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]، وقال مادحاً زكرياً عليه السلام وزوجه: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ [المؤمنون: ٩٠]، وقال: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾ [الجن].



الكفر برسول واحد كفر بهم جميعاً

إن من الأصول المقررة في شريعتنا: أن من كفر برسول واحد؛ فقد كفر بجميع الرسل، ولذلك قال الله تبارك وتعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الشعراء] مع أن نوحاً أولُ رسول أرسله الله، وقال: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ [الشعراء]، وقال: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾﴾ [الشعراء]، وذلك أنَّ من كَذَّب رسولاً فقد كذَّب بجميع الرسل؛ لأنهم وحدة واحدة صلوات الله وسلامه عليهم، لذلك قال الله ـ جل وعلا ـ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا﴾ [النساء]؛ لأنهم فرّقوا بين الرسل، والله تبارك وتعالى يقول عن المؤمنين: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٨٥].





الفرق بين النبي والرسول

الأنبياء يختلفون عن المرسلين، فهناك أنبياء، وهناك رسل، والدليل على هذا حديثُ أبي ذر، وقد مضى في أول الكتاب.

كذا قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾ [الحج: ٥٢]، ففرق بين الرسول والنبي، وكذا قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾﴾ [مريم]، وذكر إسماعيل فقال: ﴿وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾ [مريم: ٥٤]، وذكر إدريس فقال: ﴿كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾ [مريم: ٥٦]، فَفَرَّقَ بين الرسول والنبي.

إذاً ما الفرق بين الرسول والنبي؟

أولاً: الرسول والنبي من حيث المعنى قريبان، فالنبي من النبأ، ولذلك في القراءة الصحيحة: ﴿ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ تقرأ «النبيئين»، ﴿وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾ [مريم: ٥١]، «وكان رسولاً نبيئاً» أي: من النبأ، والرسول هو المرسل، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ [يوسف: ٥٠]، وقال صاحب يوسف الذي كان معه في السجن للملك: ﴿أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ﴾ [يوسف: ٤٥] أي: اجعلوني رسولاً إلى يوسف عليه الصلاة والسلام، فالرسول هو المُرسل.

وقد ذكر أهل العلم ثلاثة أقوال مشهورة:

القول الأول: أن الرسول من أُوحي إليه بشرع، وأُمِرَ بتبليغه، والنبي من أُوحي إليه بشرع ولم يؤمر بتبليغه.



القول الثاني: أن الرسول من بُعثَ بشرع مُسْتَقل، والنبي: من يدعو إلى شرع الرسول الذي قبله، فيكون النبي تابعاً للرسول الذي سبقه.

القول الثالث: أن الرسول هو من بُعث إلى قوم كافرين، والنبي من بعث إلى قوم مسلمين، فيكون مَنْ بُعِثَ إلى بني إسرائيل أنبياء؛ لأنهم كلُّهم تبعٌ لموسى عليه الصلاة والسلام، أو تَبَع لإسرائيل عليه الصلاة والسلام، وهو يعقوب، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢٠﴾ [المائدة]، فالأنبياء هم الذين يبعثون إلى قوم مؤمنين، ولذلك آدم عليه الصلاة والسلام نزل إلى الأرض إلى قوم مؤمنين على الفطرة، وهي الإسلام، فكان أول رسول نوح؛ لأن الناس تركوا الفطرة، قال الله تعالى عن قوم نوح عليه السلام: ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ۝٢٣﴾ [نوح]، فأرسل الله إليهم نوحاً صلوات الله وسلامه عليه، وهذا الثالث لعله أقرب الأقوال[1].



(١) ولزيادة الفائدة في هذا المبحث راجع «السلسلة الصحيحة» (٢٦٦٨).



عصمة الأنبياء

الأنبياء والمرسلون معصومون في ثلاثة أمور باتفاق هي:

١ ـ معصومون من الشرك والكفر بالله تبارك وتعالى، ومن الكبائر.

٢ ـ معصومون في التبليغ فلا يخطئون فيه.

٣ ـ معصومون من خوارم المروءة، وخوارم المروءة هي ما يُسْقِط قدر الإنسان عند الناس، كالاستهزاء بالآخرين، والضحك عليهم، والسخرية، والكذب، وما شابه ذلك، هذا كله من خوارم المروءة، وهو ما يعيبه الناس في عرفهم.

واختلف أهل العلم في الصغائر، هل تقع من الأنبياء أو لا تقع؟ مع اتفاقهم على أنّ هذه الصغائر إن وقعت من الأنبياء فإنهم لا يقرون عليها، بل يأتيهم التحذير من الله تبارك وتعالى مباشرة، وهذا القول هو الصحيح، وهذا قول جماهير أهل السنة؛ بل ذكر الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ أنه لم يختلف فيه السلف رحمهم الله تعالى من الصحابة والتابعين أن الصغائر يمكن أن تقع من الأنبياء، ومن هذا قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ [طه]، ومنه قول الله تبارك وتعالى لنوح: ﴿قَالَ يَـٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَـٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [هود]، وقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَـٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَـٰهَا سُلَيْمَـٰنَ ۚ﴾ [الأنبياء]، وكذلك لما حكم داود عليه الصلاة والسلام بين المرأتين، وسيأتي تفصيله إن شاء الله تعالى في قصة داود عليه الصلاة والسلام، وكيف أن الله تبارك وتعالى صَوَّبَ فِعْلَ



سليمان لما أمر بقطع الولد بالسكين نصفين، ووافق حكمه حكم الله تبارك وتعالى، وكذلك قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا﴾ [الأنبياء: ٨٧] أي: خرج قبل الإذن له، وقال تعالى: ﴿إِذۡ أَبَقَ إِلَى ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ ١٤٠﴾ [الصافات]، وموسى ﴿وَأَلۡقَى ٱلۡأَلۡوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأۡسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيۡهِۚ﴾ [الأعراف: ١٥٠] وكذا قول النبي ﷺ: «**كل ابن آدم خطاء**»(١)، وهؤلاء من أولاد آدم بلا شك صلوات الله وسلامه عليهم، وكذلك قول الله تبارك وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ﴾ [التحريم: ١]، وقول الله تبارك وتعالى: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ١ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ٢﴾ [عبس].

فالصحيح أن الصغائر يمكن أن تقع من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، ولكنهم لا يُقَرّون عليها، بل يستغفرون منها ويتوبون، ويكون حالُهم بعد التوبة أفضل من حالهم قبل الوقوع في هذه الأمور.



(١) أخرجه الترمذي (٢٤٩٩)، وابن ماجه (٤٢٥١) من حديث أنس ﷺ، وحسنه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (٤٥١٥).



تعريف القصة والفرق
بين القصة الأدبية والقرآنية

والقصة في اللغة: هي من قصَّ الأثر؛ أي: تتبعه، وقصُّ الأثر هو المشي على أثر من سبق حتى يصل إليه أو إلى مراده، والقصة القرآنية تختلف عن القصة الأدبية، وذلك أن القصة في القرآن الكريم لا مجال للخيال فيها، بل هي وقائع تاريخية شاهدة على التاريخ، وهي كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ [يوسف: ٣]، فقصص القرآن على الصحيح في تفسير هذه الآية أنه ليس المقصود منها قصة يوسف صلوات الله وسلامه عليه، وإنما المقصود عموم قصص القرآن، فقصة موسى، وقصة إبراهيم، وقصة صالح، وهكذا، سائر الأنبياء تدخل قصصهم تحت قول الله ﷻ: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ [يوسف: ٣].

ونحن نلتزم في قصص الأنبياء ما ثبت في كتاب الله ﷻ وسنة نبيه محمد ﷺ، فهو الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه؛ لأن قصص الأنبياء غيب، والكلام في الغيب لا يكون إلا عن طريق من عرف هذا الغيب، وهو الله تبارك وتعالى، الحي الذي لا يموت، وهو الذي أخبر نبيه محمداً ﷺ بما كان من قصص سلفه من الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم، وهذه ميزة ثابتة لأهل السنة، وهو اعتمادهم على الإسناد الصحيح، فلا يقبلون إلا ما ثبت، ولا يتكلمون إلا بعلم، لا رجماً بالغيب، ولا كلاماً على الله ﷻ دون برهان، وهم



يتمثلون دائماً قول النبي ﷺ: «**إن كذبا عليّ ليس ككذب على أحد، من كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار**»[١].



(١) أخرجه البخاري (١٢٩١)، ومسلم (٤) من حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه.



فوائد دراسة قصص الأنبياء

إن في دراسة قصص الأنبياء فوائد كثيرة، منها:

أولاً: الاستفادة من الدروس والعبر: كما قال ﷻ: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف: ١١٠].

ثانياً: تسلية النبي ﷺ وأتباعه: كما قال ﷻ: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ [هود: ١٢٠].

ثالثاً: معرفة أساليب الدعوة: فالداعية إلى الله ﷻ يستفيد منها كثيراً في معرفة أساليب الدعوة وطرقها، وردود فعل المدعوين عادة؛ لأنها متشابهة في كل زمان ومكان، وإن اختلفت ففي أشياء يسيرة.

رابعاً: يتعلم الإنسان الصبر على الشدائد: والاقتداء بالأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم كما قال ﷻ: ﴿فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠].

خامساً: زيادة الإيمان: فإذا علم الإنسان أنّ الله تبارك وتعالى دائماً يجعل الغلبة والنصر في نهاية الأمر لعباده المرسلين، ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الصافات]، فتطمئن نفس الداعية إلى الله تبارك وتعالى في أن الله تبارك وتعالى مظهر أمره، وناصرٌ رسله والدعاةَ إليه ﷻ.

سادساً: تأكيد لنبوة سيدنا محمد ﷺ: وذلك بإخباره عن أمور غيبية لم يحضرها، ويخبر عنها كأنه حاضرٌ لها صلوات الله وسلامه عليه، كما قال ـ جل وعلا ـ: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾

[آل عمران] وكذا في قوله تبارك وتعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [يوسف]، ومع هذا يخبر النبي ﷺ عن الأمور الغيبية بالتفاصيل الدقيقة صلوات الله وسلامه عليه.

سابعاً: معرفة كمال الشريعة: فيعرف العبد كمال هذه الشريعة التي ختم الله بها الشرائع السابقة في نسخ الأحكام التي وردت في الشرائع السابقة بعضها أو كلها.

ثامناً: بيان أن دعوة الأنبياء واحدة: فيعرف العبد صدق قول النبي ﷺ عن إخوانه الأنبياء أنهم أبناء عَلّات أبوهم واحد وأمهاتهم شتى[1]، وذلك أن جميع الأنبياء دعوتهم واحدة، وهي الدعوة إلى عبادة الله تبارك وتعالى وحده لا شريك له.



(١) أخرجه البخاري (٣٤٤٣)، ومسلم (٢٣٦٥) من حديث أبي هريرة ﷺ ولفظه: «الأنبياء إخوة لعَلَّات أمهاتهم شتى ودينهم واحد».



حكم الإسرائيليات

قد يتطرق الإنسان أثناء قراءته أو سماعه لقصص الأنبياء إلى ذكر الإسرائيليات فما الإسرائيليات؟ وما موقفنا منها؟

الإسرائيليات نسبة إلى إسرائيل، وإسرائيل هو: نبي الله يعقوب صلوات الله وسلامه عليه، فله اسمان يقال له يعقوب، ويقال له إسرائيل، كما أنّ لنبينا محمد ﷺ أسماء، منها: الحاشر، والعاقب، ومحمد، وأحمد، والمقفّي صلوات الله وسلامه عليه، قال تبارك وتعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ﴾ [مريم: ٥٨] وقوله تبارك وتعالى: ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾ [آل عمران: ٩٣]، فإسرائيل هو يعقوب عليه السلام.

فعندما يقولون: «أخبار بني إسرائيل»، أو «أنبياء بني إسرائيل» فيريدون نسل يعقوب عليه السلام، ولذلك يقال عن بني إسرائيل: إنهم أبناء عمومة للعرب؛ لأن يعقوب ابنٌ لإسحاق، وإسحاق أخو إسماعيل أبي العرب المستعربة.





طرق أخبار بني إسرائيل

أخبار بني إسرائيل لها أكثر من طريق:

الطريق الأول: ما جاء من أخبارهم في كتاب الله: كما في قول الله تبارك وتعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا ۖ قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٤٦]، فهؤلاء بنو إسرائيل والله يخبر عنهم، فهذا خبر عن بني إسرائيل ولكنه في كتاب الله تبارك وتعالى، وكذلك جميع قصص الأنبياء الذين بين يعقوب ومحمد ﷺ، كلهم أنبياء بني إسرائيل، وهم كثر كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [المائدة].

الطريق الثاني: ما جاء في السنة: مما أخبر به النبي ﷺ، وهذا كثير جداً كما ذكر ﷺ من قصة جريج العابد، وقصة الثلاثة الذين دخلوا إلى الغار، ونزلت صخرة فأطبقت عليهم فم الغار.

فهذه نقبلها، ونصدق بها، ونؤمن بها كما أخبر الله ـ جل وعلا ـ أو أخبر رسوله ﷺ.

الطريق الثالث: ما وجدناه في كتبهم: كما يوجد في التوراة أو يوجد في الإنجيل، أو يوجد في مزاميرهم ورسائلهم وغيرها، فهذه تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: مقبول.



القسم الثاني: مرفوض.

القسم الثالث: يُروى ولا يصدق ولا يكذب.

فأما المقبول: فهو الذي يوافق ما في كتاب الله وما في سنة نبينا محمد ﷺ، فهذا مقبول، مثلاً قصة يوسف في التوراة، وقصة موسى وإبراهيم، ولا شك أنه يغنينا عنه ما في الكتاب والسنة.

وأما المرفوض: فهو ما خالف الكتاب والسنة، أو كان فيه طعن في الله ﷻ، أو في أنبيائه ﵈، كما جاء في التوراة مثلاً أن الله تبارك وتعالى خلق السماوات والأرض في ستة أيام ثم استراح في اليوم السابع، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً، فهذا لا شك أننا نكذبه، وكذا ما ذكرناه من طعنهم في أنبياء الله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، فهذا كذلك مما نرده ونكذبه.

وأما القسم الثالث: فهو الذي لا يوجد في كتاب الله ولا في سنة رسوله محمد ﷺ، وليس فيه أي طعن في أنبياء الله أو في رب العزة تبارك وتعالى، فهذا تجوز روايته كما قال ﷺ: «**بلغوا عني ولو آية، وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج ومن كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار**»[1]، وقال صلوات الله وسلامه عليه: «**لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم، وقولوا آمنا بالله وما أنزل علينا**»[2].

فالمسلم موقفه من هذه الإسرائيليات التي لا تخالف ولا توافق؛ أنه لا يُكَذِّب؛ لأنه قد يُكذِّب حقاً، ولا يُصَدِّق؛ لأنه قد يُصَدِّق باطلاً، فماذا يفعل؟

يجوز له أن يَروي، كما قال ﷺ: «**حَدِّثوا عن بني إسرائيل ولا**

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٦١) من حديث عبد الله بن عمرو ﵄.

(٢) أخرجه البخاري (٤٤٨٥) من حديث أبي هريرة ﵁.



حرج»، خاصةً القصص التي تكون فيها بعض العبر والفوائد من قصص بني إسرائيل كبعض الحكم التي تنقل عن عيسى ﷺ أنه قال عن الدنيا مثلاً: «اعبروها ولا تعمروها»، فهذه كلمة طيبة وحكمة، فيحتمل أن عيسى ﷺ قالها، ويحتمل أنه لم يقلها، فالله أعلم بهذا، لذلك لا بأس أن نرويها، ولكن لا نُصَدِّق ولا نُكَذِّب، فنقول: يُروى عن عيسى ﷺ أنه قال كذا، و«يُروى» هذه كلمة فيها تمريض، يعني: يحتمل أنه ثبت ويحتمل أنه لم يثبت، وقصص بني إسرائيل كثيرة جداً تلك التي فيها شيء من المواعظ والفوائد التي يستفيدها المرء في دينه ولكن لا يحتاجها، وإنما يستفيد منها، كمثل القصة التي ذكرت أن ثلاثة نالوا مالاً، ثم خرج أحدهم، ليأتي بالطعام وجلس اثنان، فاتفقا على قتل صاحبهما، ليقسم المال بينهما بدل أن يقسم على ثلاثة، واتفقا على أنه إذا جاء قتلاه، فذهب وأتى بالطعام، فلما رجع، جاءاه في غفلة فقتلاه، ثم أكلا الطعام فماتا؛ لأنه كان قد خطط كما خططا وقال في نفسه لماذا يقسم المال على ثلاثة؟ لم لا آخذه وحدي ودس فيه السم، فهذه عبرة وفائدة تبين أن الطمع كيف يؤدي بالإنسان، ولكن لا يحتاجها المسلم في دينه في حلال أو حرام، وإنما تُذكر للعبرة والاستفادة.

هذه الأخبار عن بني إسرائيل التي قد نذكرها وقد ذكرها أهل العلم وتسالموا على نقلها كمثل نقلهم عن أهل الكهف، ما أسماؤهم؟ ما لون كلبهم؟ عصى موسى، من أي الشجر كانت؟ وكذا الطيور التي ذبحها نبي الله إبراهيم ﷺ من أي الطيور كانت، إخوة يوسف ما أسماؤهم؟ما الجب الذي ألقوا يوسف فيه؟ ما اسم امرأة العزيز؟ وغير ذلك كثير من أخبار بني إسرائيل التي لا مانع من الاستئناس بها وذكرها ولكن الإنسان لا يعتمد عليها.

يقول الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «لسنا نذكر من الإسرائيليات إلا ما



أذن الشارع في نقله مما لا يخالف كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وهو القسم الذي لا يُصَدَّق ولا يُكَذَّب مما فيه بسط لمختصر عندنا أو تسمية لمبهم ورد به شرعنا مما لا فائدة في تعيينه لنا، فنذكره على سبيل التحلي لا على سبيل الاحتياج إليه والاعتماد عليه، وإنما الاعتماد والاستناد على كتاب الله وسنة رسوله ما صح نقله أو حسن. . ، فقد قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٩﴾﴾ [طه]، فما شَهِدَ له شرعنا بالصدق؛ فلا حاجة بنا إليه استغناءً بما عندنا، وما شهد له شرعنا بالبطلان فذاك مردود لا يجوز حكايته إلا على سبيل الإنكار والإبطال، فإذا كان الله ـ سبحانه وله الحمد ـ قد أغنانا برسولنا محمد ﷺ عن سائر الشرائع، وبكتابه عن سائر الكتب، فلسنا نترامى على ما بأيديهم مما وقع فيه خبط وخوض، وكذب ووضع، وتحريف وتبديل، وبعد ذلك كله نسخ وتغيير»[١].

إذاً هذا هو موقفنا من روايات بني إسرائيل، فما فائدتها إذاً؟

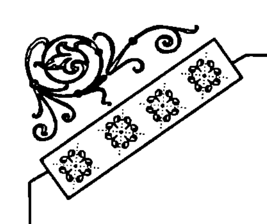
فائدتها: أن يعرف العبد أو يتعرف على كيفية فعل الله تبارك وتعالى بأوليائه وكيف فعل ﷻ بأعدائه، والنبي ﷺ بين لنا كل شيء كما في حديث أبي زيد الأنصاري رضي الله عنه قال: «صلى بنا رسول الله ﷺ يوماً الصبح، ثم صعد المنبر، فخطبنا حتى حضرت الظهر، ثم نزل فصلى بنا الظهر، ثم خطبنا حتى صلى بنا العصر، ثم خطبنا حتى غابت الشمس، فنزل وصلى بنا المغرب، فحدثنا بما كان، وما هو كائن، فأعْلَمُنا أحْفَظُنا»[٢].



(١) «البداية والنهاية» (١/ ٥).

(٢) أخرجه مسلم (٢٨٩٢).






قصة أبي البشر آدم عليه السلام

أول ما يبدأ الإنسان عند قراءته لقصص الأنبياء، بقصة أبي الأنبياء صلوات الله وسلامه عليه، وهو آدم ولا يقال ابن مَنْ؟ لأن آدم كما هو معلوم ليس له أب، بل هو أبو البشر صلوات الله وسلامه عليه.

صفة خَلْقه:

خلق الله تبارك وتعالى نبيه آدم من تراب كما قال ـ جل وعلا ـ: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾﴾ [آل عمران]، ثم خُلط التراب بالماء فصار طيناً كما قال ﷻ: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾﴾ [السجدة]، ثم ترك هذا الطين حتى صار حمأً مسنوناً أي: له رائحة منتنة، وهو أملس في نفس الوقت قال ﷻ: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾﴾ [الحجر]، ثم تُرك حتى جفَّ، فصار كالفخار، وهو مصداق قول الله تبارك وتعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾﴾ [الرحمٰن]، فهذا الذي ذكره الله تبارك وتعالى، ذكر أن الإنسان خلق من صلصال كالفخار، خُلق من طين لازب، خُلق من تراب، كل واحد في وقت غير وقت الآخر، ثم بعد ذلك كان نسل آدم صلوات الله وسلامه عليه من منيّ كما قال ﷻ: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾﴾ [السجدة]، فآدم خُلِقَ من تراب، وذريته بعد ذلك خُلِقَتْ من ماء مهين، من نطفة من مني يمنى.

عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «**خُلِقَتِ الملائكة من نور، وخُلِقَتِ الجان من مارج من نار، وخُلِقَ آدم مما وصف لكم**»[(١)].

روى أبو هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «**خُلِقَ آدم وطوله ستون ذراعاً.. فلم يزل الخلق ينقص بعد حتى الآن**»[(٢)].

ثم خلق الله تبارك وتعالى من آدم زوجه[(٣)] حواء كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [النساء: ١]، فزَوجُ آدم خُلِقَ من آدم صلوات الله وسلامه عليه، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**استوصوا بالنساء خيراً؛ فإن المرأة خُلِقَتْ من ضلع، وإن أعوج ما في الضلع أعلاه، فإن ذهبت تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج**»[(٤)].

وخَلَق الله تبارك وتعالى حواء لآدم؛ ليأنس بها، ويسكن إليها، ويكون بعد ذلك النسل منهما، فخَلْقُ الله تبارك وتعالى على أربعة أصناف:

- **الصنف الأول**: من غير ذكر ولا أنثى، وهو آدم صلوات الله وسلامه عليه.
- **الصنف الثاني**: من ذكر دون أنثى، وهي حواء.
- **الصنف الثالث**: من أنثى دون ذكر، وهو عيسى صلوات الله وسلامه عليه.
- **الصنف الرابع**: من ذكر وأنثى، وهو سائر الخلق من البشر، خُلقوا من ذكر وأنثى.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٩٩٦).
(٢) أخرجه البخاري (٣٣٢٦)، ومسلم (٢٨٤١).
(٣) يقال: زوج وزوجة، وزوج أصح باللغة العربية، وزوجة صحيحة.
(٤) أخرجه البخاري (٣٣٣١)، ومسلم (١٤٦٨).



الأمر بالسجود لآدم عليه السلام:

خلق الله تبارك وتعالى آدم صلوات الله وسلامه عليه، وبعد ذلك أمر الملائكة أن يسجدوا له، فقال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [البقرة]، وهذا السجود قد يُشكل على بعض الناس كيف يأمرهم الله تبارك وتعالى أن يسجدوا لآدم والسجود لغير الله شرك؟

فالجواب: السجود على الصحيح ينقسم إلى قسمين:

القسم الأول: سجود عبادة.

القسم الثاني: سجود تحية.

فسجود العبادة لا يجوز إلا لله تبارك وتعالى، وهذا لم يأمر الله تبارك وتعالى الملائكة به أبداً.

وأما سجود التحية: فهذا السجود كان مشروعاً في الأمم السابقة ثم نُسخ وحُرِّم في شريعة محمد ﷺ، وهذا ليس فيه عبادة، وإنما فيه تحية.

ومنه أمر الله الملائكة أن يسجدوا لآدم سجود تحية لا سجود عبادة.

وكذلك قول يوسف صلوات الله وسلامه عليه لأبيه يعقوب: ﴿إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤] ثم كان مصداق هذه الرؤية: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا﴾ [يوسف: ١٠٠] أي: سجود تحية، وكان مشروعاً في شريعتهم.

ومنه لما قدم معاذ رضي الله عنه من الشام سجد للنبي ﷺ، فقال له النبي ﷺ: «**ما هذا يا معاذ؟**» قال أتيت الشام فوافقتهم يسجدون لأساقفتهم وبطارقتهم، فوددت في نفسي أن نفعل ذلك بك، فقال ﷺ: «**فلا تفعلوا فإني لو كنت آمراً أحداً أن يسجد لغير الله لأمرت المرأة أن**



تسجد لزوجها»[(١)]، فرؤية معاذ لأولئك القوم كان على ما هم عليه من العهد السابق، أنهم يسجدون لكبرائهم من باب التحية، لا من باب العبادة، فنهى النبي ﷺ عن ذلك.

ومنه الحديث الآخر لما سجدت الدابة للنبي ﷺ، فأخبر صلوات الله وسلامه عليه أن السجود لا يجوز إلا لله.

لكنه نُسخ، ففي شريعة محمد ﷺ لا يجوز السجود، لا سجود العبادة، ولا سجود التحية، بل صار السجود علامة على العبادة، فلا يجوز السجود إلا لله تبارك وتعالى.

امتناع إبليس عن السجود لآدم عليه السلام:

لما أمر الله الملائكة أن يسجدوا لآدم صلوات الله وسلامه عليه؛ كان إبليس مع الملائكة، فلم يسجد، امتنع أولاً ثم باح بالسبب، فقال: ﴿أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ﴾ [الأعراف: ١٢]، وقال: ﴿ءَأَسۡجُدُ لِمَنۡ خَلَقۡتَ طِينٗا﴾ [الإسراء: ٦١]، فهو يعترض على حكمة الباري جل جلاله، وهذا الكلام مرفوض ـ ولا شك ـ؛ لأن الله تبارك وتعالى أَمَرَ، وَأَمْرُ الله واجب التنفيذ، ولكن هل كان إبليس من الملائكة لما أُمِرَ بالسجود؟ أو كان مع الملائكة؟

الصحيح: أن إبليس كان مع الملائكة، ولم يكن من الملائكة، كما في قول الله تبارك وتعالى: ﴿فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓۗ﴾ [الكهف: ٥٠]، فإبليس من الجن، والجن خُلقوا من نار، وإبليس قال: ﴿خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ﴾ [ص: ٧٦]، والنبي أخبر أن الملائكة خُلِقُوا من نور[(٢)]، فإبليس إذاً ليس من الملائكة، وإنما كان مع الملائكة، فأمره بالسجود بالتبعية؛ لأنه كان معهم، وذلك أنه قيل: كان من عُبّاد الجن،

(١) أخرجه ابن ماجه «سننه» (١٨٤٣). (٢) أخرجه مسلم (٢٩٩٦).



فأُكرم بأن جُعل مع الملائكة، لكنه لم يكن منهم، ولذلك خانه طبعه اللئيم لما أمره الله بالسجود، فتكَبّر وقال: ﴿ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ [الإسراء: ٦١].

ولذلك ذكر أهل العلم أن سبب هلاك الناس بشكل عام هو الحسد والكبر والحرص:

أما الحسد: فإن إبليس حسد آدم. **وأما الكبر**: فإنه تكبّر على أمر الله تبارك وتعالى. **وأما الحرص**: فهو ما وقع لآدم صلوات الله وسلامه عليه وحواء عندما أكلا من الشجرة، فهذه الأمور الثلاثة، الحسد والكبر والحرص، كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: هي سبب وقوع الناس في معصية الله تبارك وتعالى.

فلما امتنع إبليس عن السجود كان الرد من العزيز ﷻ: ﴿فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٣]، فكان الجزاء من جنس العمل، فلما كان عمل إبليس تكبراً جاء الصغار عقوبةً من الله تبارك وتعالى لهذا الشيطان المريد: ﴿قَالَ أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الأعراف]، فجاء الرد من الله تبارك وتعالى: ﴿فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ [الحجر]، وكل هذا لحكمة أرادها الله ﷻ، وهي الابتلاء والامتحان حتى يميز الخبيث من الطيب[1]، وعندها أعلن إبليس عداوته، وصاح بما كان يكتم ابتداءً فقال: ﴿فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [الأعراف]، فكان الرد من الله ﷻ: ﴿اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ

---

(١) انظر أيضاً الكلام على الحكمة من تسليط إبليس على آدم عليه السلام وذريته في: بداية «مفتاح دار السعادة» لابن القيم رحمه الله.



وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾﴾ [الإسراء]، وقال له: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾﴾ [الإسراء].

استخلاف آدم في الأرض:

ثم تأتينا الحادثة الثانية لآدم صلوات الله وسلامه عليه، وهي في قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]، يخطئ بعض الناس فيقولون: «خليفة عن الله» أو يقولون: «خليفة الله في الأرض»، وهذا خطأ، بل ﴿خَلِيفَةً﴾ أي يخلف بعضهم بعضاً، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ١٦٥] وقال: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾ [الأعراف: ١٦٩]، فالناس يَخْلُفُ بعضهم بعضاً، لا يخلفون الله تبارك وتعالى بل الله هو الخليفة، ولذلك إذا سافرنا نقول عن الله تبارك وتعالى: «**وأنت الخليفة في الأهل**»(١)، فالله خليفة عن كل أحد، ولا يكون أحد خليفة عن الله تبارك وتعالى؛ لأنه يلزم منه أن الخليفة محتاج إلى من استخلفه، والله الغني سبحانه وتعالى لا يحتاج إلى أحد أبداً، فالخليفة من الله، وليس الخليفة عن الله تبارك وتعالى.

فلما قال الله هذا للملائكة؛ قالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: ٣٠] هذا سؤال من الملائكة، وهو كما قال أهل العلم: سؤال استعلام لا سؤال اعتراض، بدليل أنهم لما أمرهم الله بالسجود سجدوا أجمعون، فهم لا يعترضون، ولذلك قال الله تبارك وتعالى في وصفهم: ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦] ووصفهم بأنهم عباد مكرمون، فقال: ﴿بَلْ

---

(١) أخرجه مسلم (١٣٤٢) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.



عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦]، وغير ذلك من وصفٍ كريم وصفَ الله به الملائكة، فسؤالهم إذاً سؤال استعلام: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: ٣٠].

وهنا يسأل كثير من الناس: كيف عرف الملائكة أن بني آدم سيفسدون في الأرض؟ وقد ذكر أهل العلم لهذا السؤال أربعة أجوبة:

الجواب الأول: أنه إلهام؛ أي: أوقع الله في قلوب الملائكة أن هذا سيحدث، فقالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ [البقرة: ٣٠].

الجواب الثاني: أنه إخبار، ولكن لم يُذكر في القرآن؛ أي: أن الله أخبرهم، قال: إني جاعل في الأرض خليفة وهذا الخليفة سيفسد في الأرض، فتعجبوا وقالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ [البقرة: ٣٠].

الجواب الثالث: أنه توقع، فتكون الملائكة قالت هذا عن توقع؛ لأن الله خلق الملائكة وعصمهم، فهم ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦]، فلما علموا أن هذا المخلوق غير معصوم توقعوا أن يحدث منه هذا الأمر، إذاً قالوه عن توقع لما عرفوه من طبيعة هذا الإنسان.

الجواب الرابع: أنه من باب القياس، وذلك أن الجن مخلوقون قبل الإنس، فإبليس أبو الجن، وأُمِرَ بالسجود لآدم بعد أن خُلِقَ آدم، فأبى أن يسجد، والجن كانوا في الأرض وكانوا يفسدون في الأرض، فقاس الملائكة الإنس على الجن، فقالوا: إذا كان الجن الذين في الأرض يفسدون؛ فهذا الذي سينزل الأرض إذاً سيفسد كما أفسد الذين من قبله، فقالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: ٣٠]، فجاء الجواب من الله: ﴿إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا



نَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠] أي: من المصالح والمحاسن والحِكَمِ التي من أجلها خلق الله تبارك وتعالى الإنسان.

بيان تفضيل الله لآدم عليه السلام:

فَضَّل الله آدم عليه السلام، فقال تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٣١] كما ذكر ابن عباس رضي الله عنهما، فعلّمه أسماء كل شيء، كل ما ترون: جبل، شجر، حجر، أسد، نمر، وهكذا علمه أسماء كل شيء تعالى، فلما علمه أسماء كل شيء أمر الملائكة أن ينبئوه بهذه الأسماء، ﴿أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ [البقرة: ٣١] أي: هؤلاء الأشياء ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ۝ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ﴾ [البقرة]، وهذا من أدب الملائكة مع رب العزة تبارك وتعالى، وهكذا يجب على كل مسلم إذا كان لا يعلم أن يقول لا أعلم، ولا يتجرأ ولا يتكلم بدون علم، قالوا: ﴿لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ﴾، ولذلك قال الله تبارك وتعالى: ﴿يَوۡمَ يَجۡمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبۡتُمۡۖ قَالُواْ لَا عِلۡمَ لَنَآۖ﴾ [المائدة: ١٠٩]، فالإنسان دائماً إذا كان لا يعلم يقول: (لا أعلم)، ويرتاح.

وفي هذا بيان فضل العلم، إذْ ميَّز الله آدم صلوات الله وسلامه عليه بالعلم ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمۡ عَلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ﴾ [البقرة: ٣١]، ثم قال لآدم: ﴿أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ﴾ [البقرة: ٣٣] أي: أسماء هذه الأشياء لما أنبأهم بأسمائهم، قال الله تبارك وتعالى: ﴿أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ﴾ [البقرة: ٣٣].

فما الذي أبدوه وما الذي كتموه؟ قال العلماء: أبدوا ما أظهروه من الكلام: ﴿أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ [البقرة: ٣٠] وكتموا يعني: إبليس الذي كتم الحسد والحقد على آدم صلوات الله وسلامه عليه. فأعلم ما تبدون؛ أيها الملائكة الطيبون، وأعلم ما تكتم أيها الشيطان المريد، فقال الله تبارك وتعالى: ﴿وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ﴾.

وهنا يظهر فضل آدم صلوات الله وسلامه عليه، وبيان ذلك:

أولاً: من العلم الذي أعطاه إياه.

ثانياً: لو أنّ الله تبارك وتعالى قال لآدم أنبئهم بأسمائهم، فلما أنبأهم بأسمائهم قال: أرأيتم عِلْمَ آدم؟ لقالوا: نحن نعرف هذه الأسماء، وليس لآدم فضل.

وكذلك في قصة يوسف عليه الصلاة والسلام لما قال الملك لمن عنده: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُءْيَٰيَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ ۖ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ﴾ [يوسف] فجاء فضل يوسف لما عجزوا، فلو أظهر الله فضلَ يوسف في البداية لقال أولئك العلماء: نعم هذا التأويل صحيح، ونحن نعرفه قبل أن يعرفه يوسف، ولكن أظهر عجزهم؛ ليُظْهِرَ فضلَ يوسف.

وكذلك هنا أظهر عجز الملائكة عندما قالوا: ﴿سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ﴾ [البقرة: ٣٢]، فظهر فضل آدم صلوات الله وسلامه عليه لما قال: ﴿أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ﴾ [البقرة: ٣٣].

قصة إسكان آدم الجنة وخروجه منها:

بعد أن أعلن إبليس عداوته وحقده وإرادته غواية آدم صلوات الله وسلامه عليه؛ قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا﴾ [الأعراف].

فكيف وسوس؟

العلم عند الله، هل دخل في بطن حية أو أذن الله له أن يدخل أو وسوس لهما دون أن يدخل؟ علمه عند ربي تبارك وتعالى، ولا نخوض فيما لا نعلم.



المهم أنه وسوس كما أخبر الله تبارك وتعالى: ﴿لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا﴾ [الأعراف: ٢٠]، وقال: ﴿مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠] كذب عليهما، ثم قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢١﴾﴾ [الأعراف] كيف استجاب آدم وحواء لقول إبليس؟ مع أن الله حذّره وحذّر حواء فقال: ﴿إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ﴾ [طه: ١١٧]، كيف أطاعه آدم؟ قال أهل العلم: ما كان آدم يظن أن أحداً يجرؤ على أن يُقسم بالله كذباً، ﴿وَقَاسَمَهُمَا﴾ أي: أقسم ﴿وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢١﴾﴾ [الأعراف]، فما ظن آدم أبداً أن أحداً يجرؤ على أن يقسم بالله كذباً، فأطاعه لهذا السبب، ولذلك قال الله تبارك وتعالى بعد: ﴿وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ﴾ [طه: ١٢١] أي: في طاعته للشيطان ﴿فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٢٢]، وهذا فيه أن الإنسان بطبعه يستر عورته، فما يحب أن تظهر، ولذلك بادر آدم وحواء إلى ستر العورة ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٢٢] أي: يستران عورتيهما بهذه الأوراق ﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا﴾ أي: في فعلنا هذا ﴿وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ توبةٌ، وندمٌ، وأوبةٌ، قال الله تبارك وتعالى: ﴿قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [الأعراف]، ويقول الله تبارك وتعالى في الآية الأخرى: ﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾﴾ [البقرة]، والكلمات هي قوله: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣].

الشجرة التي أكل منها آدم عليه السلام:

قال الإمام ابن جرير الطبري إمام المفسرين وإمام المؤرخين: «ولم يضع الله ـ جل ثناؤه ـ لعباده المخاطَبين بالقرآن دلالةً على أيّ أشجار الجنة كان نهيُه آدمَ أن يقربها، بنصٍّ عليها باسمها، ولا بدلالة عليها. ولو كان لله في العلم بأيّ ذلك من أيٍّ رضاً، لم يُخل عبادَه من نَصْب دلالة لهم عليها يَصلون بها إلى معرفة عينها، ليطيعوه بعلمهم بها، كما فعل ذلك في كل ما بالعلم به له رضاً»[1].

قلت: إن الله جل ثناؤه نهى آدم وزوجته عن أكل شجرة بعينها من أشجار الجنة دون سائر أشجارها، فأكلا منها، ولا علم عندنا بأي شجرة كانت على التعيين؛ لأن الله لم يضع لعباده دليلاً على ذلك في القرآن ولا النبي في السنة الصحيحة، إذاً أي شجرة أكل منها آدم؟ الله أعلم.

فأما اليهود ـ قبحهم الله ـ فقد تجرؤوا وتكلموا بدون علم، فقالوا: إن الشجرة التي أكل منها آدم هي شجرة المعرفة؟ ولذلك قامت الحرب الشعواء من الكنيسة على العلم، ومنها خرجت العلمانية، فالكنيسة كانت تحارب العلم؛ لأن الجريمة التي أخرج لأجلها آدم من الجنة هي طلب العلم؛ لأنه أكل من شجرة المعرفة، فطلب العلم كان عندهم جريمة، وبالتالي قامت الثورة على الكنيسة؛ لأن الدين عندهم يحارب العلم، وما علموا أن ديننا أول ما نزل منه قول الله تبارك وتعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ①﴾ [العلق].

الجنة التي خرج منها آدم عليه السلام:

خُلِقَ آدم صلوات الله وسلامه عليه يوم الجمعة كما قال النبي ﷺ: «وفيه» ـ أي: في يوم الجمعة ـ «**أُدْخِلَ الجنة، وفيه أُخْرِجَ منها**»[2].

---

(١) «تفسير الطبري» (١/ ٥٢٠).

(٢) أخرجه مسلم (٨٥٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.



والجنة التي أُخرِج منها آدم قيل: إنها جنة المأوى؛ أي: الجنة التي تكون في الآخرة. وقيل: إنها جنة في الأرض، والله أعلم، ولكن جماهير أهل العلم على أنها الجنة التي سيدخلها المؤمنون يوم القيامة، بدليل أن الناس عندما يأتون آدم في حديث الشفاعة المشهور، ويقولون له: «**يا آدم أنت أبو البشر، خلقك الله بيده وأسجد لك ملائكته، اشفع لنا عند ربك، فيقول: وهل أخرجكم من الجنة غيري**»(١)، فالظاهر ـ والعلم عند الله ـ أن الجنة التي أخرج منها آدم هي الجنة التي سندخلها جميعاً إن شاء الله تبارك وتعالى، آمين.

خصائص اختص الله بها آدم عليه السلام:

واختص الله آدم عليه السلام بأربع خصائص، وهي:

أولاً: خلقه بيده الكريمة، ولا يصح قول من يقول: (خلقه بقدرته)؛ لأن الله عاب على إبليس، وقال: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥] فثناهما، ولو كان المقصود القدرة والقوة لكان إبليس يرد على الله، ويقول: وأنا أيضاً خلقتني بيدك؛ لأنك خلقتني بقوتك وقدرتك، ولكن إبليس أعلم من الذين أنكروا أن يكون الله خلق آدم بيديه، وهما يدان حقيقيتان تليقان بالله، ليست كأيدينا أبداً، لقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١].

ثانياً: نفخ الله تعالى فيه من روحه.

ثالثاً: أسجد له ملائكته.

رابعاً: أعلمه الله أسماء الأشياء كلها.

وقد ذَكَر الله تبارك وتعالى آدم عليه السلام في القرآن الكريم ست عشرة مرة.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٤٠)، ومسلم (١٩٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.



الدروس والعبر المستفادة من قصة آدم عليه السلام

وفي ختام هذه القصة نذكر العبر والدروس التي نخرج بها من قصة آدم صلوات الله وسلامه عليه:

أولاً: ظهر من خلال هذه القصة مدى الضعف البشري، وذلك لما حرص آدم صلوات الله وسلامه عليه على الأكل من الشجرة، وكيف كان ذلك سبباً في خروجه من الجنة.

ثانياً: بيان مدى رحمة الله تبارك وتعالى لما تاب على آدم عندما تاب إلى الله.

ثالثاً: إنّ الإنسان إذا زلَّت قدمه؛ فإن ملجأه إلى الله تبارك وتعالى، كما كان الحال منه عليه السلام: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣].

رابعاً: فضيلة العلم، فما عرف الملائكة فضل آدم إلا بالعلم الذي فضله الله به.

خامساً: بيان فضل الملائكة وأدبهم الجمّ مع الله تبارك وتعالى لما قالوا: ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ﴾ [البقرة: ٣٢].

سادساً: بيان خطورة الحسد والكبر، حيث أخرج هذا الحسد والكبر إبليس بعد أن كان مع الملائكة إلى أن صار في الأرض، ثم بعد ذلك إلى جهنم وساءت مصيراً.

سابعاً: إنّ العبد إذا وقع منه الذنب؛ فعليه أن يبادر بالتوبة إلى الله تبارك وتعالى اقتداءً بأبيه آدم عليه السلام.

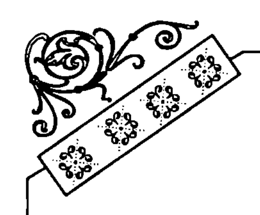
ثامناً: إثبات اليدين لله تبارك وتعالى لما قال: ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥].



تاسعاً: الحذر من الشيطان الرجيم؛ لأنه أقسم بالله، فقال: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [ص]، فخواص ذرية آدم من الأنبياء وأتباعهم حماهم الله تبارك وتعالى من الشيطان، وأقام عليهم سوراً منيعاً، وزاد على ذلك بأن أعطاهم الله السلاح الذي يستطيعون أن يقاوموا به ذلك العدو، وهذا السلاح متمثل في إنزال الكتب، وإرسال الرسل، وفي بيان محابِّهِ ومساخطه، حتى يفعل الإنسان محابَّ الله، ويتجنب مساخطَه، وأن يعلم علم اليقين أن كيد الشيطان ضعيف.

عاشراً: خطورة الحرص وكيف أنه أخرج أبانا وأمنا من الجنة، فكل شجر الجنة كانا مباحاً إلا شجرة واحدة فحرصا عليها فأُخْرِجا.






قصة نوح عليه السلام

تكلمنا عن نبي الله آدم صلوات الله وسلامه عليه، وسنتكلم أيضاً عن آدم، ولكن عن آدم الثاني، أو آدم الأصغر، وهو نبي الله نوح صلوات الله وسلامه عليه، وقيل له: «آدم الثاني»، أو «آدم الأصغر»، لقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الصافات]، فكل من على وجه الأرض هم من ذرية نوح عليه الصلاة والسلام مصداقاً لطلب نوح من ربه تبارك وتعالى: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾﴾ [نوح]، وذكر كثير من أهل العلم أن الذين نجوا مع نوح من المؤمنين لم يكن لهم نسلٌ.

ونوح عليه السلام من أولي العزم من الرسل، بل هو أول رسول أُرسل إلى أهل الأرض، وذلك أن آدم صلوات الله وسلامه عليه نبيٌّ، وليس برسول، وأول رسول هو نوح صلوات الله وسلامه عليه، وذلك أن الناس عندما يأتون آدم يوم القيامة يريدون منه أن يشفع لهم عند ربه تبارك وتعالى بأن يعجل الحكم فيهم، فيعتذر آدم صلوات الله وسلامه عليه، ويقول: **«وهل أخرجكم من الجنة غيري اذهبوا إلى نوح أول رسول أرسل إلى الأرض»**[١]، فنوح صلوات الله وسلامه عليه هو أول رسول أُرسل إلى الأرض. وقد جاء أن رجلاً سأل النبي ﷺ: كم كان بين آدم ونوح؟ فقال: **«عشرة قرون»**[٢].

---

(١) تقدم تخريجه ص٥٥.

(٢) أخرجه ابن حبان (٦١٩٠)، والطبراني في «الكبير» (٧٥٤٥)، وفي «الأوسط» (٤٠٣) =



وجاء عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام(١).

والقرن كما ذكر أهل العلم إما أن يكون مئة سنة، أو أن المقصود من القرن هو الجيل من الناس، فكل جيل قرن، فيكون قريباً من أربعين سنة.

ونوح صلوات الله وسلامه عليه ذُكر في القرآن الكريم ثلاثاً وأربعين مرة.

إن الناس بعد آدم مكثوا قروناً طويلة، وهم أمة واحدة على التوحيد، على الفطرة ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠]، حتى جاءتهم الشياطين، فأدخلت عليهم الشرور المتنوعة، وذلك أن قوم نوح صلوات الله وسلامه عليه مات منهم أناس صالحون، فجاءهم الشيطان، وأمرهم أن يصوروا لأولئك الصالحين صوراً، حتى إذا رأوهم تذكروهم، وتذكروا عبادتهم، فكان ذلك سبباً في نشاطهم في العبادة، واستمروا على ذلك زمناً حتى مات أولئك القوم، فجاء مَنْ بعدهم، ثم مَنْ بعدهم، فجاءهم الشيطان، وقال لهم: إن هذه الصور بها كانوا يستشفعون، وبها ينزل عليهم المطر، وكانوا يدعونها، فادعوها، فدعوها من دون الله تبارك وتعالى، وهو مصداق قول الله تبارك وتعالى عنهم: ﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾﴾ [نوح]، فعبدوا هذه الصور من دون الله تبارك وتعالى، وهذا هو المشهور عن ابن عباس رضي الله تبارك وتعالى عنهما، وهو الذي صرح به كثير من أهل العلم: كالإمام القرطبي، وابن القيم، وابن كثير، وغيرهم من

= من حديث أبي أمامة رضي الله عنه، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢٦٦٨، ٣٢٨٩): «وبين نوح وإبراهيم عشرة قرون».

(١) أخرجه الحاكم (٣٦٥٤)، وصححه على شرط البخاري، ووافقه الذهبي.



أهل العلم، وقد أخرج الإمام البخاري والإمام مسلم في صحيحيهما من حديث عائشة رضي الله عنها أن أم سلمة وأم حبيبة وهما زوجتا النبي ﷺ ذكرتا كنيسة رأينها بالحبشة فيها تصاوير، ذكرنها للنبي ﷺ[١]، فقال صلوات الله وسلامه عليه: «**إن أولئك كان فيهم الرجل الصالح فمات، فبنوا على قبره مسجداً، وصوروا فيه تلك الصور أولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة**»[٢]، ومصداق هذا ما ذكره الله تبارك وتعالى في كتابه العزيز من قصة أهل الكهف، فقد قال ﷻ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ۖ فَقَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾﴾ [الكهف]، وقد ذكر غير واحد من أهل العلم أن الذين غلبوا على أمرِهِمْ هُمْ شرارُ أهلِ القرية، فبنوا على أولئك الصالحين مسجداً كما فعل غيرهم.

أساليب دعوة نوح عليه السلام لقومه:

لما كفر أولئك القوم من ذرية آدم صلوات الله وسلامه عليه؛ أرسل الله إليهم نبيه نوحاً، وأمره أن يدعوهم إلى عبادة الله تبارك وتعالى وحده، فلم يُقَصِّر، واستخدم عدة أساليب في الدعوة إلى الله ـ جل وعلا ـ، فمن تلك الأساليب التي استخدمها:

أولاً: أسلوب الترغيب: كما في قول الله تبارك وتعالى عن نوح: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾﴾ [نوح].

ثانياً: أسلوب الترهيب: فذكر الله عنه أنه قال لهم: ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوٓا۟

---

(١) وذلك أن أم سلمة وأم حبيبة كانتا قد هاجرتا إلى الحبشة قبل زواج النبي ﷺ بهما، ورأتا كنيسة يقال لها: (ماريا)، رأينها في الحبشة، وكانت فيها تصاوير.

(٢) أخرجه البخاري (٤٢٧)، ومسلم (٥٢٨) من حديث عائشة رضي الله عنها.



﴿إِلَّا ٱللَّهَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ أَلِيمٖ ٢٦﴾ [هود].

ثالثاً: أسلوب المحاورة: ومنه ما ذكر الله تبارك وتعالى عنه أنه قال: ﴿أَلَمۡ تَرَوۡاْ كَيۡفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗا ١٥ وَجَعَلَ ٱلۡقَمَرَ فِيهِنَّ نُورٗا وَجَعَلَ ٱلشَّمۡسَ سِرَاجٗا ١٦ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا ١٧ ثُمَّ يُعِيدُكُمۡ فِيهَا وَيُخۡرِجُكُمۡ إِخۡرَاجٗا ١٨ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ بِسَاطٗا ١٩ لِّتَسۡلُكُواْ مِنۡهَا سُبُلٗا فِجَاجٗا ٢٠﴾ [نوح].

رابعاً: أسلوب الصبر وتحمل الأذى: وكان هذا من أساليبه صلوات الله وسلامه عليه أن صبر وتحمل ما جاء منهم من أذى، وكلنا يعلم أن نوحاً صلوات الله وسلامه عليه مكث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً كما أخبر الله تبارك وتعالى عنه فقال: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمۡ أَلۡفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمۡسِينَ عَامٗا﴾ [العنكبوت: ١٤].

خامساً: أسلوب التلطف في الخطاب: فكان عليه السلام يتلطف معهم في الدعوة إلى الله عز وجل، وذلك لما جاءوه وطلبوا منه أن يطرد الضعفاء الأراذل ـ على قولهم ـ فكان قول نوح عليه السلام: ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمۡ عِندِي خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ وَلَآ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٞ وَلَآ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزۡدَرِيٓ أَعۡيُنُكُمۡ لَن يُؤۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيۡرًاۖ﴾ [هود: ٣١].

وكذلك لما اتهموه بالضلال، فما زاد أن قال صلوات الله وسلامه عليه: ﴿يَٰقَوۡمِ لَيۡسَ بِي ضَلَٰلَةٞ وَلَٰكِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٦١﴾ [الأعراف: ٦١] إي والله، كيف يكون به ضلالة، والله بعثه لتزول به الضلالة؟!

ولما قالوا له: ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمۡ عَلَيۡنَا مِن فَضۡلِۭ بَلۡ نَظُنُّكُمۡ كَٰذِبِينَ ٢٧ قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِهِۦ فَعُمِّيَتۡ عَلَيۡكُمۡ أَنُلۡزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمۡ لَهَا كَٰرِهُونَ﴾ [هود]، وهكذا استمر في الدعوة إلى الله تبارك وتعالى، وقومه يكيلون له الأذى كَيْلاً، حتى إن هذا الأذى تمثَّلَ في



قول الله تبارك وتعالى: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا﴾ [هود: ٢٧]، هذا أول ردٍّ ردوا به على نوح صلوات الله وسلامه عليه: ﴿مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ﴾ [هود: ٢٧] يعني: نراك اتبعك أراذلنا، وضعفاؤنا، وما اتبعك كبراؤنا.

وقولهم: ﴿بَادِىَ ٱلرَّأْىِ﴾ أي: الذين لم يتمهلوا حتى في معرفة الحق من الباطل، بل كان رأيهم سريعاً، واتخذوا القرار دون تمهل، ودون دراسة، ثم قالوا كذلك: ﴿وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ﴾ [هود: ٢٧]، حتى تكونوا أنتم أفضل منا، ﴿بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ﴾، وقالوا كذلك: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الأعراف: ٦٠]، وقالوا: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾ [المؤمنون: ٢٤]، وقالوا: ﴿مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾، [المؤمنون: ٢٤]، وقالوا: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ﴾ [المؤمنون: ٢٥]، هذا ردُّ قوم نوح عليه صلوات الله وسلامه، تمثل في هذه الأمور الثمانية:

الأول: أنت بشر كمثلنا، أنتبع بشراً مثلنا؟!

الثاني: أتباعك أراذلنا، الذين يتخذون الرأي دون دراسة.

الثالث: ما نرى لكم علينا من فضل، أنتم كأمثالنا، ما لكم علينا من فضل حتى نتبعكم.

الرابع: نظنكم كاذبين.

الخامس: نراك في ضلال مبين.

السادس: لو شاء الله لأنزل ملائكة، لِمَ لَمْ يُنْزِل ملائكة، فنتبع الملائكة؟!

السابع: ما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين.

الثامن: بك جنون.



هكذا اتمهموا وردّوا على نبي الله نوح صلوات الله وسلامه عليه.

وهو كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾ [فصلت: ٤٣]، فهذه التُّهَم كما سيأتينا في قصص الأنبياء هي التهم نفسها الموجهة لأنبياء الله صلوات الله وسلامه عليهم، تزيد تهمة أو تنقص تهمة، ولكنها بشكل مجمل هي التُّهم التي توجه أو الأسباب التي يكون لأجلها امتناع الكافرين من اتباع المرسلين.

قوم نوح عليه السلام يواجهوا دعوته بالرد والأذى:

ثم واجهوه بالأذى، آذوه صلوات الله وسلامه عليه، وإلا بِمَ صار نوح صلوات الله وسلامه عليه من أولي العزم من الرسل إلا لذلك الأذى الذي أصابه من قومه صلوات الله وسلامه عليه.

اتهموه بالجنون، وهو مصداق قوله تبارك وتعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ ۝٩﴾ [القمر].

واتهموه بالضلال: ﴿قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ۝٦٠﴾ [الأعراف]، اتهموه بالجدل العقيم: ﴿قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا﴾ [هود: ٣٢].

توعدوه بالرجم: ﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ۝١١٦﴾ [الشعراء].

سخروا منه: ﴿وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ﴾ [هود: ٣٨].

وأساؤوا الأدب: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا ۝٦ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ۝٧ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝٨ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ۝٩﴾ [نوح]، وكل هذا لم ينفع مع قوم نوح صلوات الله



وسلامه عليه، وتأملوا قولهم: ﴿قَالُوا۟ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [هود] إن كنت صادقاً أنك رسول من الله تبارك وتعالى فائتنا بآية، فلا حاجة إلى الإكثار من الجدال معنا، فقد بلَّغتنا، ونحن كذبناك، وسئمنا من كثرة الخصومة معك، وقد توعدتنا بعذاب فأتنا بالعذاب.

هكذا ردّوا على نوح صلوات الله وسلامه عليه، فقال نوح: ﴿إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ ٱللَّهُ إِن شَآءَ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ [هود: ٣٣] نعم، أما هو صلوات الله وسلامه عليه فوظيفته البلاغ، أما العذاب فعند الله ﷻ، وهذا مصداق قول النبي ﷺ لقومه: ﴿قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٨﴾﴾ [الأنعام]، فالأمر ليس بيد نوح، ولا بيد محمد، ولا إبراهيم، ولا عيسى، ولا موسى صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، بل هو بيد خالقهم وربِّهم ﷻ.

نوح عليه السلام يصبر على أذى قومه:

وبقي نوح عليه السلام ثابتاً على دينه متوكلاً على ربه تبارك وتعالى، مشفقاً على أمته، دائباً في دعوته مئات السنين وقومه لا يزدادون إلا سخرية منه وعناداً وإصراراً على ما هم عليه من الشرك حتى قالوا: ﴿لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح: ٢٣]، ومع هذا استمر في دعوته حتى قال الله له: ﴿لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ [هود: ٣٦]، انتهى الأمر لن يؤمن أحد، أدَّيتَ الذي عليك، ولن يتّبعك أحدٌ بعد الذين اتبعوك، عندها قال نوح: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [نوح]، حكمتَ يا رب أنه لن يؤمن أحد بعد الذين آمنوا، إذاً يا ربِّ عجِّل لهم العذاب، فدعا نوح صلوات الله عليه على قومه، ولذلك عندما يأتي الناس نوحاً يوم القيامة فيقولون: «**يا نوح أنت أول رسول أرسله الله**



إلى الأرض، اشفع لنا عند ربك، فيقول: إني دعوت على قومي»[١].

نوح عليه السلام والتحدي الأكبر:

كان نوح عليه السلام لما واجهه قومه بالأذى وتوعدوه بالرجم وغير ذلك تحداهم أكبر التحدي، حتى قال بعض أهل العلم: إن معجزة نوح صلوات الله وسلامه عليه تتمثل في ذلك التحدي الذي تحدى به قومه، قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾﴾ [يونس]، هكذا تحدى نوح قومه صلوات الله وسلامه عليه، وهذا الكلام من نوح يدل على ثقة ويقين، ولا يكونان أبداً إلا لأمثال نوح صلوات الله وسلامه عليه.

وهذا التحدي تمثل في خمس صور:

١ ـ قوله لهم: ﴿فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ﴾، لا تختلفوا عليّ، لا يقل أحد شيئاً والآخر شيئاً مع أن اختلافهم جيد بالنسبة له، ولكنه قال: ﴿فَأَجْمِعُوٓا۟ أَمْرَكُمْ﴾ لا تختلفوا عليّ، اتفقوا حتى تكونوا كالجسد الواحد.

٢ ـ ثم قال: ﴿وَشُرَكَآءَكُمْ﴾، استعينوا بشركائكم من الجن والإنس والأصنام التي تدعونها من دون الله تبارك وتعالى.

٣ ـ ثم قال: ﴿ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً﴾، لا تكتموا، لا تسروا لبعضكم البعض، لا تجلسوا في الليالي، تحدثوا نهاراً جهاراً.

٤ ـ ﴿ثُمَّ ٱقْضُوٓا۟ إِلَىَّ﴾ أنجزوا، اتفقوا، اعدموني، ارجموني، افعلوا ما تشاؤون.

---

(١) تقدم تخريجه ص٥٥.



٥ - ﴿وَلَا تُنظِرُونِ﴾، ولا تمهلوني.

ولننظر هل يستطيعون ذلك أم لا؟ ولم يستطيعوا أبداً، ولذلك ذكر بعض أهل العلم أن هذه كانت معجزة نوح صلوات الله وسلامه عليه، وهذا المقام الذي قامه نوح صلوات الله وسلامه عليه لا شك أنه تتقاصر عنه الصناديد من الرجال، عندما يقف في وجه الكفرة الفجرة الذين توعدوه وهددوه بشتى أنواع العذاب؛ يقف بينهم هذا الموقف العظيم، لا شك أنه يدل على ثقةٍ وتوكلٍ ويقينٍ بنصرِ الله تبارك وتعالى.

استمر نوح عليه السلام في الدعوة إلى الله تبارك وتعالى حتى بلغ السيل الزبى، عند ذلك قال نوح صلوات الله وسلامه عليه: ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَٱفْتَحْ بَيْنِى وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِى وَمَن مَّعِىَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾﴾ [الشعراء] و﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى وَٱتَّبَعُوا۟ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا۟ كَثِيرًا ۖ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا ﴿٢٤﴾﴾ [نوح]، ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾﴾ [نوح]، وذكر الله عنه فقال: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾﴾ [القمر]، ومنه قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [الصافات] عندها؛ بعد أن أتم نوح صلوات الله وسلامه عليه دعوته لقومه أمر الله نوحاً أن يصنع السفينة، قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ﴾ [هود: ٣٨].

قال أهل العلم: سخروا منه لأمرين اثنين:

الأمر الأول: أنهم قالوا: يا نوح قد كنت نبياً فصرت نجاراً، فسخروا منه.



الأمر الثاني: أنهم قالوا: يا نوح من يصنع السفينة يسير بها في البحر، وأنت في البر! ما تصنع بهذه السفينة؟

وكان نوح صلوات الله وسلامه عليه بكل ثقة ويقين، يقول لهم: ﴿إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ [هود: ٣٨]، ولكن تسخرون عاجلاً، ونسخر آجلاً ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [المطففين].

وتركوا نوحاً، وصنع السفينة، وذكروا أنه صنع السفينة في أربعين سنة، وذكر بعضهم أنه غرس أشجاراً ثم رعاها حتى قويت واشتدّت، ثم أخذ منها الخشب، وصنع منها السفينة، وكل هذا من روايات بني إسرائيل التي لا تُصدَّق ولا تُكذَّب.

وقد بناها سفينة عظيمة وجعلها ثلاثة طوابق، وجعل الطابق السفلي للدواب والوحوش، والطابق الأوسط للبشر الذين معه، والطابق الأعلى للطيور، قال الله تبارك وتعالى بعدما صنع نوح السفينة وأتمها: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ ۚ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾﴾ [هود]، ما آمن معه إلا قليل، جلس يدعو ألف سنة إلا خمسين عاماً، تسعمئة وخمسون سنة، وما آمن معه إلا قليل، فلا تحزن إذا كنت تدعو إلى الله تبارك وتعالى ولم يؤمن معك إلا قليل، بل لا تحزن إن لم يؤمن معك أحد، المهم احزن إن قصرتَ أنت في الدعوة إلى الله تبارك وتعالى، أما اتباع الناس لك فالأمر ليس في يدك ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦].

رسولٌ من أولي العزم من الرسل، أعطاه الله تبارك وتعالى الخبرةَ



الطويلةَ في الدعوة إليه، وهو ملهم يُوحى إليه، جلس هذه المدة الطويلة، يقين، وصدق، وإخلاص، وتقوى، ومع هذا ما آمن معه إلا قليل، فلا يحزن الإنسان إذا لم يؤمن به إلا واحد، أو اثنان، أو ثلاثة، بل يفرح أنه هدى الله على يديه رجلاً واحداً، بل أخبر النبي ﷺ أن بعض الأنبياء يأتون يوم القيامة وليس معهم أحد[1]، بل سيأتينا في قصة أبي الأنبياء إبراهيم ﷺ وقول الله ـ جل وعلا ـ: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ﴾ [العنكبوت: ٢٦]، فذكروا أن إبراهيم عليه السلام لم يؤمن به إلا لوط، ولوط نبي.

عدد مَنْ آمن مع نوح عليه السلام:

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠]، وهذا القليل ـ كما ذكرت كتب أهل الكتاب أنهم ـ لم يتجاوزوا الثمانين من رجال ونساء.

وقال بعضهم: ثلاث وثمانون، والله أعلم بعددهم، ولكن يكفينا قول الله: ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠]، ويكفينا أنهم حملتهم مع دوابهم وطيورهم سفينة فهم لا شك قليل، وسفينة مشحونة كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ [الشعراء: ١١٩] أي: شُحنوا فيها شحناً.

نوح عليه السلام يركب سفينته وينزل العذاب على قومه:

قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٤١﴾﴾ [هود] إنّ نوحاً عليه الصلاة والسلام لما ركب السفينة قال: بسم الله تسير وتجري، وبسم الله ترسو، فهذا نوح عليه السلام، دائماً يتعلق بربه تبارك وتعالى، قال الله تبارك وتعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا

---

(١) أخرجه البخاري (٥٧٠٥)، ومسلم (٢٢٠) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.



وَقَالُواْ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾﴾ [القمر]، فجّرّ الله الماء من الأرض ﴿وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا﴾ صارت الأرض كلها عيوناً، ﴿فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ﴾ التقى ماء السماء بماء الأرض ﴿عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ أي: قُدّر بأمر الله تبارك وتعالى، هنا الآن ﴿إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا﴾ [هود: ٣٨] تصْنَعُ سفينة في البر! صرتَ نجاراً بعد أن كنتَ نبياً! هذا وقت السفينة ﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ﴾ الدُّسُر: المسامير، ألواح ومسامير، ﴿وَحَمَلْنَٰهُ﴾ أي نوحاً عليه الصلاة والسلام ومن معه ﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا﴾ أي: برعايتنا، وعنايتنا، وحفظنا، ورحمتنا، حَفِظَها الله تبارك وتعالى، ﴿جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾ هذا الجزاءُ يا نوح لما كفروك وعادوك وآذوك، انظر الآن كيف دمرهم الله تبارك وتعالى.

يقول الله - جل وعلا -: ﴿وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ﴾ [هود: ٤٢] موج كالجبال، قد لا يستطيع الإنسان أن يتصور هذا الأمر، ولكن يكفينا أن نصدق قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا﴾ ينادي ابنه ﴿يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا﴾ حتى تنجو، فقال: ﴿سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ﴾ [هود: ٤٣] يقول لابنه: ﴿يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أولئك كافرون سيهلكهم الله، وهذه شفقة في قلب نوح على ابنه، شفَقَةُ الأب على ابنه، ولذلك الله تبارك وتعالى وصى الإنسان بوالديه، فقال: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [الإسراء: ٢٣] لكن لم يوصِ الأب أبداً، ولم يوصِ الأم بالولد؛ لأن هذه الشفقة مغروسة في قلوبهم، في قلوب الآباء والأمهات، ﴿وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [هود: ٤٢]، ﴿قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ﴾ يظن أن الأمر تنفع معه الحيلة، بل هو كما في حال المؤمنين يوم



القيامة عندما يمشون على الصراط، أتظنون أن الذي يمشي على الحبل في الدنيا هو الذي سيمشي على الصراط!! بل التثبيت من الله تبارك وتعالى، كذلك الأمر هنا، أتظن أنه كلما صعد الإنسان إلى أعلى نجا؟! لا، وإنما من أراد الله لهم النجاة ينجون، ولذلك لما قال: ﴿سَتَاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِۚ﴾ [هود: ٤٣] جاء الرد من أبيه: ﴿قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَۚ﴾ [هود: ٤٣] لا جبل، ولا غير جبل، ﴿قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَۚ﴾ وهم الذين ركبوا في السفينة، قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ﴾ الأمر إذاً لحظات، اركب.. سآوي.. لا عاصم.. حال بينهما الموج.. ذلك أن السماء قد انفتحت كالقرب، والأرض تفجرت كالعيون، والتقى ماء السماء مع ماء الأرض حتى علا أعلى شاهق في الأرض، ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ﴾ [هود: ٤٣]، وأنجى الله نوحاً ومن معه.

وذكر أهل العلم أن أولاد نوح أربعة: حام، وسام، ويافث، ويام.

حام من نسله القبط، والبربر، والسودان، وهم السود بشكل عام.

وأما العرب، والفرس، والروم؛ فهم من نسل سام.

وأما الترك، والصقالبة، ويأجوج ومأجوج من نسل يافث، والذي غرق هو يام، ويسميه أهل الكتاب كنعان.

ونجى الله تبارك وتعالى نوحاً والذين آمنوا معه، الذين يربطهم معه نسب الدين، وأما نسب الولادة؛ فإن الله أهلك ابنه كنعان أو يام.

بعد أن أغرق الله جميع الكافرين قال: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ﴾ [هود: ٤٤] أدّيتِ ما عليكِ، فهي جندٌ من جنود الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَۚ﴾ [المدثر: ٣١]. ﴿وَيَٰسَمَآءُ أَقْلِعِى﴾ [هود: ٤٤] السماء، المقصود به المطر، توقف المطر، الأرض ابتلعت ما عليها، ﴿وَغِيضَ



﴿الْمَاءُ﴾ [هود: ٤٤] غِيضَ: يعني نَقَصَ، ﴿وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ﴾ [هود: ٤٤]، هنا توقفت السفينة على البر مرة أخرى، والجودي على المشهور: جبل في الموصل. وقيل: الجودي هو اسم جنس يطلق على أي جبل، فيقال: جودي كذا، وجودي كذا، وجودي كذا.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [هود: ٤٤].

هكذا لحظات وانتهى كل شيء كأنه حلم، موج، وعذاب، ولا أحد إلا نوح عليه الصلاة والسلام ومن معه في السفينة والأرض يباب[١]، كل من عليها هلك، كل من على وجه الأرض، ولذلك قيل لنوح: إنه آدم الثاني أو آدم الأصغر.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصَارًا ﴿٢٥﴾﴾ [نوح].

وذُكرت هنا قصة إسرائيلية، وقد ذكرنا أنه لا بأس أن نروي القصص الإسرائيلية:

ذُكر أن امرأة من قوم نوح لما بدأت السماء تمطر والأرض تنبع صعدتْ بولدٍ لها رضيع إلى أحد الجبال خوفاً من الماء، فجاءها الماء، فصعدت، فجاءها الماء، فصعدت، فجاءها الماء، حتى وصلتْ إلى قمة الجبل، فجاءها الماء، فرفعت ولدها، فغطاها الماء، حتى وصل إلى عنقها، فرفعت ولدها إلى فوق، فغطاهما الماء كما غطى غيرهما، وقد قيل: لو رحم الله أحداً من قوم نوح لرحم أم الصبي، ولكنه أهلك الجميع ﷻ، ولا يعني هذا أن الصبي في النار، وإنما إذا جاء العذاب عمَّ الجميع، ثم يبعث كل على نيته[٢].

---

(١) اليباب: الخراب، «المعجم الوجيز».

(٢) وذلك لما أخرجه البخاري (٢١١٨)، ومسلم (٢٨٨٤) بهذا المعنى.



يقول الله تبارك وتعالى بعد أن انتهى الأمر: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾﴾ لأن الله قال: ﴿قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ﴾ [هود: ٤٠]، فقال نوح: ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ﴾ يعني: إنك أخبرتني أنك تُنْجِيني وأهلي وأنت أحكم الحاكمين، ما الذي حصل؟ لِمَ لَمْ ينجُ؟ ولكن هذا من أدب نوح مع ربه تبارك وتعالى أن تكلم بهذه الطريقة، فقال الله له: ﴿يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [هود: ٤٦] إنه عمل غير صالح، ما معنى إنه عمل غير صالح؟ قال بعض أهل العلم من أهل التفسير لها معنيان:

الأول: إنه عَمَلٌ غيرُ صالح؛ أي: هذا العمل منك يا نوح غير صالح أن تسألني ما ليس لك به علم، يعني: دعاؤك هذا عملٌ غير صالح، ولذلك جاء بعده التأنيب في قوله: ﴿إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾.

الثاني: إنه عَمَلٌ غيرُ صالح أي: ركوب الكافر معك، أنت لا يركب معك إلا المؤمن، وهذا كافر كيف يركب معك؟ إنه عمل غير صالح منا إذا أركبنا الكافر معك.

وهناك قراءة أخرى: «إنه عَمِلَ غير صالح» يعني: إن ابنك عَمِلَ عَمَلاً غير صالح، فلا ينجو معك، وهي قراءة سبعية صحيحة.

من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه:

وهنا في غرق ولد نوح وغرق امرأته كذلك ـ كما سيأتي ـ يتبين أن الأسباب كلّها تنقطع يوم القيامة إلا ما كان متصلاً بالله وحده على أيدي رسله، وذلك أن الاتصال بين الناس مع الأنبياء فوق اتصال البنوة، والأبوة، والزوجية، بل هذا هو أشد اتصال بين الناس، أشد الناس



الذين تتصل بهم في هذه الدنيا وتشفق عليهم؛ إما أن يكون اتصال أبوة «أب أو أم»، أو اتصال بنوة: «ابن أو بنت»، أو اتصال زواج، ولكن هذا الاتصال إن لم يكن معه اتصال عقدي؛ فإنه لا ينفع، ولذلك لم يغنِ نوحٌ عن ابنه وزوجته، ولم يغنِ إبراهيم عن أبيه، ولوط كذلك عن زوجته، قال الله تبارك وتعالى: ﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ ۚ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣﴾﴾ [الممتحنة].

خيانة دين لا خيانة فراش:

قال الله تبارك وتعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾﴾ [التحريم] هنا: الخيانة لا شكَّ أنها خيانة الدين، وليست خيانة الفراش بأي حال من الأحوال، وذلك لأسباب كثيرة منها:

أولاً: أنه لو كان من امرأة نوح وامرأة لوط زنا؛ لكان قومهما عيراهما بهذا، كما كان يُعَيَّر نوح قالوا: ﴿وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [الأعراف: ٦٦]، وغير ذلك من الاتهامات التي اتهموا فيها نوحاً، ولو كانت امرأته كذلك لقالوا: فراشك غير طاهر، فلما لم يُتهم بهذا عُلِمَ أن الخيانة لم تكن خيانة الفراش.

ثانياً: قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ﴾ [هود: ٤٢]، وقال: ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ ۖ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ﴾ [القمر: ٣٤] وذلك أن بعضهم قال: إن ابن نوح هذا الذي لم ينجُ كان ابن زنا، وهذا كذب، بل الله سماه ابناً له، فقال: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ﴾، فنسبه إليه، وقال عن لوط: ﴿ءَالَ لُوطٍ﴾ فنسبهم إلى لوط صلوات الله وسلامه عليه.

ثالثاً: قال الله تبارك وتعالى: ﴿ٱلْخَبِيثَٰتُ لِلْخَبِيثِينَ وَٱلْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَٰتِ ۖ﴾



[النور: ٢٦]، ونوح طيب فله الطيبات، ولكنها خبيثة في الدين، في العقيدة، فأما الخباثة في العرض فالله نزَّه أنبياءه عن ذلك.

رابعاً: لو كانت الخيانة بالزنا لما قال الله: ﴿وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّاخِلِينَ﴾ [التحريم: ١٠]؛ لأن الزنا لا يخرج الإنسان من الملة، وإنما الذي أخرجها من الملة خيانةُ الدين، فلما خانت نوحاً عليه الصلاة والسلام في دينه؛ حكم الله عليها بدخولها النار.

خامساً: قال الله تبارك وتعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، فلا يمكن أبداً أن الله يختار نساءً لأنبيائه أمثال هؤلاء، ولذلك نصَّ أهل العلم: أن من اتهم امرأة نبي بالزنا؛ فهو كافر خارج من ملة الإسلام.

امة محمد ﷺ تشهد لنوح عليه السلام:

وبعد هذه الدعوة الطويلة من نوح عليه الصلاة والسلام ﴿أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ [العنكبوت: ١٤]

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**يجيء نوح وأمته، فيقول الله تعالى: هل بلَّغت؟ فيقول: نعم أي رب، فيقول لأمته: هل بلغكم؟ فيقولون: لا ما جاءنا من نبي**» تصوروا تسعمئة وخمسون سنة، وبعد هذا كلِّه تأتي أمة نوح يوم القيامة تقول: «**ما جاءنا من نبي**»، ما بلغنا، فيقول الله لنوح: «**من يشهد لك؟**» أنت تقول: بلغت، وهم ينكرون، من يشهد لك يا نوح فيقول: «**محمد ﷺ وأمته**» يقول النبي ﷺ: «**فنشهد أنه قد بلغ**»، وهو قوله جل ذكره: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣] والوسط العدل»(١).

فتشهد هذه الأمة، تشهد بماذا؟ تشهد بأن الله صادق، تشهد بأن

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٣٩).



النبي صادق، تشهد بأن ما جاء في كتاب الله حق، فتشهد أن نوحاً قد بلغ.

ومنه قصة خزيمة بن ثابت رضي الله عنه لما شهد أن النبي ﷺ لما ابتاع من الأعرابي الفرس، قال الأعرابي: هلم شهيداً، فقال خزيمة: أنا أشهد أنك قد بايعته، فأقبل النبي ﷺ على خزيمة، فقال: «**بم تشهد؟**»، فقال: بتصديقك يا رسول الله، فجعل رسول الله ﷺ شهادة خزيمة بشهادة رجلين(١).

تنبيهـان:

الأول: لا يُعرف بالتحديد القطعي مكان الأحداث التي وقعت لنوح مع قومه، فكلٌّ من قال بالتحديد فهو رجم بالغيب.

الثاني: وكذلك لا يُعرف الزمان الذي كان فيه نوح عليه الصلاة والسلام، ولكننا نعلم علم اليقين أن هذه القصة قد وقعت، والتحديد ليس له أثر في العبرة المطلوبة من القصة، فيكفي أن نعلم أنها وقعت على الأرض قبل أن نولد، وأننا مكلفون بما كُلِّفُوا به من عبادة الله تبارك وتعالى وحده لا شريك له، وموعودون كما وُعِدوا، فمن أطاع دخل الجنة، ومن عصى دخل النار.

الدروس والعبر المستفادة من قصة نوح عليه السلام

أولاً: عقاب قوم نوح فيه دليل على أن الجزاء قد يكون أحياناً في الدنيا، وقد يكون في الآخرة.

ثانياً: إنّ جميع الرسل من نوح إلى محمد عليهم السلام متفقون في الدعوة

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٦٠٧)، والنسائي (٤٦٤٧)، وصححه الألباني في «إرواء الغليل» (١٢٨٦).



إلى التوحيد الخالص، كلهم يدعون إلى عبادة الله تبارك وتعالى وحده لا شريك له.

ثالثاً: من آداب الدعوة ما قام به نوح أنه دعاهم ليلاً ونهاراً، وسراً وجهاراً، وصبر على هذا صبراً عظيماً.

رابعاً: ينبغي ذكر الله دائماً والاستعانة به ﴿وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾ [هود: ٤١].

وقفة:

يُروى أن نوحاً بعد هذا العمر الطويل المديد سُئل، فقيل له: كيف رأيت الدنيا؟ قال: رأيتها كبيتٍ له بابان، دخلتُ من أحدهما وخرجت من الآخر.

مصير الآلهة التي كانت تعبد زمن نوح عليه السلام:

قال الله تعالى حكاية عن قوم نوح: ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾﴾ [نوح] هذه الآلهة بعد هلاك قوم نوح، ومضي السنين، جاء عمرو بن لُحَي الخزاعي إلى مكة، وكانت خزاعة تحكم مكة قبل قريش، فأتى بها عمرو بن لُحَي الخزاعي الذي أخبر عنه النبي ﷺ أنه أول من جلب الأصنام إلى مكة.

فأما «ود»: فكان لبني عذرة في دومة الجندل وهدمه خالد بن الوليد، وعمرو بن عبد ودّ العامري، نسبة لهذا الصنم «عبدُ ودٍّ» أي: عبد الصنم ودّ.

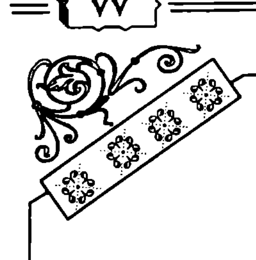
و**«سواع»**: كان لِمُضَر، وعبدته هذيل.

و**«يغوث»**: لمذحج، قبيلة من قبائل العرب.

و**«يعوق»**: لهمدان، قبيلة في اليمن.

و**«نسر»**: لحِمْيَر، وكانوا في سبأ يتوارثون عبادة الأصنام كابراً عن كابر، أو قولوا: صاغراً عن صاغر.






قصة هود عليه السلام

ذكرنا أول رسول للعالمين وهو نوح عليه السلام، والآن نذكر أول رسول عربي، والرسل من العرب أربعة كما جاء في حديث أبي ذر رضي الله عنه أنه سأل النبي ﷺ عن الأنبياء والمرسلين، وذكر حديثاً طويلاً، وفيه أن النبي ﷺ قال له: **«أربعة من العرب: هود، وصالح، وشعيب، ونبيك يا أبا ذر»**[(١)].

نسبه وقبيلته عليه السلام:

يرجع نسب هود عليه السلام ـ كما اتفق أهل الأنساب ـ إلى سام بن نوح، وإن اختلفوا في عدد الآباء أو أسمائهم الذين هم بين هود وسام بن نوح.

ذُكر نبي الله هود في القرآن سبع مرات، وذُكرت قبيلته وهي عاد سبعاً وعشرين مرة، وهو من هذه القبيلة التي كانت تسكن الأحقاف، فهو أخو عاد الذي أنذرهم بالأحقاف، والأحقاف جبال من الرمل في اليمن يقال: إنها بين عمان وحضرموت في بلد هناك يقال لها: الشِّحر، وهي الآن في اليمن وهي بلد زراعية.

وعاد قوم هود من العرب، والعرب تنقسم إلى ثلاثة أقسام كما قيل: عرب عاربة بائدة، وعرب عاربة باقية، وعرب مستعربة.

وهود من عاد، وعاد من العرب العاربة البائدة، ومثلهم قوم

(١) أخرجه ابن حبان (٣٦١) وضعف إسناده جداً الأرناؤوط.



صالح، وهم ثمود، وطسم وجُدَيس، هؤلاء كلهم من العرب العاربة البائدة التي لم يبقَ منها أحد، وكانوا يسكنون الخيام ذوات الأعمدة الضخمة، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝٧﴾ [الفجر] وعاد إرم هم: عاد الأولى قوم هود، وعاد الثانية قيل: هم ثمود قوم صالح عليه السلام، وقيل: هم من سبأ من قحطان، فالعلم عند الله تبارك وتعالى.

قوم هود أول من عبد الأصنام بعد نوح عليه السلام:

وهم أول من عبد الأصنام مِنْ ذرية نوح عليه الصلاة والسلام، بعد ما جاء الطوفان وعَمَّ الأرض كما قال نوح عليه الصلاة والسلام: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦]، فقد عَمَّ الطوفان الأرض كلَّها، ولم يبق إلا ذرية نوح كما ذكرنا في قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ۝٧٧﴾ [الصافات]، وهكذا تناسلت هذه الذرية حتى وصلت إلى قوم عاد.

وهم من نسل سام بن نوح، فأول من عبد الأصنام من ذرية نوح قبيلة عاد، وكانت أصنامهم ثلاثة: صَدَى، وصمود، وهَرَى أو هَبَاء.

هل بين نوح وهود أنبياء؟

قوم هود عليه السلام ذكروا بعد نوح مباشرة، كما في قول الله تبارك وتعالى عن هود أنه قال لقومه: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ [الأعراف: ٦٩]، ولذلك المشهور أنه ليس بين نوح وهود نبي، وقيل: بينهم أنبياء، ولكن الشاهد من هذا أن عاداً علموا بما حدث لقوم نوح، ولذلك ذكَّرهم نبي الله هود بنعمة الله عليهم إذ جعلهم من بعد قوم نوح صلوات الله وسلامه عليه، وعندما نقرأ القرآن الكريم نجد أن الله



تبارك وتعالى يذكر قصة هود مع قومه بعد قصة نوح كما في سورة الشعراء[١]، وسورة المؤمنون[٢]، وسورة الأعراف[٣]، مما يدل على أنه ليس بين قوم عاد وقوم نوح نبي.

الصفات الخَلْقية لقوم هود عليه السلام:

أعطاهم الله تبارك وتعالى بسطة في الخلق كما قال لهم هود: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً﴾ [الأعراف: ٦٩]، فكانت أجسامهم عظيمة، وهناك روايات فيها مبالغات كثيرة جداً عن أجسامهم، منها أن أحدهم كان إذا وضع رجله على الأرض خرقها، وغير ذلك من الروايات الممجوجة التي لا يمكن أن تقبل، ولكن لا شك أن أجسامهم كانت عظيمة ويكفينا قول النبي ﷺ: **«خلق الله آدم على صورته طوله ستون ذراعاً فلم يزل الخلق ينقص بعد حتى الآن»**[٤]، **فآدم هو أعظم مخلوق خلقه الله تبارك وتعالى من الإنس، ثم الخلق بعد ذلك يَقْصُر إلى يومنا هذا، وهم لهم خِلْقَةٌ عظيمةٌ كما بين الله تبارك وتعالى في قوله:** ﴿وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً﴾ [الأعراف: ٦٩]، وقال الله عنهم: ﴿ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿٨﴾﴾ [الفجر]، وقال: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥].

---

(١) وذلك في قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾﴾ [الشعراء].

(٢) وذلك في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [المؤمنون].

(٣) وذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [الأعراف].

(٤) أخرجه البخاري (٣٣٢٦)، ومسلم (٢٨٤١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.



إرسال هود ﷺ إلى قومه وموقفهم من ذلك:

أرسل الله تبارك وتعالى نبيه هود صلوات الله وسلامه عليه، وهو كسائر الأنبياء دعوتهم واحدة، وهي الدعوة إلى عبادة الله تبارك وتعالى وحده لا شريك له، فكان موقفهم كموقف قوم نوح من نوح، وسيكون موقف الأقوام من بعدهم كموقفهم من أنبيائهم، فكان موقف قوم هود من هود ﷺ أن وجهوا الاتهامات إليه، وهي:

أولاً: أنهم اتهموه بالسفه، فقالوا: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ﴾ [الأعراف: ٦٦].

ثانياً: اتهموه بالكذب، فقالوا: ﴿وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [الأعراف: ٦٦]، وقالوا كذلك: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ [المؤمنون: ٣٨].

ثالثاً: اتهموه بالجنون صلوات الله وسلامه عليه، فقالوا: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾ [هود: ٥٤] أي: في عقلك.

وهذه الاتهامات التي اتهموا بها هوداً[1] صلوات الله وسلامه عليه هي الاتهامات نفسها التي اتهم بها الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿أَتَوَاصَوْا۟ بِهِۦ﴾ [الذاريات: ٥٣] أي: أتواصت هذه الأمم على هذه الاتهامات التي توجه إلى الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، يقول الله تبارك وتعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾﴾ [الذاريات]، فليس بجديد إذاً على هود أن يتهم بهذا، فقد اتهم بهذا نوح من قبله صلوات الله وسلامه عليه، وليس بجديد على من يأتي بعد هود على أن يُتهم بهذه الاتهامات، وفي قولهم: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾ [هود: ٥٤]

---

(١) يجوز فيه الصرف والمنع، فيقال: هود وهوداً.



يريدون بهذا الكلام: بث الرعب في قلب هود صلوات الله وسلامه عليه من آلهتهم كما قال ـ جل وعلا ـ: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ﴾ [آل عمران: ١٧٥] أي: يخوفكم أولياءه ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾ [آل عمران].

ولقد خُوِّف إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه، فكان رده عليهم: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾﴾ [الأنعام] هذا التخويف الذي خوفوا به هوداً صلوات الله وسلامه عليه، وقالوا: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ﴾ [هود: ٥٤]، وكان الرد من هود عجيباً، وذلك أنه قال لهم: ﴿إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾ فقوله: ﴿إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ موقف مِلْؤه التحدي، مِلْؤه الإيمان، مِلْؤه الثقة التامة والتوكل العظيم على الله تبارك وتعالى، هم يقولون: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ﴾ [هود: ٥٤] فيرد عليهم ويقول: ﴿إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ﴾، ثم أشهدكم أنتم، ﴿وَٱشْهَدُوٓا۟﴾ أني بريء من هذه الآلهة، فلتفعل ما شاءت، ﴿فَكِيدُونِى جَمِيعًا﴾ [هود: ٥٥] أنتم وآلهتكم ﴿ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾ وسبب هذا التحدي: ﴿إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ﴾ الذي هو أعظم من آلهتكم جميعاً، بل هو: ﴿رَبِّى وَرَبِّكُم﴾، هو خالقكم ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ﴾ كل ما يدب على وجه هذه الأرض، على وجه البسيطة ﴿إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾ الناصية مُقَدَّم الشعر، والأخذ بالناصية يعني: يقودها قوداً رغماً عنها، ولكن بدون ظلم بدون حيف ﴿إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ لا يظلم سبحانه وتعالى.

هذا الموقف من هود عليه الصلاة والسلام ليس بجديد على



أنبياء الله صلوات الله وسلامه عليهم، فقد مَرَّ بنا موقف نوح عليه السلام إذ قال لقومه: ﴿فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾ [يونس: ٧١]، وهذا هود يعيد الكرة، فيكرر ما فعله أخوه في الدين، بل أبوه نوح عليه السلام.

وانظر إلى النبي محمد ﷺ حين فَرَّ الناس عنه في غزوة حنين، والمشركون مقبلون عليه، فيقبل وحده على المشركين ويصيح بهم قائلاً: «**أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب**»[1] صلوات الله وسلامه عليه، ثقةٌ تامةٌ، ويقينٌ جازمٌ، وتوكلٌ عظيمٌ على الله تبارك وتعالى لا يكون إلا من أمثال هؤلاء الرجال، ولذلك اختارهم الله على علم ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

ثم قال لهم هود صلوات الله وسلامه عليه: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ﴾ [هود: ٥٧] يعني: إن توليتم ﴿فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦٓ إِلَيْكُمْ﴾ [هود: ٥٧] أدَّيت الذي عليّ ﴿وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الأحقاف: ٩]، فهو أدّى ما عليه مِنَ البلاغ من أمر الله له أن يدعوهم، ثم قال: ﴿وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ [هود: ٥٧] فالأمر على الله يسير ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس]، ﴿وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّى قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا﴾ [هود: ٥٧]، فالله لا تنفعه طاعة ولا تضره معصية كما قال سبحانه في الحديث القدسي: «**يا عبادي لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجِنَّكم كانوا على أتقى قلب رجل منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئاً**»[2]، ﴿وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ﴾ [هود: ٥٧]، وهذا مصداقه في حديث ابن عباس رضي الله عنهما لمّا قال له النبي ﷺ:

---

(١) أخرجه البخاري (٢٨٦٤)، ومسلم (١٧٧٦) من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٧٧).



«واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن يضروك بشيء؛ لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك»(١).

أليس هذا هو واقع قوم نوح مع نوح عليه السلام؟

أليس هذا هو واقع قوم هود مع هود عليه السلام؟

أليس هذا واقع قوم إبراهيم مع إبراهيم عليه السلام؟

أليس هذا واقع قوم محمد مع محمد ﷺ؟

ولكنَّ الناس متفاوتون في الإيمان، في اليقين، في التوكل، في الثقة بالله تبارك وتعالى، فهذا نوح عليه الصلاة والسلام يقول لقومه: ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا﴾ [هود: ٥٥] وهود كذلك: ﴿فَكِيدُونِي جَمِيعًا﴾، كما قال نبينا ﷺ: **«لو أن الأمة اجتمعت على أن يضروك بشيء»**، الأمة اجتمعت على ضرّ نوح فلم يضروه، اجتمعوا على ضرّ هود فلم يضروه، إذاً أنت لو اجتمعوا على أن يضروك فلن يضروك، ليس لأنك مثل نوح أو مثل هود، بل لأن الله أخبر بهذا، طالما أن الله لم يكتب هذا الشيء فلن تُصاب إلا بما كُتِبَ فقط ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾ [التوبة: ٥١].

رابعاً: تمَسَّكوا بما كان عليه الآباء والأجداد: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِنَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَحۡدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ [الأعراف: ٧٠].

خامساً: أنكروا البعث فقالوا: ﴿أَيَعِدُكُمۡ أَنَّكُمۡ إِذَا مِتُّمۡ وَكُنتُمۡ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخۡرَجُونَ ٣٥ ۞ هَيۡهَاتَ هَيۡهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ٣٦ إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ ٣٧﴾ [المؤمنون] هكذا قالوا، أنكروا البعث، وهذا كقول من يقول: إنما هي أرحام تدفع وأرض تبلع، قيامة! حساب! جنة! نار! لا، حياة ثم موت، وينتهي الأمر كله.

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٢٩٣، ٣٠٧)، والترمذي (٢٥١٦)، وصححه الألباني. انظر: «صحيح الجامع» (٧٩٥٧).



سادساً: العناد، استخدموا العناد مع هود عليه الصلاة والسلام، قالوا: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَٰعِظِينَ ١٣٦ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ١٣٧﴾ [الشعراء]، وفي هذه الآية قراءتان سبعيتان صحيحتان:

الأولى: ﴿خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾، وهي قراءة عامّة القراء.

الثانية: «خَلْقُ الأولين» بفتح الخاء، وسكون اللام، وهي قراءة أبي جعفر، وأبي عمرو بن العلاء.

وكل قراءة لها معنى، فعلى القراءة الأولى: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: هذه عادة الأولين يموتون وينتهي الأمر.

وأما على القراءة الثانية: «إن هذا إلا خَلْق الأولين» فيحتمل أمرين اثنين:

الأول: يقصدون أنّ خلقهم كخلق الأولين، نموت كما ماتوا، نحيا كما حيوا، لا نُبعث كما لم يبعثوا إلى الآن أين الأولون؟ أبُعِثُوا؟ لم يُبعثوا، إذاً نحن نموت، ولن نبعث كذلك، ماتوا ونموت، عاشوا ونعيش، لم يُبعثوا، لن نبعث، نحن كالأولين.

الثاني: أي: من الاختلاق، وهذا الكلام الذي تقُولُه يا هود هو اختلاق الأولين؛ أي: كذب الأولين؛ أي: إنك تكذب يا هود فيما تقول إن هناك يوماً آخر.

سابعاً: واجهوه بالكذب والبهتان فقالوا: ﴿يَٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ﴾ [هود: ٥٣] ما جئتنا ببينة، أنكروا أن يكون أتاهم ببينة، وهذا كذب منهم وافتراء، وذلك أن الله تبارك وتعالى يقول: ﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ [الأعراف: ١٠١]، والله أصدق قيلا ﷻ، الله أخبرنا أن الرسل جاؤوا بالبينات، قال ﷻ: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ [الحديد: ٢٥].

وقال رسول الله ﷺ: «**ما من الأنبياء من نبي إلا أُعطي من الآيات ما على مثله آمن البشر**»(١) يعني: الآيات والبينات.

فائدة: قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ [هود: ٥٩]، وهذه الآيات لم تُذكر لنا؛ لأن القرآن ليس كتاب تاريخ حتى يذكر لنا كل شيء بالتفصيل، ولكنه كتاب هداية، وكتاب دعوة، وهو منهج يذكر الله لنا ما ننتفع به في حياتنا الدنيا، وفي أخرانا عند الله تبارك وتعالى.

الأساليب الدعوية التي استخدمها هود عليه السلام مع قومه:

أولاً: أسلوب الرفق واللين: فنجد أن قومه اتهموه بالسَّفَهِ فقالوا: ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ﴾ [الأعراف: ٦٦]، فماذا كان رده عليهم؟

قال: ﴿يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٦٧]، فاستخدم معهم اللين. وقوله: ﴿يَا قَوْمِ﴾ فيها تلطف وتَوَدّد.

ثانياً: أسلوب النصح والتوجيه: فقال لهم: ﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾﴾ [الأعراف].

ثالثاً: التذكير بنعمة الله عليهم: فقال لهم عليه السلام: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً﴾ [الأعراف: ٦٩] وقال كذلك: ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٣٤﴾﴾ [الشعراء] فذكرهم بنعم الله عز وجل عليهم.

رابعاً: الترغيب بالخير عن طريق الاستغفار والتوبة: فقال: ﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ﴾ [هود: ٥٢].

---

(١) أخرجه البخاري (٤٩٨١)، ومسلم (١٥٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.



خامساً: أسلوب الترهيب: فقال لهم لما آذوه، وبلغ الأذى مداه: ﴿قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَٰدِلُونَنِي فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ [الأعراف: ٧١] أنتم سميتموها، آباؤكم سموها آلهة لكن في حقيقة الأمر ليست آلهة، أنتم قلتم: إنّ (صَدَى) إله، (صَمُود) إله، (هَبَاء) إله، فهل هي آلهة حقيقة؟ ليست آلهة، ما هي إلا أسماء سميتموها أنتم، لا تنفع نفسها، لا تدفع الضرَّ عن نفسها فضلاً عن أن تنفع أو تضر غيرها.

سادساً: أسلوب التحدي: فقال: ﴿إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾﴾ [هود].

إذاً قصة هود صلوات الله وسلامه عليه مع قومه هي كقصص من سبقه والذين يأتون بعده، وهي قصة الدعوة إلى الله تبارك وتعالى، والدعوة إلى توحيده ـ جل وعلا ـ، ينادي بها عبْدٌ من عباد الله تبارك وتعالى في ظلمات كثيفة، قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [الأعراف] وهذه هي أُخُوَّة الطين، وأما قول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠] فهي أُخُوَّة الدين، وهذه الأُخُوَّة التي يذكرها الله تبارك وتعالى عن نوح مع قومه، وعن هود مع قومه، وعن صالح مع قومه، وهكذا سائر الأنبياء، فهي أُخُوَّة الطين؛ أي: النسب، أما أُخُوَّة الدين فهي لا تكون إلا بين المؤمنين، فما كان جواب قومه إلا أن قالوا له: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾﴾ [هود] ثم قال لهم هود: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ [الشعراء] أي: تبنون في كل مكانٍ مرتفعٍ بناءً عظيماً كالقصور ونحوها عبثاً، يبنون القصور ولا يسكنونها، يبنون القصور العظيمة ويسكنون في



الخيام، ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ﴾ [الشعراء: ١٢٨] أي: مكان ﴿ءَايَةً﴾ من الجمال، أيةً من القوة؛ أيةً من المتانة، لكن عبثاً، تعبثون ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ [الشعراء].

قوم هود عليه السلام يستعجلون العذاب:

عند ذلك كان رد قومه عليه بعد هذه المدة، وبعد هذه الدعوة ـ التي لم يذكر الله لنا مدتها ـ بلغ عنادهم أقصاه، فقالوا: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٢]، ولما وصل هود إلى هذه المرحلة مع قومه ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾﴾ [المؤمنون]، فكانت الإجابة من الله الذي لا يضيع عبده ﷺ: ﴿قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [المؤمنون] قليل فقط، وكل آتٍ فهو قريب، انقطع عنهم المطر مدة طويلة، فقيل: إنه انقطع ثلاث سنوات لم تأتهم قطرة ماء، ثم رأوا عارضاً مستقبل أوديتهم، سحاباً، قالوا: ﴿قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ [الأحقاف: ٢٤] قال الله تبارك وتعالى: ﴿بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ﴾ [الأحقاف: ٢٤].

وذكر الله تبارك وتعالى عذابهم في أكثر من موضع فقال ـ جل وعلا ـ: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾﴾ [القمر].

وذكر في آية أخرى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ [الحاقة]. وقال: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ﴾ [الأحقاف].

وفي قوله تعالى: ﴿فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٧]، شبههم بأعجاز النخل التي لا رؤوس لها، فنحن نرى بعض



النخل الذي يُقْطع ويبقى بدون رأس، عمود فقط، هكذا صاروا والعياذ بالله، رُفعوا إلى السماء بهذه الريح القوية، ثم ضُربوا بالأرض، فصاروا أجساداً بلا رؤوس.

وقد ذكر ابن إسحاق قصةَ عذابهم نقلاً عن رواية بني إسرائيل، يقول ابن إسحاق: فلما أبَوا إلا الكفر بالله ﷻ أمسك عنهم المطر ثلاث سنين حتى جَهَدهم ذلك، وكان الناس إذا جهدهم أمر في ذلك الزمان طلبوا من الله الفرج، يلجؤون إلى الله، وإنما يطلبونه بحرمه ومكان بيته، هم في اليمن، ومن عادتهم أنه إذا انقطع عنهم المطر أو أرادوا شيئاً من الله تبارك وتعالى، يذهبون إلى مكة، يطلبون الله هناك.

قال: وبه [أي: الحرم] قوم يقال لهم: العماليق، وهم من سلالة سام بن نوح، وكان سيدهم إذ ذاك: معاوية بن بكر، وكانت أم معاوية هذا من قوم عاد، واسمها: جلهذة بنت الخيبرى، فبعثت عاد وفداً قريباً من سبعين رجلاً ليستقوا لهم عند الحرم فذهبوا، فمروا بمعاوية بن بكر بظاهر مكة [يعني: قريباً من مكة] فنزلوا عند معاوية، فأقاموا عنده شهراً كاملاً، يشربون الخمر ويسمعون الغناء، فلما طال مقامهم عنده تضايق معاوية؛ لأنه يعرف أنهم خرجوا للاستسقاء، ولا يستطيع أن يكلمهم خشية أن يغضبوا عليه، فأرسل جاريتين تغنيان بهذه الأبيات، عند هؤلاء القوم:

ألا يا قيل ويحك قم فهيّم — لعل اللّه يمنحنا غماما
فيسقي أرض عاد إن عاداً — قد أمسوا لا يبينون الكلاما
من العطش الشديد فليس نرجو — به الشيخ الكبير ولا الغلاما
وقد كانت نساؤهم بخير — لقد أمست نساؤهم أياما
وإن الوحش يأتيهم جهاراً — ولا يخشى لعاديّ سهاما
وأنتم هاهنا فيما اشتهيتم — نهاركم وليلكم تماما
فَقُبِّح وفدكم من وفد قوم — ولا لُقّوا التحية والسلاما



فتنبهوا هنا، أنهم قُصِدُوا بهذا الكلام، فنهضوا إلى الحرم، ودعوا لقومهم، فدعا داعيهم وهو قِيل بن عنز، فأنشأ الله ثلاث سحابات: بيضاء، وحمراء، وسوداء، ثم نادى منادٍ من السماء: اختر لنفسك ولقومك، أيها تريد لقومك، قال: اخترت السحابة السوداء فإنها أكثر السحاب ماءً، فناداه الصوت الذي في السماء:

اخترتَ رماداً ورِدداً.. لا تبقي من عاد أحداً.. لا والداً تترك ولا ولداً.. إلا جعلته همداً.. إلا بني اللوذية[1] الهمدا.

فساق الله السحابة السوداء التي اختارها قِيلُ بْنُ عنز لقومه، فلما جاءت رأوها من بعيد، فاستبشروا، وقالوا: ﴿هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾، قال الله تبارك وتعالى: ﴿بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ [الأحقاف] أي: كل شيء أُمرت بتدميره، فكان أول من أبصر هذه السحابة امرأة منهم، فصُعقت، فقيل لها ماذا رأيت قالت: رأيت ريحاً فيها كشهب النار أمامها رجال يقودونها.

سخّرها الله عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوماً دائمةً متابعةً، فلم تدع من عاد أحداً أبداً ﴿تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾﴾ [القمر]، فلم يبقَ من عاد أحد إلا هود ومن آمن معه؛ لأنه اعتزل في حظيرة هو ومن معه من المؤمنين، ما يصيبهم إلا ما يلين عليهم الجلود، وأهلكت قوم عاد، ولذلك يقال لهم: عرب بائدة؛ أي: هلكوا جميعاً.

وافد عاد:

وفي الحديث الصحيح عن الحارث بن حسان البكري قال: خرجتُ أشكو العلاء بن الحضرمي[2] إلى رسول الله ﷺ، فرأيت

---

(١) بنو اللوذية هم الذين آمنوا بهود عليه السلام.
(٢) وهو والي البحرين.



بالرَّبَذَةِ(١) امرأة عجوز من بني تميم، فقالت له: إلى أين؟ قال: أنا ذاهب إلى المدينة، قالت: خذني معك أخشى أن أسافر وحدي، فأخذها معه، فدخل على النبي ﷺ، فقال له النبي ﷺ: «**هل كان بينكم وبين تميم شيء؟**» [يعني قتال بين بكر وتميم] قال: فقلت: نعم، وكانت لنا الدَبَرة(٢)، ومررتُ بعجوز من بني تميم منقطع بها، فسألتني أن أحملها إليك، وهي معي فأذن لها، فدخلت العجوز، فقال البكري للنبي ﷺ: يا رسول الله، أرأيت أن تجعل بيننا وبين بني تميم حاجزاً، فاجعل الدهناء، فإنها كانت لنا، فحميت العجوز واستوفزت، وقالت: يا رسول الله، فإلى أين تضطر مُضَرَك؟ [والرسول من مُضَر وتميم من مُضَر، وهذا البكري من ربيعة]، قال: فالتفتُّ إليها، فقلتُ: والله ما مثلي ومثل هذه العجوز إلا كما قال الأول: مِعزى حملتْ حتفها، حملتُ هذه المرأة، ولا أشعر أنها كانت لي خصماً، أعوذ بالله أن أكون كوافد عاد، فقال له النبي ﷺ: «**وما وافد عاد؟**»، وهو أعلم بالحديث منه ولكن يستطعمه، فقال الرجل: يا رسول الله إن عاداً قحطوا، فبعثوا وفداً لهم يقال له: قِيل، فمرّ بمعاوية بن بكر، وذكر القصة التي ذكرناها قريباً(٣).

إذاً أرسل الله عليهم هذه الريح العظيمة، وهي ريح عقيم لا خير فيها، لا تحمل المطر، ولا تُلقح الشجر، ولكنها تحمل الموت والدمار ـ والعياذ بالله ـ كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأحقاف: ٢٤]، ريح تدمر كل شيء، ووصفها بأنها الريح العقيم أي: التي لا نفع

---

(١) الرَّبَذَة: من قرى المدينة على ثلاثة أميال، قريبة من ذات عرق على طريق الحجاز. «معجم البلدان» (٢/ ٣٠٩).

(٢) يعني: نحن انتصرنا.

(٣) أخرجه الإمام أحمد في «المسند» (٣/ ٣٨٢). والطبراني في «المعجم الكبير» (٣٣٢٥)، وحسن إسناده الحافظ ابن حجر في «فتح الباري» (٨/ ٤٤٢)، والعلامة الألباني في «سلسلة الأحاديث الضعيفة» (٣/ ٣٧٢).



فيها كالمرأة العقيم التي لا ولد فيها، كذلك هذه ريح عقيم، لا خير فيها، ولكن كلها ـ والعياذ بالله ـ شر وأذى.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَٰهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾﴾ [هود]، فما نجا من عذاب الله إلا هود ومن آمن معه من قومه.

عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا عصفت الريح قال: «**اللهم إني أسألك خيرها، وخير ما فيها، وخير ما أرسلت به**».

وإذا تخيلت السماء، [يعني: تغير لون السماء]، خرج ودخل، وأقبل وأدبر، [يعني: من الخوف صلوات الله وسلامه عليه]، فإذا مطرت سُرّي عنه، فعرفْت ذلك في وجهه، قالت عائشة فسَألْتُه: لماذا تفعل هذا؟ فقال: «**لعله كما قال قوم عاد:** ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ [الأحقاف: ٢٤]»[1].

فأهلك الله عاداً، دمرها عن بكرة أبيها، إلا ما وقع من النجاة لهود ومن آمن معه، وهذا مرثد بن سعد بن عفير من قوم عاد الذين خرجوا يستسقون لعاد، وكان قد آمن بهود لما بلغه ما فعل الله بعاد قال هذه الأبيات:

عصت عاد رسولهم فأمسوا ... عطاشاً ما تبلهم السماء
وسُيِّر وفدهم شهراً ليسقوا ... فأردفهم مع العطش العماء
بكفرهم بربهم جهاراً ... على آثار عادهم العفاء
ألا نزع الإلهُ حُلُومَ عاد ... فإن قلوبهم قفر هواء
من الخبر المبين فلم يعوه ... وما تغني النصيحة والشقاء
فنفسي وابنتاي وأم ولدي ... لنفس نبينا هود فداء

(١) أخرجه الإمام مسلم «صحيحه» (٨٩٩).



أتانا والقلوب مصمدات ... على ظُلْم وقد ذهب الضياء
لنا صنم يقال له صمود ... يقابله صداء والهباء
فأبصره الذين له أنابوا ... وأدرك من يكذبه الشقاء
فإني سوف ألحق آل هود ... وإخوته إذا جن المساء

وخرج إلى هود صلوات الله وسلامه عليه.

الدروس والعبر من قصة هود عليه السلام

أولاً: أن عاقبة الغرور وخِيمةٌ، وقد قيل: كم قصم الغرور من ظهور، ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥].

ثانياً: أن الصبر في الدعوة واللين مع المدعوين أمر مطلوب، ﴿يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى سَفَاهَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٧﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنَا۠ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾﴾ [الأعراف]، وهكذا يجب على الإنسان إذا دعا إلى الله تبارك وتعالى.

ثالثاً: أن الريح جند من جنود الله تبارك وتعالى، عَذَّبَ بها أقواماً كما في قوم هود صلوات الله وسلامه عليه، وسخرها لآخرين كما سخرها لسليمان، ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾﴾ [ص]، فهي جند من جنود الله تبارك وتعالى يسخرها الله تبارك وتعالى لمن أطاعه، ويعذب بها مَنْ عصاه.

رابعاً: بيان أهمية التوكل على الله تبارك وتعالى، وذلك أن المتوكل على الله يكون جريئاً لا يهاب أحداً كما فعل هود مع قومه ﴿فَكِيدُونِى جَمِيعًا﴾ [هود: ٥٥].

خامساً: اتخاذ المباني الفخمة للخيلاء أمر مذموم ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [الشعراء] أما إذا كانت هذه المباني الضخمة للحاجة فجائز، كما تتخذ مثلاً الحصون أو السدود أو أن الإنسان يتحدث



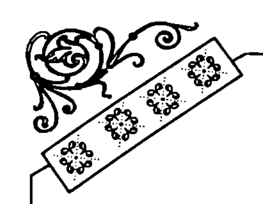
بنعمة الله تبارك وتعالى ويسكن، هذا لا بأس به أبداً، وإنما البأس كل البأس فيمن يتخذ هذه للخيلاء والفخر على الناس جميعاً.

وأخيراً.. لا يوجد لذكر عاد شيء في الكتب القديمة، أعني التوراة والإنجيل، وهذا لعله من حسد بني إسرائيل للعرب؛ لأن عاداً من العرب، يريدون أن يقولوا إن جميع الأنبياء من بني إسرائيل.

وهلاكهم كان استئصالاً كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾﴾ [الحاقة]، فلم يبقَ منهم أحد، ونسأل الله تبارك وتعالى أن يرحمنا برحمته.








قصة صالح عليه السلام

نبي الله صالح ثاني نبي عربي، وهو أيضاً من نسل سام بن نوح، وجاء ذكر نبي الله صالح في القرآن الكريم تسع مرات، وذُكرت قبيلته (ثمود) أربعاً وعشرين مرة، وقبيلة ثمود، من العرب العاربة البائدة التي لم يبق لها نسل.

وثمود نسبة إلى الثَمْد، وهو الماء القليل، وكانت هذه القبيلة تسكن الحِجْر، وهم أصحاب الحِجْر، وهذا الحِجْر ما بين الحجاز وتبوك، وهو تقريباً يبعد الآن عن المدينة المنورة ثمانين وثلاثمئة كيلو متر، جاؤوا بعد عاد كما قال الله تبارك وتعالى على لسان صالح: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ﴾ [الأعراف: ٧٤].

واختلف أهل العلم في مكانهم فيما يعرف الآن بمدائن صالح:

فالمشهور أن مدائن صالح الموجودة الآن هي مدائن نبي الله صالح صلوات الله وسلامه عليه، وقال علم الدين البرزالي تلميذ الإمام المزي، وقرين شيخ الإسلام ابن تيمية: ومدائن صالح المعروفة قرب العلا على طريق الحاج ليست هي مدائن نبي الله صالح، وإنما هذه تنسب إلى صالح، وهو أحد بني العباس من أولاد العباس بن عبد المطلب رضي الله تبارك وتعالى عنه، وقد ذكر البرزالي أنه وجد في هذه البلاد أنصبة ـ يعني أماكن قبور ـ عليها تواريخ جديدة، من ثلاثمئة سنة، يعني: من عهد البرزالي وهو في القرن الثامن الهجري.

وثمود هي التي يقال لها: عاد الثانية، فقوم هود هم عاد الأولى، عاد إرم، وثمود يقال لها: عاد الثانية، كانوا أصحاب ماشية، وأصحاب



حرث وزرع، ولكنهم بطروا نعمة الله تبارك وتعالى وكفروها كما قال الله ـ جل وعلا ـ في وصف المشركين: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الواقعة] أي: تجعلون شكركم تكذيباً فبدل أن يشكر العبد ربه تبارك وتعالى على ما أنعم عليه من النعمة والخير في هذه الحياة الدنيا، فإنه جعل شكره تكذيباً، تكذيباً لمن أرسل إليهم رسولاً منهم، من أنفسهم، رجلاً يعرفونه، يعرفون خُلُقَه ويعرفون دينه ويعرفون أمانته ألا وهو: نبي الله صالح.

صالح عليه السلام يدعو قومه إلى الله عز وجل:

جاءهم نبي الله صالح فدعاهم إلى الله ـ جل وعلا ـ وذكَّرهم بنعم الله العظيمة التي أنعم بها عليهم، وأتاهم بآية عظيمة، ألا وهي: آية الناقة كما سيأتي تفصيلها إن شاء الله تعالى، فكانت هذه الناقة تَرِدُ الماء يوماً، ويرد أهل القبيلة الماء يوماً آخر، وفي اليوم الذي لا ترد فيه القبيلة كانوا يردون إلى الناقة فيشربون من لبنها ذلك اليوم فيكفيهم جميعاً، واستمر هذا الحال مدة طويلة إلى أن جاء اليوم الذي سئموا مما هم عليه، فعقروا الناقة، وعتوا عن أمر ربهم.

أعظم الخصومة:

قال الله تبارك وتعالى في قصة صالح مع قومه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [النمل]، إن أعظم خصام يكون في هذه الدنيا هو الخصام بين الكفر والإيمان، لا توجد أبداً خصومة أعظم من هذه الخصومة ﴿فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ﴾ [النمل: ٤٥]، فريقٌ آمن بنبي الله صالح واتبعه، وفريق كفر بنبي الله صالح وخالفه، قال الله تبارك وتعالى في ذكر هؤلاء وأولئك: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ



صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الأعراف: ٧٥]، هكذا قال الكبراء المستكبرون للذين استضعفوا للذين آمنوا منهم، فليس كل الذين استضعفوا آمنوا، ولكن مَنْ آمن منهم، قال لهم الكبراء: ﴿أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الأعراف: ٧٥] أتّبعتموه على بينة، أتّبعتموه على يقين؟ أتعلمون أن صالحاً مرسل من ربه؟ ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٧٥] ولم يقولوا: «نعم»، ولو قالوا: «نعم» لكانت إجابتهم صحيحة، ولكنهم أرادوا أن يؤكدوا اتباعهم لصالح، فهم ليسوا مصدقين أنه مرسل فقط، بل متبعون له فيما جاء به ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ﴾ قالوا: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [الأعراف].

من اتباع الأنبياء عليهم السلام؟

وهكذا مضت سنة الله تبارك وتعالى، أن الضعفاء هم أتباع الأنبياء، المستضعفون الفقراء المساكين الذين لا حول ولا طول ولا قوة لهم، وذلك أنهم معتادون على تقبل الأمر والنهي، ثم هم مرؤوسون، فإذا كانوا مرؤوسين لظالم من البشر؛ فأولى بهم أن يكونوا مرؤوسين للصالحين من البشر، وهم أنبياء الله صلوات الله وسلامه عليهم، وعكسهم تماماً الكبراء، الذين ما تعودوا أبداً أن تُصْدَر إليهم الأوامر والنواهي، بل تعودوا أن يُصْدِروا هم الأوامر والنواهي، ما تعودوا أبداً أن يكونوا تابعين، بل تعودوا دائماً أن يكونوا متبوعين، فلذلك تثقل رسالة الأنبياء على الملأ، كبار القوم، ويتقبلها الضعفاء.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [هود: ٦١]، وهذا سبيل جميع المرسلين، كل المرسلين إنما جاؤوا بهذه الحقيقة ألا وهي: ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾، وما جاء المرسلون لنيل دنيا، وما جاؤوا لينافسوا الناس في أرزاقهم، وإنما جاؤوا لتحقيق هذه الحقيقة



العظيمة ألا وهي: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات]، جاؤوا ليذكروا الناس بهذه الحقيقة، أنكم أيها الخلق إنما خلقكم الله تبارك وتعالى لتعبدوه ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾، فصالح إذاً من هؤلاء الأنبياء الذين جاؤوا لتحقيق هذه الكلمة، ووالله ما نافس نوح قومه على رئاسة البلد، ولا على الحكم، ولا نافسهم هود، ولا صالح ولا كما سيأتينا نبي الله إبراهيم نافس النمروذ على الحكم، ولا نافس موسى فرعون على الحكم، ولا يوسف نازعهم على الحكم، ولا عيسى ولا محمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وإنما جاؤوا لتحقيق هذه الحقيقة العظيمة ألا وهي: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ [النحل: ٣٦] هذه هي الحقيقة التي بها أُرسل جميع الأنبياء، وهكذا أيضاً تكون النتيجة دائماً، هناك من يتبع الأنبياء، وهناك من يتجبّر ويعاند ويجادل الأنبياء على ما جاؤوا به من الحق.

بداية دعوة صالح عليه السلام:

بدأ معهم صالح صلوات الله وسلامه عليه، فقال لقومه: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: ٦١] لستم أنتم الذين لكم الفضل في مجيئكم إلى هذه الحياة الدنيا، بل الله عز وجل هو الذي أنشأكم فيها، فإذا كان الأمر كذلك فلِمَ يُعْبَد غيرُه، ماذا فعلتْ لكم هذه الأصنام حتى تُعْبَد، أنتم صنعتموها؟! أنتم أوجدتموها، أنتم أنشأتموها، فكيف تعبدون من أنشأتم، ولا تعبدون من أنشأكم، ﴿وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ واستعمركم هنا تحتمل معنيين:

المعنى الأول: أي: عَمّركم، بلغتم سنين عدداً في هذه الأرض.

المعنى الثاني: أي: جعلكم مُعَمِّرين لهذه الأرض، تبنونها، ولذلك جاء في الآية الآخرى: ﴿تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا﴾ [الأعراف: ٧٤]، وهذا أظهر؛ أي: جعلكم مُعَمِّرين لهذه



الأرض بما تبنون فيها، فكان الرد من قومه: ﴿قَالُوا۟ يَـٰصَـٰلِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَـٰذَآ﴾ [هود: ٦٢]، قبل أن تقول مقولتك هذه قد كنت فيناً مرجواً، وهذا اعتراف منهم، كأنهم يقولون لصالح: أنت حيث تعلم من قبيلتنا، نعرف ولادتك، ونعرف خُلقك، ونعرف أمانتك، ونعرف صدقك من كذبك، نعرفك تماماً حقَّ المعرفة، بل كنت فينا مرجواً أن تتصدّر فينا، وأن تكون صاحب كلمتنا، وكنا نرجو فيك العقلَ، ولكنك خيَّبْتَ ظننا، تدعونا إلى عبادة الله! نترك ما كان عليه آباؤنا! ﴿أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ [هود: ٦٢].

عبرة في قصة إسلام خالد بن الوليد رضي الله عنه:

وفي قصة إسلام خالد بن الوليد عبرة، معلوم أن خالد بن الوليد تأخّر إسلامه إلى آخر السنة السادسة من الهجرة، فقال له بعضهم بعد أن أسلم ودخل في دين الله تبارك وتعالى: يا خالد أنت من نعرفك بعقلك وسَمْتِك، ما الذي أخَّرَ إسلامك؟ لماذا تأخّر إسلامك؟ سبقك الناس بعشرين سنة إلى الإسلام، المهاجرون الأوائل: أبو بكر، عمر، عثمان، علي، طلحة، الزبير، عبد الرحمٰن بن عوف، أبو عبيدة، سعيد بن زيد، بلال، صهيب، عبد الله بن مسعود، هؤلاء أسلموا قبل خالد بعشرين سنة، عشرون سنة على الكفر لم تدخل في الإسلام! ما الذي أخّرَ إسلامك يا خالد؟

فقال: قد كان يسوسنا رجال، وكنا نرى أن عقولهم تَزِنُ الجبال[1]، فكنا تبعاً، فلمَّا ماتوا ورجع الناس إلينا؛ فكَّرنا في الأمر، فعرفنا الحق فاتبعناه.

---

(١) يعني: أبا جهل، وأبا لهب، وأمية بن خلف، وأبي بن خلف، وعقبة بن أبي معيط، وغيرهم من صناديد مكة وكبرائها.



إذاً في السابق ما كان يفكر، ما كان يسمح لنفسه أبداً أن يُفَكِّر؛ اتباعاً للآباء، اتباعاً للأجداد، اتباعاً للكبراء، فلما رجع الأمر إليه، وصار من كبار قريش؛ فكَّر، فلما فكَّر عرف الحق واتبعه.

طبيعة الكافر أنه يلغي عقله:

وهذه هي طبيعة الكفار، يلغون عقولهم، لا يفكرون في الحجج التي يأتي بها رسل الله ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ بحجة تقليدهم للآباء، يقول الله ـ جل وعلا ـ: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الزخرف]، طبيعة واحدة، رواية واحدة لا تتغير ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾ [فصلت: ٤٣] قصة واحدة متكررة، تزيد هذه بشيء أو تنقص بشيء من مثيلاتها فقط، وهي متكررة على مَرِّ الدهور والعصور.

ثم ذكَّرهم نبي الله صالح فقال: ﴿وَبَوَّأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا﴾ [الأعراف: ٧٤]، وذلك أنهم كانوا يبنون القصور الكبيرة في سهول الأرض، وينحتون الجبال، فيجعلون فيها بيوتاً، هذه كانت أعمالهم في هذه الدنيا، ولكنّهم ـ مع هذا ـ كانوا وثنيين يعبدون الأصنام.

أسلوب صالح عليه السلام في دعوة قومه:

أولاً: التذكير بعاقبة المجرمين: كما قال: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ﴾ [الأعراف: ٧٤] تذكروا ما صنع الله بعاد، قد علمتم عاقبة عاد وثمود عاد الثانية.

ثانياً: الوعظ والتخويف: ﴿أَتُتْرَكُونَ فِى مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا فَٰرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾﴾ [الشعراء]، فذكرهم بنعمة الله عليهم ﴿هُوَ أَنشَأَكُم



مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا﴾ [هود: ٦١] وهنا ربط النعمة بالمنعم، من الذي أنشأكم؟ الله، وإنشاؤكم نعمة، نعمة من منعم، ألا يُشْكَر هذا المنعم.

ثالثاً: الرفق واللين واللطف: فقال: ﴿يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي مِنۡهُ رَحۡمَةٗ فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِنۡ عَصَيۡتُهُۥۖ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيۡرَ تَخۡسِيرٖ﴾ [هود: ٦٣] يقدم لهم عرضاً واضحاً، أنا يا قوم رسول من الله تبارك وتعالى مرسل إليكم ﴿فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِنۡ عَصَيۡتُهُۥ﴾ [هود: ٦٣].

قوم صالح يقابلونه بالاستهزاء والرفض:

وقابلت ثمود صالحاً بأمور:

أولاً: السخرية والاستهزاء والاتهام: ﴿قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدۡ كُنتَ فِينَا مَرۡجُوّٗا قَبۡلَ هَٰذَآۖ أَتَنۡهَىٰنَآ أَن نَّعۡبُدَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ ﴿٦٢﴾﴾ [هود]، نحن في شك من كلامك ودعوتك، وفي ريبة من أمرك، قد كنت فينا مرجواً قبل هذا، أما الآن فلست كذلك، بل اتهموه بأنه مسحور فقالوا: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلۡمُسَحَّرِينَ﴾ [الشعراء: ١٥٣] أُصبت في عقلك كما قالوا لهود، وكما قالوا لنوح، وكما سيقولون للأنبياء من بعدهم ﴿أَتَوَاصَوۡاْ بِهِۦۚ﴾ [الذاريات: ٥٣] أيوصي كل قوم قوماً، هي كذلك ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٌ ﴿٥٢﴾﴾ [الذاريات]، ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدۡ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبۡلِكَۚ﴾ [فصلت: ٤٣]، شيء متكرر.

ثانياً: رفض الدعوة: رفضوا دعوته لحجج واهية، ﴿أَتَنۡهَىٰنَآ أَن نَّعۡبُدَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ [هود: ٦٢] تقليد أعمى، لا يجوز للإنسان أن يحتج بمثل هذه الحجة الواهية، هل لأن آباءكم كانوا كذلك فأنتم تبقون على ما كانوا؟

ولذلك لما جاء الموتُ أبا طالب وهو على فراش الموت والنبي ﷺ يذكره يقول: «**يا عم قل لا إله إلا الله، كلمة أشفع لك بها عند الله**»، وفي رواية «**أحاج لك بها عند الله**»، فكان عنده عبد الله بن أبي سلمة



ـ أخو أم المؤمنين أم سلمة ـ، وعنده أبو جهل عمرو بن هشام، فكانا يقولان له: يا أبا طالب أتترك دين الأشياخ؟ أتترك ملة عبد المطلب؟[1].

يصعب على النفوس، وهذا التقليد الأعمى هو الذي أضرَّ بالكثيرين، ولذلك تأتي الآيات كثيرة في كتاب الله تبارك وتعالى ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [يوسف: ٢]، ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [السجدة: ٤]، ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ٥٠]، ﴿فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١] وهكذا تأتي الآيات: أبصر.. تذكر.. فكّر.. اعقل..

ولكنه التقليد الأعمى الذي يعمي الناس عن اتباع الحق.

ثالثاً: المكر والكيد: كما قال الله ـ جل وعلا ـ: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا﴾ [النمل]، وهذا المكر منهم في قتلهم الناقة ـ كما سيأتي ـ وفي إرادتهم لقتل نبي الله صالح صلوات الله وسلامه عليه.

وكم يخطئ الجبارون والمعاندون وينخدعون بما يملكون من قوة ومكر وخداع، وما علموا أن الله أعظم مكراً ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [النمل]، ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠] الذي يعلم السر وأخفى، الذي لا تنام عينه تبارك وتعالى، ولا يغفل ـ جل وعلا ـ، الذي يراهم ولا يرونه، هم يمكرون والله يمكر تبارك وتعالى[2] ولا يكون إلا ما يريده الله ـ جل وعلا ـ، عند ذلك قال لهم نبي الله صالح: ﴿فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ [هود: ٦٣] أي: أكون خاسراً إذا أطعتكم.

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٦٠)، ومسلم (٢٤).

(٢) ومكر الله تبارك وتعالى في هذه الحال ليس نقصاً، بل كمالاً في حقه؛ لأنها من باب الرد، لا من باب الابتداء، ومثله ما جاء عن نوح عليه السلام فقال لقومه: ﴿إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ﴾ [هود: ٣٨]، فنوح لم يبتدئ السخرية، وإنما ردها.

ولزيادة الفائدة راجع: «تفسير الطبري» (١/ ٣٠٥)، «القواعد المثلى»، وغيرها.



والقول الثاني: وهو أصح ﴿فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ أي: ما تزيدونني بكلامكم هذا إلا يقيناً أنكم خاسرون، فالخسارة عائدة إليهم لا إلى صالح صلوات الله وسلامه عليه، وهذا أظهر؛ لأن في قوله: ﴿فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ﴾ إذا قلنا إن صالحاً يقول: ما تزيدونني أنا إلا خساراً، فكأنا أثبتنا لصالح بعض الخسارة وهم يزيدونه خسارة، ولكن إذا قلنا إن التخسير عائد إليهم فهم في خسار وإلى خسار، فهذا أظهر.

قوم صالح عليه السلام يطلبون آية:

بعد أن دعاهم إلى الله تبارك وتعالى، وملّوا دعوته قالوا: ﴿ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ [الأعراف: ٧٧]، فطلبوا من صالح صلوات الله وسلامه عليه أن يأتيهم بآية، فأتاهم بآية، وهي الناقة، وذكر كثير من المفسرين نقلاً عن بني إسرائيل قصة هذه الناقة، فقالوا: جاء قوم صالح إليه، فقالوا له: إذا أردت أن نتبعك؛ أرأيت هذه الصخرة العظيمة؟ قال: نعم، قالوا: أخرج لنا منها ناقة، ونحن نتبعك، ولكن اسمع: نريدها ناقة عُشَراء، يعني الآن ولدت معها فصيلها، فقال لهم صالح عليه السلام: أرأيتم إن فعلتُ أتؤمنون؟ قالوا: نعم، فقام صالح وصلى ركعتين صلوات الله وسلامه عليه، ودعا الله ـ جل وعلا ـ فانفجرت الصخرة عن ناقة عُشَراء، فآمن بعض قوم صالح، وكفر الأكثرون.

وهذا شبيه تماماً بقصة قريش مع النبي ﷺ لما قالوا له: إن كنت صادقاً؛ فشق لنا القمر نصفين، فقال لهم النبي ﷺ: «**أرأيتم إن فعلتُ، وانشق القمر نصفين، أتؤمنون؟**» قالوا: نعم، وما لنا ألا نؤمن؟ فدعا الله تبارك وتعالى، فشق الله القمر نصفين[1] حتى رأوا جبل أبي قبيس بينهما،

---

(١) انظر الروايات الواردة في ذلك في: «الصحيح المسند من دلائل النبوة» للشيخ مقبل الوادعي رحمه الله.



بين نصفي القمر، فقالوا: جئت بسحر عظيم، وهذا مصداق قول الله تبارك وتعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢﴾(1) [القمر] أي: قوي شديد، شق القمر نصفين، وما علموا أنها الرسالة، وأنها الآيات، وليس السحر كما زعموا، وكذبوا لعمر الله تبارك وتعالى.

ولذلك قال الله ـ جل وعلا ـ عنهم: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَـٰكِنَّ ٱلظَّـٰلِمِينَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣] هذا هو المشهور في كتب كثير من أهل العلم أن الناقة خرجت من الصخرة، وأما المشهور في كتاب الله وفي سنة النبي ﷺ أنها جاءتهم ناقة، ولم يُذكر أنها خرجت من صخرة، ولم يُذكر أنها كانت عُشَراء، وإنما ذُكر أنها ناقة ﴿لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ۝١٥٥ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝١٥٦﴾ [الشعراء].

إذاً هي ناقة، الله أعلم بها، خرجت من صخرة أو لم تخرج من صخرة، وإنما هي ناقة، وكانت آية، وهذه الناقة عظيمة بحيث إن الناس كلهم يشربون في يوم، والناقة تشرب في يوم ﴿لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبٌ﴾ كلٌّ له شِرْب، هذا هو المعلوم عن الناقة في كتاب الله وسنة النبي ﷺ، وأما غير ذلك فكله الله أعلم به.

المعلوم أن هذه الناقة نسبها الله لنفسه، فقال: ﴿نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَـٰهَا﴾ [الشمس: ١٣]، والله قد ينسب الشيء إلى نفسه، مثل: روح الله، ناقة الله، بيت الله.. فكلما نسب الله شيئاً إلى نفسه فهذا لتعظيمه وتشريفه، إما لأن هذه الناقة لا مالك لها من البشر، فتُنسب إلى مالكها الأصلي، وهو الله تبارك وتعالى، وإما لأنها خرجت من الصخرة كما قيل، ليس لها أب معلوم ولا أم فنسبت إلى الله لأنها لم تتطور بالخلق كما يتطور غيرها، وإنما خُلقت من غير ذكر ولا أنثى، ولذلك يلغزون، فيقولون، ثلاثة لم

---

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (١٢٢٢٧)، والترمذي في «الجامع» (٣٢٠٨).



يكونوا من ذكر ولا أنثى، ما هذه الثلاثة؟ فيقال: ناقة صالح، وعصا موسى، وسفينة نوح، يعني لم يكن لها مثيل من قبل، فالله أعلم بهذا.

الشاهد من هذا: أن هذه الناقة لها شأن عظيم، هذا الذي نريد أن نصل إليه، فقال: ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِيٓ أَرْضِ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ٧٣] لا تأكل من زروعكم التي زرعتموها أنتم، ولكن تأكل من أرض الله، مما أنبته الله ﷻ، ثم قال: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ﴾ [الأعراف: ٧٣] لا تمسوا هذه الناقة بسوء، في أكلها، في شربها، في الإضرار بها، بقتلها، بعقرها، بأي سوء، و«سوء» نكرة، فتشمل أي سوء، ﴿فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ﴾ [الأعراف: ٧٣]، إذا مسستم هذه الناقة بسوء، ثم قال: ﴿فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ٧٤].

قال الله تبارك وتعالى عن أولئك القوم: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾﴾ [القمر]، ثم عقروا الناقة كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الأعراف].

كيف قُتلت هذه الناقة؟

ذكر أهل العلم أنه قتلتها امرأة يقال لها: صدوق بنت المحيّا، وهذه المرأة جاءت لرجل يقال له: مِصْرَع بن مُهرِّج، فعرضت نفسها عليه، وكانت امرأة جميلة، فقالت: أتزوجك ومهري ناقة صالح.

وذُكرت قصة أخرى، وهي لامرأة اسمها عنيزة، وهي عجوز، ولها أربع بنات، فجاءت لرجل يقال له: قَدَّار بن سالف، فقالت له: أزوجك أيَّ بناتي شئت إن قتلت ناقة صالح، ويقال الاثنان معاً، يعني مِصْرَع بن مُهرّج وقَدَّار بن سالف، اجتمعا هذان ودعيا قومهما، فاستجاب لهما



سبعة آخرون كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [النمل].

فلما صدرت الناقة[(١)] ـ بعد أن وردت الماء، وشربت في يومها ـ رماها مِصْرَع بسهم، فوقع السهم في ساقها، فخرجت النساء يُهَيِّجْنَ القبيلة، وكَشَفْنَ عن وجوههن، وَحَسَرْنَ عن شعورهن، وصِرْنَ يصِحْنَ بالناس: اقتلوا الناقة.. اقتلوا الناقة.. فقام إليها قَدَّار بن سالف هذا، فشدّ عليها بالسيف، فخرّت ساقطة، ثم طعنها في لُبتها، فلما رأى الفصيل قتل أمه فرّ، وصعد على الجبل، ثم رغا ثلاث رغيات، وقيل: إنه قُتِلَ مع أمه، والقرآن والسنة لم يأتي فيهما ذكر لهذا الفصيل، وإنما ذُكرت الناقة وحدها، فالله أعلم.

عاقر الناقة:

عاقر الناقة أخبر عنه النبي ﷺ، فقال: «**انتدب لها رجل ذو عِزَّة ومَنَعَة في قومه كأبي زمعة**»[(٢)]، ولم يذكر النبي اسمه، ولكن ذكر صفته، قال: «**انتدب لها رجل ذو عزة**»، يعني: أنه قليل مثله، «**ومنعة**» يعني صاحب شهامة وقوة، ثم قال: «**ومنعة في قومه**» أي: له مكانة وقدر في قومه.

وقد جاء من حديث عمار بن ياسر عن النبي ﷺ أنه قال لعلي رضي الله عنه: «**ألا أحدثك بأشقى الناس؟**» فقال علي: بلى يا رسول الله، قال: «**رجلان، أحدهما أحيمر ثمود الذي عقر الناقة، والثاني الذي يضربك يا علي**» أخرجه ابن أبي حاتم، وفيه ضعف[(٣)].

---

(١) أي: تركت الماء.

(٢) أخرجه البخاري (٣٣٧٧)، ومسلم (٢٨٥٥) من حديث عبد الله بن زمعة رضي الله عنه.

(٣) وأخرجه أيضاً أحمد (٤/ ٢٦٣)، والنسائي «السنن الكبرى» (٨٥٣٨)، والحاكم (٤٦٧٩).



قال الله تبارك وتعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ۝١١ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ۝١٢ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ۝١٣ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا﴾ [الشمس]، والذي عقرها واحد، والله تبارك وتعالى يقول: ﴿فَعَقَرُوهَا﴾، فنسب العقر إلى الجميع، وقال في الأعراف: ﴿فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ [الأعراف: ٧٧] فنسب العقر إلى الجميع، ولم ينسبه إلى قَدَّار بن سالف أو مِصْرَع بن مُهَرّج، وإنما نسبه إلى جميع ثمود، وذلك لرضا الجميع بقتل الناقة، ولذلك جاء عن قتادة رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: إنّ عاقر الناقة قال: لا أقتلها حتى ترضوا جميعاً، فجعلوا يذهبون ويسألون الناس حتى كانوا يدخلون على المرأة في خدرها، فيقولون: أترضين أن تقتل الناقة؟ فتقول: نعم، حتى سألوا الصِبْية: أترضى أن تُعْقَر الناقة؟ فقالوا: نعم[1]، فلذلك نسب الله تبارك وتعالى عقر الناقة إلى جميع ثمود، وفي قول الله تبارك وتعالى: ﴿فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٧٧﴾ [الأعراف] أشنع الكفر والعناد والجبروت والجهل والعياذ بالله، وذلك أنهم جمعوا في كلامهم هذا كفراً بليغاً من أوجه كثيرة:

أولاً: خالفوا أمر الله وأمر رسوله؛ لأنه قال: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ﴾ [هود: ٦٤]، فهم لم يكتفوا بمسها بسوء حتى عقروها.

ثانياً: استهزؤوا برسولهم: وذلك عندما قالوا: ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٧٧] فهذا تكذيب له واستهزاء به صلوات الله وسلامه عليه.

ثالثاً: استعجلوا وقوع العذاب: فقالوا: ﴿ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٧٧].

(١) «تفسير الطبري» (١٢/ ٥٣٧).



حال الكفار في كل زمان ومكان:

وهـذا حال الكفار في كل زمان ومكان، يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ﴾ [الرعد: ٦] أي: هذا حالهم كمثال من كان قبلهم، ويقول الله تبارك وتعالى عن الكفار أنهم قالوا: ﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢] وهذا جهل عظيم، والمفروض أن يقولوا يا صالح إن كنت من المرسلين؛ فاسأل الله لنا أن يهدينا، أن يرحمنا، أن يتوب علينا، بل قالوا: ﴿ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٧٧].

محاولة قتل نبي الله صالح:

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُوا مَكْرًا﴾ [النمل] وهذه جريمة ثانية أعظم من الجريمة الأولى، فالجريمة الأولى: قتل الناقة، والجريمة الثانية التي لم يتمكنوا منها: قتل صالح صلوات الله وسلامه عليه

قال الله تعالى على لسان أولئك القوم: ﴿تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ﴾ [النمل: ٤٩] أي: حلف بعضهم لبعض، ﴿لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ﴾ أي: ندخل عليهم ليلاً، نقتلهم هو وأهله ﴿ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ﴾ إذاً كان له أولياء، كانت له قبيلة، وهذا يدل على أنهم كانوا يخافون منهم ويحسبون لهم ألف حساب، ولـذلـك قـصـدوه لـيـلاً ﴿ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ [النمل: ٤٩] وقولهم: ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ عجيب، قال بعض أهل العلم: ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾، أنهم ما شاهدوهم؛ لأنهم جاؤوهم ليلاً، وقتلوهم ليلاً، في ظلمة.

أو يكون من باب الاستهزاء والسخرية ﴿وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ أي: فيما



نقول، هذا مكرهم، قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٥٠ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ﴾ [النمل] هم مكروا والله مكر ﷻ، ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٥١﴾ [النمل] هذه هي النتيجة: أن الله دمرهم ﷻ.

وقالوا: نقتل صالحاً، فإن كان صادقاً عجلناه إلى الجنة، وإن كان كاذباً ألحقناه بناقته، قتلوا الناقة، وقرروا أن يقتلوا نبي الله، الآن التدخل من الله تبارك وتعالى، فمنع الله عنهم المطر تخويفاً وإنذاراً، فقال المستكبرون: إن صالحاً سبب منع المطر، وهو شؤم علينا، هو ومن معه من المؤمنين، ﴿قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ﴾ [النمل: ٤٧]، ﴿قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللَّهِ﴾ [النمل: ٤٧] الشؤم منكم، ومثل قولهم الذي جاء إلى القرية ودعاهم إلى الله تبارك وتعالى، وجاء معه مرسلون آخرون، فدعوهم إلى الله تبارك وتعالى، قالوا: ﴿إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾ [يس: ١٨]، ﴿قَالُوا طَائِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ۝١٩﴾ [يس].

والتطير عند العرب هو أن الواحد منهم إذا قصد شيئاً: سفراً، زواجاً، تجارة، أي شيء، يأخذ طيراً، ثم يرسله، فإذا اتجه الطير جهة اليمين قالوا: خيراً فيتجهون إلى مقصدهم، وإذا اتجه الطير جهة اليسار؛ قالوا: شراً فيمتنعون عن هذا العمل، وهذا من أجهل الجهل، فالطير بهيمة لا تفهم، ولا تدري ما يريدون من الأعمال، فهو يطير حيث يشاء يميناً أو شمالاً.

ويذكر عن طاووس بن كيسان ـ إمام من أئمة التابعين ـ أنه سافر مع رجل، وفي الطريق مرَّ غراب، فنعق، فقال الرجل: خير، فالتفت إليه طاووس فقال: أي خير في الأمر، غراب نعق أي خير في هذا وأي شر؟ والله لا أسافر معك أبداً.

قوم صالح عليه السلام ينتظرون العذاب ويستعجلون به:

طلب قوم صالح من صالح أن يستعجل لهم العذاب، فواعدهم صالح ثلاثة أيام، وبعدها يأتيكم العذاب، وعدٌ غير مكذوب، بدأ العذاب يوم الخميس، وذلك أنهم أصبحوا فإذا وجوههم مصفرة، كلٌ يرى الثاني وجهه مصفراً، فلما كان يوم الجمعة فإذا وجوههم محمرة، ولما كان يوم السبت؛ فإذا وجوههم مسودة، فجلسوا في أماكنهم ينتظرون العذاب، لما جاء يوم الأحد بمجرد أن أشرقت الشمس فإذا العذاب قد عمهم جميعاً(١).

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله: «وعدهم صالح صيحة من السماء من فوقهم ورجفة شديدة من أسفل منهم، ففاضت الأرواح، وزهقت النفوس، وحقت الحقائق ﴿فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ [الأعراف: ٧٨] لا أرواح فيهم، ولا حراك بها»(٢).

وقد ذكر الله عذابهم في أكثر من آية، فقال ـ جل وعلا ـ: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾ [الأعراف: ٧٨]، وقال في سورة هود: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ﴾ [هود: ٩٤] وقال في سورة الشعراء: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ [الشعراء: ١٥٨]، وقال في سورة النمل: ﴿أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ﴾ [النمل: ٥١] وقال في سورة فصلت: ﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ﴾ [فصلت: ١٧] وقال في سورة القمر: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُواْ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾﴾ [القمر] الزرع اليابس المتفتت.

قال ـ جل وعلا ـ بعد أن أهلكهم وأبادهم: ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَآ﴾ [الأعراف: ٩٢] أي: صاروا بسبب هلاكهم وخراب ديارهم كأنهم لم يقيموا بها ولم يسكنوها أبداً، وفي هذا تحذير شديد لمن يغتر بهذه الدنيا

(١) «تفسير الطبري» (١٢/٥٢٧، ٥٣٥، ٥٣٦، ٥٣٧)، (١٥/٣٧٦).
(٢) «تفسير ابن كثير» (٣/٤٤٢).



وزخارفها، والله إنه لمشهد مؤثر ما بين الحياة والموت إلا لمحة واحدة أو غمضة عين ﴿كَأَن لَّمْ يَغْنَوْاْ فِيهَا﴾ [الأعراف: ٩٢]، كأن لم يكن ما سبق من حياة ﴿تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا﴾ [الأعراف: ٧٤]، زروع وأنهار وخير، كأن لم يغنوا فيها.

قال الله تعالى: ﴿فَتَوَلَّى عَنْهُمْ﴾ أي: نبي الله صالح، وقال: ﴿يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِن لَّا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٧٩].

وهنا كلمهم بعد هلاكهم، مَرَّ عليهم وهم جثث هامدة، متناثرة، جاثمين، وهذا حق كما خاطب النبي ﷺ أهل قليب بدر جلس عند رأس البئر بعد أن أُلقي كفار مكة «**هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً فإنا وجدنا ما وعد ربنا حقاً؟**» فالتفت إليه عمر، وقال: يا رسول الله! إنهم أموات، قال: «**والله يا عمر ما أنت بأسمع لي منهم**»(١)، يُسْمِعهم الله، خزيٌ في الحياة الدنيا، وعذاب نفسي قبل العذاب البدني ثم يأتي العذاب الأخروي.

موقفنا من أماكن المعذبين:

عن ابن عمر رضي الله عنهما أنَّ رسول الله ﷺ مرَّ بقرى ثمود، فاستسقى الناس من الآبار، وعجنوا، فأمرهم النبي ﷺ فأهراقوا القدور، وعلفوا العجين للإبل، ونهاهم أن يدخلوا على القوم الذين عُذبوا، وقال: «**إني أخشى أن يصيبكم مثل ما أصابهم لا تدخلوا عليهم**»(٢).

وبعض الجهلة يذهب إلى تلك الأماكن ويصور ويفرح ويضحك،

---

(١) أخرجه البخاري (٣٩٧٦)، ومسلم (٢٨٧٣، ٢٨٧٥).

(٢) أخرجه أحمد (٥٩٤٨)، ومسلم (٢٩٨١).

(٣) أخرجه البخاري (٣٣٨١)، ومسلم (٢٩٨٠) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.



والنبي ﷺ نهى عن ذلك، وقال: **«لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين، فإن لم تكونوا باكين؛ فلا تدخلوا عليهم أن يصيبكم مثل ما أصابهم»**(١).

وعن عامر بن سعد قال: لما كان النبي ﷺ في غزوة تبوك سارع الناس إلى أهل الحِجْر يدخلون عليهم، فقال رسول الله ﷺ: **«ما تدخلون على قوم غضب الله عليهم؟»** فقال رجل: نعجب، فقال صلوات الله وسلامه عليه: **«أفلا أنبئكم بأعجب من ذلك: رجل من أنفسكم ينبئكم بما كان قبلكم، وما هو كائن بعدكم، فاستقيموا، وسددوا، فإن الله لا يعبأ بعذابكم شيئاً»**(٢).

الدروس والعبر في قصة صالح عليه السلام

أولاً: دعوة الأنبياء واحدة: ومن كَذَّب واحداً فقد كذب الجميع كما قال الله ـ جل وعلا ـ ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾﴾ [الشعراء].

ثانياً: العاقبة دائماً تكون لرسل الله عليهم السلام: بعد أن يصل الطغيان إلى منتهاه، فإن الله يمهل ولا يهمل سبحانه وتعالى.

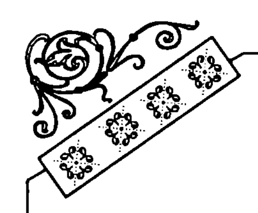
ثالثاً: من أكبر موانع قبول الحق اتباع الآباء.

رابعاً: وإن الآيات مهما كانت واضحة فإن المجرمين قد لا يهتدون بها كما رأوا الناقة ثم لم يؤمنوا بها.



(١) أخرجه أحمد (٤/ ٢٣١)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٨٥١)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٧٠١٢) من حديث أبي كبشة الأنماري رضي الله عنه، وقال في «مجمع الزوائد» (١٠٣٢٥): «فيه عبد الرحمٰن بن عبد الله المسعودي وقد اختلط»، وضعفه الأرناؤوط.






قصة إبراهيم عليه السلام

إبراهيم عليه الصلاة السلام هو أبو الأنبياء الذي قال الله تبارك وتعالى عنه: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾﴾ [النحل](1)، خليل الرحمٰن.

ذُكر نبي الله إبراهيم في كتاب الله تبارك وتعالى تسعاً وستين مرة، واختلف أهل العلم في اسم أبيه، فالذي ذكره الله تبارك وتعالى في كتابه

---

(١) قال ابن القيم رحمه الله: «فهذه أربعة أنواع من الثناء؛ افتتحها بأنه أُمَّة، والأُمَّة هو: القدوة الذي يؤتم به. . .، والفرق بين الأُمَّة والإمام من وجهين:
أحدهما: أن الإمام كل ما يؤتم به سواء كان بقصده وشعوره أو لا؛ ومنه سُمِّي الطريق إماماً. .
الثاني: أن الأُمَّة فيه زيادة معنى؛ وهو الذي جمع صفات الكمال من العلم والعمل بحيث بقي فرداً وحده، فهو الجامع لخصال تفرقت في غيره، فكأنه باين غيره باجتماعها فيه وتفرقها أو عدمها في غيره.
الثناء الثاني: قوله: ﴿قَانِتًا لِّلَّهِ﴾. . .، والقنوت يُفَسَّر بأشياء كلها ترجع إلى دوام الطاعة.
الثناء الثالث: قوله: ﴿حَنِيفًا﴾ والحنيف المقبل على الله، ويلزم هذا المعنى ميله عمَّا سواه.
الثناء الرابع: قوله: ﴿شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ﴾، والشكر للنعم مبني على ثلاثة أركان:
١ ـ الإقرار بالنعمة.
٢ ـ وإضافتها إلى المنعِم بها.
٣ ـ وصرفها في مرضاته، والعمل فيها بما يجب، فلا يكون العبد شاكراً إلا بهذه الأشياء الثلاثة. والمقصود أنه مدح خليله بأربع صفات كلها ترجع إلى العلم، والعمل بموجبه، وتعليمه ونشره. فعاد الكمال كله إلى العلم والعمل بموجبه ودعوة الخلق إليه». انظر: «مفتاح دار السعادة» (١/ ٥٢٣ ـ ٥٢٤).



العزيز أن اسم أبيه آزر، كما قال ـ جل وعلا ـ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ﴾ [الأنعام: ٧٤]، وكذلك جاء في السنة عن النبي ﷺ أنه قال: «**يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة ـ وعلى وجه آزر قترة وغبرة ـ، فيقول له إبراهيم: ألم أقل لك لا تعصني؟ فيقول لإبراهيم عليه الصلاة والسلام: فاليوم لا أعصيك، عندها يقول إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه: يا رب إنك وعدتني ألا تخزني يوم يبعثون، وأيُّ خزي أخزى من أبي الأبعد، فيقول الله له: إني حرمت الجنة على الكافرين**»[1].

فالذي جاء في الكتاب والسنة أن اسم أبيه آزر، والمشهور في كتب الأنساب وفي كتب أهل الكتاب أن اسم أبيه تارح، وقيل: إن آزر عمٌّ لإبراهيم، وهو الذي ربّاه، فسماه أباً، لقول النبي ﷺ: «**عمّ الرجل صنو أبيه**»[2] يعني كأبيه، فسماه أباً من باب الاحترام.

والظاهر من نصوص القرآن الكريم أن آزرَ أبٌ صريح لإبراهيم صلوات الله وسلامه عليه، فجمع بعض أهل العلم هذا بقولهم: لعل أحد الاسمين لقب والآخر اسم، فيكون اسمه آزر، ولقبه تارح، أو العكس، أو يكون له أكثر من اسم، وأياً كان لا يهم كثيراً.

نشأة إبراهيم عليه السلام:

نشأ إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه في العراق، في بيئة وثنية، تُقدس الأصنام، وتعبدها من دون الله تبارك وتعالى، بل قيل: إنهم كانوا صابئةً يعبدون الشمس، والقمر، والكواكب، وأياً كان؛ فعبادتهم للأصنام جاء النص عليها في كتاب الله تبارك وتعالى.

ذُكر أن أبا إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه كان نجاراً، وكان

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٥٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الإمام مسلم (١٦٣٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.



ينجر الأصنام، وكان أحياناً يعطيها لولده إبراهيم، يأمره أن يبيعها، فيخرج بها ـ وهو صغير ـ إلى السوق، فينادي بالناس: «**من يشتري ما يضر ولا ينفع**»، وكان أحياناً يذهب بها إلى الماء، فيغطس رأسها في الماء ويقول: «**اشربي**» متهكماً صلوات الله وسلامه عليه.

ومن نظر في الكتاب والسنة يتبين له أن الله تبارك وتعالى لم يذكر لنا ولا النبي ﷺ شيئاً عن نشأة إبراهيم، لا عن بلده، ولا عن زمانه، ولا عن نشأته من الصغر، كيف نشأ؟ كيف رُبي؟ لم يُذكر شيء من هذا، وإنما أول ما ذكر عن إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه، هو أنه جاء وخاطب قومه في عبادتهم للأصنام.

المسلمون أحق الناس بإبراهيم عليه السلام:

انتسب إلى إبراهيم أربعُ طوائف: المسلمون، واليهود، والنصارى، والمشركون، كلٌّ هؤلاء انتسبوا لإبراهيم، فهو إذاً عامل مشترك بين الجميع، فالكل يعظم هذا الإنسان صلوات الله وسلامه عليه، ولذلك نبه الله تبارك وتعالى كثيراً في كتابه العزيز على حال إبراهيم، ومن الذي يستحق أن ينتسب إليه صلوات الله وسلامه عليه.

أما اليهود والنصارى فقد قال الله تبارك وتعالى يخاطب أهل الكتاب: ﴿أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾ [البقرة: ١٤٠]، وقال ﷻ: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [آل عمران]، فإبراهيم عليه الصلاة والسلام ما كان يهودياً، ولا نصرانياً، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [آل عمران]، فكان صلوات الله وسلامه عليه متحنفاً عن الشرك أي: منحرفاً عن الشرك إلى الإيمان.



حقيقة دعوة إبراهيم عليه السلام:

والآيات التي تبين حقيقة دعوة إبراهيم صلوات الله وسلامه عل كثيرة جداً في كتاب الله تبارك وتعالى، فمنها قول الله تبارك وتعالى ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِ لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَـٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾﴾ [النحل]، وقال جل ذكره لنبيه محمد ﷺ: ﴿قُلْ إِ هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِ ﴿١٦١﴾﴾ [الأنعام]، وقال ﷻ: ﴿قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾﴾ [آل عمران]، وقال: ﴿وَجَـٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ هُوَ سَمَّىٰ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ [الحج: ٧٨].

فنبَّه الله تبارك وتعالى كثيراً في كتابه العزيز على هذه القض المهمة، وهي أن إبراهيم ما كان مشركاً، ولذلك لما فتح الله تبار وتعالى على نبيه مكة ـ شرفها الله ـ دخل الكعبة، فوجدهم رسموا إبراه وإسماعيل صلوات الله وسلامه عليهما وهما يستقسمان بالأزلام، فق النبي ﷺ: «**والله إنِ استقسما بالأزلام أبداً**»[١]، و(إنْ) هنا بمعنى (م النافية.

فضل إبراهيم عليه السلام:

نبه الله تبارك وتعالى وكذا نبيه ﷺ كثيراً على فضائل إبراه صلوات الله وسلامه عليه، فمما جاء في كتاب الله:

أولاً: الاصطفاء وتمام النعمة: فقال الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَ

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٥٢) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.



﴿وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَاهِيمَ وَءَالَ عِمْرَانَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٣٣﴾ [آل عمران]، وأتم نعمته عليه كما يقول ليوسف عليه السلام: ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ﴾ [يوسف: ٦].

ثانياً: وصفه الله بأنه نبي صديق: كما قال الله ـ جل وعلا ـ: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ۝٤١﴾ [مريم].

ثالثاً: وصفه الله بالصلاح: فقال ﷻ: ﴿وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [البقرة: ١٣٠].

رابعاً: وصفه بأنه أواه حليم منيب: فقال: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ۝٧٥﴾ [هود].

خامساً: سليم القلب: قال تعالى: ﴿إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ۝٨٤﴾ [الصافات].

سادساً: آتاه الله رشده وهو صغير، فضلاً من الله ومنّة، وقال: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ۝٥١﴾ [الأنبياء].

سابعاً: رفع الله درجته: فقال: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ﴾ [الأنعام: ٨٣].

ثامناً: اتخذه الله خليلاً: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥].

تاسعاً: أنه وفَّى ما عليه: فقال الله ﷻ: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ۝٣٧﴾ [النجم].

وأما ما جاء عن النبي ﷺ:

فقد جاء رجل إلى النبي صلوات الله وسلامه عليه، فقال له: يا خير البرية، فقال صلوات الله وسلامه عليه: «**ذاك إبراهيم خليل الله**»[1].

(١) أخرجه مسلم (٢٣٦٩) من حديث أنس رضي الله عنه.



وجاء عن النبي ﷺ أن أول الخلائق يكسى يوم القيامة إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه(١).

وفي حديث المعراج: لما عُرج بالنبي ﷺ لقي إبراهيم عليه الصلاة والسلام في السماء السابعة مسنداً ظهره إلى البيت المعمور(٢).

دعوة إبراهيم عليه السلام لأبيه:

بدأ نبي الله إبراهيم دعوته بأبيه، وتلطف معه أعظم التلطف، وهذا مصداق قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾ [الشعراء]، فبدأ بأقرب الناس إليه، وهو أبوه، ولم يذكر الله تبارك وتعالى لنا شيئاً عن أمه، وإنما ذكر لنا أباه، فتلطّف في الدعوة مع أبيه كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾﴾ [مريم]، ولم يقلْ له: (يا أبت إنك جاهل)، وإنما جاء بعبارة لطيفة، فقال: ﴿جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا﴾، مع أن أباه كان يعبد الأصنام وينحتها، وهذه طاعة للشيطان، وهذا يُسمى بشرك الطاعة، كما قال الله ﷻ: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾﴾ [يس] أي: ألا تطيعوا الشيطان.

ثم قال إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾﴾ [مريم]، نعم، كلُّ كافر فهو ولي للشيطان، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ﴾ [آل عمران: ١٧٥] أي: يخوفكم أولياءه، وقال: ﴿فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٤٩)، ومسلم (٢٨٦٠) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه البخاري (٣٢٠٧)، ومسلم (١٦٢)، واللفظ له.



﴿ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ [النساء: ٧٦]، وقال: ﴿إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ٣٠]، وكلمة إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه لأبيه هنا تضمنت ـ كما نرى ـ النصحَ، والرفقَ، واللينَ، ومحبةَ الخير، وإقامةَ الحجة على أبيه؛ لينقذه من عذاب الله تبارك وتعالى، ومن الضلال إلى الهدى، هكذا كانت دعوة إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه، فكيف كان رد أبيه عليه؟ ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴿٤٦﴾﴾ [مريم]، إبراهيم يقول: (يا أبت.. يا أبت.. يا أبت)، وأبوه يقول: ﴿يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾، ولم يقل له: (يا بُني)، قسوة يجدها الكافر في قلبه، حتى كلمة (بُنَي) لم يقلها لإبراهيم، وإنما ناداه باسمه دلالةً على القسوة التي في قلبه عليه.

ولذلك وصف الله تبارك وتعالى الكفار بأن قلوبهم قاسية: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤]، ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ﴾، ثم زادت هذه القسوة فهدد بالرجم ثم زادت، فقال: ﴿وَٱهْجُرْنِى﴾، فطلب الهجر من إبراهيم، ثم أيُّ هجر قال: ﴿وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا﴾ أي: اهجرني هجراً طويلاً، لا أريد أن أراك، لا أريد أن أسمعك، طلبَ من إبراهيم أن يتركه وآلهته، عندها قال إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكَ﴾ [مريم: ٤٧]، وهذا مصداق أمر الله تبارك وتعالى للمؤمنين في تعاملهم مع الجهال، ولذلك قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾﴾ [الفرقان].

وقال: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [القصص] فطبق نبي الله إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه هذا الأمر، فقال لأبيه: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكَ﴾ [مريم: ٤٧].

ثم قال: ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ﴾ [مريم: ٤٧] وهذا وعد من إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه، وقد وفّى صلوات الله وسلامه عليه بهذا الوعد، فقال: ﴿وَٱغْفِرْ لِأَبِيٓ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ۝٨٦﴾ [الشعراء]، فوفى إبراهيم، ولكن لما تبيَّن لنبي الله إبراهيم أن أباه عدوٌ لله تبارك وتعالى تبرَّأ منه، قال الله ـ جل وعلا ـ: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٤]، ولما استغفر إبراهيم لأبيه ـ وهو على شركه وضلاله وكفره ـ اقتدى المسلمون بإبراهيم صلوات الله وسلامه عليه، فاستغفروا لموتاهم من المشركين، واستغفر النبي ﷺ لعمه أبي طالب، وكان يصلي على بعض المنافقين إذا ماتوا صلوات الله وسلامه عليه، فقال الله تبارك وتعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ۝١١٣﴾ [التوبة].

وقد أمر الله تبارك وتعالى المؤمنين بالاقتداء بإبراهيم صلوات الله وسلام عليه، فقال: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة: ٤]، ثم استثنى الله تبارك تعالى استغفار إبراهيم لأبيه، فقال: ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ [الممتحنة: ٤] هذه مستثناة، في هذه لا تقتدوا بإبراهيم صلوات الله وسلامه عليه، فمنعهم الله ـ جل وعلا ـ من الاستغفار للمشركين، ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُۚ﴾ [التوبة: ١١٤] إذاً لا تقتدوا به في هذه، وهي استغفاره للمشركين؛ لأنه إنما كان عن موعدةٍ ثم ترك ذلك إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه.

كذلك قال إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه لأبيه: ﴿أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا



ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٧٤]، وقال ﷻ: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُواْ نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَٰكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُواْ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الشعراء]، وقال: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُواْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [الأنبياء]، وقال: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾ [العنكبوت]، هذا حديث إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه لأبيه يحذره من الشرك الذي وقع فيه.

دعوة إبراهيم عليه السلام لقومه ومناظرته لهم:

المرحلة الثانية من دعوة إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه هي دعوة قومه إلى التوحيد، فقال ـ جل وعلا ـ في ذكر المناظرة التي جرَتْ لإبراهيم مع قومه، : ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْأَفِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الأنعام].

إن موقف إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه من هذه الكواكب موقف مناظرة لا موقف نَظَر، فلم يشكَّ إبراهيم أبداً بالله ـ جل وعلا ـ، ولا فكر يوماً أن النجم يمكن أن يكون رباً، أو أن القمر يمكن أن يكون



رباً أو أن الشمس يمكن أن تكون رباً أبداً، وإنما هذا على سبيل التنزل في المناظرة مع قومه، وهذا أمر شائع في المناظرات، ولذلك قال بعدها: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ [الأنعام: ٨٣]، إذاً هو أراد أن يقيم عليهم الحجة، وما أراد أبداً أن هذا إله من دون الله تبارك وتعالى[١].

وكأن إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه قال لقومه: تعالوا فلننظر هذا النجم هل يستحق أن يكون رباً؟ هذا القمر هل يستحق أن يكون رباً؟ هذه الشمس هل تستحق أن تكون رباً؟ أفل النجم، أفل القمر، أفلت الشمس، أفل أي: غاب، ولا ينبغي لرب أن يغيب، والمناظر قد يقول شيئاً وهو لا يعتقده من باب الإلزام، ولذلك سيأتينا قول إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه لقومه لما جاءوا ـ وقد كسّر أصنامهم ـ فقالوا له: ﴿ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [الأنبياء]، فهذا على سبيل المناظرة لا على سبيل الاعتقاد، فهو أراد أن يلزمهم وأن يقيم عليهم الحجة صلوات الله وسلامه عليه.

وفي قوله: ﴿هَٰذَا رَبِّى﴾ [الأنعام: ٧٦] يحتمل أمرين:

الأول: أن يكون هذا من باب الاستفهام، فكأن إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه جلس مع قومه، فلما رأى النجم قال لهم: (هذا ربي)؟ بإسقاط الهمزة، (أهذا ربي؟) أهذا تزعمون أنه ربٌّ؟ فلما غاب طلع القمر، فقال: أهذا ربي؟ فلما غاب طلعت الشمس قال: أهذا ربي؟ وهو لا يقولها على سبيل التقرير، وإنما يقولها على سبيل الاستفهام، على وجه التوبيخ والتحقير لرأيهم، كما في قول الله تبارك وتعالى: ﴿أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٤] أي: إذا متَّ أنت هم يخلدون؟! أنت

(١) لزيادة الفائدة يراجع: «تفسير ابن كثير» (٣/ ٢٩١).



تموت وهم ميتون، فهذا يكون على سبيل التوبيخ في الاستفهام، لا على سبيل أنه يعتقد هذا الأمر.

والدليل على أن إبراهيم لم يشك أمور منها:

أولاً: الاعتقاد بأن النجم ربٌ، أو أن القمر ربٌ، أو أن الشمس ربٌ كفر، والأنبياء معصومون مِنْ الكفر، وقد تقدم القول في هذا، وقد أجمعت الأمة على أن الأنبياء معصومون من الكفر، ومن زعم أن نبياً من الأنبياء كفر بالله تبارك وتعالى؛ فهو الكافر.

ثانياً: إبراهيم أنكر الشرك في البداية: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٧٤﴾ [الأنعام]، ثم قال: ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي﴾ [الأنعام: ٧٧]، إذاً هو في البداية أنكر عليهم أن يعبدوا غير الله تبارك وتعالى، فكيف يشك في هذه المسألة؟

ثالثاً: هذه الآية إنما كانت بعد أن أراه الله تبارك وتعالى ملكوت السماوات والأرض؛ أي: عظمة خلق الله ـ جل وعلا ـ، ثم قال: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا﴾ [الأنعام: ٧٦]، فالذي أراه الله ملكوت السماوات والأرض لا يمكن أبداً أن يشك بأن النجم رب، أو أن القمر رب، أو أن الشمس رب.

رابعاً: قوله تعالى في آخر هذه الآيات: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ [الأنعام: ٨٣] دَلَّ على أنه أراد أن يقيم عليهم الحجة، لا أنه اعتقد ذلك صلوات الله وسلامه عليه.

خامساً: نفى الله الشرك عن إبراهيم في كثير من الآيات، فقال: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٦١]، ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠] في آيات كثيرة، وهذا يُسمى بنفي الكون؛ أي: لم يكن، ولن يكون أبداً من المشركين، فلم يكن إبراهيم يوماً من المشركين، وهذا نصٌّ من الله تبارك وتعالى إذ يستغرق جميع الزمن الذي عاش فيه إبراهيم عليه السلام.



هل وقع الكذب من إبراهيم عليه السلام:

قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [الشعراء]، ﴿أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾﴾ [الصافات]، وهنا في قول الله تبارك وتعالى: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ﴾، وذلك أن قومه أرادوا أن يخرجوا إلى عيدهم ـ كما ذكر أهل السير والتاريخ ـ وطلبوا من إبراهيم أن يخرج معهم، فقال ﴿إِنِّى سَقِيمٌ﴾، نظر نظرة في النجوم فقال إني سقيم.

ومن المعلوم من الدين بالضرورة، أن الأنبياء صادقون في كل ما أخبروا به عن الله ﷻ، وأن من كَذَّبَ نبياً في خبر فهو كافر بالله تبارك وتعالى، فهل كان إبراهيم سقيماً؛ أي: مريضاً؟ وهل يجوز أن ينسب إليه الكذب صلوات الله وسلامه عليه؟

قال رسول الله ﷺ كما في الحديث الصحيح: «**لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات: في قوله: ﴿إِنِّى سَقِيمٌ﴾، وفي قوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾، وفي قوله: عن زوجته عند الملك الظالم: إنها أختي**»[(١)].

هذه ثلاث كذبات تنسب إلى نبي الله إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه، بل قد جاء في الحديث الصحيح ـ حديث الشفاعة ـ أن الناس يذهبون إلى إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه فيقولون له: أنت خليل الله، اشفع لنا عند ربك، فيقول صلوات الله وسلامه عليه: «**إني قد كنت كذبت ثلاث كذبات**»[(٢)]، فهل يجوز أن يُنْسَب لإبراهيم الكذب أو لا؟

النبي ﷺ الذي هو من أعظم الناس تعظيماً لإبراهيم صلوات الله

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٥٨)، ومسلم (٢٣٧١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) تقدم تخريجه ص٥٥.



وسلامه عليه قال: «**نحن أولى بالشك من إبراهيم**»(١)، فنزهه، وكثيراً ما كان يفتخر بنسبته إلى إبراهيم، بل إن الله كثيراً ما كان يقول له: ﴿وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [النساء: ١٢٥]، وإبراهيم نسب هذا إلى نفسه، وقال: «**كذبت ثلاث كذبات**» وجاء عن النبي ﷺ أنه قال: «**كذب في ذات الله**»(٢)، فكيف يُحمل هذا الكذب؟

أجاب أهل العلم بعدة أجوبة:

الجواب الأول: أن هذه الكذبات الثلاث إنما كانت قبل النبوة، ونهيه لهم عن عبادة الأصنام، وقوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ إنما كان من باب الفطرة؛ أي: إن فطرة إبراهيم دفعته لهذا، ولذلك لما كان يبعثه أبوه ليبيع الأصنام يقول: «**من ذا الذي يشتري ما يضر ولا ينفع**»، وكان ينكر على قومه عبادة الأصنام، كلٌّ ذلك قبل النبوة، ولذا يأتينا عندما يكسر إبراهيم الأصنام يقول قومه: ﴿سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ﴾ [الأنبياء: ٦٠].

إذاً هو غير معروف، هو فتى؛ أي: صغير، يقال له: إبراهيم، ولو كان قد بعث إليهم ما كانوا يقولون: ﴿فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ﴾.

وكذا الأمر بالنسبة لقوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ﴾ لأنها في قصة واحدة، وكذا في ذهابه إلى ذلك الملك، قالوا كذلك يكون قبل بعثته صلوات الله وسلامه عليه.

والجواب الثاني: إنما قال هذا من باب التورية، خاصةً عندما قال: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ إذ لا يلزم أن يكون يريد المرض الذي هو علة في الجسد، وإنما هو سقيم كما قال النبي ﷺ: «**إن الميت ليعذب ببكاء**

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٧٢)، ومسلم (١٥١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) تقدم تخريجه قريباً، وهو في الصحيحين.



أهله»[١] أي: العذاب النفسي، يتعذب لأجلهم، لأجل ما يرى ما هم عليه من الضلال، وكذلك يقول: إني سقيم مما أراه منكم من ضلال، سقيم مما أراه منكم من باطل، ومن كفر بالله، وعبادة للأصنام التي لا تضر ولا تنفع، بل تضر ولا تنفع فيكون هذا من باب التورية لا من باب الكذب.

وكذا قوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ [الأنبياء: ٦٣] إنما قاله لهم من باب الاستهزاء والتحقير لهم، ولذلك قال بعدها: ﴿فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٣] اسألوهم، مَنْ كسرها؟ اسألوا هذا الكبير هل هو الذي كسرها أو لا؟

وأما قوله لزوجته إنها أخته، فإن هذا على سبيل دفع أعظم المفسدتين، وذلك أنهم ذكروا أن ذلك الملك إذا عرف أن لها زوجاً قتله، وأخذها لنفسه، فلذلك دفع إبراهيم أعظم المفسدتين بأخفهما، فكذب وقال: هي أختي؛ لينجو من القتل، وتنجو هي من الاغتصاب، وهذا عين العقل، وهذا هو الواجب في الشرع أن الإنسان إذا اعترضته مفسدتان ـ ولا بد من الوقوع في إحداهما ـ فإنه يقدم أخفَّ المفسدتين.

ولذلك ولو أن مظلوماً خلفه من يريد أن يقتله أو يؤذيه، ثم جاء واختبأ عند شخص، ثم سئل أين فلان؟ فقال له: والله لولا أن الكذب حرام لقلت أنه غير موجود، هو في الداخل، فهو آثم ومجرم بفعله هذا لأنه عرض للقتل بجهله، بل إن الكذب هنا واجب.

فالقصد أن إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه إنما قال هذا من باب دفع أعظم المفسدتين[٢].

---

(١) أخرجه البخاري (١٢٨٨)، ومسلم (٩٢٨).

(٢) قال ابن القيم رحمه الله: «إذا تأملت شرائع دينه سبحانه التي وضعها بين عباده؛ وجدتها لا تخرج عن تحصيل المصالح الخالصة أو الراجحة بحسب الإمكان، وإن تزاحمت قدم =

ولذلك لما دعا إبراهيم قومه إلى عبادة الله تبارك وتعالى لم يقل له قومه إنك تكذب وما اتهموه بالكذب؛ لأنهم ما فهموا أبداً أن في قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ [الصافات: ٨٩] وأن في قوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ [الأنبياء: ٦٣] أنه كذاب، بل فهموا أنه أراد إلزامهم بالحجة صلوات الله وسلامه عليه.

ثم كذلك ليس فيه أنه خاطبهم بهذا، فقال لهم: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾، بل قالها في نفسه: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ [الصافات: ٨٩] أي: مما أراه من ضلال قومي.

هدم الأصنام من سنن الأنبياء والمرسلين:

خرج قوم إبراهيم عليه السلام إلى عيدهم، وإبراهيم فيه حرقة على ما يفعله قومه، قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهَتِهِمْ﴾ [الصافات: ٩١] أي: مسرعاً متخفياً، فدخل على الآلهة، فوجدها في بهو عظيم، ومكان متسع، وقد وُضع لها الطعام، فدخل عليها، ووجد الطعام كما هو لم يتغير، فقال لهم: ألا تأكلون؟

وهذا يفعله بعض الجهال الآن يذهبون إلى المقابر ويضعون الطعام والشراب عند قبر الميت ليشاركهم في الطعام، هؤلاء يقال لهم كما قال إبراهيم لهذه الأصنام: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾، فجاء إلى هذه الأصنام، فقال: ألا تأكلون؟ كلوا، وُضع الطعام لأجلكم، ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [الصافات] قولوا: لا نريد، قولوا: لا نأكل، قولوا: لا نجوع، قولوا: نحن آلهة، ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ﴾ عبّروا عن رأيكم مالكم لا

= أهمُّها وأجلُّها، وإن فاتت أدناهما، وتعطيل المفاسد الخالصة أو الراجحة بحسب الإمكان وإن تزاحمت عطل أعظمها فساداً باحتمال أدناهما». «مفتاح دار السعادة» (٢/ ٣٦٢).



تنطقون؟ ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ ﴿٩٣﴾﴾؛ أي: كسّرها صلوات الله وسلامه عليه، فأقبلوا إليه يزفون فواجههم، وقال: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [الصافات].

ويقول ﷻ: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الشعراء]. وقولهم: ﴿بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا﴾ هذه يسمونها حيدة؛ أي: حادوا عن الجواب، هو ما قال لهم: هل كان يعبدها آباؤكم أو لا؟ إنما قال لهم: ﴿هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾﴾ المفروض أن يكون الجواب بنعم أو لا، لكن قالوا: ﴿بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [الشعراء].

وهذا إقرار واعتراف منهم أنها لا تنفع، ولا تضر، ولا تسمع، ولذلك يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الأنبياء] كأنهم في كلامهم محبون للحق وأنهم يتبعونه، ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [الأنبياء]، إذاً هددهم إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه بأنه سيكيد هذه الأصنام، يقول الله تبارك وتعالى: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا﴾ أي: حطمهم ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [الأنبياء].

وهذا فيه إشارة إلى غيرة الكبير المتعال ﷻ الذي لا يرضى أن



يَعْبُد أحد غيره ﷻ، فإبراهيم كسر جميع الأصنام إلا كبيرهم لعلهم إليه يرجعون، كأن يقول لهم: كما أن هذا الكبير غارَ مِنْ هذه الأصنام أن تعبد، فالله يغار أن يعبد غيره ﷻ.

وهنا في قوله ﴿وَتَٱللَّهِ﴾ هذه حلف، تقول: والله، بالله، تالله، آلله، هذه كلها أقسام، يقسم صلوات الله وسلامه عليه ﴿لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم﴾ [الأنبياء: ٥٧].

وهنا قال بعض أهل العلم: إنما قال هذا إبراهيم في نفسه يعني ما قالها لهم، كما قال يوسف عليه الصلاة والسلام لإخوته لما قالوا: ﴿إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ ۚ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ۚ قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ [يوسف: ٧٧] هذه لما قالها ما سمعوها، وإنما قالها في نفسه أنتم شرٌّ مكاناً، وكذلك إبراهيم هنا قال: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم﴾ [الأنبياء: ٥٧] يُحَدِّث نفسه، فإذاً إما أن يكون قالها في نفسه صلوات الله وسلامه عليه، وإما أنه أسمعهم، ولذلك سيأتينا قول الله تبارك وتعالى عنهم أنهم قالوا: ﴿سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ﴾ [الأنبياء: ٦٠] أي: هدد بكسر هذه الأصنام.

فلما رجعوا ووجدوا الآلهة مكسرة محطمة جذاذاً كما أراد إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه، ﴿قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الأنبياء]، ﴿سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ﴾ أي: يذكرهم بالعيب والنقص، ينتقص هذه الأصنام، هل يسمعونكم إذ تدعون أو ينفعونكم أو يضرون، يتنقص هذه الأصنام ﴿قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾، وهذا الذي يريده إبراهيم، يريد أن يتكلم على أعين الناس، ولذلك لما جاء موسى لفرعون ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ﴾، يوم



العيد، ﴿وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى﴾ [طه: ٥٩] حتى يرى الناس.

وكذا غلام الأخدود عندما أراد الملك قتله ولم يستطع، قال له غلام الأخدود إذا أردت قتلي فافعل ما آمرك، اجمع الناس ثم افعل كذا وكذا[١]، فهو يريد هذا الأمر صلوات الله وسلامه عليه، وهو أن يُحضروه على أعين الناس حتى يقيم الحجة على الجميع صلوات الله وسلامه عليه.

فلما جمعوا الناس قالوا له أمام الناس: ﴿ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾ [الأنبياء]، وأشار إلى الصنم الكبير ﴿فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ﴾، وإن كانت لكم عقول تعقلون ما تقولون، فاسألوهم إن كانوا ينطقون، يقول الله تبارك وتعالى: ﴿فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [الأنبياء]، كلامه صحيح، ﴿أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، لماذا تركتم الآلهة بدون حراسة، وتركتم إبراهيم يكسرها، ﴿أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ تستحقون ما أصابكم، وهذا ما أراده إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه، بأنهم كما اعترفوا أمامه ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٥] أرادهم أن يعترفوا أمام الناس مرة ثانية أن هذه الآلهة لا تنطق، فقامت عليهم الحجة.

ومن هذا أخذ أهل العلم في قول إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه: ﴿هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾﴾ [الشعراء]، وقوله: ﴿فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ﴾ [الأنبياء] أن الله تبارك وتعالى يوصف بالسمع والكلام ﷻ؛ لأن إبراهيم عاب على الآلهة أنها لا تسمع، فعيب على إله ألا يسمع، وعاب على الآلهة أنها لا تتكلم، لا ينطقون، فعيب في الإله ألا يتكلم، ويوصف بالكلام من آيات أخرى كذلك، ولكن عيب في الإله ألا يكون فيه هذا أو ذاك، قال إبراهيم:

---

(١) أخرجه مسلم (٣٠٠٥) من حديث صهيب رضي الله عنه.



﴿أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ۝٦٦ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝٦٧ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ﴾ [الأنبياء] آلهة تُصْنَع! آلهة يُقدم لها الطعام! آلهة تُحْرَس! آلهة تُنْصَر! ما فائدة هذه الآلهة؟!

ولكن الإنسان مفطور على أن يَعْبُد، إن لم يعبد الله عَبَدَ غيره رغماً عنه، ولو كان إلهاً يصنعه هو، ولو كان إلهاً يُطعمه يحرسه ينصره، لكن يريد أن يعبد، لا يستطيع ألا يعبد، وأنتم تعلمون الآن أن هناك من يعبد الفأر، وهناك من يعبد النملة، وهناك من يعبد الحجر، والشجر، والشمس، والقمر. والسعيد من وُفق إلى عبادة من يستحق أن يعبد وهو الله ﷻ.

ولذلك ذُكِرَ عن بعضهم من كفار قريش أنه رأى إلٰهه من بعيد وإذا عنده ثعلب يبول عليه، يبول على الصنم، فأخذته غيرة على إلٰهه فصار يركض، فلما رآه الثعلب فَرّ، فوصل إلى الإلٰه وإذا البول فوق رأس إلٰهه الصنم، فنظر إليه، ثم فكر قليلاً، وقال: أربٌ يبول الثعلبان برأسه؟! ما هذا الرب؟ ربٌ يبول عليه ثعلب، والثعلب من أحقر الحيوانات عند العرب، قال: أربٌ يبول الثعلبان برأسه؟! فَقُبّح من رب. ثم نظر إلى نفسه، فقال: وقُبِّحَ عابده.

وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم:

وحينما أقرّوا بهذه الهزيمة، وأقام إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه عليهم الحجة؛ لجؤوا إلى القوة، وذلك أن نبي الله إبراهيم لما قال لهم: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَـٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٣]، ألزمهم أحد أمرين:

الأمر الأول: أن يقولوا: صدقت يا إبراهيم، لا ينطقون، ولا يسمعون، ولا يدافعون عن أنفسهم.



الأمر الثاني: أن يقولوا: صدقت يا إبراهيم فعله كبيرهم هذا، وفي كلا الحالتين يخرج منها إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه، وهم أُلزموا واعترفوا بالأولى، فقالوا: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٥]، ولكنهم لما أعيتهم الحجة؛ استخدموا القوة والبطش، قالوا: ﴿حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ٦٨]، وهذه تسمى بشريعة الغاب، شريعة الظفر والناب بالقوة، لا بالحجة، والعقل، والمنطق، ولا إقناع ﴿حَرِّقُوهُ﴾، ومثله ما قاله فرعون لموسى: ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء: ٢٨]، انتهى الإقناع، يناقشون في البداية، فإذا أُلزموا الحجة لجؤوا إلى القوة، وهكذا الأمر مع أبيه لما قال له: (يا أبت.. يا أبت..) فجاء الجواب: ﴿أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ [مريم: ٤٦]، اللجوء إلى القوة بعد أن تعييهم الحجة.

إلقاء إبراهيم في النار:

أشعلوا ناراً عظيمة، أرادوا أن يحرقوا إبراهيم عليه السلام فيها، وقد ذكروا أن المرأة كانت إذا مرضت نذرت، إن شُفيتُ لأجمعن حطباً لحرق إبراهيم، فجمعوا حطباً عظيماً لحرق إبراهيم، حتى قالوا: إنهم أشعلوا ناراً عظيمة بحيث إنهم لم يستطيعوا أن يقتربوا منها ليلقوا إبراهيم فيها من شدة حرّها، فوضعوه على آلة المنجنيق ورموه رمياً، ﴿وَقَدْ مَكَرُواْ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤٦]، ﴿وَمَكَرُواْ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا﴾ [النمل: ٥٠]، ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠]، ﴿فَأَرَادُواْ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ۝٩٨﴾ [الصافات] ألقوا إبراهيم عليه الصلاة والسلام في النار فقال: «**حسبي الله ونعم الوكيل**» الله أكبر، المؤمن الصادق التقي النقي المخلص الذي امتلأ قلبه يقيناً وإيماناً بالله تبارك وتعالى، يقول هذه الكلمة في هذا الوقت الحرج «**حسبي الله**

ونعم الوكيل»، يرى الموت بعينيه، سيلقى في هذه النار العظيمة، **«حسبي الله ونعم الوكيل»**.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: حسبي الله ونعم الوكيل قالها إبراهيم لما أُلْقي في النار، وقالها محمد وأصحابه لما قيل لهم: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣][(١)].

بعد أن لجأ إبراهيم عليه السلام إلى ربه تبارك وتعالى جاء الفتح، وجاء النصر من القوي العزيز الذي ﴿أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، قال الله تبارك وتعالى: ﴿قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾﴾ [الأنبياء]، فكانت كما قال الله ـ جل وعلا ـ، فسبحان الله، لا إله إلا هو ملاذ المؤمنين، ومنجي الصالحين، النار التي أعطاها الله خاصية الإحراق سلبها منها، عندما أُلقي فيها إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه.

عن عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم أخبرهم **«أن إبراهيم عليه السلام حين ألقي في النار لم تكن دابة إلا تطفئ النار عنه غير الوزغ، فإنه كان ينفخ عليه، فأمر عليه الصلاة والسلام بقتله»**[(٢)].

وقال صلوات الله وسلامه عليه: **«اقتلوا الوزغ فإنه كان ينفخ النار على إبراهيم»**[(٣)]، وهو حيوان الأصل فيه الإفساد[(٤)].

واشتهر عند الناس أنه لما رُمِيَ إبراهيم في النار، وهو في الهواء جاءه جبريل، وقال: هل من حاجة تدعو الله تبارك وتعالى؟ فقال إبراهيم: **«علمه بحالي يغني عن سؤالي»** وهذا كما قال شيخ الإسلام ابن

---

(١) أخرجه البخاري (٤٥٦٣).

(٢) أخرجه أحمد في «المسند» (٦/ ٨٣، ١٠٩، ٢٠٠، ٢١٧)، وابن ماجه (٣٢٣١)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٥٨١).

(٣) أخرجه الإمام أحمد في «المسند» من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٤) وتسميه العامة «البريعصي».



تيمية كذب موضوع، لم يثبت، بل إنه لجأ إلى الله وقال: «**حسبي الله ونعم الوكيل**».

هجرة إبراهيم عليه السلام:

بعد أن أيقن نبي الله إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه أن قومه مصرون على ما هُمْ عليه من العناد والكفر بالله تبارك وتعالى، وعبادة الأصنام التي لا تضر ولا تنفع، حتى بعد أن أظهر الله تبارك وتعالى أمره، وغلبت حجة إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه باطلَهم، وبعد أن ظهر ضعفُ آلهتهم، وسَفَهُ عقولهم، بعد هذا كله يئس منهم نبي الله إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه، وفكَّر في الهجرة من هذه البلاد إلى بلد آخر يعبد الله تبارك وتعالى فيه.

واختلف أهل العلم في البلد التي هاجر إليها نبي الله إبراهيم عليه السلام على قولين:

القول الأول: إنه هاجر إلى مكة المكرمة شرفها الله.

القول الثاني: إنه هاجر إلى الشام، وهو لا شك دخل الشام، ودخل مكة المكرمة.

والهجرة ذُكرت لإبراهيم صلوات الله وسلامه عليه في ثلاثة مواضع:

الموضع الأول: في قول الله تبارك وتعالى عن إبراهيم أنه قال لقومه: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [مريم: ٤٧] فاعتزلهم في العبادة، واعتزلهم كذلك في المكان.

الموضع الثاني: في قول الله تبارك وتعالى عن إبراهيم أنه قال: ﴿وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓ﴾ [العنكبوت: ٢٦].

الموضع الثالث: في قول الله تبارك: ﴿وَنَجَّيْنَـٰهُ وَلُوطًا إِلَى ٱلْأَرْضِ



ﵟٱلَّتِي بَٰرَكۡنَا فِيهَا لِلۡعَٰلَمِينَ ٧١ﵞ [الأنبياء]، وفي قوله: ﵟفَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٞۘ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٢٦ﵞ [العنكبوت].

نصيحة للدعاة:

بعد كل هذه الدعوة لم يؤمن لإبراهيم عليه السلام إلا لوط، ولذلك يأتينا في قصة إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه أنه قال لامرأته عندما تدخل على الجبار: «**قولي له إنك أختي فأنت أختي في الإسلام ولا يوجد على وجه الأرض مسلم غيري وغيرك**»(١)، ونبي الله إبراهيم، خليل الرحمٰن، خير الخلق بعد رسول الله ﷺ بذل ما بذل في سبيل الدعوة إلى الله تبارك وتعالى، وناظر قومه عياناً جهاراً وأبطل حجتهم وباطلهم، وأظهر الله الحق على لسانه، وأظهر الله معجزته بأن نجاه من النار التي بذلوا ما بذلوا في سبيل جمع الحطب إليها وإشعالها، ومع هذا لم يؤمن به أحد، فما نقول نحن عندما نقصر في الدعوة إلى الله، ويكون قليل من الإخلاص، مع قليل من العلم، مع قليل من التقوى، وقليل من الجهد، ثم يحزن الواحد منا إذا دعا ولم يستجب له أحد!! ﵟلَّيۡسَ عَلَيۡكَ هُدَىٰهُمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۗﵞ [البقرة: ٢٧٢] ويقول لنبيه محمد ﷺ: ﵟإِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَﵞ [القصص: ٥٦] والواجب علينا أن نفعل ما يأمرنا الله به، علينا أن نؤدي ما علينا، ألا نأتي يوم القيامة وقد قصرنا في الدعوة إلى الله تبارك وتعالى، ولذلك لما قال أهل السبت بعضُهم لبعض: ﵟلِمَ تَعِظُونَ قَوۡمًاﵞ [الأعراف: ١٦٤] يقولون للذين أنكروا على أهل السبت فِعْلَهم، ﵟلِمَ تَعِظُونَ قَوۡمًا ٱللَّهُ مُهۡلِكُهُمۡ أَوۡ مُعَذِّبُهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدٗاۖ قَالُواْ مَعۡذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَﵞ [الأعراف: ١٦٤]، فنحن نحتاج إلى أمرين اثنين:

(١) أخرجه البخاري (٢٢١٧)، ومسلم (٢٣٧١).



الأمر الأول: نحتاج إلى أن نعتذر بين يدي الله تبارك وتعالى أننا قد بلغنا.

الأمر الثاني: وهو أن يهتدي الناس، وهداية الناس ليست بأيدينا، القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمٰن يقلبها كيف شاء ﷻ[1]، بيده الهداية، نحن علينا أن ندعو إلى الله، ولا يضرك ولا يضرنا إن لم يستجب لك أحد.

فهل أنزل الله مِنْ منزلةِ إبراهيم عليه السلام لمَّا لمْ يستجبْ له أحد؟ بل إبراهيم هو إبراهيم، وهو بالمنزلة العظيمة عند الله، وهو الذي رآه النبي ﷺ مسنداً ظهره إلى البيت المعمور في السماء السابعة، وهو خليل الرحمٰن، قبل أن يدعو قومه وبعد أن دعا قومه، وبعد أن لم يستجب له أحد، هو خليل الرحمٰن صلوات الله وسلامه عليه، وبعد أن دعا وبذل الوسع والجهد الكثير ولم يستجب له أحد جاءت المسألة الثانية ألا وهي الهجرة من هذه البلاد، وذلك أن المسلم مطالب بالهجرة من الأرض التي لا يستطيع فيها أن يعبد الله ـ جل وعلا ـ.

فهذا نبينا محمد ﷺ خرج من مكة، وهو يقول: «**والله إنك لأحب البلاد إلي، ولولا أن قومك أخرجوني ما خرجت**»[2] خرج ليدعو إلى الله تبارك وتعالى، وخرج أبو بكر يسيحُ في الأرض يعبد الله ـ جل وعلا ـ، فالمسلم أبداً لا يتعلق قلبه بأرض، ولا يتعلق قلبه بأهل، وإنما يتعلق قلبه بالدين، فأي أرض استطاع فيها أن يقيم دين الله تبارك وتعالى، فهي أرضه، وهي بلده، وهؤلاء هم عشيرته.

هاجر إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه، والهجرة كانت واجبة

---

(١) هذا المعنى أخرجه مسلم (٢٦٥٤) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه الترمذي (٣٩٢٥)، وابن ماجه (٣١٠٨) من حديث عبد الله بن عدي بن الحمراء رضي الله عنه، وهو في «صحيح الجامع» (٧٠٨٩).



عليه، وهي واجبة على كل أحد، ولا تنقطع الهجرة ـ كما يقول النبي ﷺ ـ حتى تنقطع التوبة، ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها[(١)].

ولذلك قال الله تبارك وتعالى يعيب على الذين لم يهاجروا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُولَٰئِكَ عَسَى اللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾﴾ [النساء]، ويقول: ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾ [النساء: ١٠٠].

إبراهيم عليه السلام مع النمروذ:

لما هاجر إبراهيم دخل إلى بلاد بابل، وقيل: إن بلاد بابل هي التي كان فيها إبراهيم قبل الهجرة، يعني هذه الحادثة التي سنتكلم عنها الآن هي قصة إبراهيم مع الملك (النمروذ)، هل كانت قبل خروجه من بلاده أو بعد خروجه؟ المهم أن الله ذكر لنا هذا الذي حاجَّ إبراهيم في ربه، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، والسبب الذي من أجله حاج هذا الرجل إبراهيم في ربه هو أن الله آتاه الملك وأنعم عليه، فكان هذا المال نقمة على هذا الرجل، فأحياناً المال يكون نعمة، وأحياناً يكون نقمة، فكان هذا المال وذلك المُلْك نقمة على هذا الرجل بأن صار جباراً متكبراً، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ﴿٦﴾ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ﴿٧﴾﴾ [العلق]، وبدل أن يشكر هذه النعمة وأن يستعملها في طاعة الله تبارك وتعالى كان العكس، كما قال ـ جل وعلا ـ: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الواقعة] يعني: تجعلون شكركم تكذيباً.

---

(١) أخرجه أبو داود (٢٤٧٩) من حديث معاوية رضي الله عنه وهو في «صحيح الجامع» (٧٤٦٩).



قال الله ـ جل وعلا ـ ذاكراً هذه القصة القصيرة: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥٨﴾﴾ [البقرة].

المشهور عند أهل العلم أن هذا الرجل هو مَلِك بابل، ويقال له: النمرود أو النمروذ ـ بالذال المعجمة ـ بن كنعان، وكان من ملوك الدنيا، وذُكِرَ أن الذين ملكوا الدنيا أربعة، ملكان كافران، وملكان مؤمنان، أما المؤمنان: فسليمان صلوات الله وسلامه عليه، وذو القرنين، وأما الكافران: فهذا النمرود، والثاني بختنصّر.

وكان إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه قد جاء إلى هذا الملك يطلب الميرة؛ أي: الطعام، فناظر إبراهيم في ربه تبارك وتعالى، فقال إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨] لأن ذلك الرجل كان يدعي أنه رب مع الله، إلٰه ثاني، ﴿إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، وقد ذكر أهل العلم أن مقولته: ﴿أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾ أراد أنه يأتي برجلين فيحكم عليهما بالموت، ثم قبل التنفيذ يسامح أحدهما، وينفذ في الآخر، فيكون الذي سامحه كأنه مات فأحياه، ويكون الذي حكم عليه بالموت قد أماته، وهذا لا شك أنه تلبيسٌ وتدليسٌ وكذبٌ، الله يحيي من العدم ﷻ، وهذا يلبس على الناس، ولمّا قال: ﴿أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾ تركه إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه إلى دليل أوضح من هذا الدليل، وذلك ليفضحه على الملأ، وليكشف عجزه عن الأول والثاني، كأنه يقول له: إذا كنت تدعي أنك تحيي وتميت، فأنت الذي تُنشأ الخلق، وتُوجد من العدم، فأنا آتيك بأبسط منها: إئتِ بالشمس من المغرب، فلم يقل النمرود: أنا آتي



بالشمس من المشرق، فليأت بها ربك من المغرب؛ وذلك أنه لو قال ذلك لظهر كذبه؛ لأنه لا يمكنه ذلك؛ لأن إبراهيم سيقول له بعدها: فإن كان الأمر كذلك؛ فأتِ بها من المغرب إذا كنت أنت الذي تأتي بها من المشرق، وأيضاً لم يطلب من إبراهيم أن يأتي بالشمس من المغرب؛ لأنه يعلم أنها سنن كونية، وأن هذه السنن لا تتغير لأجل مناظرة أمثال هذا الرجل.

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «وهذا التنزيل على هذا المعنى أحسن مما ذكره كثير من المنطقيين: أن عدول إبراهيم عن المقام الأول إلى المقام الثاني انتقالٌ من دليل إلى أوضح منه، ومنهم من قد يطلق عبارة ردية. وليس كما قالوه بل المقام الأول يكون كالمقدمة للثاني ويُبَيِّن بطلان ما ادعاه نمروذ في الأول والثاني»[(١)].

وذكر أهل العلم أنه بعد هذه المناظرة القصيرة، منعَ النمرود إبراهيم من الميرة، يعني: لم يعطه الطعام، عقوبة لإبراهيم صلوات الله وسلامه عليه؛ لأجل هذه المناظرة، حيث أظهر عجزه أمام الناس كما قال ـ جل وعلا ـ: ﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ﴾ [البقرة: ٢٥٨] بُهِتَ؛ أي: انقطع ولم يجد جواباً، رجع إلى أهله، فلما كان في الطريق بعد هذه المناظرة، وهذا الخوف من ذلك الرجل الذي كان يمكن أن يبطش به، فمَرَّ على تراب فحمل منه بدل الطعام حتى إذا دخل البيت قالت زوجته: أين الطعام؟ قال: هذا الطعام، ثم ذهب ليرتاح، فدخل البيت، ووضع العِدْلَين الذين ملأهما تراباً ثم دخل ونام صلوات الله وسلامه عليه، فلما استيقظ وإذا زوجته سارة قد أعدت الطعام، استغرب، وقال: من أين لكم الطعام؟ قالت: هذا الذي جئت به، فعرف أن الأمر من عند الله ـ جل وعلا ـ، وأنه رزق ساقه الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى إليه.

---

(١) «تفسير ابن كثير» (١/ ٦٨٦).



قصة إبراهيم مع الملك الظالم:

ووقعت لإبراهيم كذلك حوادث كثيرة، منها أنه ابتلى بملكٍ جبارٍ، قيل: هو النمروذ نفسه الذي ذكرناه، وقيل غيره.

قال رسول الله ﷺ: «**لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات، ثنتين منهن في ذات الله، قوله: إني سقيم، وقوله: بل فعله كبيرهم هذا، وبينا هو ذات يوم وسارة إذ أتى على جبارٍ من الجبابرة، فقيل له: إن ههنا رجلاً معه امرأة من أحسن الناس، فأرسل إليه، فسأله عنها، قال: من هذه التي معك؟ فقال: هي أختي.**

ثم أتى نبي الله إبراهيم لسارة، فقال لها: إن هذا الجبار إن يعلم أنك امرأتي يغلبني عليك، فإن سألك؛ فأخبريه أنك أختي، فإنك أختي في الإسلام، ليس على وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك» يقصد الأرض التي هو فيها، وإلا فنبي الله لوط مؤمن، ولكن ليس معهم في هذه الأرض، «**فأرسل إليها وقام إبراهيم يصلي**» لا يملك شيئاً، لا يملك أن يقاتل هذا الجبار، ولا يملك أن يمنعه، قام يصلي، لجأ إلى الله تبارك وتعالى، وهكذا المؤمن، إذا ضاقت به الأمور؛ فإنه يلجأ إلى مفرج الشدائد سبحانه.

«**ودخلت سارة على ذلك الملك فذهب يتناولها بيده**» يعني: أراد أن يمسكها بيده فأُخِذَ، صارت يده كأنها خشبة لا يستطيع أن يحركها، فقال: «**ادع الله لي ولا أضرك، فدعت الله فأُطلق**»، ثم تناولها الثانية، «**فأُخِذَ أشد من الأولى، فقال: ادع الله لي ولا أضرك، فدعت الله، فأُطلق، ثم نادى بعض حجبته، فقال: إنكم لم تأتوني بإنسان، وإنما جئتموني بشيطان، أخدموها هاجر**» أي: أعطاها خادمة «**وأخرجوها عني**»، فأتت سارة معها الخادمة إلى إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه، وهو ما زال يصلي، فأومأ بيده، ماذا حدث؟ أشار وهو يصلي، فقالت: «**رد الله كيد**



الكافر» ولم تقل رددته أنا، وإنما «**رد الله كيد الكافر في نحره، وأخدم هاجر»** قال أبو هريرة ـ راوي الحديث ـ: تلك أمكم يا بني ماء السماء[(١)].

ومعنى قول أبي هريرة: «تلك أمكم يا بني ماء السماء»: يقول للعرب: هذه هاجر التي أخدمها هذا الملك لسارة هي أمكم يا بني ماء السماء، وماء السماء هو زمزم الذي أخرجه الله تبارك وتعالى لإسماعيل عليه السلام كما سيأتينا، وسُمي ماء السماء؛ لأنه إنما خرج بأمر الله تبارك وتعالى، فأنتم أبناء المرأة التي بسببها خرج هذا الماء لكم في الأرض التي تعيشون أنتم فيها.

لو قال قائل: لِمَ قال إبراهيم إنها أختي؟ ولِمَ لَمْ يقل زوجتي؟ خاصة وأن الملك إذا أراد أن يغتصب هذه المرأة لا يختلف الأمر عنده أختاً كانت أو زوجة، فإنه سيغتصبها، فهل إذا كانت أختاً سيمتنع، وإذا كانت زوجة سيغتصبها؟

ذكر أهل العلم أن الفرق كما وجدوه أيضاً في كتب أهل الكتاب هو أن ذلك الرجل كان إذا عرف أن لامرأة أعجبته زوجاً قتله واغتصبها، فأخف الضررين أن يغتصبها ولا يقتل إبراهيم عليه السلام. وقيل: يقتله غيْرة؛ لأنه يريدها له. وقيل: كذلك أنه كان من دينه، أنه لا يقرب امرأة حتى يقتل زوجها، فقول إبراهيم إذاً صلوات الله وسلامه عليه: «**إنها أختي**» حتى يسلم من القتل، لا أن تنجو هي من الاغتصاب أو عدمه؛ لأن هذا لم يكن سيؤثر في ذلك الأمر.

وهذا الكذب جائز؛ لأنه إذا تعارضت مفسدتان ـ مفسدة الكذب ومفسدة القتل ـ فلا شك أن مفسدة الكذب أهون من مفسدة القتل.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٥٨)، ومسلم (٢٣٧١).



غيرة النساء:

كانت سارة عاقراً، فلما أهداها الملك هاجر أهدتها لإبراهيم، ليتسررّها؛ أي: ليجامعها، فقربها إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه، فأنجبت له إسماعيل، فوقعت الغيرة في قلب سارة، عند ذلك خرج إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه بهاجر وابنها إسماعيل مهاجراً أيضاً، أخذهما إلى مكة، وهذا يُقَرِّب أن إبراهيم إنما هاجر في بداية الأمر إلى الشام، ثم بعد ذلك هاجر بأَمَتِهِ هاجر وبولده إسماعيل إلى مكة.

ترك إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه أمته هاجر وولده إسماعيل في مكة، ويذكر لنا الإمام البخاري هذه القصة في صحيحه[١]:

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: أول ما اتخذ النساء المِنْطَق[٢] من قِبَلِ أم إسماعيل، اتخذت منطقاً لتعفي أثرها عن سارة، لشدة غيرة سارة منها، ثم جاء بها إبراهيم وبابنها إسماعيل وهي ترضعه حتى وضعها عند البيت؛ أي: الحرام، عند دوحة[٣] فوق زمزم في أعلى المسجد، ولم تكن زمزم موجودة في ذلك المكان، وليس بمكة يومئذ أحد، وليس بها ماء، فوضعهما هنالك، ووضع عندهما جراباً فيه تمر وسقاء فيه ماء فقط، ثم قفّى منطلقاً، تركهما وانصرف، فتبعته أم إسماعيل، فقالت: يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه إنس ولا شيء؟ فقالت له ذلك مراراً تردد عليه، وهو منطلق عنها وجعل لا يلتفت إليها، عندها أدركت شيئاً معيناً، فقالت له: آلله أمرك بهذا؟ قال: نعم، يأمره أن يترك ولده، أول ولد له مع أمه في هذا المكان القفر مع جراب من تمر وسقاء من ماء فيستجيب، ما صار خليلاً للرحمٰن إلا بهذا، قالت:

---

(١) «صحيح البخاري» (٣٣٦٤).

(٢) **المِنْطَق**: هو ما يشد به الوسط. «فتح الباري».

(٣) **الدوحة**: هي الشجرة.



آلله أمرك بهذا؟ قال: نعم، الله أمرني بهذا، قالت: إذاً لا يضيعنا.

الله أكبر، يقين، صدق عند هذه المرأة عجيب، وتوكل على الله لا تكاد تجده عند الرجال، ومن كان الله معه؛ فلا شك أن الله كافيه ﷻ، ومن يتوكل على الله فهو حسبه ـ جل وعلا ـ، إن التوكل على الله فيه راحة للنفس وطمأنينة قلما يجدها الناس من غير المتوكلين على الله ـ جل وعلا ـ.

وقد أخرج الإمام الطبري رحمه الله وحسنه الحافظ ابن حجر من حديث عليّ أنها ناداها جبريل فقال لها: من أنت؟ قالت: أنا هاجر أو قالت أنا أم ولد إبراهيم، فقال لها: إلى من وكلكما؟ قالت: إلى الله، فقال: وكلكما إلى كافٍ ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [الزمر: ٣٦].

ثم رجعت، فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية، حيث لا يرونه، استقبل بوجهه البيت، ثم دعا بهؤلاء الكلمات فقال: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ﴾ [إبراهيم: ٣٧]، ثم انصرف صلوات الله وسلامه عليه.

وجعلت أم إسماعيل ترضعه وتشرب من ذلك الماء، حتى إذا نفدَ الماء عطشت وعطش ابنها، وجعلت تنظر إليه يتلوَّى من العطش، فانطلقت كراهية أن تنظر إليه بهذا الوضع، فوجدت الصفا أقرب جبل من الأرض يليها، فقامت عليه، ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحداً، فلم ترَ أحداً، فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت الوادي رفعت طرف ذراعها ثم سعت سعي الإنسان المجهود حتى جاوزت الوادي، وكان وادياً، فكانت تجري فيه حتى تصعد الوادي(١)، ثم أتت المروة، فقامت عليها، فنظرت هل ترى أحداً، فلم ترَ أحداً، ففعلت ذلك سبع مرات،

(١) والرجال اليوم يسعون سعياً شديداً في هذا الوادي اقتداء بسنة نبينا محمد ﷺ.



ترجع بين الصفا والمروة، قال ابن عباس: قال النبي ﷺ: **«فذاك سعي الناس بينهما»**، قال: فلما أشرفت على المروة سمعت صوتاً، فقالت: صهٍ، تريد نفسها مع أنه لا يوجد من تسكته، وإنما تُسكت نفسها، تحدث نفسها[1].

ثم قالت قد أَسْمَعْتَ إن كان عندك غواث، فإذا هي بالملك عند موضع زمزم ـ عند الصبي الصغير ـ، فبحث بعقبه أو قال بجناحه، حتى ظهر الماء، فجعلت تحوضه ـ أي: تمنع الماء من أن ينتشر، تعمل له مثل الحوض ـ، وتقول بيدها هكذا، ـ يعني: تَزُمُّه ولذلك سمي زمزم ـ، ثم قال: وجعلت تغرف من الماء في سقائها، وهو يفور بعدما تغرف، ـ كلما غرفت بالسقاء كلما فار الماء ـ، قال ابن عباس: قال النبي ﷺ: **«يرحم الله أم إسماعيل، لو تركت زمزم»** أو قال: **«لو لم تغرف من الماء لكانت زمزم عيناً معيناً»**[2] قال: فشربت وأرضعت ولدها، فقال لها الملك: لا تخافوا الضيعة[3]، فإن هاهنا بيت الله يُبنى يبنيه هذا الغلام وأبوه، وإن الله لا يضيّع أهله ﷻ.

قال ابن عباس: وكان البيت مرتفعاً من الأرض كالرابية، تأتيه السيول، فتأخذ عن يمينه وشماله، فكانت كذلك حتى مرت بهم رفقة من جُرْهُم، أو أهل بيت من جرهم مقبلين من طريق كداء، فنزلوا في أسفل مكة، فرأوا طائراً عائفاً، فقالوا: إن هذا الطائر ليدور على ماء، وعهدنا بهذا الوادي وما فيه ماء، وإن هذا الطائر ليدور على ماء، فأرسلوا جريّاً

---

(١) يقول أهل اللغة: هناك فرق بين صهٍ ـ بالتنوين ـ وصه ـ بالتسكين ـ: صه: اسكت ولا تتكلم، وصهٍ: اسكت لحظة أريد أنْ أسمع شيئاً.

(٢) ولكن قدر الله وما شاء فعل، ولو كان أحد مكانها لفعل كما فعلت؛ لأنه يخشى أن يكون هذا الماء قليلاً، ثم إذا تركته ذاب في الأرض ولم تستفد منه.

(٣) أليست قلت إذاً لا يضيعنا، لا تخافوا الضيعة.



أو جريين[١]، فإذا هم بالماء، فرجعوا وأخبروهم بأن في هذا المكان ماء، فأقبلوا إلى الماء، قال ابن عباس: وأم إسماعيل عند الماء، فقالوا: أتأذنين لنا أن نجلس عندك، ـ وهذه من أخلاق العرب، استأذنوها وهي امرأة ضعيفة معها ولد رضيع، وهم جماعة كثيرة، ومع هذا يستأذنونها ـ.

قالت: نعم، ولكن لا حق لكم في الماء ـ هي إلى الآن تخشى قلة الماء، وإنه بالكاد يكفيها وولدها ـ. قالوا: نعم.

قال ابن عباس: قال النبي ﷺ: «**فألفى ذلك أم إسماعيل وهي تحب الأنس**» يعني: جاءها الذي يؤنسها، وهذا من رحمة الله تبارك وتعالى.

قال ابن عباس: فنزلوا وأرسلوا إلى أهلهم فنزلوا معهم، واستقروا في هذا المكان حتى إذا كان بها أهل أبيات منهم وشبَّ الغلام، وتعلم العربية منهم.

وهذا يعني أن إسماعيل لم يكن يتكلم العربية قبل ذلك، ولذلك قلنا: إن العرب ينقسمون إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: عرب عاربة بائدة، وهم قوم صالح، وقوم هود، وقوم شعيب، وجَدِيس، وطسم.

القسم الثاني: عرب عاربة باقية، ومنهم هؤلاء جُرْهُم قحطان.

القسم الثالث: وهناك عرب مستعربة وهم عدنان نسل إسماعيل صلوات الله وسلامه عليه.

---

(١) الجري: الرسول.



إبراهيم عليه السلام يؤمر بذبح ابنه:

وفي هذه الأثناء حين كبر إسماعيل قليلاً، وتمكن حبه من قلب إبراهيم والده صلوات الله وسلامه عليه؛ أراد الله ـ جل وعلا ـ أن يمتحن إبراهيم، وذلك لتقديم محبة ربه وخُلّته التي لا تقبل المشاركة ولا المزاحمة؛ لأن الخلة أعلى أنواع المحبة، ولذلك قال النبي ﷺ: «**لو كنت متخذاً من أهل الأرض خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً، ولكن صاحبكم خليل الله**»[1].

إن الله تبارك وتعالى أمره أن يذبحه كما قال الله عن إبراهيم عليه السلام: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ﴾ [الصافات: ١٠٢]، وهذه السن ـ تقريباً ـ هي السن التي يكون فيها الولد أحب شيء إلى والده؛ لأنه بدأ يمشي معه ويذهب ويجيء ويساعده، كما قال أهل العلم: ذهبت مشقته وجاءت منفعته.

ولنا جميعاً أن نحاول تصور هذه القضية بالنسبة لإبراهيم عليه السلام، إبراهيم الوحيد، إبراهيم المنقطع، إبراهيم المهاجر من أهله، إبراهيم الذي جاءه الولد على كبر، بعد هذا كله يأتيه الأمر من ربه أن يذبح هذا الولد.

جاء إبراهيم إلى ولده وقال: ﴿يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾ [الصافات: ١٠٢]، هكذا جاءني الأمر من الله ـ جل وعلا ـ؛ لأن رؤيا الأنبياء حق، والشيطان لا تسلط له على الأنبياء؛ لأن الحلم من الشيطان، والرؤيا من الله، والشيطان قد عصم اللهُ الأنبياءَ منه، فكل ما يراه الأنبياء في منامهم فهو وحيٌ من الله تبارك وتعالى، فأخبر ولده بما رآه فيأتي الجواب من الابن البار التقي الحليم المستسلم لأمر الله

---

(١) أخرجه البخاري (٤٦٦)، ومسلم (٢٣٨٢) من حديث أبي سعيد رضي الله عنه، وهو أيضاً في الصحيح عن جندب وابن عباس وابن مسعود رضي الله عنهم.



تبارك وتعالى الراضي به: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ﴾ [الصافات: ١٠٢] كما تلطف إبراهيم مع أبيه عندما دعاه إلى الله تبارك وتعالى: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ﴾ [مريم: ٤٣]، ﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ﴾ [مريم: ٤٤]، ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ [مريم: ٤٥]، فجاء كذلك إسماعيل بهذه الكلمة التي ابتدأها إبراهيم لأبيه، فقال له: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الصافات: ١٠٢] خضعا لأمر الله ـ جل وعلا ـ، وانقادا له، ووطنا نفسيهما على القبول، مع أنه أمر مزعج لا تكاد النفوس أن تصبر عليه أو أن تصبر على أقل منه، ولكن:

وإذا كانت النفوس كباراً تَعبتْ في مرادها الأجسام

وذلك أن نفس إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه ونفس إسماعيل صلوات الله وسلامه عليه كانتا من النفوس الكبار عند الله ـ جل وعلا ـ، ولذلك قال الله ـ جل وعلا ـ: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥۗ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، ويقول الله ـ جل وعلا ـ: ﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ ١٠٣﴾ [الصافات] عند ذلك جاء الفرج من الله تبارك وتعالى ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ١٠٤ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ﴾ [الصافات] صدقتها بقلبك، وصدقتها بعملك وهذا وقع لإبراهيم ولولده الذي أراد أن يذبحه، حصل لهما الأجر والثواب والشرف والقرب من الله تبارك وتعالى لاستسلامهما لأمر الله ـ جل وعلا ـ، عندها قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٖ ١٠٧﴾ [الصافات] لأن الذبح الآن لا فائدة منه، ولا محصلة من ورائه؛ لأن مرادَ الله قد تحقق، وودَّ إبراهيم قد صفا لله ـ جل وعلا ـ، فصار بعد ذلك سفك الدم وإزهاق الروح لا فائدة منه ولا معنى له، وذلك أن الله تبارك وتعالى لا يريد تعذيب عباده، ولكنه يريد أن يبتليهم ﷻ، وقد ابتلى إبراهيم وحقق الابتلاء مراد الله ـ جل وعلا ـ وجاء نفعه، وظهر أثره وتحققت النتيجة، إذاً لا داعي للذبح بعد ذلك ﴿وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٖ ١٠٧﴾.



وصارت بعد ذلك سنة للمسلمين الذين يتبعون ملة إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه أن نذبح في الأضحى في كل سنة كما فدى الله ولد إبراهيم من الذبح.

من الذبيح؟

اختلف الصحابة رضي الله عنهم في تحقيق الذبيح على ثلاثة أقوال، وكذلك أهل العلم اختلفوا على ثلاثة أقوال بناء على اختلاف الصحابة:

القول الأول: إن الذبيح إسحاق.

القول الثاني: إن الذبيح إسماعيل.

القول الثالث: التوقف أسلم، لا نجزم.

ولا شك أنه ليس هناك نص قطعي يحسم هذه المسألة هو إسحاق أو إسماعيل، لا من القرآن ولا من السنة.

والأمر لا يهم كثيراً سواء كان الذبيح إسماعيل أو إسحاق أو لم يُعرف، المهم العبرة التي تؤخذ من هذه القصة، وهي استسلام إبراهيم لأمر الله وكذا ولده، وكيف أن الله تبارك وتعالى حمى أولياءه عليهم السلام، وأنه لما تحقق مراد الله ـ جل وعلا ـ وصفا حبّ إبراهيم لربه ـ جل وعلا ـ ألغى الله الأمر بالذبح وفداه بذبح عظيم.

أدلة من قال: إن الذبيح هو إسماعيل عليه السلام:

أولاً: إن الله تبارك وتعالى لما ذكر هذه الآيات عن إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه وقال: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ﴾ [الصافات] إلى نهاية الآيات، ثم قال: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٢﴾﴾ [الصافات] فقالوا: إذاً جاءت البشارة بإسحاق بعد ذكر هذه القصة، ولا يمكن أن يكون السياق القرآني هكذا، يذكر الله



قصة ذبح إسحاق أو إرادة إبراهيم لقتل أو ذبح إسحاق ثم بعد نهاية القصة يقول: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ﴾ هذا ينافي جمال السياق القرآني، بل جمال السياق القرآني يقول: إنه بعد أن أراد أن يذبح إسماعيل بشره الله تبارك وتعالى بإسحاق نبياً من الصالحين.

ثانياً: الذبيح اتصف بالصبر ﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الصافات: ١٠٢]، وقد وصف الله إسماعيل بالصبر، فقال ـ جل وعلا ـ: ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [الأنبياء].

ثالثاً: وصفه الله بصدق الوعد: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ﴾ [مريم: ٥٤]، وصدق الوعد متحقق عندما قال لأبيه: ﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

رابعاً: في قوله ـ جل وعلا ـ: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا﴾ [الصافات: ١١٢] يقول أهل العلم: كيف يبشره بإسحاق نبياً ثم يأمره قبل أن يصير نبياً، إذاً لن يتحقق مراد الله ـ جل وعلا ـ، أو يكون الأمر ليس على وجه الجد، وليس الأمر كذلك.

خامساً: لما جاءت البشارة بإسحاق جاء قول الله تبارك وتعالى: ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١]، فلو كان إسحاق هو المأمور بقتله فكيف يبشره بأنه يأتي من ذريته يعقوب وهو سيقتل، فلا تكون الاستجابة كما أمر الله تبارك وتعالى، ولا يكون ابتلاء من الله ـ جل وعلا ـ.

سادساً: ذكروا أن من الأدلة قول ابن عباس رضي الله عنهما وغيره أنهم وجدوا في مكة قرن الكبش معلقاً في الكعبة[1] ومعلوم أن الذي كان في مكة إنما هو إسماعيل، وهذا دليل على أن الذبيح هو الذي كان عند

---

(١) أخرجه أبو داود (٢٠٣٠)، وأحمد (٤/٦٨)، (٥/٣٨٠).



الكعبة، والذي كان عند الكعبة هو إسماعيل، وليس إسحاق؛ لأن إسحاق كان في الشام صلوات الله وسلامه عليهما.

سابعاً: عند أهل السير أن النبي ﷺ كان يقول: «**أنا ابن الذبيحين**»[1] ولكنه لم يثبت، والذبيح الأول هو إسماعيل؛ لأن محمداً ﷺ من نسل إسماعيل، وأما الذبيح الثاني فهو عبد الله والد النبي ﷺ كما هو معلوم من قصة عبد المطلب لما نذر أن يذبح واحداً من أولاده إنْ رزقه الله بعشرة من الولد.

ثامناً: معلوم أن سارة إنما غارت من هاجر لما ولدت، والابتلاء لإبراهيم إنما يكون بالولد الأول لا الثاني، فالولد الأول أحب من الثاني، ولذلك دائماً يشعر الأولاد الصغار بأن الأب يقدم البكر عليهم، وإنما يكون الابتلاء إذا أُمر بذبح إسماعيل وليس له غيره.

تاسعاً: إن الله إذا ذكر إسحاق في القرآن الكريم يصفه بالعلم كما قال ـ جل وعلا ـ عن الملائكة أنهم بشروا إبراهيم، فقالوا: ﴿قَالُوا۟ لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ۝٥٣﴾ [الحجر]، وكذلك في الذاريات قال: ﴿قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾ [الذاريات: ٢٨]، فإسحاق يوصف بأنه عليم، وإسماعيل هو الذي وُصف بأنه حليم[2]، وإبراهيم إنما بشروه مع سارة، ولذلك جاء في الآيات: ﴿فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ [الذاريات: ٢٩]، وكان إبراهيم يقول: ﴿أَبَشَّرْتُمُونِى عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِىَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ

---

(١) هذا الحديث لا أصل له كما قاله الشيخ الألباني رحمه الله، وانظر الكلام عليه في: «السلسلة الضعيفة» (٣٣١، ١٦٧٧).

(٢) قال ابن جماعة رحمه الله: «إنما وصفه هنا بالحلم؛ لأن المراد إسماعيل، فناسب ما ذُكر عنه من الأتقياء إلى رؤيا أبيه مع ما فيه من المرارة والمشقة على النفس، وأما في الذاريات فالمراد إسحاق؛ لأن تبشير إبراهيم بعلمه ونبوته، ففيه دلالة على بقائه إلى كبره، وهذا يدل على أن الذبيح إسماعيل والله أعلم». في «كشف المعاني» (ص٣٠٨).



تُبَشِّرُونَ﴾ [الحجر: ٥٤]، فالشاهد من هذا أن هذه الآيات تدل على أن الذي يوصف بالعلم هو إسحاق، وأما الذي يوصف بالحلم وهو الذي أُمر إبراهيم بذبحه إنما هو إسماعيل صلوات الله وسلامه عليه.

وعن محمد بن كعب القرظي أنه ذكر لعمر بن عبد العزيز أيام كان خليفة، إن الذبيح إسماعيل بدليل قوله ـ جل وعلا ـ: ﴿فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ﴾ [هود: ٧١]، يعني: استدل على أن الذبيح إسماعيل بأنه لما بُشِّر إبراهيم بإسحاق بُشر أيضاً بيعقوب فكيف يؤمر بذبحه؟ فقال عمر: إن هذا لشيء ما كنت أنظر فيه، يعني: ما كلفت نفسي أن أنظر هل الذبيح إسحاق أو الذبيح إسماعيل، وإني لأراه كما قلت، ثم أرسل إلى رجل كان عنده بالشام، وكان يهودياً وأسلم، وحسن إسلامه، وكان يُرى أنه من علماء اليهود قبل أن يُسلم، فقال له عمر: أيُّ بني إبراهيم أُمر بذبحه ـ يسأله السؤال بعد أن أثار عنده الموضوع محمد بن كعب القرظي ـ قال: إسماعيل يا أمير المؤمنين(١)، وإن يهوداً لتعلم ذلك، ولكنهم يحسدونكم معاشر العرب على أن يكون أباكم الذي كان من أمر الله فيه، فهم يجحدون ذلك ويزعمون أنه إسحاق؛ لأن إسحاق أبوهم.

وهذا الأصمعي ـ الأديب المعروف ـ يقول: سألت أبا عمرو بن العلاء ـ أحد القراء المشهورين ـ عن الذبيح، من هو؟ فقال لي: يا أصمعي أين عزب عنك عقلك؟ ومتى كان إسحاق بمكة، وإنما كان إسماعيل بمكة، وهو الذي بنى البيت مع أبيه والمنحر بمكة، ألا يكفيك هذا أن يكون دليلاً على أن الذبيح إنما هو إسماعيل دون إسحاق؟! فسكت الأصمعي.

---

(١) مع أن أهل الكتاب مجمعون على أن الذبيح إسحاق، ولو رجعت إلى التوراة لوجدت أن الذبيح إسحاق، وهم متفقون على هذا الأمر.



أدلة من قال: إن الذبيح هو إسحاق عليه السلام:

أولاً: استدلوا بأن هذا هو المشهور عند أهل الكتاب.

واستدلوا بقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٢﴾﴾ [الصافات] وبقول الله تبارك وتعالى: ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ [الصافات]، وقالوا: إن الذي بُشِّر به هو إسحاق، فيكون الذي بُشر به وفرح به هو الذي أُمر بذبحه حتى يتساوى الفرح من الحزن.

ولكن هذا لا يستقيم ـ حقيقة ـ مع ما ذكرناه من الأدلة التي أرى ـ والله أعلم ـ أنها قوية في بيان أن الذبيح إنما هو إسماعيل دون إسحاق، وأيُّ الأمرين كان؛ فإن هذا نبي كريم، وذاك نبي كريم وكلاهما نتولاهما ونحبهما ونعتقد نبوتهما صلوات الله وسلامه عليهما، ولكن من باب تحقيق هذه المسألة علمياً.

حياة إسماعيل عليه السلام:

قال ابن عباس: «**وشَبَّ الغلام، وتعلم العربية منهم، وأنفسهم وأعجبهم حين شب**» «**وأنفسهم**» أي: صار من أحسنهم وأفضلهم. «**وأعجبهم**» أي: الذي وقع من بروز إسماعيل وأخلاقه ودينه وتقواه ومعرفته، فأُعجبوا به صلوات الله وسلامه عليه، ولما أدرك زوجوه امرأة منهم.

لما تزوج إسماعيل منهم جاء أولاد إسماعيل عرباً عاربة، وإسماعيل من العرب المستعربة.

وماتت أم إسماعيل بعد ذلك «**فجاء إبراهيم بعد ما تزوج إسماعيل يطالع تركته**» أي: ولده، «**فلم يجد إسماعيل، فسأل امرأته عنه، وهي لا تعرفه فقالت: خرج يبتغي لنا**» أي: طعاماً «**ثم سألها عن عيشهم وهيئتهم، فقالت: نحن بِشَرٍّ، وشَكَتْ إليه حالها، قال لها إبراهيم: فإذا جاء**



زوجك، فاقرئي عليه السلام وقولي له يغير عتبة بابه، وذهب، فرجع إسماعيل، فكأنه آنس شيئاً، فقال: هل جاءكم من أحد؟ قالت: نعم، جاءنا شيخ كذا وكذا، وصفته له، فسألنا عنك، فأخبرته، وسألني كيف عيشنا فأخبرته أنَّا في جهد وشدة، قال: فهل أوصاك بشيء، قالت: نعم، أمرني أن أقرأ عليك السلام، ويقول غيّر عَتَبَةَ بابك»، وما تدري أنها جرت الأمر لنفسها «قال: ذاك أبي، وقد أمرني أن أفارقك، إلحقي بأهلك، فطلقها» صلوات الله وسلامه عليه.

مسألة فقهية:

لو جاء أبٌ لولده، وقال: طلق امرأتك، فهل يجب عليه أن يطيع والده أو لا؟

ثبت أن عمر رضي الله عنه أمر ولده عبد الله أن يطلق امرأته، فجاء عبد الله إلى النبي ﷺ، فقال له: «**أطع أباك**»[1] يعني طلق امرأتك.

فالآن لو جاء رجل إلى ولده، وقال: طلق امرأتك، هل يطيعه ولده كما أطاع إسماعيل إبراهيم، وعبد الله أطاع والده عمر؟ أم إنه لا يطيعه، هل يبره بهذا أو لا يبره؟

قال بعض أهل العلم: إذا كان والد هذا الرجل كإبراهيم أو عمر فليطلق، وإذا لم يكن الوالد كذلك فلا يطيع والده، فالمسألة إذاً ليست على إطلاقها، كلٌّ من جاءه والده قال: طلق امرأتك؛ لأنه سمع منها كلاماً أساءه، أو طلب منها شيئاً فمنعته، أو ما شابه ذلك، فالولد لا يطيع والده في هذا إلا إذا كانت المرأة سيئة، وهنا يبَرُّ والده، وأما إذا كانت المرأة صالحة؛ فإنه لا يظلمها بطاعة والده.

---

(١) أخرجه أبو داود (٥١٣٨)، والترمذي (١١٨٩)، وابن ماجه في (٢٠٨٨)، وحسنه الشيخ الألباني «السلسلة الصحيحة» (٩١٩)، «إرواء الغليل» (١٣٦/٧).



وتزوج منهم أخرى، يقول ابن عباس: **«فلبث عنهم إبراهيم ما شاء الله ثم أتاهم بعد فلم يجده أيضاً، فدخل على امرأته، فسألها عنه، فقالت: خرج يبتغي لنا، قال كيف أنتم؟ وسألها عن عيشهم وهيئتهم، فقالت: نحن بخير وسعة، وأثنت على الله ـ جل وعلا ـ، فقال: ما طعامكم؟ قالت: اللحم، قال: فما شرابكم؟ قالت: الماء، قال: اللهم بارك لهم في اللحم والماء»**، استجاب الله لإبراهيم، وذلك أن أي إنسان عليه دم فإنه يكون لفقراء مكة، فمن أخطأ في النسك أو ما شابه ذلك من الأشياء التي تُلزم الدم فإنما يذبحه لفقراء مكة، فاللحم لا ينقطع عن أهل مكة إلى اليوم، والماء كذلك، فماء زمزم يذهب إلى كل بلاد الدنيا، قال النبي ﷺ: **«ولم يكن لهم يومئذ حب»**، مكة أرض جدباء ليست زراعية، يقول: **«ولو كان لهم لدعا لهم فيه»**، يعني لو قالت: طعامنا اللحم والباقلاء، اللحم والفاصوليا، اللحم والشعير، اللحم والقمح، وما شابه ذلك من الحبوب؛ لدعا لهم أيضاً، لكن لم يكن موجوداً، لذلك لم يدعُ لهم إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه فيه، قال النبي ﷺ: **«فهما لا يخلو عليهما أحد بغير مكة إلا لم يوافقاه»** يعني: لو كان في غير مكة والإنسان فقط يأكل لحماً ويشرب ماء يتضرر ويتعب، لكن أهل مكة لو أكلوا لحماً وماء يبارك الله تبارك وتعالى فيه.

قال النبي ﷺ عن إبراهيم عليه السلام أنه قال لها: **«فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام ومُريه يثبت عتبة بابه، فلما جاء إسماعيل، قال: هل أتاكم من أحد؟ قالت: نعم أتانا شيخ حسن الهيئة، وأثنت عليه، فسألني عنك، فأخبرته، فسألني كيف عيشنا، فأخبرته أنَّا بخير. قال: أوصاك بشيء؟ قالت: نعم، هو يقرأ عليك السلام، ويأمرك أن تثبت عتبة بابك، قال: ذاك أبي، وأنتِ العتبة، أمرني أن أمسكك»**.



إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام يبنيان الكعبة:

قال ابن عباس: «**ثم لبث عنهم ما شاء الله، ثم جاء بعد ذلك وإسماعيل يبري نبلاً(١) له تحت دوحة(٢) قريبة من زمزم فلما رآه(٣) قام إليه، فصنعا كما يصنع الوالد بالولد**» ثم قال إبراهيم: «**يا إسماعيل إن الله أمرني بأمر، قال: فاصنع ما أمرك ربك، قال: وتعينني، قال: وأعينك، قال: فإن الله أمرني أن أبني ههنا بيتاً، وأشار إلى أكمة مرتفعة(٤) على ما حولها، قال: فعند ذلك رفعا القواعد من البيت، فجعل إسماعيل يأتي بالحجارة، وإبراهيم يبني حتى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر، فوضعه له، فقام عليه وهو يبني(٥)، وإسماعيل يناوله الحجارة وهما يقولان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾** [البقرة: ١٢٧]، **قال فجعلا يبنيان حتى يدورا حول البيت وهما يقولان: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾**.

هل البيت كان موجوداً قبل إبراهيم عليه السلام:

هناك قول بأن البيت كان موجوداً زمن آدم صلوات الله وسلامه عليه، وأن سفينة نوح طافت حول البيت، وأن الأنبياء قبل إبراهيم كانوا يحجون إلى هذا البيت، ولكن ليس في هذا كله شيء ثابت في الكتاب أو في السنة، وكلها من روايات بني إسرائيل، والنبي ﷺ قد أمرنا بأمر، فقال: «**لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم**»(٦)، فنحن لا نُصَدِّق ولا

(١) أي: يجزها ويجعلها مدببة. (٢) أي: شجرة.

(٣) أي: لما رأى إسماعيل أباه إبراهيم، وهذه هي الزيارة الثالثة لإبراهيم ﷺ. وقد زار ابنه ثلاث مرات بعد أن أتى بهما إلى مكة ﴿أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ﴾ [إبراهيم: ٣٧].
الأولى: لما طلق إسماعيل زوجته الأولى.
الثانية: لما ثبت زوجته الثانية. وهذه هي الزيارة الثالثة.

(٤) يعني: كوم تراب مرتفع. (٥) يعني: مقام إبراهيم.

(٦) تقدم تخريجه ص٤١.



نُكَذِّب، ولكن ظاهر النصوص أن إبراهيم هو أول من بنى هذا البيت، فمن هذه النصوص قول إبراهيم لولده إسماعيل: «**إن الله أمرني أن أبني ههنا بيتاً**»، ولذلك جاء في الحديث الصحيح أن أبا ذر سأل النبي ﷺ عن أول بيت وضع في الأرض، فقال: «**هو مكة، بيت الله الحرام**» قال: والثاني؟ قال: «**بيت المقدس، المسجد الأقصى**» قال: كم بينهما؟ قال: «**أربعون سنة**»[1]، والمعلوم باتفاق أن الذي بنى المسجد الأقصى هو يعقوب صلوات الله وسلامه عليه، حفيد إبراهيم.

إذاً أول بيت وضع وأول بيت بُني هو المسجد الحرام، والظاهر ـ والله أعلم ـ أن أول من بناه هو إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه.

وأما استدلال بعضهم بقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ﴾ [البقرة: ١٢٧]، فإنه لا يدل أبداً على أن القواعد كانت موجودة، ولكن وضعها ورفعها صلوات الله وسلامه عليه.

وأما دعاء إبراهيم ﴿إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ﴾ [إبراهيم: ٣٧]، فإن الله يكون قد أمر إبراهيم ببناء البيت من مدة، ولكن لم يأتِ وقت البنيان، ولذلك قال: ﴿عِندَ بَيْتِكَ﴾ أي: الذي سأبنيه حتى جاء الوقت الذي كبر فيه إسماعيل، فجاء إليه إبراهيم، وقال: «**الآن نبني البيت**»، فيكون عند بيتك المحرم الذي أمرتني أن أبنيه لك لا عند بيتك المحرم الموجود، ولذلك لما ترك إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه هاجر وابنها لم يكن البيت موجوداً في ذلك الوقت.

بناء البيت في عهد النبي ﷺ:

هذا البيت استمر مدة طويلة، ثم بعد ذلك جاءته السيول، ومع طول المدة تهدم منه شيء كثير، وفي زمن النبي ﷺ اجتمع أهل مكة

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٦٦)، ومسلم (٥٢٠).



وقالوا: نبنيه من جديد أو نرمم البيت؟ فقال بعضهم: نهدمه ونبنيه من جديد، وقال أكثرهم: بل نرممه، وذلك أنهم خافوا إذا هدموا البيت أن يرسل الله عليهم الطير الأبابيل، كما أرسلها على أبرهة وأتباعه لما أرادوا هدم البيت.

وقال آخرون: لا، أبرهة جاء ليهدمه عدواناً، ونحن نريد أن نبنيه من جديد، إذاً النية اختلفت، شتان بين من أراد أن يهدم البيت احتقاراً له، وبين من أراد أن يهدم البيت ليعيد بناءه بناءً سليماً، فقالوا: والله لا نفعل، يخشون على أنفسهم أن يعذبهم الله تبارك وتعالى، حتى قال قائلهم: أرأيتم لو كان بيتاً لأحدكم أيرضى أن يرممه أو يهدمه ويبنيه من جديد؟ قالوا: بل يهدمه ويبنيه من جديد، قال: بيت الله أولى.

وكان القائل ـ كما ذُكِرَ ـ هو الوليد بن المغيرة والد خالد، فاقتنعوا برأيه، وقالوا: نعم نهدم، ولكن ابدأ أنت، حتى إذا وقع شيء يقع عليك، طالما أنت صاحب الفكرة، قال: نعم، فجاء ومعه الفأس واقترب من البيت وأراد أن يضرب وقال: اللهم لن تُرع، يعني: لا تخف يا رب إنما نريد الحسنى، ولا شك أن في هذه الكلمة سوء أدب مع الله ﷻ؛ وذلك أن الله يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، وهذا من جهلهم بالله تبارك وتعالى، ولذلك قال: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨] فكلما ازداد الإنسان علماً بالله ازداد له خشية، وكلما ازداد الإنسان جهلاً بالله ازداد خطؤه وخطله، فهذا الرجل جاهل بالله تبارك وتعالى ولم يقدر الله حق قدره، ولذلك قال ـ جل وعلا ـ: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾ [الزمر: ٦٧]، ثم ضرب فلم يحصل له شيء، فقال: اهدموا فإني لم أُصَبْ، فقالوا: لا حتى تنام الليلة وتُصبح من الغد، ونراك سليماً صحيحاً بعد ذلك نهدم.

فلما جاء الغد وإذا بالرجل كما هو لم يصب بأذى، فقالوا: إذاً نهدم، فهدموا البيت، والقواعد موجودة التي هي الأسس، فلما أرادوا



أن يبنوا من جديد، وإذا الأموال لا تكفي؛ لأنهم قرروا أن يبنوا البيت من مال حلال لا يدخل فيه مهر بغي، ولا مال ربا، ولا مال قمار، ولا مال مسروق، فهم يعرفون المال الحلال من الحرام، فبنوا البيت ولم يُكملوه، فلما لم يكملوه وضعوا ما يسمى بالحِجْر الذي يسميه العامة: «حِجْر إسماعيل»، وهو ليس لإسماعيل، إسماعيل لا يعرف الحجر عليه الصلاة والسلام[١]، فالبيت كان مستطيلاً إلى الحجر، وهم بلغت أموالهم للبناء إلى هذا المكان، فعملوا هذا القوس، الحِجْر ليبينوا أن هذا المكان من البيت ولكننا لم نستطع أن نكمله.

ومن طاف داخل هذا الحجر؛ فإن طوافه لا يصح؛ لأن المطلوب الطواف حول البيت لا داخل البيت، ومن صلى فيه يعتبر صلى داخل البيت، ولما سألت عائشة النبي ﷺ أن تصلي داخل البيت، قال: **«صلي في الحجر فإنه من البيت»**[٢].

وذهبت الأيام والليالي والسنون حتى فتح الله مكة لنبيه محمد ﷺ، فأراد النبي ﷺ أن يكمل هذه الزيادة، لكن إذا أراد أن يكمل هذه الزيادة سيهدم الجهة التي إلى الشام والعراق، الركن الشامي والركن العراقي الذي فيه الميزاب، لكنه خشي صلوات الله وسلامه عليه أن يتكلم الناس فيه، ماذا يقولون؟ يقولون: هذا محمد الذي يدعي أنه يعظم البيت أول ما فتح مكة هدم البيت!! لذلك آثر أن لا يهدم حتى تثبت قدم الإسلام في قلوب الناس، وحتى تكون عنده النفقة الكافية.

---

(١) قال الشيخ العلامة بكر أبو زيد رحمه الله: «ذكر المؤرخون، والإخباريون: أن إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام مدفون في «الحِجْر» من البيت العتيق، وَقَلَّ أن يخلو من هذا كتاب من كتب التاريخ العامة، وتواريخ مكة ـ زادها الله شرفاً ـ لذا أُضيف الحِجْر إليه، لكن لا يثبت في هذا كبير شيء؛ ولذا فقل: «الحِجْر»، ولا تقل: «حِجْر إسماعيل» والله أعلم». «معجم المناهي اللفظية» (ص٢٢٦).

(٢) أخرجه أبو داود (٢٠٢٨)، والترمذي (٨٧٦)، والنسائي (٢٩١١، ٢٩١٢).



بناء البيت في عهد عبد الله بن الزبير رضي الله عنه:

ذهبت الأيام وجاءت خلافة أبي بكر، فعمر، فعثمان، فعليّ، فالحسن، فمعاوية، فيزيد حتى جاءت خلافة عبد الله بن الزبير رضي الله عنه سنة أربع وستين (٦٤هـ)، فلما كانت خلافته قال: أريد أن أكمل البيت، وقال: أما وأنا الآن لا أخشى أحداً وعندي المال.

قال عطاء: لما احترق البيت زمن يزيد بن معاوية حين غزاها أهل الشام، فكان من أمره ما كان، تركه ابن الزبير حتى قدم الناس الموسم يريد أن يجرأهم أو يحرّبهم[1]، فلما صدر الناس قال: أيها الناس أشيروا عليّ في الكعبة، أنقضها ثم أبني بناءها، فأنا أرى ذلك، أنقضها ثم أبني بناءها مرة ثانية على قواعد إبراهيم، أو أصلح ما وَهِيَ منها، ما رأيكم. قال ابن عباس: فإني قد فُرِقَ لي رأي فيها، قال: قل، قال: أرى أن تصلح ما وَهِيَ منها.

وكان للكعبة بابان: باب يدخل منه الناس، وباب يخرجون منه، فجعل كفار مكة لها باباً واحداً، وكان الباب ملتصقاً بالأرض، فرفعه كفار مكة عن الأرض، وعبد الله بن الزبير الآن يريد أن يعيدها كما كانت زمن إبراهيم، يجعل لها بابين، وينزلهما إلى الأرض.

قال ابن عباس: أرى أن تصلح ما وَهِيَ منها، وتدع بيتا أسلم الناس عليه، وأحجاراً أسلم الناس عليها، وبعث عليها النبي ﷺ.

فقال ابن الزبير: لو كان أحدكم احترق بيته ما رضي حتى يجدده، فكيف ببيت ربكم إني مستخير ربي ثلاثاً، ثم عازم على أمري، فلما مضى الثلاث أجمع رأيه على أن ينقضها، فتحاماه الناس أن ينزل بأول الناس يصعد فيه أمر من السماء[2]، حتى صعد رجل، فألقى منه حجارة، فلما لم

---

(١) يعني: على أهل الشام.

(٢) أيضاً خافوا أن ينزل أمر من السماء.



يره الناس أصابه شيء تتابعوا فنقضوه حتى بلغوا به الأرض، فجعل ابن الزبير أعمدة؛ أي: جعل لها أعمدة، فستر عليها الستور حتى ارتفع بناؤه.

ويقال: إن عبد الله بن الزبير أول من جعل الستور على الكعبة.

قال ابن الزبير: إني سمعت عائشة رضي الله عنها تقول: إن النبي ﷺ قال: **«لولا أن الناس حديث عهدهم بكفر، وليس عندي من النفقة ما يقوى على بنائه؛ لكنت أدخلت فيه من الحجر خمسة أذرع، ولجعلت لها باباً يدخل الناس منه، وباباً يخرجون منه»**، إذاً ليس كل الحجر من الكعبة وإنما خمسة أذرع فقط.

قال ابن الزبير: فأنا اليوم أجد ما أنفق ولست أخاف الناس، قال: فزاد فيه خمسة أذرع من الحجر أدخلها في الكعبة، حتى أبدى أُسّاً نظر الناس إليه[1]، وكان طول الكعبة ثمانية عشر ذراعاً، فلما زاد فيه استقصره، فزاد في طوله عشرة أذرع، وجعل له بابين: أحدهما يُدْخَل منه، والآخر يُخْرَج منه.

هدم ما بناه عبد الله بن الزبير رضي الله عنه:

قُتِلَ عبد الله بن الزبير سنة ثلاث وسبعين من الهجرة (٧٣هـ) على يد الحجاج بن يوسف الثقفي، ورأى الحجاج ـ لما دخل مكة ـ الكعبةَ متغيرةً مختلفةً تماماً، فأرسل الحجاج إلى عبد الملك بن مروان يخبره بذلك: أن ابن الزبير قد وضع البناء على أسٍّ نظر إليه العدول، فكتب إليه عبد الملك: إنا لسنا من تلطيخ ابن الزبير في شيء، أما ما زاده من طوله فأقِرَّه[2]، وأما ما زاد فيه من الحِجْر فرده إلى بنائه كما كان، وسد الباب الذي فتحه، فنقضه وأعاده إلى بنائه.

---

(١) أراهم أساس إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه.

(٢) يعني: أبقه كما كان.



ثم بعد ذلك وَفَدَ الحارث بن عبد الله على عبد الملك بن مروان، فقال عبد الملك: ما أظن أبا خبيب[١] سمع من عائشة ما كان يزعم أنه سمعه منها[٢]. قال الحارث: بلى أنا سمعته منها أيضاً، قال: سمعتها تقول ماذا؟ قال: سمعتها قالت: قال رسول الله ﷺ: «**إن قومك استقصروا من بنيان البيت، ولولا حداثة عهدهم بالشرك أعدت ما تركوا منه، فإن بدا لقومك من بعدي أن يبنوه فهلمي لأريك ما تركوا منه**»، فأراها قريباً من سبعة أذرع.

قال: «**ولجعلت لها بابين موضوعين في الأرض شرقياً وغربياً**»، ثم قال لها: «**وهل تدرين لِمَ كان قومك رفعوا بابها؟**» قالت: لا، قال: «**تعززاً ألا يدخلها إلا من أرادوا، فكان الرجل إذا أراد أن يدخلها يدعونه حتى يرتقي حتى إذا كاد أن يدخل دفعوه فسقط**».

قال عبد الملك للحارث: أنت سمعتها تقول هذا؟ فنكت ساعة بعصاه، ثم قال: ودَدْتُ أني تركته وما تحمل[٣].

ثم تُرِكَ البيت حتى جاء زمن المهدي الخليفة العباسي، فأرسل إلى الإمام مالك بن أنس، فقال: يا أبا عبد الله نريد أن نستشيرك، قال: ماذا؟ قال: أهدم البيت وأعيده إلى قواعد إبراهيم مرة ثانية؟ فقال الإمام مالك: أرى أن تدعه، قال: لِمَ؟ قال: أخشى أن يتخذه الملوك لعبة، هذا يهدم وهذا يبني، فتذهب هيبة البيت من قلوب الناس. فتُركَ إلى يومنا هذا.

إذاً البيت الآن من حيث البنيان ناقص البنيان، والحجر خمسة أذرع منه من البيت.

---

(١) يعني: عبد الله بن الزبير.
(٢) يعني: قول النبي ﷺ: «**لولا أن قومك حديثو عهد بجاهلية..**».
(٣) أخرجه مسلم (١٣٣٣).



وهذه الكعبة المشرفة التي بناها أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام قد أخبر النبي ﷺ أنه: «**يخرب الكعبة ذو السويقتين من الحبشة**»(١)، وذلك بعد وفاة عيسى صلوات الله وسلامه عليه بعد أن ينزل، وقيل قبل ذلك، والعلم عند الله ـ جل وعلا ـ، ولكن المشهور أنه يكون بعد عيسى عليه السلام؛ لأن عيسى سيحج كما في «صحيح مسلم»(٢) حيث لا يكون بعد ذلك حج حتى تقوم الساعة على شرار الخلق.

كذب المشركين على إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام:

ولما فتح الله تبارك وتعالى مكة على نبيه محمد ﷺ، وذلك في السنة الثامنة من الهجرة في رمضان، دخل صلوات الله وسلامه عليه الكعبة، فرأى فيها العجب، وذلك أنه رأى في الكعبة الصور، فلم يدخل حتى مُحيت، وكان مما رأى من الصور صورة نبي الله إبراهيم ونبي الله إسماعيل بأيديهما الأزلام يستقسمان بهما، وهي الأعواد التي كانت يستقسم بها أهل الجاهلية، زعموا كذباً وزوراً أن إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه وولده إسماعيل كانا يستقسمان بالأزلام، فلما رأى ذلك النبي ﷺ قال: «**قاتلهم الله، والله إن يستقسما بالأزلام قط**»(٣)، و(إن) هنا نافية، يعني: لم يستقسما بالأزلام قط، وهي كمثل قول الله تبارك وتعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟﴾ [البقرة: ٢١٧] إن استطاعوا، يعني: ولن يستطيعوا، وكذلك هنا، «**إن يستقسما**» أي: لم يستقسما، فهي نافية، لم يستقسم إبراهيم ولا إسماعيل ولا غيرهما من الأنبياء بالأزلام قط، كيف وقد أخبر الله تبارك وتعالى

---

(١) أخرجه البخاري (١٥٩١)، ومسلم (٢٩٠٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) «صحيح مسلم» (١٢٥٢). (٣) أخرجه البخاري (٣٣٥٢).



في قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ [المائدة: ٩٠] فكيف يقع الرجس من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين؟! وهم الذين عصمهم الله واختارهم وقال: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

مقام إبراهيم عليه السلام:

لإبراهيم صلوات الله وسلامه عليه مقام معروف، يقال له: (مقام إبراهيم)؛ أي: ما أقامه إبراهيم من الحج، فمقام إبراهيم عرفة، ومقام إبراهيم مزدلفة، ومقام إبراهيم الجمرات، ومقام إبراهيم الحرم، وذهب الأكثر إلى أن المقصود من مقام إبراهيم هذا الذي يصلي خلفه الناس فيه خطوة يقول الناس إنها خطوة إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه، وهو قريب من الكعبة، وهذا الذي عليه أكثر أهل العلم.

قال عمر رضي الله عنه: وافقت ربي في ثلاث، قلت: يا رسول الله لو اتخذتَ من مقام إبراهيم مصلى، فنزلت ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة: ١٢٥]، وقلت: يا رسول الله: يدخل عليك البر والفاجر، فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب، فأنزل الله آية الحجاب، قال عمر: وبلغني معاتبة النبي ﷺ بعض نسائه، فدخلت عليهن، فقلت: إن انتهيتن أو ليبدلن الله رسوله خيراً منكن، فأنزل الله: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ﴾ [التحريم: ٥][١].

وأخبر قتادة رحمه الله ـ وهو من أئمة التابعين ـ عن المقام، فقال: إنما أمروا أن يصلوا عنده ولم يُأمروا بمسحه ـ وذلك أن بعض الجهلة كانوا يأتون إلى المقام ويمسحونه ـ ولقد تكلفت هذه الأمة شيئاً ما تكلفته الأمم قبلها[٢].

---

(١) أخرجه البخاري (٤٠٢)، ومسلم (٢٣٩٩).

(٢) «تفسير الطبري» (٢/ ٣٥).



ثم قال أهل العلم ـ كابن كثير[١] وغيره ـ نقلاً عن بعض السلف، ونُقل حتى عن أنس رضي الله عنه أن آثار قدم إبراهيم كانت واضحة، فكان أثر قدمه واضحاً، وأثر أصابعه واضحاً، وأثر عقبه واضحاً، يقول: فما زال الناس يتمسحون به حتى خفي ذلك الأثر، وكان هذا المقام مُلصقاً بالكعبة، فلما كان زمن عمر أعاد المقام حتى يرتاح المصلون من الطائفين، ويرتاح الطائفون من المصلين، هذه القدم التي نراها كما قلنا، ذكر قتادة أنه اخلولق وانمحى؛ أي: تأثر من كثرة مسح الناس له، ولذلك قال شاعرهم:

وبالحجر المسود إذ يمسحونه ... إذا اكتنفوه بالضحى والأصائل
وموطئ إبراهيم في الصخر رطبة ... على قدميه حافياً غير ناعل

وفيه قراءتان، قال الله ـ جل وعلا ـ: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة: ١٢٥] وجاءت القراءة الثانية بالفعل الماضي «وَاتخَذُوا» إذاً هناك أمر «اتخِذُوا»، وهناك خبر (اتخَذُوا من مقام إبراهيم مصلى) وكلا القراءتين ثابتة عن النبي ﷺ.

حديث ضيف إبراهيم:

قال الله تبارك وتعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَـٰمًا ۖ قَالَ سَلَـٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الذاريات] ضيوف غرباء دخلوا على إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه، رآهم واستغربهم ﴿قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾، ولكن لم يمنعه هذا من أن يذهب إلى أهله ويأتيهم بعجل سمين، وقربه إليهم ليأكلوا، فلم يأكلوا، فتعجب منهم صلوات الله وسلامه عليه، فأخبروه بأنهم ملائكة الرحمن ﷻ، وذلك أن الملائكة خُلقوا من نور،

(١) «تفسير ابن كثير» (١/٤١٧).



وجعل الله لهم القدرة على التشكل، تتشكل الملائكة على صورة الآدميين، كما تشكل جبريل على صورة رجل جاء يسأل النبي ﷺ عن الإسلام والإيمان والإحسان[(١)].

وهنا تشكلت الملائكة لإبراهيم، على صورة بشر، وتشكلت الملائكة للوط عليه الصلاة والسلام على صورة بشر، وتشكل ملك الموت لموسى على صورة بشر[(٢)]، وهكذا تتشكل الملائكة كيف شاءت.

قال ابن القيم رحمه الله: في هذه الآية: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [الذاريات] يقول: في هذه الآية مدح من الله ـ جل وعلا ـ لإبراهيم من أوجه:

أولاً: وصف ضيوفه بأكرم وصف، فقال الله ـ جل وعلا ـ: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ إذاً ضيوف إبراهيم كانوا مكرمين، إما من قول الله تعالى: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦] أي: عن الملائكة، أو وصفهم بمكرمين؛ أي: بما قام به إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه من الإكرام لهم.

ثانياً: قوله: ﴿إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ﴾ [الذاريات: ٢٥] ولم يذكر لهم استئذاناً، وإنما قال: ﴿دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ﴾ قال ابن القيم: مما يدل على أن إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه كان مضيافاً، وكان بيته مفتوحاً للضيوف.

ثالثاً: قالوا له: ﴿سَلَٰمًا﴾ فقال لهم: ﴿سَلَٰمٌ﴾ فقولهم: ﴿سَلَٰمًا﴾ بالنصب جملة فعلية، كما يقول أهل العلم تدل على التجدد والحداثة، أما إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه فقال: ﴿سَلَٰمٌ﴾، وهذه جملة اسمية والجملة الاسمية تدل على الثبوت، فقوله: ﴿سَلَٰمٌ﴾ أعبر من قولهم

---

(١) أخرجه البخاري (٥٠)، ومسلم (٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وأيضاً أخرجه مسلم (٨) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (١٣٣٩)، ومسلم (٢٣٧٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.



﴿سَلَٰمًا﴾ فأكرمهم حتى في رد السلام صلوات الله وسلامه عليه.

رابعاً: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ٢٦﴾ [الذاريات] والروغان هو: الذهاب بسرعة وخُفية حتى لا يزعج ضيوفه صلوات الله وسلامه عليه.

خامساً: ذهب إلى أهله، فجاء بالضيافة مباشرة، ولم يقل: ثم جاء بعجل سمين، مما يدل على أن الضيافة كانت عنده جاهزة صلوات الله وسلامه عليه، وذلك لكثرة دخول الضيوف عليه، وإنما هو استغرب أشكالهم صلوات الله وسلامه عليه، حيث إنهم ليسوا من أهل بلده، ولعلهم جاؤوه بصورة جميلة كما هي حال الملائكة إذا تشكلوا إنما يتشكلون بأجمل صورة.

سادساً: جاءهم بعجل سمين، وهذا من كرم الضيافة.

ذُكِرَ أن رجلاً أضاف رجلاً، قال: أدعوك إلى منزلي، قال: بثلاثة شروط، قال: ما هي؟ قال: لا تخون، ولا تجور، ولا تتكلف. قال: قبلت، ولكن اشرحها لي، قال: لا تتكلف ما ليس عندك، قال: لك هذا، قال: ولا تخون فتُخفي عني ما عندك، أكرمني. قال: لك هذا، قال: ولا تجور فتعطيني طعام أولادك، تظلمهم لأجلي، قال: لك هذا.

سابعاً: ﴿فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾ [الذاريات: ٢٦]، لم يقل إيتونا بعجل، لا بل أكرمهم بنفسه، ثم كذلك جاء بالعجل كاملاً، ما جاء بفخذ، أو رقبة، أو يد، أو رأس، وإنما جاء بالعجل كله، ووضعه أمامهم صلوات الله وسلامه عليه.

ثامناً: قرّبه؛ أي: بنفسه كذلك، وأيضاً قربه ولم يقربهم، لم يقل لهم: تفضلوا، وإنما جاء ووضعه أمامهم لشدة إكرامه لهم حتى لم يكلفهم بالقيام من مكانهم.

تاسعاً: لما وضعه أمامهم، قال: ألا تأكلون؟ وهذا من التلطف مع



الضيف، ولم يقل لهم: كلوا يأمرهم أمراً، وإنما قال: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾، يتلطف معهم صلوات الله وسلامه عليه.

عاشراً: ثم إنه خافهم، صلوات الله وسلامه عليه، ولكنه لم يظهر لهم هذا الخوف من أدبه مع ضيوفه صلى الله عليه وعلى آله وسلم[(١)].

إبراهيم عليه السلام يختتن وهو ابن ثمانين:

قال رسول الله ﷺ: «**اختتن إبراهيم وهو ابن ثمانين سنة**»[(٢)]، والختان للرجل والمرأة، وهو قطع رأس الفرج بالنسبة للمرأة، وقطع رأس الذكر بالنسبة للرجل، أما المرأة فيؤخذ منه شيء يسير، وأما الرجل فتؤخذ القلفة التي تكون فوق رأس الذكر، وجمهور العلماء على أنه سنة مؤكدة، وذهب بعض أهل العلم إلى أنه واجب، وأما بالنسبة للنساء فهو مكرمة، إن شاءت فعلت، وإن شاءت تركت.

اختتن إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه وهو ابن ثمانين سنة بالقَدُّوم، والقدوم منطقة في بلاد الشام؛ أي: اختتن وهو ابن ثمانين سنة بالقدوم؛ أي: في منطقة القدوم في الشام، وقُرأتْ بالقَدُوم، بتخفيف الدال، وهو الفأس، أو يشبه الفأس، يعني اختتن بهذه الآلة، وسواء اختتن بالقَدُّوم ـ أي: في بلاد القَدُّوم ـ أو اختتن بالقَدُوم: آلة النجارة المهم أنه اختتن وهو ابن ثمانين سنة صلوات الله وسلامه عليه.

---

(١) انظر الأوجه كلها في: «جلاء الأفهام» لابن القيم رحمه الله وقد قال بعدها: «فقد جمعت هذه الآية آداب الضيافة التي هي أشرف الآداب، وما عداها من التكلفات التي هي تخلف وتكلف، إنما هي من أوضاع الناس وعوائدهم، وكفى بهذه الآداب شرفاً وفخراً، فصلى الله على نبينا وعلى إبراهيم وعلى آلهما وعلى سائر النبيين». (ص١٧٥).

(٢) أخرجه البخاري (٣٣٥٦)، ومسلم (٢٣٧٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.



صفة إبراهيم عليه السلام:

قال النبي ﷺ في صفته: «**أتاني الليلة آتيان فأتياني على رجل طويل لا أكاد أرى رأسه طولاً وإنه إبراهيم عليه السلام**»(١).

وأخبر النبي ﷺ ـ كما في البخاري ـ أنه أشبه الناس بإبراهيم صلوات الله وسلامه عليه، وذلك أنه وصف موسى، ووصف عيسى، فلما قيل له: صِفْ لنا إبراهيم، قال: «**أشبهكم به صاحبكم**»(٢)، يعني نفسه صلوات الله وسلامه عليه.

إبراهيم عليه السلام وإحياء الموتى:

قال الله ـ جل وعلا ـ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَـٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾﴾ [البقرة].

قوله: ﴿رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ سؤال من إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه، سأل ربه ـ جل وعلا ـ مسألةً، وهي أن يريه كيف يحيي الموتى، فقال الله له: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِن﴾ أني أحيي الموتى؟ ﴿قَالَ بَلَىٰ﴾ وهذا السؤال من الله لا على سبيل الاستفهام؛ لأن الله تبارك وتعالى ما اختار إبراهيم إلا على علم، ومدحه الله مدحاً لا يكاد يوصف في كتابه العزيز، وأمر باتباع ملته في أكثر من آية: ﴿فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ [آل عمران: ٩٥]، فالله تبارك وتعالى سأله ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِن﴾ ألست آمنت وانتهى الأمر؟ قال: بلى يا رب، ولكن أردت شيئاً آخر، ماذا تريد يا إبراهيم؟

(١) أخرجه البخاري (٣٣٥٤) من حديث سمرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (٣٣٩٤)، ومسلم (١٦٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وأخرجه أيضاً مسلم (١٦٧) من حديث رضي الله عنه.



قال: ﴿لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾، قال أهل العلم: أراد أن ينتقل من علم اليقين إلى عين اليقين، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ۝٥﴾ [التكاثر]، هذا إيمان قلبي، ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ۝٦﴾ [التكاثر] أي: في قلوبكم، وتعرفون صفتها وتؤمنون بوجودها، ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ۝٧﴾ [التكاثر].

وكما قال موسى صلوات الله وسلامه عليه: ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٤٣] أراد أن ينظر إلى الله تبارك وتعالى.

قال النبي ﷺ: «**نحن أحق بالشك من إبراهيم إذ قال:** ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾»[1]، وهذا دفاعٌ من النبي ﷺ عن أبيه إبراهيم أنه لم يشك، يعني: فطالما نحن لم نشك؛ إذاً هو أيضاً لم يشك صلوات الله وسلامه عليه.

والمسألة واضحة أن سؤال إبراهيم لم يكن عن شك، بدليل أنه سأل عن الكيف، ولم يسأل عن القدرة، لم يقل: رب هل تستطيع أن تحيي الموتى؟ ولكن سأل عن الكيفية، فقال: ﴿أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾.

وقارن بين قول إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه هذا وبين قول حواريي عيسى عليه السلام لما قالوا له: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ [المائدة: ١١٢] هذا السؤال للشك، ولذلك كان الرد من عيسى: ﴿قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ۝١١٢ قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ۝١١٣﴾ [المائدة]، فدعا عيسى ربه ـ جل وعلا ـ: ﴿اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ۝١١٤﴾

(١) تقدم تخريجه ص١٢٤.



[المائدة: ١١٤] ماذا قال الله ـ جل وعلا ـ: ﴿قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ﴾ تهديد، ووعيد من الله تبارك وتعالى ﴿فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المائدة: ١١٥]، إذاً فرْق بين جواب الله للحواريين وبين جواب الله لإبراهيم.

استجاب الله لإبراهيم، وهدد الحواريين، فدَلَّ هذا على أن سؤال الحواريين كان مرفوضاً؛ لأنهم قالوا: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾، وسؤال إبراهيم كان مقبولاً؛ لأنه قال: ﴿أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ﴾ [البقرة: ٢٦٠]، ما هذه الطيور؟ أنواع هذه الطيور لا تُعلم، ولا فائدة من معرفتها؛ لأنه لو كان ثَمَّ فائدة من معرفتها لذكره الله لنا سبحانه، المهم العبرة، ﴿قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ﴾ يعني: أي طير ﴿فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾؛ أي: اجمعهن ثم قطعهن ﴿ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا﴾، يعني قطعها وضع جزءً من هذا الطائر على هذا الجبل، وجزءً منه في ذاك الجبل، وكذلك الطائر الآخر، وهكذا فرِّقْ هذه الأجزاء على هذه الجبال، ﴿ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ﴾ ادعُ هذه الطيور ﴿يَأْتِينَكَ سَعْيًا﴾ يعني: يعيد الله خلق هذه الطيور مرة أخرى تبارك وتعالى، والله على كل شيء قدير إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون.

صحف إبراهيم عليه السلام:

قال الله ـ جل وعلا ـ: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِي وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾﴾ [النجم] هذا في صحف إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه، كذلك جاء في صحف إبراهيم



صلوات الله وسلامه عليه: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾﴾ [الأعلى] إذاً أخبرنا الله تبارك وتعالى عن بعض ما في صحف إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه، وليس عن كل ما في صحف إبراهيم عليه السلام وأما تفاصيلها فلا علم لنا بها، وعلمها عند الله عز وجل.

أولاد إبراهيم عليه السلام:

ذُكر أن له أولاداً كُثر، أكثر من سبعة أولاد، وقيل: ثمانية أولاد، والله أعلم، لكن المشهور إسحاق من سارة وإسماعيل من هاجر.

الدروس والعبر المستفادة من قصة إبراهيم عليه السلام

الفائدة الأولى: أننا مأمورون باتباع إبراهيم أمراً خاصاً ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الحج: ٧٨] كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾ [النحل: ١٢٣]، ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ [الممتحنة: ٤]، وذلك مما هو عليه من التوحيد والأصول والعقائد والأخلاق، ولم يستثن الله - جل وعلا - شيئاً أبداً، لك في إبراهيم أسوة حسنة إلا في شيء واحد فقط: ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ﴾ [الممتحنة: ٤] هذه ليس لكم فيها أسوة؛ لأن هذا نُسخ ومُنِع، كان مأذوناً لإبراهيم صلوات الله وسلامه عليه أن يستغفر لأبيه، ثم منعه الله تبارك وتعالى من ذلك.

الفائدة الثانية: في قصة إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه من أصول المناظرة، وذلك لما ناظره الرجل الذي يدعي الألوهية.

الفائدة الثالثة: أن من نعمة الله تبارك وتعالى على عبده، أن يلهمه شكر هذه النعم، ولذلك قال إبراهيم: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ﴾ [إبراهيم: ٣٩]، والإنسان إذا أنعم الله عليه يتذكر



هذه النعم، ويقتدي بنبي الله إبراهيم، فيحمد الله ـ جل وعلا ـ على ما ينعم عليه به.

الفائدة الرابعة: أن أفضل الوصايا ما وصى بها إبراهيم بنيه: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ۝١٣٢﴾ [البقرة].

الفائدة الخامسة: كرم الضيافة، وهو ما وقع لإبراهيم صلوات الله وسلامه عليه كما تقدم في قصة الملائكة.

الفائدة السادسة: مشروعية السلام، فلما دخلت الملائكة على إبراهيم قالوا سلاماً، قال سلام، فالسلام مشروع، بل مستحب أن الإنسان يبدأ أخاه بالسلام.

الفائدة السابعة: بيان إكرام الله لأوليائه، لما وُهِب لإبراهيم وسارة ولداً على الكبر، وهذا من نعمة الله ـ جل وعلا ـ كما وهبهما إسحاق ووهب إبراهيم كذلك إسماعيل من أَمَتِه هاجر.

الفائدة الثامنة: التأمل في الكون يهدي الإنسان إلى ربه ـ جل وعلا ـ، إلى وجود خالق، كما قال الأعرابي: سماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، وبحار ذات أمواج، ألا تدل على اللطيف الخبير، كذلك إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه لما ناظر قومه، وقد رأى النجم قال: ﴿هَٰذَا رَبِّي ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ۝٧٦ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ۝٧٧ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۝٧٨﴾ [الأنعام]، فالنظر في الكون يهدي الإنسان إلى ربه ـ جل وعلا ـ.

الفائدة التاسعة: مشروعية الهجرة، فإذا أوذي الإنسان في سبيل الله، ولم يستطع أن يظهر دينه؛ فعليه أن يهاجر أسوةً بنبي الله



إبراهيم، بل وبأنبياء الله صلوات الله وسلامه عليهم جميعاً.

الفائدة العاشرة: الثقة بنصر الله وإن طال الأمد، لابد أن تثق بنصر الله ـ جل وعلا ـ، وإبراهيم أُلقي في النار، ويقول: «حسبي الله ونعم الوكيل»، وجاء النصر من الله ـ جل وعلا ـ.

الفائدة الحادية عشرة: المسلم إذا أراد أن يناظر لابد أن يكون عنده حجة، ليس لكل أحد أن يناظر بدون حجة وبدون برهان، بل استعد بحجتك وبرهانك بالعلم وناظر من شئت بعد ذلك.

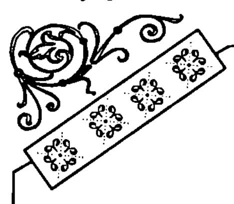
الفائدة الثانية عشرة: من يتق الله يجعل له مخرجاً كما فعل الله تبارك وتعالى بأم إسماعيل وولدها لما تركهما إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه في مكة، قالت: إلى من تتركنا، فما رد عليها، ثم قالت: آلله أمرك بهذا؟ قال: نعم، قالت: إذاً لا يضيعنا، ثقة بالله ـ جل وعلا ـ، وما ضيعهم ﷻ.

الفائدة الثالثة عشرة: رؤيا الأنبياء حق، وذلك لما رأى إبراهيم في المنام أنه يذبح ولده امتثل واستجاب ولده إسماعيل صلوات الله وسلامه عليه.

الفائدة الرابعة عشرة: الابتلاء والامتحان والاختبار من الله ـ جل وعلا ـ ليس المقصود منه المشقة والإيذاء، وإنما كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٣﴾ [العنكبوت] إذاً الاختبار ليس للمشقة، وليس للأذى وإنما حتى يعلم الله تبارك وتعالى الصابرين، ويعلم الصادقين ﷻ.

الفائدة الخامسة عشرة: الأنبياء أشد الناس بلاءً، وإذا أحب الله امرءً ابتلاه ﷻ.






قصة إسماعيل عليه السلام

إسماعيل عليه السلام، ذكره الله تبارك وتعالى في كتابه العزيز فقال: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾﴾ [مريم].

المشهور أنه أرسل إلى العرب، ولذلك جاء في الأخبار أن العرب الذين كانوا يطوفون حول الكعبة، وقد خلطوا الحج بشركيات، فوضعوا عند المروة صنماً وعند الصفا صنماً، ووضعوا داخل الكعبة أصناماً وفوقها وحولها وكانوا يطوفون بالبيت، يغنون، يصفقون ويصفرون، ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً﴾ [الأنفال: ٣٥] لكن أصل الحج موجود عندهم، إذاً هم على دين إسماعيل صلوات الله وسلامه عليه، وقد ذكر النبي ﷺ أن أول من أتى بالأصنام إلى مكة هو عمرو بن لحي الخزاعي لما كانت خزاعة تحكم مكة قبل قريش، جاء بها عمرو بن لحي من جدة، ثم عبدتها العرب بعد ذلك ومما يدل على أنهم على دين إسماعيل أمور، منها:

الأمر الأول: أن النبي ﷺ كان حنيفاً، كان يعبد الله تبارك وتعالى في غار حراء كما هو مشهور على ملة إبراهيم، لكن لا يعرف تفاصيل الشرع لكن يعرف أن هناك رباً ﷻ وأنه يجب أن يُعْبَد وأن هذه الأصنام لا يجوز أن تُعْبَد، هذا يعرفه، ولذلك قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾﴾ [الضحى] أي: ضالاً عن تفاصيل الشرع، لا أنه كان مشركاً[1].

---

(١) انظر للأهمية: «زاد المسير» لابن الجوزي عند هذه الآية.



لما سألت عائشة النبي ﷺ عن عبد الله بن جدعان، من أجدادها، من بني تيم، وأنه كان يكرم الحجيج إذا جاءوا فقالت: يا رسول الله قد علمت ما كان من عبد الله بن جدعان فهل له شيء عند الله؟ هل ينفعه ذلك عند الله؟ فقال النبي ﷺ: «**إنه لم يقل يوماً ربِّ اغفر لي خطيئتي يوم الدين**»[١].

الأمر الثاني: وأخبر النبي ﷺ الرجل الذي جاءه وقال له: يا رسول الله أين أبي؟ قال: «**أبوك في النار**»، فولى الرجل وهو متضايق، فناداه النبي ﷺ، قال: «**أبي وأبوك في النار**»[٢].

ولما خرج النبي ﷺ من المدينة في عام الحديبية مر على قبر أمه وجلس عنده، وبكى، فسأله أصحابه ما يبكيك يا رسول الله؟ قال: «**استأذنت ربي في أن أزور قبر أمي فأذن لي، واستأذنته في أن أستغفر لها فلم يأذن لي في الاستغفار لها**»[٣].

فالشاهد أن أهل مكة كانوا مطالبين بدين إسماعيل، وبملة إسماعيل صلوات الله وسلامه عليه، ولكنهم كفروا بها، ومن بقي على دين إسماعيل كزيد بن عمرو بن نفيل مثلاً وكان موحداً على دين إسماعيل، ومحمد ﷺ كان على دين إسماعيل كان موحداً.

محمد ﷺ من ذرية إسماعيل عليه السلام:

وإسماعيل لم يكن من ذريته من الأنبياء إلا واحد وهو محمد ﷺ خاتم الأنبياء وسيدهم، ويثبت أن محمداً من ولد إسماعيل صلوات الله وسلامه عليه: إخباره هو صلوات الله وسلامه عليه أنه من ولد إسماعيل،

---

(١) أخرجه مسلم (٢١٤).
(٢) أخرجه مسلم (٢٠٣) من حديث أنس رضي الله عنه.
(٣) أخرجه مسلم (٩٧٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.



«إن الله اصطفى قريشاً على العرب واصطفى بني هاشم من قريش، واصطفاني من بني هاشم»[1] . فهو خيار من خيار من خيار صلوات الله وسلامه عليه، وسمى الله تبارك وتعالى إبراهيم أباً له فقال: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الحج: ٧٨]، وهذا باتفاق أن النبي ﷺ من ذرية إسماعيل، والعرب كما هو معلوم قحطان وعدنان، عدنان باتفاق أهل العلم من ولد إسماعيل، ولكن الكلام في قحطان هل هم من ولد إسماعيل أو ليسوا من ولد إسماعيل يعني من العرب العاربة، أو من قوم جُرْهُم، الذين تزوج منهم إسماعيل؟ هذا هو المشهور أن قحطان ليسوا من ولد إسماعيل، وإنما الذين من ولد إسماعيل هم عدنان الذين منهم النبي ﷺ، وجاء في الحديث أن النبي ﷺ جاء إلى بني أسلم فقال لهم النبي ﷺ: **«ارموا بني فلان وأنا معكم فإن أباكم إسماعيل كان رامياً»** وتوقف الفريق الثاني فقال لهم النبي ﷺ: **«ما لكم لا ترمون؟»** قالوا: كيف نرمي وأنت معهم؟ تأدباً مع النبي ﷺ، فخرج النبي ﷺ فقال: **«أنا معكم جميعاً»** صلوات الله وسلامه عليه.

وقبيلة أسلم كما ذكر أهل العلم من خزاعة، وخزاعة من قحطان، فكيف يقول أبوكم إسماعيل وهم ليسوا من ولد إسماعيل، فأكثر أهل العلم على أنه إنما سماهم كذلك على أن إسماعيل أباهم من الأم، يعني جدهم لأمهم لا أنه جدهم لأبيهم، كما يقال عن أولاد فاطمة رضي الله عنها أنهم أبناء النبي ﷺ، يعني الحسن والحسين وذريتهما رضي الله عنهم هؤلاء يقال: أولاد النبي ﷺ.

البشارة بالنبي ﷺ في التوراة:

وإسماعيل ـ كما تقدم ـ هو والد النبي ﷺ، وكذلك هو في التوراة

---

(١) أخرجه مسلم (٢٢٧٦) من حديث واثلة بن الأسقع رضي الله عنه.



الموجودة الآن، وهذا في «سفر أشعياء» إصحاح (٤٢)، يقول: **«لتَرْفَع البرية ومدنها صوتها، الديار التي يسكنها قيدار»**. وقيدار من هو؟

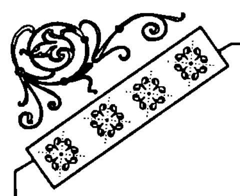
وفي «سفر التكوين» (٢٥): وهذه مواليد بني إسماعيل بأسمائهم حسب مواليدهم ثم ذكرهم فقال: **«نبايوت بكر إسماعيل**[١]**، وقيدار، وأردئيل، ومبسام»** وذكر باقي الأسماء.

إذاً قيدار من ولد إسماعيل في كتابهم، ثم قال: **«لتترنم سكان سالع»**، وسالع هو جبل سلع، الذي في المدينة.



(١) يعني: الكبير.






قصة إسحاق ويعقوب عليهما السلام

ولد لإبراهيم على المشهور ولدان من الأنبياء، وقيل: إن له أولاداً كثر، والعلم عند الله ـ جل وعلا ـ، ولكن ذكر الله تبارك وتعالى ولديه إسماعيل وإسحاق، وقد تقدم الحديث على إسماعيل، أما إسحاق فقد وُلِدَ لإبراهيم على كبر، ولما جاءت الملائكة تبشر إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه بإسحاق قال: ﴿أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ﴾ [الحجر: ٥٤]، فبشَّروه بإسحاق، وزوجة إبراهيم سارة ﴿فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾ [الذاريات] سببان مانعان للولادة والحمل، كِبَرٌ وعُقْمٌ، قالوا: ﴿أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ هذا أمر الله ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس] أليس الله تبارك وتعالى خلق آدم دون ذكر ولا أنثى؟ وخلق حواء من غير أنثى؟

فالأمر عند الله تبارك وتعالى لا يحتاج إلى كبير مشقة ولا إلى قليل.

ولد إسحاق لإبراهيم صلوات الله وسلامه عليه، ولم يُذكر كذلك كبيرُ حديثٍ عن إسحاق، والظاهر ـ والعلم عند الله ـ أنه كان نبياً على دين أبيه إبراهيم، وعلى شريعته كذلك، وهو نبي كريم، ولكن ليس هناك أي تفصيل عن حياته ودعوته، وإنما ذُكِرَ ذكراً صلوات الله وسلامه عليه.

وذُكِرَ كذلك إنه وُلِد لإسحاق ولدان: يعقوب والعيص، ويقال له: عيصو.



قصة باطلة:

وذكرت قصة في كتب بني إسرائيل، ونقلها البعض نذكرها لأنهم ذكروها ثم نبين فسادها:

ذكروا أن إسحاق كان قد عمي، وكان يحب ولده العيص أكثر من يعقوب، وكانت الأم على العكس تحب يعقوب أكثر، فطلب إسحاق من العيص أن يأتيه بجدي مشوي ليأكل منه، فخرج العيص يصطاد الجدي لأبيه، وهنا استغلت الأم الفرصة، فقالت لولدها يعقوب: خذ جدياً من الحظيرة واذبحه لأبيك واشوهِ حتى يباركك بدل العيص، فقام يعقوب وأخذ الجدي وذبحه وشواه وقدمه لأبيه، وكان العيص مُشْعِراً[1]، ولم يكن يعقوب كذلك، فلبس ثوباً من شعر حتى لا يشعر به أبوه، فقدم الجدي لأبيه، فقال له أبوه: من أنت؟ قال: ولدك العيص، فلمسه ثم قال له: الصوت صوت يعقوب، واللمس لمس العيص، ثم دعا له وباركه.

وبعدها جاء العيص بالجدي، فشواه وقدمه لأبيه، فقال له: ما هذا؟ قال: يا أبتِ هذا الجدي الذي طلبته، قال: ألستَ جئتَ به؟! قال: أبداً ما جئت به إلا الآن.

قال: بلى جئتَ به وأكلتُه، قال: ما جئت به إلا الآن، فعرف العيص أن أخاه يعقوب قد خانه في هذه.

ولا شك أن هذه القصة مكذوبة باطلة؛ لأن فيها اتهاماً ليعقوب بالكذب والخديعة، ولأن فيها اتهاماً لإسحاق بالغفلة، وكذلك فيها اتهام للأم بالخيانة والغدر، وليس أمرهم كذلك صلوات الله وسلامه عليهم أبداً.

---

(١) ذو شعر كثير.



بيت إيل:

ذهب يعقوب عليه السلام إلى خاله لابان في حرّان، وقبل أن يصلَ إليه أدركه الليل في الطريق، فوضع حجراً ونام عليه، فرأى رؤيا في المنام، رأى الله ـ جل وعلا ـ في المنام، وأن الله ـ جل وعلا ـ يقول له: «سأبارك عليك، وأكثر ذريتك، وأجعل هذه الأرض لك»، فاستيقظ يعقوب ووضع علامة على الحجر الذي نام عليه حتى يعرف الأرض التي قال الله له في المنام: أنني سأبارك لك ولذريتك، وأجعل هذه الأرض لك ولذريتك، ثم سمى ذلك المكان: «**بيت إيل**»، وإيل معناها: الله، يعني بيت الله، وذهب على أساس أن هذا المكان سيبني فيه بيت الله ـ جل وعلا ـ.

زواج يعقوب عليه السلام من ابنة خاله:

ذهب يعقوب إلى خاله لابان، واستقر عنده مدة طويلة، ثم طلب من خاله أن يتزوج ابنته، واسمها: راحيل، فوافق الخال، وقال: لا مانع على أن تأجرني سبع سنين، وأزوجك راحيل، قال: لا مانع، فعمل عنده سبع سنين، فقال: زوجني الآن. قال: أفعل، فزوجه، فلما دخل عليها يعقوب؛ فإذا هي ليست راحيل، زَوَّجَه أختها، واسمها: لِيا، فقال: يا خال إنما طلبت راحيل ولم أطلب لِيا، قال: ليس من سنتنا يا بُني أن تُزَوِّجَ الصغرى قبل الكبرى، وليا هي الكبرى، فأنا وافقت، ولكن غيرت رأيي لا بد أن تتزوج الكبرى قبل الصغرى، قال: ولكنني أريد راحيل. قال: لا مانع تجلس عندنا سبع سنين أخرى ونزوجك راحيل. قال: نعم أفعل، فجلس عند خاله سبع سنين أخرى، فزوجه خاله راحيل(١)، ومكث بعد هذه السنوات ست سنين حتى أتم عشرين سنة عند

---

(١) وكان جمع الأختين جائزاً في الشرائع السابقة، ثم حرمه الله تعالى، فقال في سياق =



خاله في حرّان، وكان يرعى له الغنم ورزقه الله تبارك وتعالى خيراً كثيراً، حتى كثر ماله جداً، ورُزِقَ بأولاد كُثُر صلوات الله وسلامه عليه، رزق من لِيا: روبيل، وشمعون، ولاوي، ويهوذا، وإيصخر، وزيلوم، ستة أولاد ولدتهم لِيا ليعقوب عليه الصلاة والسلام، وراحيل لم تنجب ليعقوب شيئاً.

ولما يئِسَتْ راحيل من الولادة أهدَتْ لزوجها يعقوب جارية عندها، فدخل على الجارية وولدت له ولدين، وقيل: إنه سماهما: دان، ونيفتالي، ثم أهدتْ لِيا ليعقوب جاريتها أيضاً، فولدت له كذلك ولدين سمّاهما: حاد أو جاد، وأشيط، ولم تلدْ راحيل شيئاً، يعني: عشرة أولاد الآن ليعقوب عليه الصلاة والسلام، ولم تلد راحيل شيئاً أبداً، فيُذكر أنه دعا الله تبارك وتعالى أن يُرزق بولد من راحيل، وكانت راحيل كذلك، ثمّ حملتْ راحيل وولدت له يوسف، وبنيامين.

يعقوب عليه السلام يبني بيت المقدس:

وكانت ليعقوب أموالٌ كثيرةٌ فقدمها بين يديه بشارة لأبيه وأخيه العيص، ثم مرَّ على المكان الذي غادره قبل عشرين سنة ووضع عنده العلامة، وهي الصخرة التي نام عليها صلوات الله وسلامه عليه، وبنى هناك بيت المقدس، ولذلك ثبت عن النبي ﷺ قال: «**بين بناء البيت الحرام وبناء بيت المقدس أربعون سنة**»(١)، وإبراهيم وإسماعيل بنيا الكعبة، ويعقوب حفيد إبراهيم بنى بيت المقدس، فهو ثاني مسجد وضع في هذه الأرض، ثم رجع إلى أبيه، وتوفي إسحاق بعد مدة، وقيل: إنه بلغ من العمر ثمانين ومئة سنة، والعلم عند الله ـ جل وعلا ـ.

= ذكر المحرمات من النساء: ﴿وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ [النساء: ٢٣].

(١) تقدم تخريجه ص١٥٥.



من هم الأسباط؟

ليعقوب أولاد كُثُر ـ كما ذكرنا ـ اثنا عشر ولداً، واختلف أهل العلم في أولاد يعقوب هل هم الأسباط أو لا؟ والصحيح أنهم ليسوا الأسباط؛ لأن الأسباط أنبياء، والصحيح أن أولاد يعقوب لم يكونوا أنبياء بدليل ما سيأتي من فعلهم الشنيع بيوسف عليه الصلاة والسلام، حيث فكروا في قتله، ثم ألقوه في الجُبِّ، ثم كذبوا على أبيهم، وكذبوا على يوسف، فمثل هؤلاء لا يمكن أن يكونوا من الأنبياء، فالصحيح أنهم ليسوا الأسباط، ولكن الأسباط من ذرية يعقوب عليه الصلاة والسلام.

يعقوب وإسرائيل:

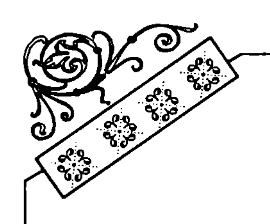
يعقوب هو إسرائيل يقال له: يعقوب ويقال له: إسرائيل، و(إيل) في العبرية: اسم من أسماء الله ـ جل وعلا ـ، هكذا يقولون، ولكن لا يجوز لنا الآن أن نسمي الله بإيل؛ لأن أسماء الله توقيفية، و(إسرا) بمعنى (عَبْدٌ)، فإسرائيل بمعنى: عبد الله، ومثله جبرائيل، ميكائيل، عزرائيل، وهكذا: خادم الله، حبيب الله، المقرب لله، وما شابه ذلك من هذه المعاني.

وكما ذكرنا وُلِدَ ليعقوب هؤلاء الأولاد، ورجع إلى أبيه في القدس، وهناك تأتينا قصة جديدة، وهي قصة نبي الله يوسف، وهي مزيج من قصة يوسف وقصة يعقوب صلوات الله وسلامه عليهما.











قصة يوسف عليه السلام

قصة يوسف ذكرها الله تبارك وتعالى مفصلة في سورة طويلة سميت باسمه؛ وقال بعض أهل العلم: قراءتُها تغني عن تفسيرها، والذي يقرأ سورة يوسف يفهمها تماماً، وما تحتاج إلى تفسير، لكن التفسير يأتي بذكر الفوائد وبعض النكت وبعض الأشياء التي تحتاج إلى توضيح زائد، وأما جملة القصة؛ فإنها واضحة لكل أحد، ولذلك يلتذُّ الجميع بقراءة هذه السورة، فناسب أن يكون كلامنا عن هذه السورة مفصلاً حتى نستخرج منها الفوائد والعبر.

وقد اشتملت قصة يوسف صلوات الله وسلامه عليه على الجليل من الأحكام والحكم والآداب، وفيها كذلك من مكر النساء وكيدهنَّ وكيد الرجال كذلك، وفيها من تدبير الخطط وحسن العاقبة، وصبر الأنبياء، وبيان أن الحذر لا يُنْجِي من القدر، وكذلك أمور أخرى كثيرة سنجدها واضحة جلية عند قراءتنا لهذه القصة العجيبة.

التعريف بيوسف عليه السلام:

سُئِلَ رسول الله ﷺ عن يوسف فقال: «**هو الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم**»(١)، يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ﴿ذُرِّيَّةَۢ بَعۡضُهَا مِنۢ بَعۡضٖۗ﴾ [آل عمران: ٣٤]، نعمت الذرية والله، ويوسف عليه الصلاة والسلام كما أخبر النبي صلوات الله وسلامه عليه في الحديث

(١) أخرجه البخاري (٣٣٩٠) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.



الذي أخرجه الإمام مسلم في «**صحيحه**» أعطاه الله شطر الحسن[1]، شطر الجمال لا يمكن لأحد منا أن يتصور هذا الجمال، ويكفينا أن نعرف أن النساء لما دخل عليهنَّ يوسف قطَّعْنَ أيديهن، وهنَّ يرينه منبهرات بجماله صلوات الله وسلامه عليه، بل قلنَ: ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف: ٣١] لجماله صلوات الله وسلامه عليه، أعطاه الله ـ جل وعلا ـ جمالاً ظاهراً، «**شطر الحسن**» وأعطاه جمالاً باطناً من التقوى والخلق العظيم.

قال الله ـ جل وعلا ـ في بداية هذه السورة لنبيه محمد ﷺ: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ [يوسف: ٣]، وعلى الصحيح أن أحسن القصص ليست قصة يوسف فحسب، وإنما المقصود: مجمل القصص ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ قصة يوسف، قصة إبراهيم، قصة موسى، قصة عيسى، قصة شعيب، قصة آدم، قصة صالح، قصة هود، ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾.

بداية قصة يوسف عليه السلام:

بدأت قصة يوسف صلوات الله وسلامه عليه عندما رأى رؤيا عجيبة ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾ قَالَ يَٰبُنَىَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾﴾ [يوسف]، عرف يعقوب لما أعطاه الله ـ جل وعلا ـ من علم أن هذه الرؤيا حق، وعرف أنها بُشرى نبوة، وأن يوسف صلوات الله وسلامه عليه سيكون نبياً، فخاف عليه من إخوته، وكان يوجس منهم شراً، فقال: ﴿لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾.

---

(١) أخرجه مسلم (١٦٢).



وجاء في كتب أهل الكتاب أن يوسف قَصَّها على إخوته، والله سبحانه ما ذكر لنا ذلك، والظاهر أنه استجاب لأمر أبيه، فلم يقص هذه القصة على إخوته.

عندها قال له أبوه: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾ [يوسف: ٦] هذا اجتباء يا يوسف ﴿وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ [يوسف: ٦]؛ أي: كما أراك الله ـ جل وعلا ـ هذه الرؤيا العظيمة، فإذا كتمتها سيجتبيك ربك، ويخصك بأنواع اللطف ﷻ ويعلمك من تأويل الأحاديث ﴿وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ﴾ [يوسف: ٦] بالوحي فتصير نبياً ﴿وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ بسببك أنت، فلا تقص هذه الرؤيا على إخوتك.

قال الله ـ جل وعلا ـ: ﴿لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ۝٧﴾ [يوسف]، آيات بينات واضحات وعلامات على صدق محمد ﷺ كيف؟ رجل أمي عاش في مكة، وما خرج منها إلا مرة لتجارة قصيرة، ورجع ثم يأتي يقصُّ هذه القصة بتفاصيل دقيقة تعجب منها أهل الكتاب، بل كتموا أشياء منها كقصة يوسف مع امرأة العزيز فذكرها محمد ﷺ، آيات على صدقه صلوات الله وسلامه عليه حيث قصَّ هذه القصة بهذا الجمال، وهذه التفاصيل ﴿لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ﴾ أي: في قصك لقصة يوسف وإخوته ﴿ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ﴾ الذين يسألونك عن أخبار ما قد سبق.

بداية البلاء مع إخوة يوسف عليه السلام:

قال تعالى: ﴿إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٨﴾ [يوسف]، اجتمع إخوة يوسف وهم متضايقون، فقال بعضهم لبعض: يوسف وأخوه بنيامين ابنا راحيل أحبُّ إلى أبينا منا ﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ أي: جماعة مجتمعة، فألقى الشيطان في قلوبهم الحقدَ والحسد على يوسف صلوات الله وسلامه عليه، ثم اتهموا أباهم النبيَ الكريم، فقالوا: ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾، وهذا لا يقوله أنبياء أبداً،



ولا يقال هنا: إنهم لم يصيروا أنبياء بعد؛ لأن الله تبارك وتعالى يختار الأنبياء منذ نعومة أظفارهم، ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

والسؤال هنا: هل كان يوسف فعلاً أحبَّ إلى أبيه منهم؟ فإذا كان الجواب: بنعم، فلِمَ؟ لِمَ كان يوسف أحبَّ إلى أبيه منهم؟

الجواب: نعم يوسف كان أحبَّ إلى أبيه من إخوته.

قال أهل العلم: يمكن أن يجاب عن هذا بخمسة أجوبة:

الجواب الأول: أن الحُبَّ شيء فطري لا يملكه الإنسان: فلا يملك الإنسان أن يحب أو أن يبغض إلا إذا كان في الدِّين، أما المحبة الفطرية؛ فهذه لا يملكها الإنسان، فقلبك ليس في يديك، وإنما يرغمك أحياناً على أشياء لا تريدها لحب في قلبك لشخص ما، ولذلك ترى نفسك أنك تعاقب شخصاً على فعل لو فعله غيره ممن تحب ما عاقبته، ولذا قيل:

وإذا أتى الحبيب بذنب واحد ... جاءت محاسنه بألف شفيع

فله في القلب محبة لا يملكها الإنسان، ولذا جاء في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «**اللهم هذا قَسْمِي فيما أملك، فلا تلمني على ما لا أملك**»(١)، فالقصد أن يعقوب عليه الصلاة والسلام كان يحب يوسف حباً فطرياً، وهذا لا يلام عليه إذا كان يعدل في المعاملة، وهذا الذي نجزم به في حق نبي الله يعقوب صلوات الله وسلامه عليه.

الجواب الثاني: صغرُ السن: فكما قلنا: إن راحيل ولدت يوسف وأخاه آخر شيء، فهما صغيران، وهذا أمر فطري في القلب، ومعاملته

(١) أخرجه أبو داود (٢١٣٤)، والترمذي (١١٤٠)، والنسائي (٣٩٤٣)، وابن ماجه (١٩٧١)، وفي إسناده ضعف.



للصغير تظهر أنه يحبه أكثر، فهم كانوا متوهمين في دعواهم أن يوسف وأخاه أحب إلى أبيهم منهم.

الجواب الثالث: سئلت امرأة: من أحب أولادك إليكِ؟ قالت: المريض حتى يشفى، والمسافر حتى يعود، والصغير حتى يكبر.

فهذا أمر طبيعي دائماً، فتجد الأم أو الأب يفكران في الغائب أكثر من الحاضر، وفي المريض أكثر من المعافى، وفي الصغير أكثر من الكبير، وهذا أمر طبيعي في الإنسان.

الجواب الرابع: أن يعقوب عليه الصلاة والسلام كان يرى في يوسف آثار النجابة ـ كما قلنا ـ، فأعطاه الله ـ تبارك وتعالى ـ جمال الظاهر، وجمال الباطن، فكان يرى فيه هذه الآثار الطيبة، فأحبه لحسن خلقه، ولدينه، ولنجابته، وهكذا.

الجواب الخامس: للرؤيا التي رآها يوسف صلوات الله وسلامه عليه، وذلك أن يعقوب عَلِمَ أن ولده يوسف سيكون نبياً، فلذلك كان يحنو عليه، ويحرص عليه، ويرعاه، ويخاف عليه؛ لأنه سيكون له شأن عظيم عند الله ـ جل وعلا ـ.

وقد قيل: إن أمهما قد ماتت، فإن صحَّ هذا فهو سبب سادس لزيادة الرعاية لفقدان الأم، فكانا فاقِدَي الأم ـ أعني يوسف وبنيامين ـ، فكان الأب يحنو عليهما ليعوض حنان الأم الذي فقده يوسف وأخوه.

التآمر على يوسف عليه السلام:

قال الله تبارك وتعالى: ﴿قَالُواْ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [يوسف: ٨]، هذه مشكلة، وكل مشكلة تحتاج إلى حل، ما حلكم؟ قالوا: ﴿ٱقْتُلُواْ يُوسُفَ﴾ [يوسف: ٩]، هذا هو



الحل، وبديل آخر ﴿أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا﴾، والنتيجة ﴿يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾ [يوسف: ٩] إذاً مشكلة، وحل، ونتيجة:

المشكلة: ﴿لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا﴾، والحل ﴿ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا﴾، والنتيجة ﴿يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾، إذاً معادلة واضحة، ثم ماذا؟ هذه معصية، أخوكم، ألا تخافون الله؟! ألا تخافون العذاب؟! ألا تخافون الحساب؟! قالوا: نتوب بعد ذلك ﴿وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ﴾ [يوسف: ٩] بعد أن نقتل يوسف أو نلقيه أرضاً ويخلُ لنا وجه أبينا ونكون قد نِلْنا ما أردنا؛ نتوب إلى الله ﷻ، ونكون من بعده قوماً صالحين.

فهل هذه المشكلة يحتاج حلها إلى قتل يوسف؟! وهل قتل يوسف حلٌ لهذه المشكلة؟! ليس الأمر كذلك، ولذلك ألقوا يوسف في الجب كما سيأتي، فهل خلا لهم وجه أبيهم؟! بل قال أبوهم: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ٨٣]، إذاً ما خلا لهم وجه أبيهم، بل حزن عليه، وغضب عليهم ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ هل تابوا إلى الله تبارك وتعالى؟ يحتمل أنهم تابوا إلى الله ـ جل وعلا ـ، وهو الظاهر في قول الله تبارك وتعالى ﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾﴾ [يوسف]، وفي قولهم لأبيهم: ﴿يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ﴾ [يوسف: ٩٧]، فهم تابوا إلى الله تبارك وتعالى ولكن متى؟ بعد سنين عدداً، فماذا لو مات أحدهم قبل ذلك؟ ولكن هل هذا الأمر متهيئ لكل أحد؟!

وهل يجوز لكل أحد إذا أراد أن يقدم على معصية أن يقول: أفعل المعصية ثم أتوب!! إنّ هذا الأمر إن وُفّقَ له إخوة يوسف فقد لا يوفق إليه غيرهم، ولذلك ينبغي ألا يقدم الإنسان على مثل هذه المعاصي ثم يقول أكون بعدها من القوم الصالحين؛ لأنه يحتاج إلى أن يضمن ثلاثة أشياء:



أولاً: أن يعيش إلى أن يصير صالحاً، فقد يموت قبل أن يتوب.

يخوضُ الشيخُ في بحرِ المنايا ... ويرجع سالماً والبحر طامي
ويأتي الموتُ طفلاً في مَهُودِ ... فيلقى حَتْفَهُ قبل الفطام

ثانياً: أن يضمن أن يوفق إلى التوبة، فقد لا يوفق الإنسان إلى التوبة؛ لأن من شؤم المعصية أنها تجلب المعصية، والمعصية تجلب المعصية، وهكذا حتى يهلك الإنسان والعياذ بالله، وذلك أن التوبة توفيق من الله ـ جل وعلا ـ.

ثالثاً: أن يضمن أن الله ﷻ يقبل هذه التوبة، فقد لا يقبل الله التوبة، وقد تكون هناك موانع من قبول هذه التوبة لا يوفق الإنسان إلى إزالتها، فلا تُقْبل توبته عند الله ـ جل وعلا ـ.

وهنا خططوا ثم عرضوا المشكلة، ووضعوا الحل، وتوقعوا النتيجة النهائية، وما ذنب يوسف؟ هل أذنب يوسف شيئاً؟ أبداً ولكن الإنسان إذا أراد أن يعاقب فإنه يعاقب المذنب ـ في نظره على الأقل ـ فما ذنب يوسف أن أباه يحبه؟!

وهل هذا ذنب ليوسف صلوات الله وسلامه عليه؟! وما هذا إلا أن الشيطان أعمى بصائرهم حتى لم يروا الحق، فجمعوا بين الجريمة والظلم.

هنا قال قائل منهم: ﴿لَا تَقۡتُلُواْ يُوسُفَ﴾ هناك حل آخر يمكن أن تصلوا به إلى نفس النتيجة، ويخلو لكم به وجه أبيكم، قال: ﴿وَأَلۡقُوهُ فِي غَيَٰبَتِ ٱلۡجُبِّ يَلۡتَقِطۡهُ بَعۡضُ ٱلسَّيَّارَةِ﴾ [يوسف: ١٠] ويذهبون به، وكان هذا القائل أبرَّهم وأتقاهم لله، وأحناهم على يوسف، وإن كان قد اشترك في الجريمة، ولكن كما قيل:

.... **حنانيك بعض الشر أهون من بعض**

فهذا الشر الذي جاء من هذا الأخ ـ وهو إلقاء يوسف في الجُبِّ ـ



أهون وأخف من الشر الذي كان يعزم عليه بقيّة الإخوة ـ وهو قتل يوسف عليه السلام ـ، فهناك حلٌ آخر تصلون فيه إلى مبتغاكم، ولا تُؤذون يوسف هذا الإيذاء، خاصةً أنه لم يصلْ إليكم منه شرٌ، ﴿وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ﴾، أي: السائرين، وترتاحون منه، ولا يُقتل، واختاروا هذا الرأي؛ لأن الإنسان مهما بلغ من الشر فإن فيه بذرة خير، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾ [الشمس]، فبذرةُ الخير ظهرت هنا حينما طلب منهم أحدهم ألا يقتلوه، وظهرت حين وافقوا على هذا الاقتراح، وقرروا إلقاء يوسف صلوات الله وسلامه عليه في الجُبِّ.

إلقاء يوسف عليه السلام في الجُبِّ:

اتفقوا على هذه القضية وهي أن يُلقى يوسف في الجُبِّ، فذهبوا إلى أبيهم، فقالوا: ﴿قَالُوا۟ يَـٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَـٰصِحُونَ ۝١١﴾ [يوسف]، نحن ناصحون له، وأبوهم لم يكن يرى ذلك، ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ﴾، نريد أن يذهب معنا لمصلحته، يرتع ويلعب، ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ۝١٢﴾ [يوسف].

فقال يعقوب: ﴿إِنِّى لَيَحْزُنُنِىٓ أَن تَذْهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَـٰفِلُونَ﴾ [يوسف: ١٣]، ولم يقل: أخاف عليه منكم، مع أنه يخاف عليه منهم كما مرَّ بنا ﴿لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا﴾ [يوسف: ٥]، فكان يتوجس منهم شراً، ولكنه كذلك لا يستطيع أن يظهر لهم هذا التوجس؛ حتى لا يقدموا على أمر عظيم في شأن يوسف، ولم يكن يعلم ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ أنهم فعلاً قد أقدموا على هذا العمل العظيم، وهو قتل ابنه يوسف، فاعتذر لهم، وقال: ﴿إِنِّى لَيَحْزُنُنِىٓ أَن تَذْهَبُوا۟ بِهِۦ﴾ [يوسف] ما أرى مفارقته، ولعل هذه الكلمة زادتهم

غيظاً، فنحن نفارقك ولا تحزن، وهو يفارقك فتحزن! ثم ماذا؟ ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾ [يوسف: ١٣] أنتم تدافعون عن أنفسكم، فأنتم أقوياء وكبار ـ وهو صغير لا يستطيع أن يدفع عن نفسه.

فـقـالـوا: ﴿لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾ [يوسف: ١٤] وهنا يعقوب عليه السلام عندما قال: ﴿وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ﴾ [يوسف: ١٣] أعطاهم الحلَّ بصورةٍ غير مباشرة، أعطاهم حلاً لمشكلتهم أنهم إذا ألقوا يوسف في الجُبِّ ماذا يقولون؟ فقالوا: نقول: أكله الذئب، أنت كنتَ تخاف من الذئب، وقد أكله الذئب، فسيصدق هذه مباشرةً.

إلقاء يوسف عليه السلام في الجبِّ:

وذهبوا به من الغد ثم قالوا ماذا نفعل؟ قالوا: كما اتفقنا نلقيه في الجُبِّ، فجاؤوا ليوسف وأرادوا أن يلقوه، فقال: أنا أخوكم كيف تصنعون بي هذا؟!

قالوا: ليس عليك ذنب، الذنب ذنب أبيك، وليس لك ذنب، ثم ألقوه في الجُبِّ صلوات الله وسلامه عليه، وكانوا أذكياء، فنزعوا قميصه قبل أن يلقوه في الجُبِّ، وألقوه بدون هذا القميص، ثم ذبحوا عجلاً أو تيساً، ولطّخوا القميص بالدم، وقالوا: حتى نقول لأبينا إن الذئب قد أكله.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَجَآءُوٓ أَبَاهُمْ عِشَآءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾﴾ [يوسف] بكاء التماسيح، يكون كذباً وزوراً.

قيل لأحد القضاة لما جاءه رجل يشكو ويبكي، فقال قائل: والله إني آراه صادقاً، قال القاضي: لِمَ؟ قال: يبكي، فقال القاضي: إخوة يوسف ذهبوا يبكون وهم كاذبون.

قال الله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبۡنَا نَسۡتَبِقُ وَتَرَكۡنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئۡبُۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ ١٧﴾ [يوسف] أنت دائماً تتهمنا بالكذب، وضعوه في زاوية ضيقة: أنت لا تصدق ما نقول: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ ١٧ وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِۦ بِدَمٖ كَذِبٖۚ﴾ [يوسف] قالوا: تريد الدليل؟ هذا هو الدليل، أليس هذا قميص يوسف؟ قال: بلى، قالوا: مُلَطَّخٌ بدمه، أكله الذئب، قال: سبحان الله! ذئب أكل يوسف ولطخ قميصه بالدماء ولم يشقق القميص؟!! نسوا أن يشقوا القميص، قميصٌ غير مشقق ملطخ بالدماء، ويقولون: هذا قميص يوسف الذي أكله الذئب، وهو يلبسه.

وهذه تسمى بالجريمة الناقصة، فلا توجد على وجه الأرض جريمة كاملة، فكل مجرم لابد وأن يترك شيئاً يفضح جريمته، يعرفه من يعرفه، ويجهله من يجهله.

صبر نبي الله يعقوب عليه السلام:

لما رأى يعقوب القميص سليماً لم يُشق قال: ﴿بَلۡ سَوَّلَتۡ لَكُمۡ أَنفُسُكُمۡ أَمۡرٗاۖ﴾ [يوسف: ١٨] كاذبون ﴿فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ﴾ [يوسف: ١٨] لا يملك إلا أن يقول: صبر جميل ﴿وَٱللَّهُ ٱلۡمُسۡتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨].

وقول يعقوب: ﴿فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ﴾ يدل على صبر عظيم عند البلاء وتفويض لأمر الله تبارك وتعالى وعدم الجزع، وعرف أن إخوته كادوا به صلوات الله وسلامه عليه، ومع هذا قال: ﴿فَصَبۡرٞ جَمِيلٞۖ﴾، فصَبَرَ على هذا البلاء صلوات الله وسلامه عليه، ولم يجزع.

أخرج الإمام البخاري عن عائشة رضي الله عنها لما رُميت بالإفك واتُّهمت بالزنا في عرضها وفي شرفها رضي الله عنها، وجاءها النبي صلى الله عليه وسلم وقال لها: «**يا عائشة إن كنتِ ألممت بشيء فتوبي إلى الله، فإن التوبة تَجُب ما كان قبلها**» قالت: والله لا أدري ما أقول، والله لا أجد لي ولكم مثلاً إلا أبا



يوسف، تقول: ونسيتُ اسمه، وكان عمْرها في ذلك الوقت ثلاث عشرة سنة، فقالت: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨][١].

الحسد من أصول الذنوب:

هذا الذنب الذي وقع من إخوة يوسف صلوات الله وسلامه عليه سببه الحسد، فهم حسدوا يوسف على مكانته من أبيه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «أصل الذنوب ثلاثة أسباب: الحسد، والكبر، والحرص»، فلو نظرتَ في ذنوب العباد لوجدتها تدور على هذه الأمور الثلاثة.

المرحلة الثانية من حياة يوسف عليه السلام:

لم تطلْ مدة يوسف في الجُبِّ على ظاهر القرآن، فإنه بمجرد أن رجعوا إلى أبيهم قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ﴾ [يوسف: ١٩] أي: قافلة تسير ﴿فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ﴾ [يوسف: ١٩] أي: الذي يرد الماء ليأتي به، والظاهر أن هذه البئر دائماً يمرُّ عليها المسافرون، ولذلك عندما ألقوه في الجُبِّ قالوا: ﴿يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ﴾ [يوسف: ١٠]، وذكر الله تبارك وتعالى أنهم بعد أن ألقوه جاءت سيارة، ولعلَّ إخوة يوسف كانوا يتابعون هذا الأمر، فلما رأى يوسف الدلو تعلق به، فلما رفع الرجل الدلو وإذا ليس فيه ماء، وإنما فيه غلام، فأخذ الغلام، وقال: ﴿يَا بُشْرَى﴾، وفي قراءة «يا بشراي» ﴿هَذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً﴾، ولم يقل وجعلوه بضاعة، وإنما قال: ﴿وَأَسَرُّوهُ﴾ من الإسرار؛ أي: الإخفاء ﴿وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ﴾ [يوسف: ٢٠] شروه أي: باعوه بثمن قليل، والدليل على أنه قليل قوله: ﴿دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ

---

(١) أخرجه البخاري (٢٦٦١)، ومسلم (٢٧٧٠).



﴿ٱلزَّٰهِدِينَ﴾ [يوسف] حين باعوه، مَنْ الذي باع؟ مَنْ الذي أسر؟ احتمالان:

الأول: أن إخوة يوسف كانوا يراقبون الوضع، ويخافون أن يرجعه أحد إلى أبيه، وتكون الفضيحة الكبرى، وهم الذين باعوه، قالوا: هذا عبد عندنا نبيعك إياه، ولزم يوسف الصمت خوفاً من إخوته، لأنهم كادوا أن يقتلوه، وخشي إن أخذه إخوته أن يرموه مرة ثانية في جُبٍّ آخر أو يقتلوه، فما عاد يأمنهم، قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ﴾ [يوسف: ١٩] أي: من الجريمة البشعة؛ لأن بيع الحر من أكبر الجرائم، وقد تبرأ النبي ﷺ ممن باع حراً فأكل ثمنه[(١)]، ﴿وَشَرَوۡهُ بِثَمَنِۭ بَخۡسٖ دَرَٰهِمَ مَعۡدُودَةٖ﴾ هذا هو الثمن البخس، وباعوه بثمن بخس؛ لأن المال لم يكن هماً بالنسبة لهم، فهم لا يريدون المال أصلاً، هم يريدون التخلص من يوسف ﴿وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ﴾ أي: إخوة يوسف عليه السلام.

الثاني: أن الذي جاء وألقى الدلو وخرج له الغلام أسره بضاعة هو ومن معه دون أن يُعْلِم بقية القافلة، ثم لما ذهبوا إلى مصر باعوه أيضاً دون أن يعلم الباقون، وباعوه بثمن بخس؛ لأنهم رابحون على كل حال، لا اشتروه بثمن، ولا تكلفوا فيه، وإنما وجدوه فباعوه، فعلى كل حال هم رابحون، ولذلك باعوه بثمن بخس للتخلص منه، وكذلك لأخذ المال المقابل.

بل لو قلنا: إنهم باعوه بثمن كثير؛ فهو بخس في حق نبي أن يباع صلوات الله وسلامه عليه[(٢)].

---

(١) أخرجه البخاري (٢٢٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه ولفظه: «**قال الله: ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة**»، فذكر منهم: «**ورجل باع حراً فأكل ثمنه**».

(٢) انظر: «**تأويل مختلف الحديث**» لابن قتيبة ص٢١٣ ـ ٢١٥، وفيه أيضاً حل لهذا الإشكال.



يوسف عليه السلام يدخل مصر:

دخل يوسف إلى مصر، وبدأت حياة جديدة، ومرحلة جديدة لهذا النبي الكريم صلوات الله وسلامه عليه، إذاً باعه إخوة يوسف على القافلة ثم باعته القافلة في مصر أو أخذه الذين وجدوه ثم باعوه على أهل مصر.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى ٱشْتَرَىٰهُ مِن مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ﴾ [يوسف: ٢١]، وهذا تمكين من الله تبارك وتعالى، ولهذا يقول بعدها ـ جل وعلا ـ: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [يوسف: ٢١] تمكينٌ من الله تبارك وتعالى أن جعله في بيت هذا الرجل، جعله في بيت رجلٍ أحسن مثواه وأكرمه وأعطاه لزوجته، وقال لها: ﴿أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾ إذا كبُر ينفعنا، فإنْ لم ينفعنا بعمل فنتخذه ولداً على الأقل، وظاهر هذا الكلام أنه لم يكن لهما ولد، وقال ذلك بعد أن رأى في يوسف عليه السلام علامات الصلاح من حسن وجهه وكريم خُلقه صلوات الله وسلامه عليه، ولذلك قال عبد الله بن سلام لما دخل النبي ﷺ المدينة: فلما رأيته علمتُ أن وجهه ليس بوجه كذاب[1]، وهذا بمجرد أن رأى يوسف ارتاحت نفسه إليه صلوات الله وسلامه عليه ﴿أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾، وهذا ما يسمى بالتبني، والتبني حرَّمه الإسلام، فقد تبنى النبي ﷺ زيد بن حارثة فصار يُنادى بزيد بن محمد حتى أنزل الله تبارك وتعالى قوله ـ جل وعلا ـ: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾ [الأحزاب: ٤]، وقال: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٥] أما التبني بمعنى العناية والرعاية والعطف، وما شابه ذلك؛ فهذا جائز

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٤٨٥)، وابن ماجه (١٣٣٤، ٣٢٥١)، وقال الترمذي: «حسن صحيح»، وصححه الألباني «صحيح الجامع» (٧٨٦٥).

مباح أما التبني بحمل الاسم، فهذا لا يجوز أبداً أن يحمل اسماً غير اسم أبيه.

دخل يوسف عليه السلام بيت العزيز، قال عبد الله بن مسعود: أفرس الناس ثلاثة: العزيز، لما قال: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾، وبنت الرجل الصالح لما قالت عن موسى عليه السلام: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦]، وأبو بكر لما جعل عمر مكانه عند وفاته رضي الله عنهما(١).

يوسف عليه السلام وفتنة امرأة العزيز:

واستقرت الأمور ليوسف في هذا البيت، ولكن كما يقولون: الشيطان لم يَمُتْ، وبدأ الشيطان يؤدي دوره الذي تعهد أن يستمر عليه ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [ص]، فبدأ الشيطان يعمل عمله حتى ألقى في قلب هذه المرأة أن تراود يوسف عن نفسه، قال تعالى: ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾ [يوسف: ٢٣]. تجهزتُ لك، الأمور كلها مهيأة حتى تقع الفاحشة.

فكان الجواب المباشر من يوسف صلوات الله وسلامه عليه ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ [يوسف: ٢٣] وهكذا المؤمن، فالإيمان إذا خالطت بشاشته القلوب؛ زاد وارتفع، فيجد الإنسان نفسه تبتعد ابتعاداً شديداً عن المعصية، وتنفر عنها كما تنفر الحمر حين ترى الأسد أو أشد.

قال: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ﴾ [يوسف: ٢٣] مَنْ ربه؟ قيل: إنه أراد بربه الله ـ جل وعلا ـ ﴿أَحْسَنَ مَثْوَاىَ﴾ بعد أن ألقاني إخوتي في الجُبِّ، أخرجني ثم أكرمني في هذا البيت.

---

(١) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٨٩٤٩، ١٨٩٥٠، ١٨٩٥١).



وقيل: الرب المقصود هو صاحب البيت، وهو العزيز كما قال عبد المطلب لما دخل على أبرهة وسأله عن إبله فقال: أنا رب الإبل، وللبيت رب يحميه.

قال: ﴿أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ أكرمني فقد كنت أُباع فأكرمني، ثم قال يوسف عليه السلام: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [يوسف: ٢٣] وهذا العمل ظلم، ظلمٌ للنفس، وهو الوقوع في الزنا، وظلمٌ للرجل الذي أكرمني، والذي استأمنني على عورته وعلى أهله، وهذا يذكرنا بقول النبي ﷺ: «**سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله**» وذكر منهم النبي ﷺ: «**ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله**»[1]، هذا هو موقع يوسف عليه السلام، بل هو رأس هذه المجموعة.

وهكذا المسلم يلجأ إلى الله تبارك وتعالى دائماً ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ [يوسف: ٢٣] أي: أستعيذ بالله، ألجأ إلى الله، ما لجأ إلى قوته، وإنما لجأ إلى القوي؛ لجأ إلى الحفيظ جل جلاله فحفظه.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ﴾ [يوسف]، يوسف تسابق معها أيهما يصل إلى الباب، هو يهرب إلى الباب، وهي تهرب خلفه، هو يريد الباب وهي تجري تريد يوسف صلوات الله وسلامه عليه، فكان كالسباق، ولكنه ليس بسباق، فهو يريد شيئاً، وهي تريد شيئاً آخر. وعادة يكون السباق إلى شيء واحد، ولكن لما كانت شهوتها قد بلغت مداها صارت من سرعتها خلفه كأنها تريد أن تسبقه إلى ما يريد أن يذهب إليه، وهذا من جمال بيان القرآن.

(١) أخرجه البخاري (٦٦٠)، ومسلم (١٠٣١).



وقد وقعت قصة مشابهة في هذه الحيثيات، فيُذكر أن رجلاً يقال له: عمرو بن قمئة ـ من قبيلة عربية ـ راودته زوجة عمه عن نفسه حيث خرج عمه إلى الصيد، فنادته امرأة عمه، فلما دخل عليها راودته عن نفسه، قال: عمي!! قالت: إن لم تفعل ما آمرك لأقولن لعمك إنك راودتني عن نفسي، وإنك حاولت الاعتداء عليّ، قال: عمي ولن أخونه في عرضه أبداً. قالت: هو ما قلته لك، قال: افعلي ما بدا لكِ، ثم خرج، وجاء عمه من الصيد، فقالت: ابن أخيك حاول أن يعتدي عليّ في غيبتك، فأخذ العم سيفه وذهب لابن أخيه ليقتله، فلما رأى الشرَّ في عين عمه، وأنه آتٍ إليه وقاتله لا محالة؛ صار بين ثلاثة أمور، أحلاها مُرٌّ:

الأمر الأول: إما أن يقف، فيقتله عمه.

الأمر الثاني: وإما أن يقول لعمه امرأتك هي التي راودتني عن نفسي، فيفضح عمه.

الأمر الثالث: وإما أن يهرب ويُتهم، فاختار أيسر الثلاثة، فهرب.

ويوسف صلوات الله وسلامه عليه كذلك رأى أنه إذا بقي والمرأة ثائرة؛ فإنه قد يحدث ما لا يُحمد عقباه، قد تمسه، قد تدفعه، قد يضربها، قد يُتهم بها صلوات الله وسلامه عليه، لذلك آثر السلامة بالهرب، وهذا على الصحيح أنه هو برهان ربه، أن الله تبارك وتعالى أوحى إليه: أنِ اهربْ، هذا هو الحل.

همّ يوسف عليه السلام:

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا﴾ [يوسف: ٢٤]، وهنا وقف المفسرون كثيراً، بِمَ همّت؟ وبِمَ همّ صلوات الله وسلامه عليه؟ على أقوال:



القول الأول: أنها همّت به بالفاحشة، وهمّ هو بالخاطر النفسي، أي: خطر في قلبه أن يقع منه ما تريد هي؛ أي: الفاحشة، قالوا: وهذا شيء جبلي طبيعي في الإنسان، فالإنسان الطبيعي تأتيه امرأة جميلة تغلق الأبواب تقول له: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾، فيميل إليها بطبعه، ثم تكون هناك أمور أخرى: إما أن يقع الزنا، وإما أن يتذكر خوفه من الله تبارك وتعالى، وإما أن تمنعه علاقة طيبة بزوجها، وإما موانع أخرى.

فالهمّ البشري الطبيعي موجود في كل إنسان، فكل رجل فيه ميل للمرأة، وكل امرأة فيها ميل للرجل، فإذاً هي همّت بالفاحشة همّاً فعلياً، وهو عليه السلام جاءه خاطر مجرد، وهذا الخاطر صرفه التقوى والدين والإيمان الذي في قلب يوسف صلوات الله وسلامه عليه.

القول الثاني: أنه لم يقع أصلاً همّ من يوسف؛ لأنه جاء بعدها بـ﴿لَوْلَآ﴾، فيكون في الكلام تقديم وتأخير، همت به بالفاحشة، وهذا همٌّ متفق عليه؛ لأنها في البداية غلقت الأبواب، وقالت: هيت لك، إذاً الأمر بالنسبة لها محسوم؛ ولكن الكلام في أمر يوسف، هل وقع همٌّ من يوسف أم لم يقع؟ قالوا: لم يقع همّ فعلي، حتى الهمّ النفسي لم يقع من يوسف، ولا حتى الخاطر؛ لأن الله قال بعدها: ﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ﴾ [يوسف: ٢٤]، وفي الآية تقديم وتأخير، فيكون التقدير: (ولقد همّت به ولولا أن رأى برهان ربه لهمّ بها)، إذاً لم يهمّ هو؛ لأنه رأى برهان ربه، وهو أن يهرب، واستدلوا بقول الله تبارك وتعالى: ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ [القصص: ١٠] يعني: أم موسى صلوات الله وسلامه عليه، ويكون معنى الآية: لولا أن ربطنا على قلبها كادت لتبدي به؛ لأنها لم تبدِ به؛ لأن الله ربط على قلبها.

القول الثالث: أنها همّت لتضربه، وهمّ ليضربها، فليس الهمّ إذاً منها هو إرادة الزنا، ولكن الهمّ منها كان همّ الضرب، ولماذا تضربه؟!!



الجواب: لأنها صُدمتْ ودهشت؛ لأنها ما كانت تتوقع أبداً أن يردها، كأنها تقول: أنا امرأة العزيز، وبهذا الجمال، وأنت عبدٌ لي، وفي قَصْري، وأتهيأ لك، وأُغلّق الأبواب، وأقول لك: هيت لك، وتردني؟!! فعزَّتْ عليها نفسها، كيف تُردّ؟! فجاءت لتضربه غضباً لما جرح من كبريائها، فيكون الهمّ منها لضربه، وهمّ كذلك ليضربها تأديباً لها على ما أرادت أن تفعل، ثم رأى برهان ربه ألا يفعل؛ لأنه لو ضربها لاتهموه بها، هو هرب واتُّهِمَ ولم يضربها، فكيف لو ضربها؟! لذلك قالوا: لم يُرِدْ الفاحشة، وإنما أراد أن يضربها، هذا هو الهمّ من يوسف صلوات الله وسلامه عليه.

وأياً كان الأمر فكلهم متفقون على أن يوسف لم يُرد الزنا أبداً، وأما الروايات المكذوبة التي تقول: أنه جلس منها مجلس الرجل من المرأة، أو أنه حل سراويله، والبرهان أنه رأى يعقوب عاضاً على أصبعه، رآه في الجدار، فهذا كله كذب، وإنما هذه من روايات بني إسرائيل التي فيها مطعن على أنبياء الله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

قميص يوسف عليه السلام:

هرب يوسف عليه السلام من امرأة العزيز، فلحقت به ﴿وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ﴾ [يوسف: ٢٥] أي: جرته؛ لأنها تريده، فانشق قميصه بيدها ﴿وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ﴾، يقول أهل العلم في اللغة: إذا كان الشق في الطول يقال له: «قَدّه»، وإذا كان الشق بالعرض يقولون: «قَطّه»، وإذا مزقه يقولون: «قَطَّعَه».

وقميص يوسف عجيب، قميص يوسف أخذه إخوة يوسف، وأعطوه لأبيهم وقالوا: أكله الذئب، وهنا يأتينا أيضاً قميص يوسف ﴿وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ﴾ وسيأتينا أيضاً قميص يوسف ﴿ٱذْهَبُواْ بِقَمِيصِى



هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي﴾ [يوسف: ٩٣]، ولذلك يقول الإمام الشعبي رحمه الله تعالى: قصة يوسف في قميصه، دائماً يُذكر هذا القميص، مع أن القميص الذي أعطيه يعقوب؛ غير القميص الذي قدَّته امرأة العزيز، غير القميص الذي أُلقي على وجه يعقوب صلوات الله وسلامه عليه.

لما وصل يوسف إلى الباب وفتحه يريد الخروج ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِۚ﴾ [يوسف: ٢٥] وسيدها: زوجها وكانوا في زمنهم يقولون للزوج: «سيد» ولم يقل: «سيدهما»، مع أن يوسف في الأصل عبد عندهما، ولكن الله تبارك وتعالى كما يقول أهل التفسير: أراد الله أن يبين أن مُلْكهم ليوسف خطأ، وغير صحيح؛ لأن يوسف حر، ولذلك لم يسمه سيداً ليوسف أبداً، بِيعَ وهو حر صلوات الله وسلامه عليه.

وهنا شيء عجيب جداً من تصرف هذه المرأة واستعادتها لوعيها مباشرة لما رأتْ سيّدَها، قالت: ﴿مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا﴾ [يوسف: ٢٥] أي: يوسف، مع أن الأمر واضح، فهو الذي فتح الباب عليه الصلاة والسلام وهي خلفه، ثم قالت: ﴿إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٢٥]، إذاً هي القاضية، هي الخصم وهي الحكم، والأمر كما قيل:

يا أعدل الناس إلا في محاكمتي فيك الخصام وأنت الخصم والحكم

وهذا دليل على قوة شخصيتها، وضعف شخصية الزوج، بدليل أنها من جرأتها وقوة بأسها، تقول لزوجها: ﴿مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٢٥]، إذا خيَّرته بين أمرين: السجن أو العذاب، وكل هذا والزوج لا يحرك ساكناً، حتى قال بعض أهل العلم: وهذا دليل على أن الرجل كان ديوثاً لا يغار على امرأته، ولذلك سيأتينا قوله لها ﴿وَٱسْتَغْفِرِي لِذَنۢبِكِۖ﴾ [يوسف: ٢٩]، وهذا منتهى غيرته على عرضه، وسيأتينا أن امرأة العزيز لما تكلمت مع النسوة بعد أن قلن: ﴿ٱمْرَأَتُ



ﵟٱلۡعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفۡسِهِۦۖﵞ [يوسف: ٣٠]، ثم قطعن أيديهن لما رأين يوسف صلوات الله وسلامه عليه قالت: ﵟفَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِي لُمۡتُنَّنِي فِيهِۖ وَلَقَدۡ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ فَٱسۡتَعۡصَمَۖ وَلَئِن لَّمۡ يَفۡعَلۡ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسۡجَنَنَّﵞ [يوسف: ٣٢]، ولم تذكر هذه المرة العذاب الأليم، والسبب في ذلك كما قالوا: لأنها هنا مغتاظة من يوسف، خاصة إذا قلنا: إن الهمّ منها الضرب، فلا مانع عندها أن يضرب، بل لا مانع عندها أن يقتل؛ لأنه جرح كبرياءها ﵟيُسۡجَنَ أَوۡ عَذَابٌ أَلِيمٞﵞ [يوسف: ٢٥]، لكن هناك ﵟوَلَئِن لَّمۡ يَفۡعَلۡ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسۡجَنَنَّﵞ [يوسف: ٣٢] ولكن بغير عذاب أليم؛ لأنها تريده الآن، رجعها لها وعيها مرة ثانية، والآن تريد يوسف مرة ثانية.

وشهد شاهد من أهلها:

قال الله تبارك وتعالى: ﵟوَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٖ فَصَدَقَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٢٦ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ فَكَذَبَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ٢٧ﵞ [يوسف].

أولاً: مَنْ هذا الشاهد؟ قيل: الشاهد ابن خالتها، وقيل: هو زوجها، وقيل: الشاهد طفل رضيع، شهد ليوسف في هذه القضية، وأياً كان، فالمهم أنه شهد شاهد من أهلها، وهذا دليل على براءة يوسف؛ لأن الشاهد من أهلها الأصل أنه يقف معها، ولذلك الله تبارك وتعالى لبيان براءة يوسف جاء بشاهد من أهلها، والدليل على أن هذا الشاهد معها ليس مع يوسف أنه قدم براءتها على براءة يوسف، فقال: ﵟإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٖ فَصَدَقَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَﵞ [يوسف: ٢٦]، هذا الاحتمال الأول، وهو الذي تمناه الشاهد حتى يكون يوسف هو المخطئ، وتكون هي البريئة.

لِمَ تكلم الشاهد بهذا الكلام؟

لما قالت هي: ﵟمَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًاﵞ سكت ولم يتكلم،



وأراد الستر، وما قال: راودتني أبداً، لكن هي اتهمته زوراً وظلماً ﴿مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٢٥] وهنا كان لا بد ليوسف أن يدافع عن نفسه قال: ﴿هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى﴾ [يوسف: ٢٦].

وأُخبر الشاهد أن القميص مشقوق، وهي تقول: هو راودني، وهو يقول: هي راودتني، قال: انظروا في قميصه، فإن كان قُدَّ من الأمام؛ فهو الذي راودها، وهو الذي أرادها بالسوء، وإن كان قُدَّ من الخلف، فهي التي راودته.

والأظهر أن الشاهد ابن خالتها، وهذا أشهر الأقوال.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ [يوسف]، تراوده عن نفسه، وتُغلِّق الأبواب وتتهيأ له، ثم تتهمه هو صلوات الله وسلامه عليه؛ حتى صار المجرم بريئاً، وصار المظلوم ظالماً، انقلبت الحقائق عند الناس: ﴿إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾، وماذا قال سبحانه عن كيد الشيطان؟ قال: ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٦]، إذاً كيد النساء أعظم من كيد الشيطان، ولكن من هداها الله تبارك وتعالى واستقامت على الطريقة الصحيحة، فهذه ليست من أولئك النساء، ولكن إذا فسَدتْ المرأة ـ والعياذ بالله ـ؛ فإن كيدها عظيم كما قال هنا، إما الشاهد، وإما زوجها، وأقره الله على هذا ﷻ.

والغالب أن القائل هو زوجها، ثم التفت إلى يوسف وقال: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا﴾ [يوسف: ٢٩] لا تفضحني، المسألة انتهت الآن، ثم التفت إليها وقال: ﴿وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ﴾ [يوسف].

الأدلة على عدم الهم من يوسف:

تقدم أن يوسف لم يهمّ على الصحيح، لا همّ الزنا، ولا الهمّ النفسي، فلم يقع من يوسف همٌّ، والدليل على ما اخترناه:

أولاً: شهود لهم تعلق بالواقعة، أوّلهُم يوسف صلوات الله وسلامه عليه، قال: ﴿هِيَ رَٰوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي﴾ [يوسف: ٢٦]، ثم كذلك قوله صلوات الله وسلامه عليه: ﴿ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ﴾ [يوسف: ٣٣].

ثانياً: امرأة العزيز تخبر أنه لم يقع شيء من يوسف، ولذلك ستقول: ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ﴾ [يوسف: ٣٢]، وستقول في الآية الأخرى: ﴿ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [يوسف: ٥١]، وهذه شهادة من الخصم، وهي امرأة العزيز.

ثالثاً: زوجها قال: ﴿إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ [يوسف: ٢٨].

رابعاً: الشاهد: قال: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [يوسف].

خامساً: النسوة، لما أدخل يوسف السجن، وأراد الملك أن يخرجه بعد ذلك قال: ﴿ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٠] ناداهن الملك، وقال: ﴿مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ﴾ [يوسف: ٥١].

وقبل هؤلاء الشهود: الله تبارك وتعالى، فقال ﷻ: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤]، وفي القراءة الأخرى ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلِصِينَ ﴿٢٤﴾﴾، أخلص لله فأخلصه الله لنفسه ﷻ، وكان الشيطان قد قال: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [ص] ويوسف من المخلصين، إذاً لا سبيل للشيطان عليه أبداً.



وإذا أضفتَ إلى هذا كله: العصمة التي جعلها الله تبارك وتعالى لأنبيائه صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وأضفت إلى ذلك أن الصالح من المسلمين من أخبر عنه النبي ﷺ بقوله: «**ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله**»[1]، ويوسف أولى بها صلوات الله وسلامه عليه أن يكون رده مباشراً، وأن يقول لها: إني أخاف الله، وهذا ظاهر في قوله ﷻ: ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ [يوسف: ٢٣].

إذاً رد يوسف كان مباشراً صلوات الله وسلامه عليه، ولم يتأخر، ولم يتردد، وإنما كان رداً مباشراً بمجرد أن قالت: ﴿هَيْتَ لَكَ ۚ﴾ قال: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾.

عفة يوسف عليه السلام:

يوسف عليه السلام عفيف، والدليل على عفته أمور:

الأمر الأول: أنه غريب، والغريب يفعل ما يشاء، يقول المثل: «**يا مغرِّب خرِّب**»؛ لأنه غير معروف، خَرِّب وسينساك الناس، وإنما يتكلم الناس فيمن يعرفونه، فلو كان يوسف غير عفيف لفعل ما يريد.

الأمر الثاني: هو مملوك لها، وعادة الناس أنهم يطيعون من له سلطة عليهم في أي أمر.

الأمر الثالث: الأبواب مغلقة، والأمور مهيئة، فلا أحد يرى، ولذلك جاء في بعض الروايات أنه كان صنم في الغرفة، فجاءت وغطَّتِ الصنم، فقال: ماذا تفعلين؟ قالت: حتى لا يراني إلٰهي. قال: وأنا يراني إلٰهي ولا أستحي من إلٰهي! أنا إلٰهي لا يغيب، ولا يخفى عليه شيء ﷻ.

الأمر الرابع: امرأة جميلة، ومثل هذه تفتن الرجال.

---

(١) تقدم تخريجه ص١٩٦.



الأمر الخامس: هو شاب، والشاب يميل إلى النساء، وهو غير الشيخ الكبير، ولو تتعرض له من تتعرض، فإنه لا شهوة له ولا صبوة، ولذلك قال النبي ﷺ: «**ثلاثة لا يكلمهم الله، ولا ينظر إليهم يوم القيامة، ولا يزكيهم، ولهم عذاب أليم: شيخ زانٍ**»(١)؛ لأن المفترض أن الشيخ شهوتُه ضعيفة، فلا يميل إلى هذه الأمور، يمنعه سنه، ويمنعه شبعه، ويمنعه ضعفه من هذه الأمور، ولكن الشاب الأعزب عنده الدافع القوي لأنْ يفعل مثل هذه الأمور، ولكن عفة يوسف هي التي منعته صلوات الله وسلامه عليه.

الأمر السادس: توعدته وهددته ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ [يوسف].

الموانع التي منعت يوسف عليه السلام:

الموانع التي منعت يوسف من الوقوع في الفاحشة هي:

أولاً: تقوى الله تبارك وتعالى: هو المانع الأول الذي منع يوسف من الوقوع في هذه المعصية.

ثانياً: مراعاة حق العزيز: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ﴾ [يوسف: ٢٣]، فلا يصلح أبداً أن أخون مَنْ أحسن مثواي.

ثالثاً: صيانة النفس عن الظلم: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [يوسف: ٢٣]، ولن أكون ظالماً، يصون نفسه عن أن يكون ظالماً صلوات الله وسلامه عليه.

رابعاً: البرهان: ﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾ [يوسف: ٢٤] هذا إذا قلنا: إن الهمّ هو الهمّ الفطري من يوسف صلوات الله وسلامه عليه، فلما رأى برهان ربه، وهو الإيمان الذي ألقاه الله في قلب يوسف حتى يمتنع عن هذا الأمر.

---

(١) أخرجه مسلم (١٠٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.



خبر امرأة العزيز ينتشر في المدينة ومكر النسوة:

قال الله ـ جل وعلا ـ: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ﴾ [يوسف] ولم يقل: فلما سمعت قولهن مع أن ظاهر الكلام أنه كلام عادي، ولعل هذا الكلام قاله الكثير وهو الواقع، فكيف سمى الله تبارك وتعالى، ذلك الكلام مكراً؟

الجواب: قال أهل العلم: إن المكر في كلام أولئك النسوة من وجوه كثيرة، لو تدبر الواحد منا هذه الآية لوجد المكر ظاهراً وبارزاً من كلامهن:

أولاً: ذكرْنها بالوصف: ولم يسمينها، بغَضِّ النظر عن اسمها ما هو؟ هل هو زُليخة كما هو مشهور عند أهل الكتاب أم لا؟ وهذا من المكر.

ثانياً: قلنَ: ﴿ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ﴾: ليست كسائر النساء أنتِ امرأة العزيز.

ثالثاً: في قولهنَّ: ﴿ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ﴾: أي: إنكِ امرأة متزوجة، ولو كان هذا وقع من امرأة غير متزوجة كان قُبِل، لكنكِ امرأة متزوجة.

رابعاً: قولهنَّ: ﴿تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا﴾: راودت مملوكاً لم تراود حراً، وإنما راودت مملوكاً ومثل هذه إنما تراود من في مستواها، تراود الملك، تراود وزيراً في منزلة زوجها، أما أن تراود مملوكاً فهذا لا يليق، ثم مَنْ هذا المملوك؟ فتاها الذي هو في بيتها، ولو كان في غير بيتها كان من الممكن أن يهون الأمر.

خامساً: قولهنَّ: ﴿تُرَٰوِدُ﴾: إذاً هي المراودة، وليس هو، ولو كان هو الذي راودها فقبلتْ كان يهون الأمر، ولكن هي التي تراود، فهذا عيب



سادساً: ثم لم يقلن: «راودت» ولكن جئن بالفعل المضارع الذي يدل على الاستمرار، مما يفيد أنها راودته وستراوده أيضاً.

سابعاً: قلنَ: ﴿عَن نَّفۡسِهِۦ﴾ : فهو حفظ حق العزيز، وحفظ حق البيت الذي تربى فيه، ﴿إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ﴾ [يوسف: ٢٣]، وهي لم تحفظ حق زوجها.

ثامناً: قلنَ: ﴿قَدۡ شَغَفَهَا حُبًّاۖ﴾؛ أي: وصل حبه إلى شغاف قلبها، وقد قالوا: شغاف القلب هو ما يحيط بالقلب أو سويداء القلب؛ أي: بلغ الحب عندها مداه، حتى أفقدها صوابها، فلا تستطيع أن تتصرف تصرفاً طبيعياً.

تاسعاً: قلنَ هذا في ظهرها غيبةً في الخفاء، وهذا مكر.

عاشراً: أردنَ رؤية يوسف بعد أن سمعنَ عن جماله، إما من أهل البيت بعد انتشار هذا الأمر، وإما من الشاهد الذي شهد، وإما هي التي قالت لهنَّ؛ أي: أسرَّتْ لبعض صديقاتها ذلك، فأردنَ النساء أن يَرَيْنَ هذا الذي أذهب عقل هذه المرأة، وكيف يرينه؟ بهذه الطريقة، الطعن في امرأة العزيز حتى تثور، ثم تريهنَّ هذا الفتى؛ لتدافع عن نفسها.

حادي عشر: قلنَ: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾، وفي هذا تزكية لأنفسهنَّ، يعني: نحن لا نفعل مثل هذا الشيء، وإن هي فعلت.

إذاً كل هذا المكر موجود في خلال هذين السطرين، ولما كان هذا المكر منهنَّ لم تسكتْ امرأة العزيز، وإنما قابلت المكرَ القولي بمكر فعلي، النساء مكرهنَّ باللسان أما مكر امرأة العزيز فبالفعل.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَلَمَّا سَمِعَتۡ بِمَكۡرِهِنَّ أَرۡسَلَتۡ إِلَيۡهِنَّ وَأَعۡتَدَتۡ لَهُنَّ مُتَّكَـٔٗا وَءَاتَتۡ كُلَّ وَٰحِدَةٖ مِّنۡهُنَّ سِكِّينٗا وَقَالَتِ ٱخۡرُجۡ عَلَيۡهِنَّۖ﴾ [يوسف: ٣١]، وكيف كان مكرها؟

أولاً: أرسلت إليهن، وظاهر الأمر دعوةٌ لا يراد منها إلا الإكرام.



ثانياً: أعتدَتْ لهن متكئاً، وهيئت ذلك، وظاهر الأمر إلى الآن الإكرام من الدعوة، وإعداد المجلس.

ثالثاً: خبَّأتْ يوسف صلوات الله وسلامه عليه في مكان، فهو خادم عندها في بيتها، قالت له: ادخل هذه الغرفة، فدخل صلوات الله وسلامه عليه بحيث لا مخرج له إلا من طريقهن.

رابعاً: آتَتْ كلَّ واحدة منهن سكيناً، ولم تجعل بعض السكاكين تستخدمها هذه مرة وهذه مرة، وإنما تعمَّدت أن تكون عند كل واحدة منهنَّ سكيناً.

خامساً: أتَتْ بطعام يُحتاج في أكله إلى سكين.

سادساً: ﴿وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ﴾ أدخلته عليهنّ فجأة، فاستخدمت عنصر المفاجأة، ولم تقل لهن: «سيدخل، الآن سيأتي، دعنَ الطعام، انتبهنَ»، وإنما استخدمت عنصر المفاجأة؛ لترى رَدَّة الفعل.

إذاً مكرٌ قولي قابله مكرٌ فِعْلي، فكيد النساء إذاً عظيم.

دخل يوسف صلوات الله وسلامه عليه، قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف: ٣١]، هذه إذاً رَدَّة فعل النساء لما رأين يوسف صلوات الله وسلامه عليه، عظّمنه في أنفسهن لكمال خَلْقِه وخُلُقِه، جمالٌ وهيبة فيه صلوات الله وسلامه عليه، لذلك لما رأينه أكبرنه أي: أعظمن شأنه ﴿وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا﴾، وكانت السكاكين معهنَّ يقطعنَ الطعام، المهم أن السكاكين في أيديهن، فلما رأينه ذُهِلنَ من جماله صلوات الله وسلامه عليه، وقد لا يتصور الإنسان ذلك، وقد يقول: هل يعقل إلى هذه الدرجة؟

الجواب: نعم إلى هذه الدرجة وأكثر، ولولا هيبة النبوة لكان الأمر أشنع من ذلك.



ذهبتِ العقول، وطاشتِ الألباب لما رأينَ هذا الجمال الذي أخبر عنه النبي ﷺ أنه أُوتيِ شطر الحسن[١]، أعطى الله تبارك وتعالى يوسف شطر الحسن، فكان كالبدر، ولذلك طاشت عقول النساء، وصارت السكين تعمل، والذهن لا يعمل، اليدُ تتحرك حركةً لا إرادية، والذهن مشغول بهذا الذي رأينه، فجَرَحْنَ الأيدي[٢]، ﴿وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ [يوسف: ٣١]، لم يُبِنَّها؛ أي: لم تقطع اليد تماماً، ولكن جرحت يعني: قطعنَ الجلد، وقلنَ ﴿حَٰشَ لِلَّهِ﴾ يُقْسِمنَ بالله ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا﴾، ما رأينا بشراً هكذا، نحن بشر، ورأينا كثيراً من البشر، وليس هذا من البشر، والنسوة إما قلن هذا الكلام لما فيه من الجمال، جمال الخِلقة، وإما لما فيه من جمال الخُلُق، والدين، والعفة، والهيبة ـ هيبة النبوة ونورها ـ. ﴿مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ [يوسف] هل رأين الملائكة حتى يقلن: ملك؟ ما رأينَ الملائكة، الإنسان ما رأى الملائكة، وهذا يحتمل معنيين:

المعنى الأول: يحتمل أنهنَّ أردنَ ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ﴾ [يوسف: ٣١] أي: من الجمال، وقد انطبع في أذهان الناس أن غاية الجمال في الملائكة، وغاية القبح في الشياطين، هذا ثابت في أذهان الناس، ولذلك إذا رأوا صورة جميلة قالوا: ملك، مع أنهم ما رأوا الملك، وإذا رأوا صورة قبيحة قالوا: شيطان مع أنهم ـ كذلك ـ ما رأوا الشيطان على خِلقته، ولكن انطبع في أذهان الناس أن الصورة الحسنة صورة الملائكة، وأن الصورة القبيحة صورة الشياطين، ولذلك قال الله تبارك وتعالى عن الشجرة التي في النار: ﴿طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾﴾ [الصافات] مع أن الناس ما رأوا الشياطين، ولكن انطبع في أذهانهم قبح الشياطين.

---

(١) أخرجه مسلم (١٦٢).

(٢) يخطئ البعض فيرى أن هذه الخطوط التي في الأيدي الآن هي من تلك النسوة، وهذا غير صحيح؛ لأن تلك النسوة من الأقباط، وهنّ خمس أو عشرون أو أربعون امرأة، وكل الناس أيديهم هكذا، فليس من ذلك التقطيع.



ويُذكر عن الجاحظ صاحب كتاب «الحيوان» وكتاب «البيان والتبيين» وغيرهما من الكتب، وهو أديب معروف أنه كان قبيح المنظر، حتى قالوا: إنه سمي الجاحظ؛ لجحوظ عينيه، وهو بروزهما، وقد ذُكِرَتْ طرفة وقعتْ له: أنه كان في السوق، فجاءته جارية، وأمسكتْ بيديه، وجرته، فمشى معها، فوقفت عند الصائغ ـ صائغ الذهب ـ، فقالت: مثل هذا، ثم ذهبت، يقول الجاحظ: فصرتُ أنظر إلى الصائغ، وينظر إليَّ، ويضحك، فقلت له: لِمَ تضحك؟!

فقال له الصائغ: ولِمَ جئت؟ قال: لا أدري أمسَكَتْ بيدي، فمشيت معها. قال: أتدري ما كانت تريد؟ قال: ما أدري. قال: قالت: أريد أن تصنع لي عقداً، ويكون وسطه رأس شيطان، فقلت لها: لم أرَ الشيطان في حياتي حتى أصنع لك رأس شيطان، فجاءتني بك.

المعنى الثاني: أردنَ ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ﴾ أي: من العفة، والطهر، والنقاء، تتهيأ له امرأة العزيز في بيتها، وهي امرأة جميلة، وتُغَلِّق الأبواب، وتقول له: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾، وهو عَبْدٌ عندها، ومع هذا يبتعد عنها؟!

قد شغفها حباً:

ولما قطَّعن الأيدي وقلنّ: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾ قامت امرأة العزيز وأعلنت ذهاب الحشمة والعفاف الآن تماماً، وأعلنتْ عن حبّها الشديد ليوسف صلوات الله وسلامه عليه غير مباليةٍ بهؤلاء النساء؛ لأنها رأتْ رَدَّة الفعل، فقالت: ﴿فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ﴾ [يوسف: ٣٢]، نظرة واحدة وقطعتنّ الأيدي، وأنا أعيش معه في بيت واحد كيف أتحمل؟ ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ﴾ [يوسف: ٣٢]، وهنا أعلنت براءته صلوات الله وسلامه عليه، واستعصم بمن؟ استعصم بالله لما قال: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ [يوسف: ٢٣].



وهنا عندما نرى هذا المنظر عندما دخل يوسف صلوات الله وسلامه عليه على هؤلاء النسوة، وقطعن أيديهن قالت امرأة العزيز: ﴿فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمۡتُنَّنِى فِيهِۖ﴾ [يوسف: ٣٢] فهل ما زال اللوم قائماً؟ هل ما زلتن تلمنني؟ ﴿وَلَقَدۡ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفۡسِهِۦ فَٱسۡتَعۡصَمَۖ وَلَئِن لَّمۡ يَفۡعَلۡ مَآ ءَامُرُهُۥ﴾ [يوسف: ٣٢] كأنها تقول: أقولها أمَامَكُنَّ، واسمع ـ أي: يوسف ـ لئن لم تفعل ما آمرك فحكمي: ﴿لَيُسۡجَنَنَّ وَلَيَكُونٗا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ [يوسف: ٣٢]، وهنا في قول امرأة العزيز: ﴿وَلَئِن لَّمۡ يَفۡعَلۡ مَآ ءَامُرُهُۥ﴾ يدل عليه قول النسوة لها: ﴿تُرَٰوِدُ﴾ إذاً ما زالت تراود يوسف صلوات الله وسلامه عليه حتى بعد الفضيحة، فُضِحَتْ، وشهد الشاهد، وقال لها زوجها: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرِي لِذَنۢبِكِۖ﴾ [يوسف: ٢٩].

وشاع الخبر بين النساء، لكنها إلى الآن مفتونة بيوسف صلوات الله وسلامه عليه، وأعلنت أنها غير مبالية بأحد غير يوسف عليه السلام، فقالت: ﴿وَلَئِن لَّمۡ يَفۡعَلۡ مَآ ءَامُرُهُۥ﴾ أي: من طاعتي في هذا الذي أريد ﴿لَيُسۡجَنَنَّ وَلَيَكُونٗا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ وفي المرة الأولى قالت لزوجها: ﴿مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ أَوۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ [يوسف: ٢٥]، والآن قالت: ﴿لَيُسۡجَنَنَّ وَلَيَكُونٗا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ في المرة الأولى يسجن أو عذاب أليم؛ لأنها كانت منفعلة جداً، فكانت رَدَّة فعلها قوية؛ لأن المرأة في طبيعتها انفعالية، تغلب عاطفتُها عقلَها، ولذلك قالت: ﴿يُسۡجَنَ أَوۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾، والآن لا تريد العذاب؛ لأنه رجع لها عقلها نوعاً ما، والآن تريد يوسف صلوات الله وسلامه عليه، فلم تذكر العذاب، بل قالت: ﴿لَيُسۡجَنَنَّ وَلَيَكُونٗا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ إن لم يطعها، وهنا جمعتْ له الترغيب والترهيب صلوات الله وسلامه عليه، فهي امرأةٌ جميلة ذات منصب، وهي التي تراوده عن نفسه، والنفس تميل بطبيعتها إلى النساء، ثم تهديد ووعيد؛ سجن، وصغار، وذل ﴿لَيُسۡجَنَنَّ وَلَيَكُونٗا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾.



فجاء الجواب من يوسف صلوات الله وسلامه عليه قال: ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ﴾ [يوسف: ٣٣]، مع أن السجن غير محبوب، ولكنه إذا قارنه بالفاحشة؛ فهو أحبُّ إليه من الوقوع في الفاحشة.

ولنتدبر قوله: ﴿ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ﴾ ولم يقل: «تدعوني»، وإنما قال: ﴿يَدْعُونَنِيٓ﴾ إذاً في المرة الأولى كانت الداعية امرأة العزيز وحدَها، والآن كلهنّ يُردن يوسف صلوات الله وسلامه عليه لما رأينه، فكلهن يُرِدْنَه، وقد ﴿قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾، ولذلك راودنه كلهن عن نفسه بعد أن كانت المراودة امرأة العزيز، الآن المراود كل هؤلاء النساء، ويأتينا قول الله تبارك وتعالى عندما يأمر الملك بإخراج يوسف من السجن صلوات الله وسلامه عليه يقول للرسول الذي جاءه: ﴿ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّـٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٠]، فقال لهن الملك: ﴿مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ [يوسف: ٥١] كلهن إذاً راودنَ يوسف عن نفسه، وهذا بلاء عظيم، وهؤلاء مَنْ؟ هم: عِليةُ القوم، فما كان من يوسف صلوات الله وسلامه عليه إلا أن اعتصم بالله ﷻ، وهذا حال المؤمن دائماً، كما يقولون: إذا ادلهمت الخطوب، وحاصرته المشكلات فإنه لا يجد ملجأ إلا إلى ربه تبارك وتعالى.

قال: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾ [يوسف: ٣٣] فأنا ضعيف بدونك يا رب، لا حول ولا قوة ولا طول للإنسان إلا أن يلجأ إلى الله تبارك وتعالى.

وهنا تصوروا هذه الدعوة من يوسف عليه السلام: ﴿ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِيٓ إِلَيْهِ﴾ [يوسف: ٣٣]، رب ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾ لضعفي ﴿وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ﴾ [يوسف: ٣٣]، وهي دعوة نبي مظلوم، والمظلوم



ـ ولو كان كافراً ـ فإن الله ينصره عز وجل؛ لأنه مظلوم، ولأن الله تبارك وتعالى أمر بالعدل، ولا يقبل الظلم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ﴾ [النساء: ٤٠]، وقال سبحانه في الحديث القدسي: «**إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً**»[١]، ويقول النبي ﷺ لمعاذ: «**واتق دعوة المظلوم، فإنه ليس بينها وبين الله حجاب**»[٢]، ولذلك كان الرد سريعاً من الله تبارك وتعالى ﴿فَٱسۡتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنۡهُ كَيۡدَهُنَّۚ﴾ [يوسف: ٣٤]، والفاء هذه للتعقيب، ولم يقل: «ثم استجاب له ربه»، وإنما جاءت الاستجابة مباشرة من الله تبارك وتعالى سريعة.

يوسف عليه السلام يدخل السجن ظلماً:

قال الله ـ جل وعلا ـ: ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم﴾ [يوسف: ٣٥] أي: ظهر واستقر عندهم ﴿مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ لَيَسۡجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٖ﴾ [يوسف: ٣٥] والآيات هي:

أولاً: الأدلة على براءة يوسف صلوات الله وسلامه عليه.

ثانياً: محاولة العزيز أن يستر على زوجته.

ثالثاً: إسكات الناس الذين كَثُر حديثهم في امرأة العزيز.

رابعاً: العزيز إلى الآن يخاف من امرأته؛ لأنها ما زالت تريد يوسف، بل صارت تصرح بذلك، فرأوا بعد ذلك ـ أي: العزيز وبطانته ـ وكأني به يقول لهم: ما تقولون؟ أتركه فهو بريء، نحن رأينا الأدلة، وشهد الشاهد، وقلتُ لها: استغفري لذنبك.

ما ترون؟ أنا العزيز أأُفضح أمام الناس لأجل يوسف؟!

ما ترون؟ أنا العزيز ما زلت أخاف من امرأتي أن تأتي يوسف عليه الصلاة والسلام.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٧٧).

(٢) أخرجه البخاري (١٤٩٦)، ومسلم (١٩) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.



ما تقولون؟ أُسكت هذه الألسنة التي صارت تلوك قصة امرأتي مع يوسف.

فرأوا بعد ذلك أن يسجن يوسف عليه الصلاة والسلام.

وهذه مصيبة عندما يغيب العدل، ويسود الظلم، يصير البريء متهماً، والظالم يصير مظلوماً، ويُستر على بيوت مجرمة مقابل إيذاء أُناس برآء، كما وقع ليوسف صلوات الله وسلامه عليه.

وهذه المحنة هي الخامسة ليوسف عليه الصلاة والسلام، **فالمحنة الأولى**: إلقاؤه في الجُبِّ، **والثانية**: بيعه مملوكاً، **والثالثة**: مراودة امرأة العزيز له، **والرابعة**: مراودة النسوة له، **والخامسة**: دخول يوسف عليه السلام السجن.

إذاً حياته مليئة بالابتلاءات عليه السلام، ولذلك قال النبي ﷺ: «**أشد الناس بلاءً الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل، يُبْتلى المرء على قدر دينه**»[1].

يوسف عليه السلام في السجن:

دخل يوسف السجن، يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِۖ﴾ [يوسف: ٣٦]، ذُكر أن هذين الرجلين، كان أحدهما ساقي الملك، والثاني طباخ الملك، والمشهور عند أهل التفسير أن بعض الناس كانوا يريدون قتل الملك، فذهبوا إلى الساقي وقالوا له: ضع في شرابه سُمّاً، ونعطيك كذا وكذا، فرفض، فذهبوا إلى طباخ الملك، فقالوا له: ضع في طعامه سُمّاً، ونعطيك كذا وكذا، فقبل، فوضع له السمَّ، فلما وُضع طعام الملك؛ قال الساقي للملك: لا تأكل، قال: لِمَ؟ قال: في الطعام سُمّ، وهنا قال الطباخ: لا، في الشراب السُمّ، إذاً تقرر عند الملك أن هناك سُماً، لكن هل هو في الطعام أو في الشراب؟ لا يدري، فأمر

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٩٨)، وابن ماجه (٤٠٢٣)، وهو في «صحيح الجامع» (٩٩٢).



بالبهائم، فأُتي بها، فعزلها في جانبين، وقُدِّمَ لهذه الطعام ولهذه الشراب، وانتظروا النتيجة، فإذا ماتت من الطعام؛ فيكون السُّمّ في الطعام، وإذا ماتت من الشراب فيكون السمّ في الشراب، ومن حين وضع الطعام إلى حين خروج النتائج، أمر بهما الملك كليهما، فأُدخلا السجن ريثما تظهر النتيجة.

دخل هذان الرجلان مع يوسف صلوات الله وسلامه عليه في السجن، وقدَّرَ الله تبارك وتعالى أن يرى كل واحد منهما رؤيا في منامه، فلما أصبحا أقبلا على يوسف صلوات الله وسلامه عليه، قال أحدهما: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ﴾ [يوسف: ٣٦]، وقال الآخر: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحۡمِلُ فَوۡقَ رَأۡسِي خُبۡزٗا تَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِنۡهُۖ نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [يوسف: ٣٦] وكيف عرفا أن يوسف من المحسنين؟ قد يكون بلغهما خبر يوسف؛ لأنا قلنا: إن أمر يوسف عليه السلام صار حديثاً متداولاً، وقد يكون ـ وهو الظاهر ـ أنه من سَمْتِه عرفوا أنه من المحسنين، هيبةً وجمالاً، وكان الله تبارك وتعالى ـ كما ذكر أهل العلم ـ نبَّأ يوسف وهو في السجن.

قال يوسف صلوات الله وسلامه عليه: ﴿لَا يَأۡتِيكُمَا طَعَامٞ تُرۡزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا بِتَأۡوِيلِهِۦ قَبۡلَ أَن يَأۡتِيَكُمَاۚ﴾ [يوسف: ٣٧] ما معنى هذا الكلام؟ و﴿تَأۡوِيلِهِۦ﴾ تعود على ماذا؟

قبل أن يأتي الطعام أقول: سيأتيكم طعام كذا وكذا، يعني يخبرهما بالغيب، كما قال الله تبارك وتعالى عن عيسى عليه السلام: ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأۡكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمۡۚ﴾ [آل عمران: ٤٩].

ولأن هذين الرجلين كانا في أشد الحاجة إلى يوسف؛ لأن كل واحد منهما رأى رؤيا شغلته، فرأى يوسف عليه الصلاة والسلام أنه الآن من المناسب أن يدعوهما إلى الله تبارك وتعالى؛ لأنه لو فسر لهما الرؤيا



لانشغل كل واحد بما فُسِّر له، ولكن هما في انتظار تفسير الرؤيا لذلك قال: عندي كلام أريد أن أقدِّمه قبل تفسير هذه الرؤيا، فقال: ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ [يوسف: ٣٩] لأن من الناس مَنْ ربُّه بقرة، ومن الناس مَن ربه شجرة، ومن الناس مَنْ ربُّه شمس، ومنهم مَنْ ربه قمر، ومنهم مَنْ ربه ملك، ومنهم مَنْ ربه نبي، ومنهم من ربه نجم، ومنهم مَنْ ربه فأر، ويختلف الناس في هذا اختلافاً عظيماً، فقال: ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ [يوسف: ٣٩]، فيوسف عليه السلام إذاً حقّر الآلهة في عيونهما، ثم قال: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم﴾ [يوسف: ٤٠] يعني: أنتم سميتموها آلهة، لكن هي في حقيقة الأمر ليست آلهة، أعطيتموها اسماً لا تستحقه، ﴿إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ﴾ [النجم: ٢٣] أنتم سميتموها أرباباً، أنتم سميتموها آلهة، لكنها ليست آلهة، ولا هي بأرباب، وإنما هي تسميات من عند أنفسكم كما سمى كفار مكة أو من قبلهم الصنم باللات، أنثى الإلٰه، والعزى من العزيز، ومناة من المنان.

ثم أجابهما بما يريدان، وهذا لا شك أنه من كمال عقل يوسف صلوات الله وسلامه عليه، ويقول أهل العلم عن ذلك: إن هذا جواب الحكيم، وهو الذي يعطيك ما ينفعك زيادة على سؤالك، أو كان سؤالك غير نافع، أو يقدم لك بين يدي السؤال ما هو أنفع لك، كأنه يقول لك: لو سألت عن كذا لكان أولى بك، ولذلك لما سأل الناس رسولَ الله ﷺ عن الأهلة ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ﴾ [البقرة: ١٨٩] لماذا الهلال يبدأ صغيراً، ثم يصير بدراً، ثم يعود هلالاً بعد ذلك؟ سؤال لا يترتب عليه شيء، فجاء الجواب: ﴿قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٨٩]، فمن المفروض أن تسألوا عن الحكمة التي من أجلها وُجد هذا الهلال، فأجابهم بخير من مسألتهم، وكذا في قول النبي ﷺ لما قيل له: أنتوضأ من ماء البحر؟



قال: «**هو الطهور ماؤه الحل ميتته**»(١)، فأجابهم إجابةً خيراً من سؤالهم الذي سألوه(٢).

وكذلك هنا هم سألوه عن رؤيا، فقال: كان الأولى أن تسألوا عن أشياء أولى من هذه، أنتم الآن إذا متم تكونون ماذا؟ تعبدون أرباباً متفرقة، ولا تعبدون الذي يستحق أن يعبد، هذه أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم، ثم بعد ذلك فسر لهم الرؤيا، فقال: ﴿أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا ۖ وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ ۚ﴾ [يوسف: ٤١]، وهنا لم يقل: أما أنت فكذا، وأما أنت فكذا حتى لا يحزنه، بل قال: ﴿أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا ۖ﴾ يعني: سيخرج بريئاً، قال: ﴿وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ فَيُصْلَبُ﴾، يُقتل وتأكل الطير من رأسه ﴿قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾﴾ [يوسف].

ثم قال: ﴿لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا﴾ [يوسف: ٤٢] وهو الذي رأى أنه يسقي ربه خمراً، ﴿ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾ [يوسف: ٤٢] يعني: عند الملك، قل له: إن هناك إنساناً دخل السجن ظلماً، امرأة العزيز أدخلته السجن؛ لأنه ما طاوعها إلى ما تريد، فأدخلته السجن ظلماً، يقول الله تبارك وتعالى: ﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ﴾ [يوسف: ٤٢] قال بعضهم: أُنْسِي يوسف ذكر ربه، يعني استعان بالبشر، ولم يستعنْ بالله، وهذا باطل، كيف ويوسف عليه الصلاة والسلام في كل آية يقول: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾، ﴿فَٱسْتَعْصَمَ﴾، ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٢٣٧)، وأبو داود (٨٣)، والترمذي (٦٩)، والنسائي (١٧٦)، وابن ماجه (٣٨٦)، وصححه الألباني «إرواء الغليل» (٩).

(٢) قال الخطابي تعليقاً على الحديث السابق: «وفي حديث الباب دليل على أن المفتي إذا سُئل عن شيء وعَلِمَ أن للسائل حاجة إلى ذكر ما يتصل بمسألته؛ استحب تعليمه إياه، ولم يكن ذلك تكلفاً بما لا يعنيه لأنه ذكر الطعام وهم سألوه عن الماء لعلمه أنهم قد يعوزهم الزاد في البحر».

﴿الْجَاهِلِينَ﴾ [يوسف: ٣٣]، ما نسي الله أبداً طرفةَ عين صلوات الله وسلامه عليه، إذاً من الذي أنساه الشيطان ذكر ربه؟

الجواب: هو الساقي، ولذلك يقول الله تبارك وتعالى بعد ذلك عند رؤيا الملك: ﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ﴾ [يوسف: ٤٥] يعني تذكر، إذاً الذي تذكر هو الذي نسي.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾ [يوسف: ٤٢] أي: اذكر حالي ومظلمتي، يقول جل ذكره: ﴿فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ﴾ [يوسف: ٤٢] أي: أنسى الشيطانُ الرجلَ الذي أمره يوسف صلوات الله وسلامه عليه أن يذكره عند ربه، أنساه ذكر سيده، فكان أن ترتب على ذلك أن لبث يوسف في السجن بضع سنين.

والمشهور عند أهل العلم أن السنوات التي مكثها يوسف صلوات الله وسلامه عليه بعد هذه الحادثة سبع سنين، وهذا من لطفِ الله ـ جل وعلا ـ وعظيم حكمته.

رؤيا الملك:

قدر الله تبارك وتعالى أن رأى الملك رؤيا، قال ـ جل وعلا ـ: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ﴾ [يوسف: ٤٣] هذه رؤيا رآها ملك مصر في ذلك الزمان.

واختلف في هذا الملك من يكون، على قولين:

القول الأول: إنه فرعون من فراعنة مصر.

القول الثاني: إنه من الهكسوس الذين حكموا مصر في ذلك الزمان.

وأياً كان الأمر؛ فإن معرفة الملك لا تفيدنا شيئاً، وإنما يفيدنا



المعنى الذي اشتملت عليه هذه الآيات، والمشهور كذلك أن هذا الملك اسمه: الريان بن الوليد، رأى هذه الرؤيا العجيبة، ولم يقل: ﴿إِنِّي رَأَيْتُ﴾، وإنما قال: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ﴾، والأظهر أن يقول: «رأيت»؛ لأنه منام قد مضى، ولكنه قال: ﴿أَرَىٰ﴾، يريد أن ينبه الحاضرين إلى أن الأمر رؤيا، وأنه يستحضرها تماماً كأنه يراها الآن.

والذي استغربه هذا الملك هو أنه رأى أن الناقص الهزيل الضعيف يأكل القوي الكامل، وهذا أمر غريب، خاصة أنه ذُكر في كتب أهل الكتاب: أن الملك رأى البقرات السمان والبقرات العجاف، وكيف أن هذه العجاف تأكل السمان، فقام من نومه مفزوعاً، ثم عاد ونام مرة ثانية، فرأى السنابل، سنابل يابسة وسنابل خضراء، ثم تأتي هذه السنابل اليابسة، فتلتف على السنابل الخضراء، حتى تكون كأنها التهمتها، فقام فزعاً مرة ثانية، ولما كان الأمر غريباً ـ وهو أن الهِزال من البقر تأكل السمان، وكذلك السنابل اليابسات تلتف وتأكل السنابل الخضراء ـ أيقنَ أن في الأمر شراً.

عندها جمع الملك الحكماء، والسحرة، والكهنة، والعلماء في ذلك الزمان، ثمّ قصَّ عليهم هذه الرؤيا، فكان الرد: ﴿قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [يوسف]، والضغث هو: الخليط، يعني: الشيء الرطب مع الشيء اليابس[1]، ولو كانت هذه رؤيا كنا فسرناها لك، ونحن لا نعلم تأويل الأحلام، وإنما نعلم تأويل الرؤى، وهنا يقول أهل العلم: جمعوا السوء من ثلاثة أوجه:

الوجه الأول: الجهل؛ لأن الأمر كان رؤيا ما كانت أضغاث

(١) **الضغث**: يقال: أتانا بأضغاث من أخبار: بضروب مختلطة منها.
وأضغاث الأحلام: ما كان منها ملتبساً مضطرباً يصعب تأويله. «المعجم الوجيز» ص٣٨١.



أحلام، ولكن زعموا جهلاً أن رؤيا الملك أضغاث أحلام، وهو جهل.

الوجه الثاني: تكلموا بدون علم، وكان الأولى بهم أن يقولوا لا نعلم.

الوجه الثالث: ادّعوا أنهم علماء بالرؤى، فهم جهّال، ثم أفتوا بباطل، ثم ادّعوا أنه لو كان رؤيا لكنا علمناه، وادعوا فضلاً ليس لهم، هذه ثلاثة أمور سيئة وُجدتْ في أولئك القوم.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾﴾ [يوسف]، والرؤيا كما مَرَّ كانت سبباً في بلاء يوسف والشدة التي وقعت له لما رأى أحد عشر كوكباً والشمس والقمر له ساجدين، ثم جاءت هذه الرؤيا لتكون بشرى ورحمة ليوسف صلوات الله وسلامه عليه، وكذلك الرؤيا التي رآها الرجلان في السجن مع يوسف كانت كذلك ابتداء الفرج ليوسف صلوات الله وسلامه عليه، إذاً ليوسف مع الرؤى قصص وأحداث.

قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ﴾ أي: تذكر بعد مدة، وتقول العرب كذلك: تذكر بعد أَمَهٍ أي: بعد نسيان، لكن الذي في كتاب الله تبارك وتعالى إنما جاءت ﴿أُمَّةٍ﴾ بمعنى: مدة.

و﴿ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا﴾ هو ساقي الملك، لما رأى أن الملك جمع السحرة، والكهنة، والعلماء، وسألهم عن هذه الرؤيا، فعجزوا عنها؛ تذكر يوسف صلوات الله وسلامه عليه، وهذا يؤكد أن قول الله تبارك وتعالى: ﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ﴾ [يوسف: ٤٢] أن المقصود هو الساقي؛ لأن الذي نسي هو الذي تذكر هنا.

قال: ﴿أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ﴾ قالها على صيغة الجزم، مع أنه رأى عجز العلماء، والحكماء، والسحرة، والكهنة، رأى عجزهم لكن لثقته المفرطة بيوسف صلوات الله وسلامه عليه قال: ﴿أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ﴾،



وقالها جهراً، ولم يقلْها سراً، ولم يذهبْ إلى يوسف ويسأله ثم يرجع إليهم، أبداً، ولكن قالها عن ثقةٍ تامةٍ بيوسف صلوات الله وسلامه عليه، وقوله: بتأويله، كأنه يرد عليهم، ويقول: ليست أضغاث أحلام، وإنما هي رؤيا، ولها تأويل، وأنا سأنبئكم بتأويله، لكن الأمر يحتاج إلى أن ترسلون، فأرسلوه فقال: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا﴾ [يوسف: ٤٦].

وهنا ـ كما يقول أهل العلم ـ يوجد اختزال وهو: اختصار الكلام، حذفَ كلاماً كثيراً؛ لأنه مفهوم دون أن يسمع هذا الكلام؛ لأن الأصل في كلام العرب ما قلَّ ودلَّ، والتقدير أنا أنبئكم بتأويله، فأرسلون، فأرسلوه، فدخل على يوسف، فقال له: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا﴾ [يوسف: ٤٦].

ثناء بين يدي السؤال:

وقدم بين يدي سؤاله ثناء على يوسف لما يعرفه عنه من كمال الأخلاق، فقال له: ﴿أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ﴾ ولم يقل له: «أيها الصادق»، وإنما قال: ﴿ٱلصِّدِّيقُ﴾ كما قال النبي ﷺ: «**وإن الرجل ليصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً**»(١).

قال: ﴿أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٤٦] وذلك أنه خشي ألا يخبره يوسف صلوات الله وسلامه عليه؛ لأنه سجن ظلماً، ولعل يوسف أن يقول كذلك: أضغاث أحلام، ولذلك استدرك بقوله: ﴿لَّعَلِّىٓ﴾.

وقوله: ﴿يَعْلَمُونَ﴾ تحتمل أمرين:

---

(١) أخرجه البخاري (٦٠٩٤)، ومسلم (٢٦٠٧).



الأمر الأول: لعلهم يعلمون تفسير هذه الرؤيا، فيصنعون ما يجب عليهم أن يصنعوه.

الأمر الثاني: لعلهم يعلمون فضلك، ويعلمون الظلم الذي وقع عليك، فيكون هذا سبباً لخروجك من السجن.

لطف الله بيوسف عليه السلام:

وهنا يظهر لطف الله عز وجل؛ لأن لطف الله ـ جل وعلا ـ يكون أحياناً من طرف خفي[1]، لو أن الملك كلم الساقي ابتداءً، وقال له: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبۡعَ بَقَرَٰتٖ سِمَانٖ يَأۡكُلُهُنَّ سَبۡعٌ عِجَافٞ وَسَبۡعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضۡرٖ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٖۖ﴾ [يوسف: ٤٣]، ما تقول فيها؟ لقال هذا الساقي أنا أعرف رجلاً يفهم بالرؤى، أسأله لك، ثم ذهب إلى يوسف وسأله، ثم أفتاه يوسف، فرجع، فأخبر الملك بتفسير هذه الرؤيا، ثم الملك بعد ذلك يجمع السحرة والكهنة، ويقول لهم: انظروا إلى فضل هذا الرجل كيف فسر؟ لقالوا: نحن نعلم، ولو سألتنا لأخبرناك، ولكن أراد الله تبارك وتعالى أن يظهر فضل يوسف صلوات الله وسلامه عليه بإظهاره عجز أولئك، كما في قصة آدم صلوات الله وسلامه عليه لما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمۡ عَلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٣١ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ٣٢ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ﴾ [البقرة] فأظهر الله فضل آدم بعد أن أظهر عجزهم، وكذا الأمر يوم القيامة عندما يذهب الناس لآدم، فيقولون: يا آدم اشفع لنا عند ربك، خلقك بيده وأسجد لك ملائكته، ونفخ فيك من روحه، اشفع لنا عند ربك، فيقول: لست لها، اذهبوا إلى نوح، فيذهبون إلى نوح، فيقول: لست لها، فيذهبون إلى إبراهيم، فيقول: لست لها،

---

(١) اللطيف: هو الشيء الخفي الذي لا يكاد يراه كل أحد.



اذهبوا إلى موسى، فيذهبون إلى موسى، فيقول: لست لها، اذهبوا إلى عيسى، فيذهبون إلى عيسى، فيقول: لست لها، اذهبوا إلى محمد، فيقول: «**أنا لها، أنا لها**»[1]، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، فلو ذهب الناس ـ ابتداءً ـ إلى محمد ﷺ وقالوا له: اشفع لنا عند ربك، وقبل الله شفاعته؛ لكان لقائل أن يقول: لو ذهبوا إلى إبراهيم لشفع، ولو ذهبوا إلى موسى لشفع، وكذا عيسى، وآدم، ونوح، لكن أظهر الله فضل محمد ﷺ بعد أن أظهر ﷻ أن آدم ونوحاً وإبراهيم، وموسى، وعيسى ليسوا لها صلوات الله وسلامه عليهم، وهذا من لطف الله ﷻ.

ومن لطفه ـ جل وعلا ـ أنه لم يجعل هذه الرؤيا تراها زوجة الملك، ولم يجعل هذه الرؤيا يراها وزير عند الملك، ولا ساقي الملك، ولا رجل من العامة فيأتي على باب الملك، فيقول رأيت هذه الرؤيا، فيهمِلُها الملك، ولا يهتم لها، وإنما جعل هذه الرؤيا يراها الملك، فلما شغلتْ بال الملك؛ شغلتْ بال الناس كلهم.

تفسير الرؤيا:

سُئل يوسف صلوات الله وسلامه عليه عن هذه الرؤيا، ففسرها مباشرة ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [يوسف] فسر الرؤيا صلوات الله وسلامه عليه.

وهنا في تفسيره لطائف: قال: ﴿تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا﴾ أي: باستمرار، ﴿فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ﴾، أي: اتركوه ﴿فِي سُنبُلِهِۦٓ﴾ حتى لا ييبس، ولا يفسد، ولا تُأثِّر فيه الأمطار، ولا يؤثر فيه التكديس، ﴿إِلَّا

(١) تقدم تخريج حديث الشفاعة ص٥٥.



﴿قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ﴾؛ لأنه سيأتي بعد ذلك ﴿سَبْعٌ شِدَادٌ﴾ أي: سنوات شداد ﴿يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ﴾؛ أي: يكون جدب، لا تستطيعون أن تأكلوا شيئاً في هذه السنوات إلا الذي خزنتموه، وأحصنتموه، ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾، مع أن هذا العام ما ذُكر في الرؤيا، وإنما رأى الملك سبعاً شداداً، وسبعاً عجافاً، وسبعاً خضراً، وسبعاً يابسات، فمن أين عرف يوسف عليه السلام أنه سيكون عامٌ فيه يغاث الناس؟

قالوا: إلهامٌ من الله تبارك وتعالى، أعلمَه الله تبارك وتعالى أنه بعد السبع الشداد سيأتي عام فيه يغاث الناس.

وقال آخرون: بل هذا علم الرؤى؛ لأنه لما كانت السبع السمان تأتي بعدها الشداد، وحُدِّدتْ بسبع؛ فدل على أنها بنهاية السبع ينتهي الجدب، ونهاية الجدب بداية الغيث.

ولذلك تفسير الرؤى كما إنه علْمٌ يدرس هو أيضاً فضل من الله تبارك وتعالى يؤتيه من يشاء.

قال: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ﴾، وقال ﴿يُغَاثُ﴾ ولم يقل: يمطر الناس؛ لأنه ليس على كل حال أن المطر يكون رحمة، فقد يكون عذاباً، وإنما الرحمة بالغيث، قال النبي ﷺ: «**ليست السَّنة ألا تُمطروا**» السَّنَة يعني: الجدب والقحط، «**ولكن السَّنة أن تمطروا ولا تنبت الأرض**»[(١)]، فلا يكون نافعاً إلا إذا كان غيثاً، ومن دعاء النبي ﷺ: «**اللهم اسقنا غيثاً مغيثاً**»[(٢)]، فيسأل الغيث، لا مجرد المطر.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٩٠٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أبو داود (١١٦٩) من حديث جابر رضي الله عنه، وأيضاً أخرجه ابن ماجه (١٢٧٠)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وأيضاً أخرجه ابن ماجه (١٢٦٩) من حديث كعب بن مرة رضي الله عنه، وصححه الألباني في «إرواء الغليل» (٤١٦).



قال: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾، قال أكثر المفسرين: أي يعصرون الزيت من السمسم والزيتون وغيره[1]، وقال بعضهم يعصرون أي: يمطرون، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾﴾ [النبأ] سماها معصرات؛ لأنها تنزل المطر.

وقفة دعوية:

من المعلوم أن يوسف صلوات الله وسلامه عليه نصح لهم في دنياهم، كما إنه نصح لهم في دينهم لما وعظ الرجلين بقوله: ﴿أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [يوسف: ٣٩]، وهكذا يجب على المسلم أن ينصح لمن يعمل عنده، ولو كان كافراً، فلا يجوز غشه بحجة أنه كافر، طالما أنه استأمنه وجب عليه النصح، وعدم الخيانة، والوفاء العهد: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ [المائدة: ١]، وقال النبي ﷺ: «**أدِّ الأمانة إلى من ائتمنك، ولا تخن من خانك**»[2]، فالمسلم له تربية خاصة، له دين يعتقد أن له رباً يراه.

ولذلك ينصح حتى للكافر، وأما من يقول: إنه يجوز غش الكفار، أو الكذب عليهم، أو السرقة منهم، أو استحلال أعراضهم، فلا شك أنه باطل، ليس من دين الله في شيء، بل دين الله هو الذي تعامل به يوسف صلوات الله وسلامه عليه.

إذاً يوسف بذل ما عنده من العلم بلا تأخر، ولا شرط، ولو كان غير يوسف؛ لقال: الآن أسجن ظلماً، وأُترك بدون محاكمة، ثم تأتون وتريدون أن أنصح لكم؟!

---

(١) انظر: «تفسير الطبري» (١٦/ ١٢٩)، روي عن ابن عباس، ومجاهد، والسدي، والضحاك، وقتادة.

(٢) أخرجه أبو داود (٣٥٣٥)، والترمذي (١٢٦٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وهو في «صحيح الجامع» (٢٤٠).



ولكن يوسف بيَّن كل ما يعرفه صلوات الله وسلامه عليه، ولم يشترط الخروج، بل آثر أن يبقى كما هو طالما أنه لم تظهر إلى الآن براءته أمام الناس جميعاً، بل زاد على ذلك، وهذه أخلاق لا يستطيعها إلا أولئك الخواص من البشر.

إعجاب الملك بتاويل يوسف عليه السلام وبيان براءته:

رجع الساقي بتفسير هذه الرؤيا إلى الملك والذين عنده، فذكر لهم ما قال يوسف، فأُعجب الملك بهذا التأويل، ورأى أنه أراحه، عند ذلك أحب أن يسمع من يوسف صلوات الله وسلامه عليه، فقال الملك: ﴿ٱئْتُونِى بِهِۦ﴾، فدخل الوسيط على يوسف صلوات الله وسلامه عليه، فقال: الملك يدعوك، قال: ﴿ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾؛ أي: سيدك الملك، ﴿فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٠] أنتم في موضوع يشغلكم، وهو موضوع رؤيا الملك، وأنا في موضوع آخر يشغلني، أنا سُجنت ظلماً، اسأل الملك، والظاهر ـ والله أعلم ـ أنه أشيع عند الناس أمرُ يوسف، وأن النساء قطعن أيديهنَّ؛ لأن هؤلاء النساء من كبريات أهل البلد، فرجع الرسول إلى الملك، فأخبره بما قال يوسف، واستدعى الملك النساء مباشرة، استعلم الأمر، فجمع النساء، وهنا قال يوسف: ﴿ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ [يوسف: ٥٠]، ولم يقل: ما بال امرأة العزيز سجنتني، مع أن فعل امرأة العزيز معه أشنع، فهي التي راودته، وهي التي دعتِ النساء، والصحيح أنه تناساها رعايةً لحسن العشرة صلوات الله وسلامه عليه، إنه في يوم من الأيام تربى في هذا البيت، فلم ينسَ تلك العشرة، تلك الرعاية، ذلك الإنفاق الذي حصَّله في بيت العزيز، فغض الطرف عن امرأة العزيز، وهو يدري أن الأمر سيصل إليها.

دعاهنَّ الملك، فاستفصل الأمر عند ذلك قال: ﴿مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ



رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍۚ﴾ [يوسف: ٥١]، ولما وصل الأمر إلى هذه الدرجة، ورأتِ امرأة العزيز ذلك الخُلُقَ العظيمَ عند يوسف ـ مع ما صنعت به، ومع حبها له ـ كبُر يوسف في عينها أكثر من الأول، وعظم عندها، عند ذلك لم تجد بُداً من الاعتراف علناً أمام الجميع، فقالت: ﴿ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ﴾ أي: ظهر ووضح ﴿أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ﴾ [يوسف] قالت امرأة العزيز هذا الكلام عند الملك في حضرة النساء، ولعله حضر غيرهنّ.

واختلف في هذا الكلام، لمن؟ على قولين:

القول الأول: إن هذا الكلام ليوسف صلوات الله وسلامه عليه، لما قالت امرأة العزيز: ﴿ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [يوسف: ٥١]، وبلغ الخبر يوسف صلوات الله وسلامه عليه قال: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾﴾، فالضمير عائد إلى العزيز في قوله: ﴿لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ﴾.

ثم قال: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓۚ﴾، فالأصل في النفس أنها أمارة بالسوء ﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓۚ﴾، ليرجع الفضل كله لله كما قال: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [يوسف: ٣٣].

القول الثاني: أن هذا من كلام امرأة العزيز، وليس من كلام يوسف، أي: أن امرأة العزيز قالت هذا الكلام، واعترفت، وهو غير موجود، أنا راودته عن نفسه، ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ﴾ يوسف ﴿أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [يوسف].

ولعل ـ والعلم عند الله ـ أن القول الثاني هو الصحيح، وهو أن هذا الكلام من كلام امرأة العزيز لأمور، منها:



أولاً: سياق الكلام مرتبط مع بعضه، قالت امرأة العزيز: ﴿ٱلْـَٔـٰنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ۞ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ﴾، فالكلام متصلٌ، ولم يقل: «قال يوسف: ذلك ليعلم أني لم أخنه بالغيب».

ثانياً: يوسف لم يكن حاضراً في هذا المجلس، ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٔـٰنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ۞ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۞ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ﴾ [يوسف]، إذاً يوسف لم يكن حاضراً هذا المجلس.

ثالثاً: أن نفْسَ يوسف من أزكى النفوس، فكيف يصح أن يقول يوسف: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ﴾؟! بل هو لما راودته امرأة العزيز عن نفسه ثم ألفيا سيدها لدى الباب قال: ﴿هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى ۚ﴾ [يوسف: ٢٦]، فكيف الآن لا يبرئ نفسه؟!

وذلك أن النفوس على ثلاثة أقسام:

القسم الأول: النفس الأمّارة بالسوء.

القسم الثاني: النفس اللوامة.

القسم الثالث: النفس المطمئنة.

ولا نشك أبداً أن نفس يوسف كانت نفساً مطمئنةً معصومةً.

رابعاً: لماذا يقول يوسف للعزيز: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ﴾ [يوسف: ٥٢] مع أن العزيز يعلم ذلك، أليس العزيز قال: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَـٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ۞﴾ [يوسف]، فالعزيز يعلم علم اليقين أن يوسف بريء.

خامساً: نفس امرأة العزيز كانت أمّارة بالسوء، بل هذه حالها كما



قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ﴾، ﴿وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ﴾، وافترتْ عليه كذباً، وسجنته ظلماً، واستعانت بالنسوة عليه، فماذا بقي في النفس الأمارة بالسوء؟(١).

ولو قال قائل: أليسوا كفاراً؟ نقول: بلى، قال: كيف تقول: ﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [يوسف: ٥٣]، وكيف اعتبرتْ هذا الأمر إثماً وذنباً مع أنهم كفار لا يفرقون بين الطاعة والمعصية؟

الجواب: **أولاً**: أنّ الزنا قبيح عند الكافر والمسلم إلا من انتكست فطرته، امرأة ذات بعل وتطلب الزنا قبيح عند كل عاقل.

ثانياً: أنهم كانوا مشركين ولكن عندهم أصل توحيد الربوبية، ولذلك قال لها زوجها: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرِي لِذَنۢبِكِۖ﴾ [يوسف: ٢٩] فهمْ يعرفون الله، ولكن خلطوا شركاً كما وقع لقوم نوح أنهم عبدوا الله وعبدوا معه غيره من الأصنام، ولذلك أكثر الشرك الذي وقع في الدنيا إنما هو الشرك في الألوهية، وهو صرف العبادة إلى غير الله تبارك وتعالى معه.

ولما بايع النبي ﷺ النساء في المدينة؛ قرأ عليهنّ قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ يُبَايِعۡنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشۡرِكۡنَ بِٱللَّهِ شَيۡـٔٗا وَلَا يَسۡرِقۡنَ وَلَا يَزۡنِينَ وَلَا يَقۡتُلۡنَ أَوۡلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأۡتِينَ بِبُهۡتَٰنٖ يَفۡتَرِينَهُۥ بَيۡنَ أَيۡدِيهِنَّ وَأَرۡجُلِهِنَّ وَلَا يَعۡصِينَكَ فِي مَعۡرُوفٖ فَبَايِعۡهُنَّ﴾ [الممتحنة: ١٢]، فقامتْ هند بنت عتبة، وقالت: وهل تزني الحرة؟!(٢) مع أنها كانت على شرك، لكنها ترى أن الحرة لا يمكن أن تزني، فالزنا إذاً قبيح على كل حال في الإسلام وفي الكفر.

(١) انظر: «التفسير القيم» ص٣١٦، ٣١٧.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٢٣/ ٣٤٢) من حديث عمر رضي الله عنه.



سبب امتناع يوسف عليه السلام من الخروج:

ولسائل أن يسأل: لماذا امتنع يوسف من الخروج من السجن؟ ألم تكن فرصة خروجه من السجن مواتية، لما قال الملك: ﴿ٱئۡتُونِي بِهِۦ﴾ في البداية، لماذا قال: ﴿ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ﴾ [يوسف: ٥٠]؟ لِمَ لَمْ يطلب الخروج، ويأتي للملك، ويقول للملك: أنا سُجنت ظلماً، وأنا فسرتُ الرؤيا الآن، اعمل تحقيقاً أو ما شابه ذلك.

فماذا أراد يوسف عليه السلام؟

قال أهل العلم:

أولاً: أراد ألا يخرج إلا وساحته مبرأة؛ لأنه خشي أنه إذا خرج من السجن قبل أن تُبرَّأ ساحتُه أن يقول الناس: إنما خرج من السجن لأنه فسّر الرؤيا، لا لأنه بريء، فأراد أن يبين للناس أنه بريء لا أنه مؤول للرؤى.

ثانياً: خشي أن يبقى شيء في قلب الملك عليه بعد أن يخرج، ثم تأتي بطانة السوء إلى الملك وتقول: هذا الذي وقع له مع امرأة العزيز كيت وكيت، فأراد يوسف صلوات الله وسلامه عليه أن تُبرّأ جهته ابتداءً.

ثالثاً: حتى يعرف جميع الناس أنه بريء، ويكبر في عيونهم، فيكون ذلك أدعى لقبول دعوته صلوات الله وسلامه عليه.

رابعاً: هو يعلم علم اليقين أن الله مظهر أمره عليه السلام، وأن العاقبة للتقوى، وأنه سيخرج من السجن إنْ عاجلاً أو آجلاً، فأراد ألا يخرج إلا على عزة وكرامة صلوات الله وسلامه عليه.

جاء في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «**ولو مكثت في السجن ما مكث يوسف؛ لأجبت الداعي**»[1] عندما أمر الملك أن يخرج يوسف من

(١) أخرجه البخاري (٣٣٧٢)، ومسلم (١٥١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.



السجن، قال يوسف: ﴿ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ﴾، فهل يقال: إن يوسف أكمل من محمد ﷺ صبراً؟ أو يقال: إن محمداً ﷺ قال هذا على سبيل التواضع، كما قال: «**نحن أحق بالشك من إبراهيم**»[١]، قال أهل العلم: يحتمل أمرين:

الأمر الأول: أن النبي ﷺ إنما قاله على سبيل التواضع، وليس يوسف أكمل صبراً من محمد ﷺ، وإنما قال ذلك ليرفع من قدر يوسف، لا لينزل من قدر نفسه.

الأمر الثاني: أن النبي ﷺ قصد ذلك، وهو أن النبي ﷺ يخرج من السجن، وأنّ يوسف صلوات الله وسلامه عليه أخذ بالحزم، وأن النبي ﷺ سيأخذ بالجائز؛ لأنه قد يُنسى، فلو رجع الرجل إلى الملك وقال الرجل: يوسف يقول: لا أخرج حتى تظهر براءتي، لقال: اتركوه في السجن، المهم أنه بيّن لنا الرؤيا وعرفنا ماذا نصنع، ويُنسى يوسف كما نُسي أول مرة.

تعظيم الملك ليوسف وكلامه معه:

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ﴾ [يوسف: ٥٤] من الذي كلّم الملك؟ يحتمل أمرين:

الأول: فلما كلمه أي: يوسف كلم الملك، ودعاه إلى الله تبارك وتعالى، قال الملك ليوسف: ﴿إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ [يوسف: ٥٤].

الثاني: أن الملك قال: ﴿ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ﴾، فلما جاء يوسف، وكلّمه الملك وقال له: ﴿إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾، والمكين: هو الممكن في الأرض. فبعد هذا الذي رأيناه منك أنت مكين أمين.

عندها قال يوسف: ﴿ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٥].

---

(١) انظر التخريج السابق.



لماذا عظُم يوسف في عين الملك؟

أولاً: لعلمه، عَلِمَ تفسير هذه الرؤيا، والرؤيا التي قصها عليه الساقي.

ثانياً: لصبره وثباته، يريدون إخراجه من السجن، وهو يقول: ﴿ٱرۡجِعۡ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسۡـَٔلۡهُ مَا بَالُ ٱلنِّسۡوَةِ﴾.

ثالثاً: لطهارته وعفته، امرأة العزيز تراوده، النساء يراودنه، يُهَدَّد بالسجن، ومع هذا: العفة فوق كل شيء.

رابعاً: لثناء ساقي الملك عليه لما كان معه في السجن، فما سماه إلا: الصديق.

خامساً: لأنه مظلوم، فعظم لأجل ذلك كله في عين الملك.

تمكين الله ﷻ ليوسف عليه السلام:

قال يوسف عليه السلام مخاطباً العزيز: ﴿ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ﴾ [يوسف: ٥٥]، ولم يقلْ: إني جميل وسيم، فجمالُ يوسف أتاه بالبلاء: سجن، ومراودة، وأذى، وتهديد، ووعيد، وإنما أخرجه وفَضَّله ومَكَّنه عِلْمُه، ولذلك قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَتَبَوَّأُ مِنۡهَا حَيۡثُ يَشَآءُۚ نُصِيبُ بِرَحۡمَتِنَا مَن نَّشَآءُۖ وَلَا نُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٥٦﴾ [يوسف] بعد السجن، والضيق، والحصر، والشدة صار يوسف هو المُمَكَّن، هو المتصرف في شؤون مصر صلوات الله وسلامه عليه.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَأَجۡرُ ٱلۡأٓخِرَةِ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ [يوسف] ولذلك قال الشاعر:

وراء مضيق الخوف متسع الأمن ... وأول مفروح به غاية الحزن

فلا تيأسن فالله مَلَّكَ يوسفَ ... خزائنه بعد الخلاص من السجن



وهنا طلب نبي الله يوسف الولاية والإمارة، وهذا ليس مما يعيبه في شيء، وذلك أنه يجوز للرجل أن يطلب الإمارة إن كان يرى أنه أهل لها، أو كان يرى أنه لا يقوم بهذا العمل إلا هو، وهذا الأمر هو الأظهر، بل ـ والعلم عند الله تبارك وتعالى ـ يظهر أن يوسف صلوات الله وسلامه عليه كان يرى أن الأمر عليه واجب عيني، إذ إنه لا يمكن أن يقوم بهذا العمل أحد غيره، ولذلك طلب الإمارة.

مُكِّن يوسف عليه السلام في أرض مصر، وصار وزيراً فيها مُمَّكنا، ومرّت تلك السنوات السبع الخصبة، سبع بقرات سمان، سبع سنبلات خضر، واستعد لها يوسف صلوات الله وسلامه عليه أتمَّ استعداد، وذلك أنه زرَع كل أرض في مصر يمكن أن تزرع، حتى لا يضيع الفرصة، وجعل مخازن عظيمة للغلات، والحبوب، والطعام، الناس يأكلون بقدر حاجتهم فقط، لا زيادة على ذلك.

ومرَّت هذه السنوات السبع على مصر كما مرت على غيرها من البلاد، ثم لما جاءت السنوات السبع العجاف؛ ظهرتِ الحاجة في الأرض كلها، حيث انقطع المطر ولم تُنْبت الأرض، ولكن يوسف صلوات الله وسلامه عليه كان قد خَزَّنَ من الطعام شيئاً كثيراً، يكفي مصر وأهلها وغيرهم، وشاعَ بين الناس أنه لا طعام إلا في مصر، فانصب الناس على مصر من كل حدَبٍ ليشتروا منها الطعام، وكان ممن جاء إلى مصر إخوة يوسف من فلسطين يمتارون كما يمتار الناس، ويشترون كما يشتري الناس، وقد شاع عندهم كما شاع عند غيرهم عدلُ وزير مصر، وعِلْمُه وكرمه.

إخوة يوسف عليه السلام يأتون إلى مصر:

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [يوسف]، وهنا أشكل البعض، كيف عرفهم ولم يعرفوه؟



وكان الأصل أنه يعرفهم ويعرفونه، فهم إخوته، أو لم يعرفهم ولم يعرفوه، وقد أجاب أهل العلم عن هذه المسألة بأجوبة، منها:

أولاً: إنّ يوسف ﷺ لما فارق إخوته كان صغيراً، والصغير إذا كَبُرَ تتغير أشباهه، وهو مكثَ في بيتِ العزيز حتى بلغ أشده، ثم مكث حتى راودته امرأة العزيز، ثم مَكَثَ حتى حكموا عليه بالسجن، ثم سُجِنَ صلوات الله وسلامه عليه، والمشهور عند أهل العلم أنه سُجِنَ سبع سنوات، ثم خرج من السجن عند رؤيا الملك، ومرَّت السبع السنوات السمان، ثم جاء إخوة يوسف في السنة الأولى العجفاء أو الثانية، إذاً أربع عشرة سنة في السجن وفي الوزارة، وقبلها سنوات غير معروفة قضاها في بيت العزيز صلوات الله وسلامه عليه، فلا يقل الأمر عن عشرين سنة، فتغيرت أشباه الصغير، وأما الكبير فإن أشباهه في الغالب لا تتغير كثيراً، ولذلك عرفهم، وهم لم يعرفوه.

ثانياً: كانوا عدداً، وكان واحداً، فهو إذا خفي عليه معرفة أحدهم، فلا يخفى عليه معرفة الثاني أو الثالث أو الرابع، فبمجموعهم عرفهم، وهو لما كان واحداً، فكان يمكن أن يُنسى شبهه.

ثالثاً: إنهم كلّموه بلغتهم، فعرفهم من لهجتهم، وهم لم يعرفوه؛ لأنه كلّمهم بلسان أهل مصر.

رابعاً: هيبة المُلْك، دخلوا وهم ضعفاء، وهو وزير، فهيبة المُلْك لم تمكنْهم من تدقيق النظر إليه.

خامساً: كان ينتظرهم؛ لأنه يعلم أن هذه السنوات العجاف قد مرّت على البلاد كلِّها، فكان ينتظر مجيئهم، وبعكسه هم ما كانوا يتوقعونه أبداً.

سادساً: ما كان يمكن أن يخطر على بالهم أن يوسف يكون في هذا المكان صلوات الله وسلامه عليه، فأحسن الأحوال عندهم أن يكون



واحداً من شعب مصر إن كانوا علموا أنه في مصر، أما إذا لم يعلموا أنه في مصر فالأمر في هذا واضح.

سابعاً: أمر الله، الله عرَّفهم له، ولم يُعَرِّفه لهم؛ لحكمة عنده تبارك وتعالى.

المهم عرفهم وهم له منكرون، لم يعرفوه.

قال الله ـ جل وعلا ـ: ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ٱئْتُونِى بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ﴾ [يوسف: ٥٩] كيف عرف أخاهم من أبيهم؟

قال بعض أهل العلم:

أولاً: سألهم عن أحوالهم، من أنتم؟ من أي البلاد؟ متى جئتم؟ ماذا تريدون؟ هل أنتم إخوة؟ هل أنتم أبناء عم؟ هل لكم أب؟ هل لكم أخ؟ سألهم عن أحوالهم، فكان من سؤاله أن عرف أن لهم أخاً.

ثانياً: بعد أن زودهم بالطعام، قالوا: أعطنا أيضاً لأبينا وأخينا، وعندها قال لهم يوسف صلوات الله وسلامه عليه: ائتوني بأخيكم هذا حتى أراه وأعطيكم زيادة، ولذلك قال: ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ﴾ [يوسف: ٥٩]، ألا ترون أني زدتكم، ﴿وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾ [يوسف: ٥٩]، ألا ترون الكرم، ألا ترون السماحة، ألا ترون الإنعام، ﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾﴾ [يوسف] فاستعمل الترغيب والترهيب، رغبهم ابتداءً، ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّىٓ أُوفِى ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾، ثم رهبهم وقال: ﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِى بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ﴾، سنحاول، ﴿وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ﴾ إما إنا لفاعلون أي آتون به، أو إنا لفاعلون؛ أي: نكلم أبانا ﴿وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [يوسف]، البضاعة هي: المال أو الحاجيات التي جاؤوا بها، جاؤوا بفضة، بذهب، جاؤوا بمتاع عبارة عن جلود، آنية، أو أي شيء، فقال: لفتيانه اجعلوا بضاعتهم في رحالهم زيادة على ما أعطيناهم من الميرة والطعام ﴿لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا



﴿انقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾، وهذا صبرٌ وجَلَد، وإلا يوسف مشتاقٌ جداً للرجوع إلى أبيه وأهله، ولكن لحكمة أرادها الله ـ جل وعلا ـ.

وهنا قوله: ﴿ٱجْعَلُواْ بِضَٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [يوسف: ٦٢] لماذا وضع بضاعتهم في رحالهم؟

قال أهل العلم:

الأمر الأول: أنه من باب الكرم والسخاء، فما أحب أن يظهر لهم أمام الناس وضع هذه البضاعة، حتى لا يلحقهم في هذا منّة منه.

الأمر الثاني: أن يوسف عليه السلام خشي ألا تكون معهم بضاعة للسنة القادمة فلا يأتون، وهو يريدهم أن يأتوا، فجعل بضاعتهم في رحالهم.

الأمر الثالث: رأى أنه من الجفاء وسوء الخلق والعقوق أن يأخذ من أبيه وإخوته مالاً نظير الطعام.

الأمر الرابع: حتى يكون هناك اطمئنان من قِبَلِهم جهة يوسف، فيأتون في السنة القادمة بأخيهم.

الأمر الخامس: بالغ في الإحسان إليهم من باب ردِّ الإساءة بالإحسان، فهم أساؤوا إليه، فردَّ الإساءة بالإحسان كما قيل:

يزيد سفاهة وأزيد حلماً … كعود زاده الإحراق طيباً

فعاملهم بنقيض معاملتهم له صلوات الله وسلامه عليه.

رجعوا إلى أبيهم، ولم يعلموا بعد أن البضاعة رُدتْ إليهم في رحالهم، ﴿قَالُواْ يَٰٓأَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ﴾ [يوسف: ٦٣] أي: في السنة القادمة، أُعطينا كيل هذه السنة، ولكن منع منا الكيل مستقبلاً، ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ﴾ [يوسف: ٦٣]، لن يكون كيل إلا إذا كان أخونا معنا، ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [يوسف: ٦٣]، هذا الآن بنيامين أخو يوسف الشقيق وأخوهم من أبيهم، ﴿قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ

أَخِيهِ مِن قَبْلُ﴾ [يوسف: ٦٤] أنتم لا تُؤتمنون عليه، هذه الكلمات: ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَآ أَخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾، هي الكلمات ذاتها التي أُطلقت زمن يوسف، ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿١٢﴾﴾ [يوسف: ١٢]، وما كنتم حافظين ليوسف، ضيعتم الأمانة، جئتوني بقميص لم يقطع، وقلتم أكله الذئب، ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [يوسف] أي: لن أرسله معكم.

عندها سكتوا، فلا يستطيعون أن يجيبوا بشيء، يعلمون أنهم مذنبون، ولذلك لزموا الصَّمتَ، رجعوا إلى رحالهم، أنزلوا بضاعتهم، وإذا البضاعة التي ذهبوا بها ليأخذوا مكانها الميرة رُدتْ إليهم، فرحوا كثيراً ثم رجعوا إلى أبيهم، ﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾ [يوسف: ٦٥]، تريد دلالة على صدقنا، انظر جئنا بالطعام، وهذه بضاعتنا رُدت إلينا، ما كذبناك، وهذا من إحسان الوزير إلينا، وسنرجع، ونحفظ أخانا، ونزداد مع هذا كيل بعير، وهذا كيل يسير سهل، كل القضية أن يذهب معنا أخونا.

قال: ﴿لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [يوسف: ٦٦]، تقسمون بالله ﴿لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ﴾ [يوسف: ٦٦] وآتوه موثقه لأنهم ـ فعلاً ـ صادقون، رضي يعقوب عليه السلام، وقال: ﴿ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ [يوسف: ٦٦].

لماذا رضي يعقوب، ولماذا وثق بهم؟ وهو قبل قليل قال لهم: لن أرسله معكم؟

قالوا لأمور:

الأمر الأول: إن إخوة يوسف صلح أمرهم بعد غياب يوسف هذه المدة، أكثر من عشرين سنة، ما رأى عليهم شيئاً من الفساد، بل رآهم



صالحين محببين لأبيهم، أليسوا قالوا: ﴿يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ﴾ [يوسف: ٩] وكان كما قالوا، فلما رأى صلاحهم اطمأن إليهم.

الأمر الثاني: هم لم يظهروا حسداً للأخ الصغير، وإنما كان حسدهم ليوسف صلوات الله وسلامه عليه، ولذلك ما كان يعقوب يخشى على بنيامين كثيراً كما كان يخشى على يوسف عليه السلام.

الأمر الثالث: أنه إنما رضي بوحي من الله، الله أمره لحكمة عنده تعالى، ولأمر يدبره ـ جل وعلا ـ.

الأمر الرابع: أن يعقوب اطمأن لما وجد البضاعة رُدَّت إليهم.

الأمر الخامس: مال إلى تصديقهم.

نصيحة الأب المشفق:

ثم نصح لهم يعقوب، فقال: ﴿يَٰبَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ﴾ [يوسف: ٦٧]، ذكروا أن مصر في ذلك الوقت كان لها أربعة أبواب، وأمرهم يعقوب ـ عليه الصلاة والسلام ـ ألا يدخلوا من باب واحد، وذلك أنهم كان لهم جمال ظاهر، وهم عشرة إخوة، فلذلك خاف عليهم أن يصابوا بعين، فقال: ﴿لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ﴾ والعين حق[1]، قال الله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴿١﴾ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴿٤﴾ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾﴾ [الفلق]، وكان النبي ﷺ يعوذ الحسن والحسين من العين فيقول: «**أعيذكما بكلمات الله التامة من كل شيطان وهامة، ومن كل عين لامة**»[2]، وقال: «**لو كان شيء سابق**

(١) أخرجه البخاري (٥٧٤٠)، ومسلم (٢١٨٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) أخرجه البخاري (٣٣٧١) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.



القدر لسبقته العين»[(١)].

دخول مصر مرة ثانية:

دخلوا على يوسف فآوى إليه أخاه، كيف آواه؟ الله أعلم، وذكرت أشياء كثيرة، ذكر أنه دعاهم إلى طعام، ثم ناداه وحده، وذكر غير ذلك، المهم أنه آواه إليه دون أن يشعروا، وقال: ﴿إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝٦٩ فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ﴾ [يوسف] والسقاية: الذي يكيلون به وهو صاع الملك، وفتح رحل أخيه باتفاق بينه وبين أخيه ووضعه فيه ﴿ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَـٰرِقُونَ﴾، وهذا ليس من كلام يوسف صلوات الله وسلامه عليه؛ لأن هذا كذب فيوسف لم يقل: ﴿إِنَّكُمْ لَسَـٰرِقُونَ﴾، ولكن الذين جُعِلوا على الطعام لم ينتبهوا، أخذه يوسف دون علمهم، ووضعه في رحل أخيه، لم يعلم أحد إلا يوسف وأخوه.

قال: ﴿أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ﴾ يعني: الجماعة المسافرة معها الإبل عليها الطعام ﴿إِنَّكُمْ لَسَـٰرِقُونَ ۝٧٠ قَالُوا۟ وَأَقْبَلُوا۟ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ﴾ [يوسف] ولم يقولوا: «ماذا سرقنا»؛ لأنهم لا يرون أنهم سارقون، ﴿قَالُوا۟ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ۝٧٢﴾ [يوسف]، وأراد هنا أن يبين لهم أن هذا الصواع له قيمة عظيمة، ﴿قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَـٰرِقِينَ ۝٧٣﴾ [يوسف]، بدليل أنَّا جئنا واعترفنا لكم أننا وجدنا متاعنا رُدَّ إلينا لما رجعنا إلى بلادنا، خشينا أن يكون الأمر وقع فيه خطأ، فجئناكم وقلنا لكم: ﴿قَالُوا۟ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَـٰذِبِينَ ۝٧٤ قَالُوا۟ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ۝٧٥ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ

(١) أخرجه مسلم (٢١٨٨) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.



﴿كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ ۖ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [يوسف] سبحان الله، قالوا: ما جزاء من وجد في رحله، هذا من الكيد، قال الله تبارك وتعالى: ﴿يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ [الطارق]، ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٥٤]، هذا من كيد الله ليوسف، كيف؟

أولاً: جعل يوسف السقاية في رحل أخيه دون أن يشعروا.

ثانياً: ناداهم، وبين لهم قيمة هذا الصواع، بحيث أنه بعد ذلك إذا حوسب من أخذه حساباً عسيراً لم يعترض أحد.

ثالثاً: جعلهم هم الذين يحكمون عليه، لا هو، ففي العادة الذي يحكم الحاكم لكن هنا طلب منهم أن يحكموا هم، قال: ﴿فَمَا جَزَاؤُهُ إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا جَزَاؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ﴾ [يوسف] أي: السارق جزاء الصواع، يعني: تأخذونه عبداً عندكم، وهذا في شريعة يعقوب عليه الصلاة والسلام، فألزمهم بشريعة يعقوب؛ لأنه لو حاكمهم على شريعة الملك ما كان يمكن أن يأخذه؛ لأن في قانون الملك أنه من سرق يضرب ويحبس، لكن في شريعة يعقوب الذي يسرق يُسترق؛ أي: يكون عبداً، وهذا من الكيد، جعلهم هم الذين يحكمون على أخيهم بأن يكون عبداً عند يوسف عليه السلام.

رابعاً: بدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه؛ لأنه لو بدأ بأخيه لوقع في قلبهم شك أن المسألة مدبرة، لكن بدأ بوعاء الأول، ثم الثاني، ثم الثالث، وهم يطمئنون أنهم لم يسرقوا، وهكذا حتى وصل إلى الحادي عشر، فلما فتَّش وجد الصواع، فَصُدِموا وذُهِلُوا، ولذلك يقول الله تبارك وتعالى: ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [يوسف: ٧٦].

ثم قالوا: ﴿إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ﴾ [يوسف: ٧٧]، وهنا أرادوا أن ينزهوا أنفسهم، قالوا اعلم أيها الملك: إذا كان سرق فنحن لسنا مثله، وإنما هذا أخونا من أبينا، وإنما تأثّر بأخواله، ﴿إِن



يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ﴾، أخوه من أمه وأبيه، أما نحن فلا نسرق، يعني: لا تجعل هذا عيباً فينا، هذا عيب فيه، وفي أخيه الذي سرق من قبل ﴿إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ﴾.

متى سرق يوسف عليه السلام؟

أولاً: أن يوسف سرق مِنْ جده لابان والد راحيل صنماً، فكسره عندما أرادوا الخروج مع أبيهم يعقوب عليه الصلاة والسلام، فقالوا: إن يسرق فقد سرق يوسف صنم جدنا.

ثانياً: أن يوسف عليه الصلاة والسلام كان عند عمته التي ربته، ولم يكن لها أولاد، وكانت تحبّ يوسف حباً شديداً، فلما كبر يوسف قليلاً أراد أبوه أن يأخذه منها، فأبت عليه، قالت: دعه عندي، قال: لا أستطيع، فأخذت نطاقها وربطته على يوسف، ثم ألبسته الملابس، فلما جاء أبوه ليأخذه، قالت: إني أفقد نطاقي، وأخشى أن يكون سرقه ولدك، فتّشه، فنزعوا ملابس يوسف فوجدوا النطاق، قالت: من سَرَقَ اسْتُرِقَّ، فأخذتْ يوسف عندها حتى ماتت، ثم رجع إلى أبيه، فقالوا: سرق نطاق عمتنا، وهذا موجود عند أهل الكتاب.

الثالث: وهو الأظهر قالوا هذا الكلام كذباً.

وهذا يدل على أن الحسد لا يزول، فهو داء عضال.

عين الحسود عليك الدهر حارسة تبدي المساوي والإحسان تخفيه
يلقاك بالبشْر يبديه مكاشرة والقلب مضّطغنٌ فيه الذي فيه

فكان رد يوسف صلوات الله وسلامه عليه لما قالوا هذا الكلام: ﴿قَالَ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ [يوسف: ٧٧] ولكنه أسرّها في نفسه ولم يبْدها لهم، ﴿أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ٧٧].

عندها قالوا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا



مَكَانَهُۥٓۖ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَٰلِمُونَ﴾ [يوسف] تأمرونني بالظلم، لا يمكن أبداً أن أكون ظالماً، ﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّاۖ﴾ [يوسف: ٨٠] خلصوا نجياً؛ أي: انفردوا وتناجوا، ولذلك قال أحد الأعراب لما سمع أحدهم يقرأ هذه الآية ﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّاۖ﴾ قال: والله لا يخرج هذا الكلام إلا من (إلْ) يعني: من إله، لما فيه من البلاغة، اختصر خروجهم وانفرادهم عن الناس وتناجيهم بقوله: ﴿خَلَصُوا۟ نَجِيًّاۖ﴾ أي: ابتعدوا وتناجوا بينهم، ماذا قالوا؟ ﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٠]، لما قال لهم أبوهم: ﴿لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْۖ﴾ [يوسف: ٦٦]، ﴿أَلَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَّوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ وَمِن قَبْلُ مَا فَرَّطتُمْ فِى يُوسُفَۖ﴾ [يوسف: ٨٠] عندكم سابقة، ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِىۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨٠﴾ ٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُوا۟ يَٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ﴾ [يوسف: ٨١]، قولوا الحق، ﴿وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَٰفِظِينَ﴾ [يوسف: ٨١] لما قلنا لك: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾، ما كنا للغيب حافظين، ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَاۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾﴾، ماذا قالوا عن يوسف عليه الصلاة والسلام: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾ [يوسف: ١٧] لم يتغير الكلام، رجعوا إلى يعقوب عليه الصلاة والسلام وقالوا له هذا الكلام بعد فَقْدِ بنيامين، فما قال لهم؟ ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًاۖ﴾ [يوسف: ٨٢].

وهذا يدل على أمرين اثنين:

الأمر الأول: أن يعقوب عليه الصلاة والسلام لا يعلم الغيب، إذ لو كان يعلم الغيب لعلم أنهم في الأولى كاذبون وفي الثانية صادقون، لكنه لا يعلم الغيب، ولذلك كان قوله في الثانية كقوله في الأولى ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًاۖ﴾ [يوسف: ٨٢].

الأمر الثاني: عاقبة الكذب سيئة على كل حال، ولذلك لو لم يكن من آفات الكذب إلا أنه يرد صدق الكاذب لكفى؛ لأن عنده سوابق، ومن هدي أهل الحديث أنهم لا يقبلون حديث الكذاب ولو تاب.

الضيق يزداد على يعقوب عليه السلام لفقد ولديه:

قال الله تعالى مبيناً حال يعقوب: ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ [يوسف: ٨٤] تذكر يوسف؛ لأن الحالة مشابهة، أخذوا يوسف، وقالوا: أكله الذئب، والآن أخذوا أخاه، وقالوا: إن ابنك سرق، فتذكر يوسف ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ﴾ [يوسف: ٨٤] حرّك المواجع، وابيضت عيناه من الحزن، صار أعمى من شدة الحزن، ﴿فَهُوَ كَظِيمٌ﴾، حزين أشد ما يكون الحزن، فَقَدَ يوسف، والآن فقد أخاه، والمتهم في يوسف وأخيه إخوتُهُ، حزْنٌ عظيمٌ أصاب يعقوب عليه الصلاة والسلام.

وليس في هذا عدم صبر، بل هذا هو الصبر، والحزن لا ينافي الصبر، ولذلك قال له أبناؤه: ﴿تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا﴾ [يوسف: ٨٥] أي: ضعيفاً، ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٦] لست أشكو لكم، وإنما أشكو بثي وحزني إلى من يشتكي إليه الخلق، وهو الله تبارك وتعالى، وكان عمر رضي الله عنه إذا قرأ هذه الآية يبكي رضي الله عنه.

ثم قال يعقوب عليه السلام: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٨٦] مع هذا كله أعلم من الله ما لا تعلمون، أي: من الفرج الذي سيأتي، يوسف قال لي: ﴿إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِى سَٰجِدِينَ﴾ [يوسف: ٤] وستتحقق، ﴿فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ﴾ [يوسف: ٨٧]، يوسف حيٌّ، فتحسسوا من يوسف، وأيضاً من أخيه ﴿وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ﴾ [يوسف: ٨٧]، ما زال يَعِظُهُمْ، فيهم إيمان، ولكن فيهم أيضاً معاصٍ، ﴿إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧].

إخوة يوسف عليه السلام يتعرفون عليه:

لما جاءت السنة الثالثة؛ دخلوا على يوسف ﴿قَالُواْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهۡلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئۡنَا بِبِضَٰعَةٖ مُّزۡجَىٰةٖ﴾ [يوسف: ٨٨] سيئة رديئة، ﴿فَأَوۡفِ لَنَا ٱلۡكَيۡلَ﴾، أعطنا كيلاً مقابل هذه البضاعة الرديئة، وأوفه لنا، فقد عودتنا الوفاء، وتصدق علينا بترك أخينا الذي استعبدته، أرجعه إلى أبيه.

فقال لهم: ﴿هَلۡ عَلِمۡتُم مَّا فَعَلۡتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذۡ أَنتُمۡ جَٰهِلُونَ﴾ [يوسف: ٨٩]، الآن كلمهم بلسانهم، كلمهم بدون ترجمان، ما فعلنا بيوسف؟! تتكلم إذاً العبرية، تتكلم بلغتنا، فنظروا إليه، كأنه يوسف، الآن بدأت الصورة ترجع من جديد، ﴿قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ﴾، ناداه، وإذا هو معزز مكرم، ليس عبداً، ﴿قَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَآۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ [يوسف: ٩٠] هنا سُقِطَ في أيديهم ولم يكن من بد إلا الاعتراف بالذنب: ﴿تَٱللَّهِ لَقَدۡ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ﴾ [يوسف: ٩١] انتصارات ليوسف عليه الصلاة والسلام، أول شيء ابتلاءات والآن انتصارات، ﴿قَالَ لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَۖ﴾ [يوسف: ٩٢] ماذا ينفع التثريب؟ وهذا هو العفو عند المقدرة، ﴿يَغۡفِرُ ٱللَّهُ لَكُمۡۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [يوسف: ٩٢].

حادثة مشابهة:

وهذا أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ابن عم النبي ﷺ لما جاء إلى النبي ﷺ مسلماً تائباً إلى الله ـ جل وعلا ـ وكان قد هجا النبي ﷺ قبل إسلامه ـ، فبايعه النبي ﷺ وصدّ عنه، وصار كلما أتى ليجلس مع النبي ﷺ قام وتركه، فتضايق أبو سفيان، وهو ابن عم النبي ﷺ، فاشتكى إلى عليّ، فقال له علي: ويحك أوَ ما تدري ما فعلت، أنت ابن عم النبي ﷺ وتهجوه بالشعر، قال: وماذا أصنع؟ قال: اذهب إلى رسول الله فقل له: ﴿تَٱللَّهِ لَقَدۡ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَإِن كُنَّا



﴿لَخَٰطِـِٔينَ﴾ [يوسف: ٩١] أي: كما قال إخوة يوسف ليوسف، وهذا استنباط عجيب من عليّ رضي الله عنه، فجاء أبو سفيان إلى النبي ﷺ وهو جالس، فقابله، وقال: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾، فلم يكن مِنْ بُدٍ أن قال النبي ﷺ كما قال أخوه يوسف: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف: ٩٢].

إقرار بالذنب:

وعندها بعد أن أقروا بالذنب قال لهم يوسف عليه الصلاة والسلام بعد أن ذكروا له أحوالهم وما حصل لأبيهم، وأنه عمي لفقده ليوسف وأخيه، قال لهم يوسف: ﴿اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾﴾ [يوسف] وهذه من علامات النبوة، ودلائلها، ومن الآيات الباهرة التي أعطاها الله تبارك وتعالى لنبيه يوسف عليه السلام، ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ﴾ [يوسف: ٩٤] أي: اقتربت وجد يعقوب رائحة القميص الذي مسَّ جلد يوسف عليه الصلاة والسلام، ﴿قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ﴾ [يوسف] أي: لولا أن تتهمونني بالكبر والخرف ﴿قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾﴾ [يوسف: ٩٥] إنك مخطئ، ومن هؤلاء الذين اتهموه؟ هم الذين جلسوا عنده؛ لأن إخوة يوسف هنا تفرقوا إلى قسمين: قسمٌ ذهب إلى يوسف، وقسمٌ بقي عند الأب.

تصديق بشرى يعقوب عليه السلام:

جاء البشير ومعه القميص، ألقاه على وجه يعقوب، ﴿فَارْتَدَّ بَصِيرًا ۖ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ﴾ [يوسف] وذكر كثير من أهل التفسير أنه أخّرهم إلى وقت السحر؛ لأن هذا الوقت وقت إجابة،



حيث ينزل الرب ﷻ في الثلث الأخير من الليل، قال: أدعو لكم في هذا الوقت.

ذُكِرَ أن عمر رضي الله عنه كان ذاهباً إلى المسجد فسمع إنساناً يقول: اللهم دعوتني فأجبت، وأمرتني فأطعت، وهذا السحر فاغفر لي. فنظر عمر فإذا الصوت خارج من دار ابن مسعود رضي الله عنه وأرضاه.

تصديق رؤيا يوسف عليه السلام:

قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ﴾ [يوسف: ٩٩]، قربهما إليه، ﴿وَقَالَ ٱدْخُلُوا مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُۥ سُجَّدًا﴾ [يوسف]، سجدوا له، سجد الأب والأم ـ الشمس والقمر ـ وسجد إخوة يوسف ـ أحد عشر كوكباً ـ، وقيل: إن أم يوسف قد ماتت، وأن هذه التي سجدت مع أبيه هي خالته، أمُّ إخوته، والعلم عند الله تبارك وتعالى، ولكن ظاهر الآية أنها أمه.

حكم السجود:

والسجود ـ كما قال أهل العلم ـ ينقسم إلى قسمين:

القسم الأول: سجود على وجه التعظيم والعبادة، وهذا لا يجوز إلا لله، ومن سجد لغير الله سجودَ تعظيمٍ وعبادةٍ فهو كافر مشرك في كل الشرائع.

القسم الثاني: سجود إكرام وتحية، وهذا كان جائزاً في الشرائع السابقة، وحُرم في شريعة محمد صلوات الله وسلامه عليه، ومنه سجود الملائكة لآدم، ومنه سجود يعقوب وأم يوسف وإخوته له، ومنه سجود معاذ للنبي ﷺ لما جاء وسجد للنبي ﷺ فقال له النبي ﷺ: **«ما هذا يا معاذ؟»** قال: يا رسول الله وجدتهم ـ يعني: أهل اليمن ـ يسجدون لملوكهم وبطارقتهم، فأنت والله أحق بالسجود منهم، وكان هذا مشروعاً



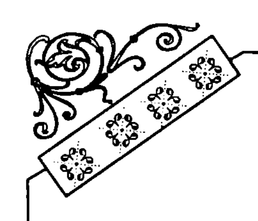
عندهم فنهاه النبي ﷺ عن ذلك[١].

وبهذا تنتهي هذه القصة العظيمة، قصة يوسف صلوات الله وسلامه عليه مع أبيه وإخوته.



(١) تقدم تخريجه ص٤٧.






قصة لوط عليه السلام

المشهور في نسبه عند أهل الكتاب والنسابين أنه لوط بن هاران بن تارح أو آزر على الصحيح، فإبراهيم صلوات الله وسلامه عليه يكون عماً له؛ لأن إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه هو ابن آزر كما جاء مصرحاً به في كتاب الله ـ جل وعلا ـ.

لوط صلوات الله وسلامه عليه ذُكِرَ في القرآن سبعاً وعشرين مرة، وقد ذكر الله تبارك وتعالى أنَّ إبراهيم لما دعا إلى الله ـ جل وعلا ـ لم يؤمن به قومه، بل كفروا به وعادوه، وما آمن معه إلا قليل، وكان ممن آمن به لوط عليه السلام: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ ۘ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ﴾ [العنكبوت: ٢٦]، فهاجر إبراهيم بأهله، وهاجر معه لوط ابن أخيه، ويقال له: لوطُ، لوطٌ؛ أي: يصرف ولا يصرف، كما هو الحال في هود، فيقال: رأيت لوطَ، ويقال: رأيت لوطاً.

بعثة لوط عليه السلام:

بُعث نبي الله لوط إلى قوم بلغوا غاية السفه، والجهل، وقلة الحياء، ودناءة الأخلاق، وكانوا يجمعون إلى الانحطاط في الأخلاق ممارسة المنكرات التي تستقبحها ولا ترتضيها الفطر السليمة، وذلك أن الله ـ جل وعلا ـ خلق الإنسان وجعله ذكراً وأنثى، وجعل في الذكر ميلاً إلى الأنثى، وجعل في الأنثى ميلاً إلى الذكر، وجعل في تركيب الذكر، وتركيب الأنثى قابلية لاجتماعهما مع بعض، وجعل منهما النسل، وقد يحدث أن يشذ بعض الناس عن هذه القاعدة، فيميل الذكر



إلى الذكر، وتميل الأنثى إلى الأنثى، ولذلك يقال عنهم: (شواذ)؛ لأنهم خارجون عن القاعدة، خارجون عمّا عليه عامة الناس، أما أن يشذّ المجتمع كله، فهذا هو الشيء الغريب، وهذا هو الذي أنكره لوط عليه السلام وقومه، وهذا الشذوذ لا شك أنه مدعاة لانتشار الأمراض، وفساد المجتمعات، بل انقراضها.

قال عبد الملك بن مروان الخليفة الأموي: لولا أن الله ذكر ذلك في القرآن ما ظننتُ أن ذكراً ينزو على ذكر لكن لما ذكره الله في القرآن علمت أنه حق.

قال الله ـ جل وعلا ـ عن قوم لوط: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٤﴾ أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾﴾ [الشعراء] هذه دعوة لوط صلوات الله وسلامه عليه.

يُخبر الله ـ جل وعلا ـ أن قوم لوط كذّبوا المرسلين، وقد ذكرنا في قصة نوح وهود وصالح أنه من كذب رسولاً واحداً فهو كمن كذّب جميع الرسل، ولذلك قال الله ـ جل وعلا ـ عن قوم نوح: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الشعراء] مع أن نوحاً هو أول رسول، وقال الله عن قوم لوط هنا: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾﴾ [الشعراء]، طالما أنهم كذبوا لوطاً؛ إذاً كذبوا إبراهيم، وكذبوا نوحاً، وكذبوا موسى، وعيسى، وكذبوا جميع المرسلين.

قال الله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ﴾ وهذه أخوة الطين؛ لأن الأخُوَّة أخوتان: أخوة الطين وأخوة الدين، فأخوة الطين ينسبها الله تبارك وتعالى للمرسلين مع أقوامهم، وأما أخوة الدين فهي لا تكون إلا بين المؤمنين ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠] هذه أخوة الدين، وهنا



قال: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾﴾ [الشعراء]، أمين فيما أقوله وأدعو إليه من عند الله تبارك وتعالى، فلا أزيد ولا أنقص ولا أكذب على الله ـ جل وعلا ـ، ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ [الشعراء]، وهكذا جميع المرسلين، ما سألوا أحداً أجراً أبداً، وإنما أجرهم على رب العالمين ﷻ.

ثم قال لهم: ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٥﴾﴾ [الشعراء] إذاً جمعوا كفراً وأموراً شنيعة أخرى، ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَاجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾﴾ [الشعراء]، وهذا مصداق لقول الله تبارك وتعالى في وصف المؤمنين: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٧﴾﴾ [المعارج] قال لهم لوط صلوات الله وسلامه عليه: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ [الشعراء: ١٦٦] ترى ماذا كان جواب قومه؟ ﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾﴾ [الشعراء] وتالله لقد جاؤوا بحجة غريبة لإخراج رسولهم: ﴿أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [النمل: ٥٦]، جريمة لوط وجريمة أهله أنهم أناس يتطهرون، أناس لا يتدنسون ولا يخوضون الوحل الذي خاضه قومهم، فصار ذلك مدعاة لذمهم، فجعلوا غاية المدح ذماً، بل ـ والله ـ لا يُمدح في قوم لوط إلا لوط وأهله الذين امتنعوا عن هذه الفاحشة، وهذا دليل على فساد الفطرة عند قومه، وما دفعهم إلى ذلك إلا اللجاج والعناد ـ والعياذ بالله ـ، فكان الله ـ جل وعلا ـ في عون المصلحين من الأنبياء والدعاة، كيف يتهم المصلح بمثل هذه التهم ﴿إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [النمل: ٥٦].

غاية القبح والفحش في قوم لوط عليه السلام:

جمع قوم لوط معاصٍ كثيرة، أول معصيةٍ هي الكفر بالله ـ جل



وعلا ـ والكفر بلوط صلوات الله وسلامه عليه، ولذلك قال الله ـ جل وعلا ـ عنهم: ﴿وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ ۝٩ فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ۝١٠﴾ [الحاقة]، والمؤتفكات هم قوم لوط، وسموا بالمؤتفكات لقلب بلدهم عليهم، من الإفك وهو قلب الخبر عن وجهه الصحيح إلى الوجه الباطل.

إذاً جريمتهم الأولى التي بها كفروا وعُذّبوا هي الكفر بالله ـ جل وعلا ـ، ولكنهم جمعوا مع هذه الجريمة الكبرى جرائمَ أخرى كبيرة، ولكنها ـ لا شك ـ أصغر من هذه الجريمة العظمى، ومن هذه الجرائم التي لم يسبقوا إليها، وصاروا مثلاً فيها ما قال لهم نبيهم لوط، صلوات الله وسلامه عليه: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ﴾ [العنكبوت: ٢٩]، وهي الفاحشة التي عُرفوا بها، يأتون الرجال دون النساء، قال: ﴿وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ﴾ [العنكبوت: ٢٩]، يقطعون الطريق على المسافرين بقتلهم، وأخذ أموالهم، والاعتداء عليهم، قال: ﴿وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ﴾ [العنكبوت: ٢٩] ذهب كثير من المفسرين إلى أنهم كانوا يتضارطون في مجالسهم، ولا يستحيون من ذلك، كما هو فعل الكفار الآن، في الغرب يتضارطون في مجالسهم ولا يأبه أحد لأحد، وقال آخرون من أهل التفسير عن إتيانهم في ناديهم المنكر، قالوا: عموم المنكرات من الأقوال والأفعال الشائنة(١).

وذُكِرَ من فساد أخلاقهم ما جاء أن أحدهم ـ ويقال له: لعازر ـ ضُرب بحجر فذهب إلى القاضي يشتكي، وأمسك الذي ضربه، وقال: هذا ضربني بحجر، فشج وجهي. فقال الضارب: بل أنا الذي أشتكي أريد مالاً عوضاً على ضربي له، فنظر القاضي، فقال: نعم عوِّضْه!! انتكاسةٌ تامة، هذا القضاء عندهم، فقال: أهكذا حكمك؟ قال: نعم،

(١) انظر: «تفسير الطبري» (٢/٢٩ ـ ٣١)، و«تفسير ابن كثير» (٦/٢٧٦).



فأخذ حجراً وضرب القاضي، فشج وجهه، قال: خُذ حسابك منه، ثم خرج وترك القاضي والمجرم الذي معه، بل ترك المجرمين معاً.

إرسال الملائكة بالعذاب إلى قوم لوط عليه السلام:

ذكر الله ـ جل وعلا ـ أنه أرسل الملائكة إلى لوط صلوات الله وسلامه عليه، ومرَّتْ هذه الرسل على إبراهيم في طريقها إلى لوط، وبشرته بإسحاق، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَـٰمًا ۖ قَالَ سَلَـٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَـٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [الذاريات] يعنون: قوم لوط صلوات الله وسلامه عليه، وقالوا: ﴿إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَـٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ﴾ [العنكبوت] فترك الملائكة نبي الله إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه، واتجهوا إلى قرية لوط.

وذُكِرَ أنهم لما قالوا: ﴿إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ۖ﴾ [العنكبوت: ٣١] قال لهم إبراهيم: أتهلكون قريةً بها خمسون مسلماً؟ قالوا: لا. قال: أتهلكون قرية فيها أربعون مسلماً؟ قالوا: لا. قال: أتهلكون قرية فيها عشرة من المسلمين؟ قالوا: لا. قال: أتهلكون قرية فيها مسلمٌ واحد؟ قالوا: لا. قال: فإن فيها لوطاً، قالوا: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَـٰبِرِينَ﴾ [العنكبوت][1]، ثم قيل له:

(١) «تفسير البغوي» (٤/ ١٩٠)، و«تفسير ابن كثير» (٤/ ٣٣٥).



﴿يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَآۖ إِنَّهُۥ قَدۡ جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ﴾ [هود: ٧٦] حُسِمَ الموضوع ﴿وَإِنَّهُمۡ ءَاتِيهِمۡ عَذَابٌ غَيۡرُ مَرۡدُودٖ﴾ [هود: ٧٦] فسكت إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه.

وانطلقت الرسل إلى لوط صلوات الله وسلامه عليه، ودخلوا القرية، قيل: إنهم وجدوا ابنته، فاستغربتهم، وقالت: من أنتم؟ قالوا: ضيوف، قالت: مكانكم، وكانت تعلم أن قومها يعملون الفاحشة في الرجال، فذهبت إلى أبيها، فقالت: يا أبتِ إني رأيت رجالاً حسان الوجوه، ليسوا من أهل هذه البلد، وإني أخاف عليهم من أهل بلدنا، فانظر في حالهم، فذهب إليهم لوط صلوات الله وسلامه عليه، وقال: ما جاء بكم، وبدأ يذكر لهم أن هذه البلد أهلها خبيثون لا يحسنون استقبال الضيوف، ولم يُصرح لهم بما يفعله أهل هذه البلد، ولذلك قال الله ـ جل وعلا ـ: ﴿وَلَمَّا جَآءَتۡ رُسُلُنَا لُوطٗا سِيٓءَ بِهِمۡ وَضَاقَ بِهِمۡ ذَرۡعٗا وَقَالَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَصِيبٞ ٧٧﴾ [هود: ٧٧] وليست هذه عادة الأنبياء مع ضيوفهم، ولكن الأمر أعظم من ذلك، أعظم من أن يكونوا مجرَّد ضيوف، بل إن لوطاً سيء بهم لما يخاف عليهم من اعتداء قومه على أعراضهم، ضاق صدره صلوات الله وسلامه عليه، ﴿وَقَالَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَصِيبٞ﴾، والمشهور أن هؤلاء الضيوف هم جبريل، وميكائيل، وإسرافيل، تصوروا بصورة البشر، وكانوا حسان الوجوه، وهكذا الملائكة إذا تشكلت بصورة البشر؛ فإنها تتشكل بصور حسنة، والشياطين تتشكل بصور قبيحة، وكان قوم لوط قد نهوه عن الضيوف، وهذا يدلنا على أمر عظيم، ألا وهو أن الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم لا يعلمون الغيب، وإلا كان لوط علم أن هؤلاء ملائكة.

أدخل لوط ضيوفه إلى البيت، ثم جاءه قومه يُهرعون إليه، ﴿أَوَلَمۡ نَنۡهَكَ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الحجر: ٧٠] أما قلنا لك لا تضيف أحداً.



قال الله ـ جل وعلا ـ: ﴿وَجَآءَهُۥ قَوۡمُهُۥ يُهۡرَعُونَ إِلَيۡهِ﴾ [هود: ٧٨] يُهرعون: مسرعون، كيف عرفوا؟

قالوا: أخبرتهم زوجته، وهذه خيانتها للوط، خانته في الدين، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمۡرَأَتَ نُوحٖ وَٱمۡرَأَتَ لُوطٖۖ كَانَتَا تَحۡتَ عَبۡدَيۡنِ مِنۡ عِبَادِنَا صَٰلِحَيۡنِ فَخَانَتَاهُمَا﴾ [التحريم: ١٠]، الخيانة في الدين، وكانت إذا رأتْ مثل ذلك أشعلتْ ناراً حتى يعلم قومها بوجود أولئك الضيوف، فهذه خيانتها للوط، خانته في الدين، ولم تخنه في عرضه، فإن الله ـ جل وعلا ـ حمى الأنبياء من أن تلطخ أعراضهم صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَجَآءَهُۥ قَوۡمُهُۥ يُهۡرَعُونَ إِلَيۡهِ وَمِن قَبۡلُ كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطۡهَرُ لَكُمۡۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُخۡزُونِ فِي ضَيۡفِيٓۖ أَلَيۡسَ مِنكُمۡ رَجُلٞ رَّشِيدٞ ۝٧٨ قَالُواْ لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنۡ حَقّٖ وَإِنَّكَ لَتَعۡلَمُ مَا نُرِيدُ ۝٧٩ قَالَ لَوۡ أَنَّ لِي بِكُمۡ قُوَّةً أَوۡ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكۡنٖ شَدِيدٖ ۝٨٠﴾ [هود] لو أن لي بكم قوة أدفعكم بها أو آوي إلى ركن شديد.

واختلف في معنى ﴿أَوۡ﴾ في هذه الآية على قولين:

القول الأول: أنها على ظاهرها، ويكون التقدير: (لو أني أجد قوة أدفعكم بها أو تكون هناك قبيلة)، ركن شديد آوي إليه، يدفع عني شركم.

القول الثاني: أنها للإضراب بمعنى «بل»، كما في قول الله تعالى عن الكفار: ﴿ثُمَّ قَسَتۡ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلۡحِجَارَةِ أَوۡ أَشَدُّ قَسۡوَةٗۚ﴾ [البقرة: ٧٤] بمعنى: بل أشد قسوة، ولذلك ذكر فضل الحجارة على قلوبهم، قال: ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلۡحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنۡهُ ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخۡرُجُ مِنۡهُ ٱلۡمَآءُۚ وَإِنَّ مِنۡهَا لَمَا يَهۡبِطُ مِنۡ خَشۡيَةِ ٱللَّهِۗ﴾ [البقرة: ٧٨] ويكون كذلك قول لوط صلوات الله وسلامه عليه: ﴿لَوۡ أَنَّ لِي بِكُمۡ قُوَّةً﴾ [هود: ٨٠] أي:



أدفعكم بها، ثم رجع وقال: بل آوي إلى ركن شديد، وهو الله تبارك وتعالى، وهذا من تمام يقينه بالله ـ جل وعلا ـ، وتوكله عليه.

هؤلاء بناتي:

وفي قوله: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ [هود: ٧٨] لأهل العلم فيها ثلاثة أقوال:

القول الأول: أراد بناته لصلبه، يعني خذوا بناتي لصلبي، ولا تأخذوا ضيوفي؛ لأن هذا هو ظاهر القرآن، ﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾، تزوجوا بناتي، ولا يريد ازنوا ببناتي، فإن الإنسان يموت في الدفاع عن عرضه، فكيف بنبي كريم، ولكن كأنه أرشدهم إلى الحلال الطاهر، ويدل على هذا أن النبي محمداً ﷺ قبل بعثته زوج بناته لكافرين: فزوج رقية وأم كلثوم لعتبة وعتيبة ابني أبي لهب، قالوا: ولعل هذا في شرع من قبلنا، أي في شرع لوط كان يجوز للمؤمنة أن تتزوج الكافر، ومع أن لوطاً لم يكن له بنات كثيرات، وإنما أراد أن يتزوج بناته رؤساء القوم.

القول الثاني: أنه أراد بنات القرية، بشكل عام، كما في قول الله ـ جل وعلا ـ: ﴿ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ۗ﴾ [الأحزاب: ٦]، وجاء في قراءة ابن مسعود: «**وهو أب لهم**»[1]، فيريد ببناته؛ أي: بنات القرية؛ لأن النبي هو أبو أهل القرية، واستدلوا على ذلك بأن النبي لا يزوج بناته لكفار، ثم كذلك المشهور أن لوطاً له ابنتان، وقيل: ثلاث بنات، وهل تكفي ابنتان أو ثلاث لجميع أهل القرية؟!

القول الثالث: وهو أنه لا يريد أن يزوجهم بناته، ولكنه قالها من باب الإلزام، قالوا: كمثل أن يضرب رجلٌ رجلاً فتأتي للضارب ـ وهو

---

(١) انظر: «تفسير الطبري» (٢٠/٢٠٩)، و«تفسير ابن كثير» (٦/٣٨١).



يحترمك ويقدرك ـ فتقول له: لا تضربه، فيستمر في ضربه، فتقول لا تضربه اضربني أنا، وأنت تعلم علم اليقين أنه لن يضربك لمكانتك عنده، فتقول اضربني أنا إن كنت لا بد فاعلاً، ولذلك قالوا: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾ [هود: ٧٩]، لماذا تقول هؤلاء بناتي؟ وأنت تعلم علم اليقين أنه ليس لنا في بناتك من حق، وهذا لعله أقرب الأقوال في هذه المسألة، وهو كما قال نبي الله سليمان صلوات الله وسلامه عليه لما اختلفتْ امرأتان في طفل، وكل واحدة تقول هذا ولدي، فقال سليمان: **«أقطعه بنصفين لهذه نصف، ولهذه نصف»** هو لا يريد قطعه، ولكن أراد أن يختبر رَدَّة فعل المرأتين، فقالت الكبرى: **«نعم اقطعوه، وقالت الصغرى: لا تفعل هو لها»**[(١)]، فهو لا يريد قطعه، وإنما أرادها من باب الإلزام[(٢)]، فكذلك هنا يكون لوط صلوات الله وسلامه عليه إنما قال هذا الكلام من باب الإلزام، لا من باب التقرير.

لو أن لي بكم قوة:

قال الله تعالى حكاية عن لوط عليه السلام: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِيَ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هود: ٨٠] فيها قولان للمفسرين:

القول الأول: إنه يخاطب الملائكة ـ الضيوف ـ لما حوصر في بيته، وأراد قومه أن يكسروا الباب عليه، التفت إلى ضيوفه، وقال: لو أن لي بكم قوة لكنت رددتهم، لكنت منعتهم.

القول الثاني: أنه كان يخاطب قومه.

قال ﷺ: **«ويرحم الله لوطاً، لقد كان يأوي إلى ركن شديد»**[(٣)]، يعني: الله عز وجل.

---

(١) أخرجه النسائي في «السنن» (٥٣٠٩). (٢) وسيأتي في قصة سليمان عليه السلام.

(٣) أخرجه البخاري (٣٣٧٢)، ومسلم (١٥١).



قال الله تعالى: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٢﴾﴾ [الحجر] حاول لوط صلوات الله وسلامه عليه أن يستثير في قومه النخوة، فقال: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ﴾ [هود: ٧٨]، والخزي هو: فضح الإنسان أمام الناس، ﴿أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾ [هود: ٧٨] واحد فقط يمنع القوم، يردُّهم، يدافع، يتكلم، وهذا يدل على أن المجتمع كان فاسداً كله، ﴿أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾ وهو كما قيل:

تُجاب لو ناديت حياً ولكن لا حياة لمن تنادي

والغريب أن أولئك الضيوف مع هذا الحديث الذي كان يدور بين لوط وقومه والخوف الذي اعترى لوطاً صلوات الله وسلامه عليه، وقوله: ﴿هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ [هود: ٧٧]، وقومه يطرقون عليه الباب ﴿أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [الحجر: ٧٠] سَلِّم إلينا هؤلاء الرجال، ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ﴾، والضيوف في منتهى الهدوء، لا يهتمون إلى ما يجري بين لوط وقومه صلوات الله وسلامه عليه، وكأن الأمر لا يعنيهم.

وهنا التفتَ الضيوف إلى نبي الله لوط، وقالوا: ﴿يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا إِلَيْكَ﴾ [هود: ٨١] اطمئن، ولذلك كلما ضاق الأمر، واشتدت المحنة جاء الفرج من الله، بل يأتي الفرج كالغيث ينزل على الأرض بعد أن اشتدتْ حاجتها إليه، وفي الآية الأخرى قالوا: ﴿لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَٰبِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٣].

نزول العذاب على قوم لوط:

لما حاولوا كسر الباب والدخول عليه خرج إليهم جبريل صلوات الله وسلامه عليه، فضرب وجوههم بطرف جناحه، فطمس أعينهم، فصاروا يتدافعون، ويصطدم بعضهم ببعض بالجدر لا يدرون أين يذهبون، ثم رجعوا إلى بيوتهم، وهددوا لوطاً وقالوا: نأتيك غداً، انصرفوا وهدأتِ

الأمور، واطمأن نبي الله لوط صلوات الله وسلامه عليه، قالت له الملائكة: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ [هود: ٨١].

وهنا قولهم: ﴿أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾، ذُكِرَ أن لوطاً صلوات الله وسلامه عليه بعد هذه المحنة الشديدة قالت له الملائكة: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ قال لهم لوط: «فالآن؟»، فقالت له الملائكة، ﴿أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾؛ لأن الأمر ليس بيد الملائكة، فهم رُسل، والأمر لله من قبل ومن بعد ﷻ.

وفي قول الله تعالى: ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ﴾ [هود: ٨١]، فيها قراءتان:

القراءة الأولى: بالفتح ﴿إِلَّا امْرَأَتَكَ﴾، فيكون الاستثناء منقطعاً، والمعنى (فأسر بأهلك إلا امرأتك) اتركها.

القراءة الثانية: قراءة الضم (إِلَّا امْرَأَتُكَ) فيكون معنى الآية: إلا امرأتك فلتلتفت، فتكون بدلاً من ﴿أَحَدٌ﴾، ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ﴾ فلتلتفت، فأُخذت.

والمشهور أنه خرج بأهله، وخرجتْ معه امرأته، ثم لما كانت الصيحة التفتتِ امرأته، فأُخذتْ مع قومها، ولكن قراءة الفتح أشهر، بدليل قول الله تبارك وتعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [الذاريات] وامرأة لوط ليست من المؤمنين، ولم تخرج معهم، إذاً هذا يظهر منه أنه قراءة الفتح أي: (فأسر بأهلك إلا امرأتَك) لا تسر بها، لا تأخذها معك، وجاء في آية أخرى: ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ﴾ [الحجر: ٦٥]، ولم يذكر المرأة، فدل على أن المرأة لم تخرج أصلاً مع لوط، بل بقيت مع قومها لما أراد أن يهاجر من البلد قالت: لا أريد أن أخرج



معك، وهذا أيضاً من خيانتها له؛ لأنها على دين قومها قبحها الله.

قال الله عز وجل: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا﴾ [هود: ٨٢] أي: بعد أن خرج لوط، وخرج معه أهله، وهنّ بناته، قال الله ـ جل وعلا ـ: ﴿جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾ [هود: ٨٢]، ولذلك سمّيت المؤتفكة، التي قُلبت رأساً على عقب، قال: ﴿جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ [هود: ٨٢]، والسجيل هو الحديد الشديد، ﴿مَّنضُودٍ﴾ [هود: ٨٢] حجارة وراء حجارة، حجارة وراء حجارة، ﴿مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ﴾ [هود: ٨٣] على كل حجر اسم رجل منهم.

قال الله ـ جل وعلا ـ: ﴿وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٣].

كيف فعل الله بهم؟

قيل: إن جبريل ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ رفع القرية كلها عن وجه الأرض بجناحه حتى بلغ بها السماء الدنيا، وسمع أهل السماء الدنيا نباح الكلاب، وصياح الدِّيَكَة، ثم قلبها، ثم جاءتها الحجارة، ولذلك قال ـ جل وعلا ـ: ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ۝٥٣﴾ [النجم] أي: رفعها ثم أهوى بها إلى الأرض، وقوله ـ جل وعلا ـ: ﴿وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٣] ما المقصود بـ﴿هِىَ﴾؟

المعنى الأول: أي: أن هذه الفعلة بقوم لوط ليست ببعيدة على مَنْ يفعل مثل فعلهم؛ لنفعلن بهم كما فُعل بقوم لوط.

المعنى الثاني: أي: القرية من الظالمين ببعيد، كما قال الله ـ جل وعلا ـ: ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُوا۟ يَرَوْنَهَا ۚ﴾ [الفرقان: ٤٠] يعني: هذه القرية ليست بعيدة من الظالمين، بل يرونها ويعرفونها ويعرفون ماذا حل بأهلها.



حكم تسمية فعلهم الخبيث باللواط:

هل يجوز أن نقول: إن ما فعله قوم لوط «لواطاً»، كما يسميه كثير من الناس؟

الصحيح أن هذه التسمية خطأ، وقد كان شيخنا أبو عبد الله محمد بن صالح العثيمين ـ رحمه الله تعالى ـ يُنكر هذه التسمية، ويقول: من الخطأ أن نسميه لواطاً، بل نسميه كما سماه الله تبارك وتعالى، ونقول: «عمل قوم لوط» وكما سماه النبي ﷺ، أما أن تنسب إلى لوط فهذا خطأ، خطأ من حيث اللغة، وخطأ من حيث الشرع، بل وخطأ من حيث العقل:

أما خطؤها من حيث اللغة: لأن اللواط في اللغة الإصلاح، لاط يلوط لوطاً؛ أي: أصلح الشيء ولذلك أخبر النبي ﷺ أن الساعة عندما تقوم، أول من يُصعق رجلٌ كان يلوط حوضه[1]؛ أي: يصلح حوضه.

ثم كذلك اسم لوط اسم طيب؛ أي: المصلح، وعندما نقول هذا لوطي أو هذا يلوط أو هذا لواط، هذا مثل تسمية الخمر مشروبات روحية، أو الربا فائدة، بل اللواط الإصلاح، واللوطي المصلح.

وأما الخطأ من حيث الشرع: لأنه يُنسب هذا إلى لوط، ولوط بريء من ذلك، بل هو الذي كان ينهى عن هذه الفعلة الشنيعة، فصارت تنسب إليه!!

وأما الخطأ من حيث العقل: أنت الآن هل تأنف أن يقال لك: «محمدي»، لا تأنف، بالعكس تفرح أن يقال لك: محمدي أي: أنك تابع لمحمد صلوات الله وسلامه عليه، ولكن يأنف الكثير أن يقال له: «لوطي» أي: نسبة إلى لوط، أو نسبة إلى اللواط، بل نسبة إلى لوط كما يقال: عيسوي، وموسوي، وإبراهيمي.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٩٤٠).



فالصحيح أن تسمية هذا الفعل الشنيع لواطاً خطأ، بل جاء في الحديث: «**من رأيتموه يعمل عمل قوم لوط**»[١]، ولم يقل: من رأيتموه يلوط أو يلاط به، فهي خطأ من حيث اللغة، وخطأ من حيث الشرع، وخطأ من حيث العقل كذلك[٢].

انتشار الفواحش:

من نظر في واقع الناس اليوم يجد أن الليلة تُشبه البارحة، وقد انتشر هذا الفعل الآن في كثير من المجتمعات، ويذكر هؤلاء الشواذ جنسياً في إحصائياتهم أن عددهم يبلغ ستمئة مليون شخص، يفتخرون الآن على وجه الأرض بأنهم شواذ جنسياً ـ والعياذ بالله ـ، وهذه بعض الإحصائيات:

ـ ٦٤٪ من المصابين بمرض الإيدز هم من هؤلاء الشاذين جنسياً.

ـ ٦٠٪ من هؤلاء مصابون بأمراض جنسية أخرى كالهربس وغيره.

ـ متوسط أعمارهم مع أعمار غيرهم، هم أقل عمراً من غيرهم من الناس بخمس وعشرين سنة.

ـ متوسط وفياتهم في الخامسة والثلاثين.

ـ عدد الزيجات الرسمية بين رجل ورجل بلغت ألف زواج رسمي.

ـ وأما الذين يعيشون ذكر مع ذكر بدون ورقة فهم ثلاثة ملايين.

هذه انتكاسة بالفطرة لا شك، بل إن هذا الفعل تعافه حتى الحيوانات، وقد ذُكر أن الحيوانات لا يمكن أبداً أن ينزو ذكر على ذكر، وقد ذكر الجاحظ أنه لم يُعرف في الحيوانات أنه ينزو ذكر على ذكر إلا في الحمير والخنازير، فهي التي فيها ينزو الذكر على الذكر، أما في غيرها من الحيوانات فلا ينزو الذكر على الذكر.

(١) أخرجه أبو داود (٤٤٦٢)، والترمذي (١٤٥٦)، وابن ماجه (٢٥٦١).

(٢) انظر للأهمية: «معجم المناهي اللفظية» للشيخ بكر أبو زيد رحمه الله ص٤٧٦ ـ ٤٨٠.



حكم من وقع في هذه الفاحشة:

حكى شيخ الإسلام ابن تيمية الإجماع من الصحابة وغيرهم أن من فعل هذا الفعل يُقتل، وإن كانوا اختلفوا في صفة القتل:

فَنُقِلَ عن أبي بكر الصديق ﷺ أنه قال: يُرمى من شاهق، كما فُعِلَ بقوم لوط، رُفعت قريتهم ثم أُهوي بها.

وقال علي: يهدم عليه حائط.

وقال ابن عباس: يقتل بالحجارة، الفاعل والمفعول به رجماً، كما يفعل بالزناة[1].

ويقول ابن القيم رحمه الله تعالى: «وهذه الجريمة أشنع من الزنا؛ لأن وطء من لا يباح بأي صورة من الصور أشدُّ عند الله من وطء من يباح في بعض الصور»؛ لأن هذه الزانية قد تتوب ويتوب ويتزوجها ويجوز له أن يطأها، لكن بأي حال من الأحوال لا يجوز أبداً أن يطأ رجل رجلاً.

الدروس والعبر المستفادة من قصة لوط عليه السلام

أولاً: شناعة جريمة قوم لوط.

ثانياً: إذا انتكست الفطرة؛ فإنها ترى القبيح حسناً، وتصير الجريمة أمراً مألوفاً.

ثالثاً: صبر لوط صلوات الله وسلامه عليه، على قومه.

رابعاً: اللجوء إلى الله عندما قال: ﴿أَوْ ءَاوِيٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هود: ٨٠] إذا قلنا إن «أو» بمعنى «بل»، أي للإضراب.

---

(١) انظر كلام العلماء في حد من عمل عمل قوم لوط في: «الموسوعة الفقهية» (٢/ ١٣٠٢٩).



خامساً: سقوط الأخلاق سبب لنهاية المجتمعات كما قيل:

إنما الأمم الأخلاق ما بقيت   فإن هُمُ ذهبت أخلاقهم ذهبوا

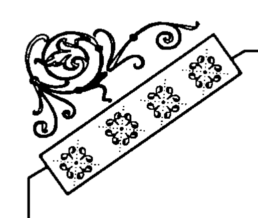
سادساً: أن قوم لوط لم يُسبقوا في هذه الفاحشة، فهم أول من أظهر هذه الفاحشة، قال الله ـ جل وعلا ـ: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾﴾ [العنكبوت].

سابعاً: كرم لوط، ورعايته لضيوفه، ومدافعته عنهم صلوات الله وسلامه عليه.

ثامناً: أن الزوجة لا شأن لها بزوجها إذا كانت على دين يخالف دينه، بل إن هذا لا يراعى عند الله تبارك وتعالى، بل الرعاية عند الله ـ جل وعلا ـ للمؤمنين.








قصة شعيب عليه السلام

أُرسل شعيب عليه السلام إلى مدين، والمشهور عند أهل التاريخ وأهل النسب أن مدين أحد أبناء إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه، وقوم شعيب من نسل هذا الرجل؛ أي: من نسل مدين بن إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه.

وذُكر نبي الله شعيب في كتاب الله تبارك وتعالى إحدى عشرة مرة، أُرسل إلى أهل مدين، في مكان يُقال له: معان، في الأردن، قريب جداً من قرية قوم لوط عليه السلام.

والمشهور في لقبه: أنه خطيب الأنبياء، وذلك لحسن مراجعته لقومه، وظهوره بحجته عليهم، ودحضه لشبهاتهم.

لم يذكر الله ـ جل وعلا ـ المعجزة التي أُرسل بها شُعيب، ولكن بيّن أنه أُرسل ببينة من ربه، كما أُرسل غيره من الأنبياء، ولكن كما ذكرنا غير مرة أن القرآن الكريم ليس كتاب تاريخ بحيث يذكر لنا كل نبي، ومعجزته، وأولاده، وزوجته، وبلده، وغير ذلك، ولكنه كتاب هداية وبيان، وهو يوضح لنا أن شعيباً نبيٌ، وأنه أُرسل إلى قومه، ودعاهم إلى الله كما دعا غيره من الأنبياء، وأن هناك من تابعه، وهناك من صدَّ عنه، وكفَر به، ثم كيف أظهر الله تبارك وتعالى الحقَّ، وأبطل الباطل، فيَعْتَبر الناس من ذلك، هذا هو المقصود من ذكر قصص الأنبياء؛ ليعتبر من يعتبر، وليتسلى المؤمنون بهذا الأمر، وليعلموا علم اليقين أن العاقبة للتقوى.



شعيب عليه السلام يدعو قومه وينصح لهم:

أُرسل نبي الله شعيب ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ إلى أهل مدين، وقد اشتهروا بأنهم:

أولاً: كفروا بالله ـ جل وعلا ـ.

ثانياً: يقطعون السبيل.

ثالثاً: يبخسون المكيال والميزان.

أما كفرهم: فالمشهور أنهم كانوا يعبدون شجرةً يُقال لها: الأيكة، قال الله تبارك وتعالى: ﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [الشعراء]، والأيكة نوع من أنواع الشجر، يسجدون له، ويسألونه من دون الله ـ جل وعلا ـ.

ثم كذلك كانوا يقطعون السبيل على الناس ويأخذون أموالهم، وقيل: كانوا يأخذون العُشر من الناس، كلما مر رجل بتجارة قالوا له: ما تمرُّ من عندنا حتى تدع شيئاً من أموالك، وهي ما يُسمى الآن بالجمارك، وكانوا يطففون في الكيل، قال الله ـ جل وعلا ـ: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾﴾ [المطففين]، فإن كان الكيل لهم أخذوا الزيادة، وإن كان عليهم أنقصوا.

وكانوا يُفسدون في الأرض بشتى أنواع الفساد كما أطلق الله ـ جل وعلا ـ، وكانوا يصدون عن سبيل الله، قال الله ـ جل وعلا ـ: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ﴾ [الأعراف: ٨٥]، وقال لهم كذلك: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا۟ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ﴾ [الأعراف: ٨٦]، حذرهم نبي الله شعيب من كل هذه الأفعال



المشينة، ثم قال لهم: ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾﴾ [هود]، قال أهل العلم في تفسير (بقية الله) أي: ما فَضُلَ من الربح ـ ولو كان قليلاً ـ خيرٌ من الربح الكثير إذا كان في حرام، قال الله ـ جل وعلا ـ: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ﴾ [المائدة: ١٠٠]، فالمال الحلال ـ ولو كان قليلاً ـ هو خيرٌ وأبقى عند الله ـ جل وعلا ـ من المال الحرام ولو كان كثيراً، قال الله ـ جل وعلا ـ: ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ [البقرة: ٢٧٦].

دعوة جميع الأنبياء إلى التوحيد وطريقتهم في ذلك:

دعوة شعيب ليست غريبة وإنما هي دعوة سائر الأنبياء، الدعوة إلى توحيد الله ـ جل وعلا ـ ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ [آل عمران: ١٩]، ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥] كل الأنبياء إنما جاؤوا لتحقيق هذه القضية العظيمة، أن يعبد الله ﷻ وحده قال ـ جل وعلا ـ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء] هذه دعوة جميع رسل الله صلوات الله وسلامه عليهم، بل لأجلها قامت السماوات والأرض، ولأجلها كانت الجنة والنار، ولأجلها خلق الله العالمين ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات].

طرق شعيب في دعوته:

أولاً: الدعوة بالحسنى كما قال عنه ـ جل وعلا ـ: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ [هود: ٨٨].

ثانياً: القدوة الحسنة في الدعوة إلى الله ـ جل وعلا ـ فقال: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ﴾ [هود: ٨٨] وهكذا يجب على الداعي إلى الله ـ جل وعلا ـ أن يكون قدوة، ما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم



عنه، ما أنهاكم عن شيء ثم آتيه ولا آمركم بشيء ثم أتركه، بل أنا ملتزم بما أدعوكم إليه.

ثالثاً: الترغيب والتذكير بنعم الله ـ جل وعلا ـ فقال: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ﴾ [الأعراف: ٨٦] فرغبهم في حسن عطاء الله لهم تبارك وتعالى، كنتم قليلاً فكثركم تبارك وتعالى.

رابعاً: استخدم الترهيب، فقال لهم: ﴿وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾﴾ [هود].

خامساً: دعاهم كذلك إلى أصلين عظيمين:

الأصل الأول: عبادة الله ـ جل وعلا ـ.

الأصل الثاني: الوفاء بالحقوق، وعدم ظلم الناس، وعدم أخذ أموالهم بالباطل.

سادساً: بيّن لهم أنه لا يريد أجراً على هذه الدعوة أبداً ﴿وَمَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٩﴾﴾ [الشعراء].

سابعاً: بيّن لهم شرف مقصده صلوات الله وسلامه عليه فقال: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُۚ﴾ [هود: ٨٨] لا أريد مُلكاً، ولا مالاً، ولا جاهاً ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُۚ﴾ و«إن» هنا نافية بمعنى «ما».

وقوله صلوات الله وسلامه عليه: ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٩] ماذا يقصد بهذا؟ قال أهل العلم بالتفسير: وما قوم لوط منكم ببعيد من حيث المكان، معان قريبة من سديم «بلد لوط»، وقيل: من حيث الزمان، ولذلك في كتاب الله ـ جل وعلا ـ في سورة هود والشعراء والحجر، وغيرها بعدما يذكر الله تبارك وتعالى قصة قوم لوط يذكر بعدها مباشرة قصة مدين، إذاً هم ليسوا بعيدين بالمكان وليسوا بعيدين كذلك بالزمان، فهم قريبون مكاناً وقريبون زماناً ثم كذلك هم قريبون من حيث



الصفات والأفعال والإجرام والإفساد، ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾ وكيف صنع الله بهم، فأنتم ماشون على جادتهم وعلى طريقتهم فسيصيبكم مثل ما أصابهم.

قوم شعيب عليه السلام يردون دعوته بالسخرية والتكذيب:

وجاء الجواب من قومه: ﴿قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ﴾ [هود: ٩١] مع أنه خطيب الأنبياء، أوتي من الفصاحة والبلاغة وإقامة الحجة ورد الشبهات الشيء العظيم، ومع هذا يقول له قومه: ﴿مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ﴾، وهذا زور وبهتان منهم على نبي الله شعيب صلوات الله وسلامه عليه، وهو قريب مما قاله كفار مكة لرسول الله ﷺ: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ [فصلت: ٥] وقال لهم نبي الله شعيب صلوات الله وسلامه عليه: ﴿وَإِن كَانَ طَآئِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُواْ بِٱلَّذِىٓ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَطَآئِفَةٌ لَّمْ يُؤْمِنُواْ﴾ [الأعراف: ٨٧] إذاً هما طائفتان، طائفة آمنت بشعيب صلوات الله وسلامه عليه وطائفة أخرى لم تؤمن قال: ﴿فَٱصْبِرُواْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ بَيْنَنَا ۚ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٧] وهذا هو المطلوب، الصبر حتى يحكم الله، هذه دعوة شعيب لقومه صلوات الله وسلامه عليه فلننظر كيف كان رد قومه عليه:

أولاً: السخرية والاستهزاء، قالوا له: ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ [هود: ٨٧] يستهزئون، ويسخرون منه، صلوات الله وسلامه عليه، ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ﴾ نترك الأيكة التي كان يعبدها آباؤنا، أصلاتك تأمرك بهذا، أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء، أتمنعنا من أكل أموال الناس بالباطل، أتمنعنا من البخس، أتمنعنا من المكوس، أتمنعنا من السرقة؟! دعنا نفعل في أموالنا ما نشاء، ثم قالوا له كلمة: ﴿إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ﴾ [هود: ٨٧] يريدون السخرية منه صلوات الله وسلامه عليه.



ثانياً: **التهديد بالنفي والرجم**: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾ [الأعراف: ٨٨] وقالوا له كذلك: ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ﴾ [هود: ٩١].

ثالثاً: **اتهموه بالسحر**، فقالوا: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ﴾ [الشعراء: ١٥٣].

رابعاً: **الكذب**، فقالوا: ﴿وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [الشعراء: ١٨٦]، ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾﴾ [الشعراء].

سادساً: **حاولوا صد الناس عنه**، قالوا: ﴿لَئِنِ ٱتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٠].

وفي قولهم: ﴿وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ﴾ [هود: ٩١] تحتاج إلى وقفة؛ لأن معنى هذا أن رهط شعيب كانوا سينصرونه فيما لو أراد الكفار أن يضروه، وهذا كما وقع من رهط النبي محمد ﷺ إذ كانوا ينصرونه ويدفعون عنه، وكان أبو طالب يدافع عن النبي ﷺ أشد الدفاع بل لما مات أبو طالب تعرض النبي ﷺ للأذى من قريش أكثر مما كان يتعرض له زمن أبي طالب كانت قريش تذهب لأبي طالب وتقول له: امنع ابن أخيك، وكان يقول لمحمد ﷺ:

والله لن يصلوا إليك بجمعهم ... حتى أُوَسَّدَ في التراب دفيناً

أدفع عنك وإن كنت لست على ديني ولكني أدفع عنك حمية، يحامي عن النبي ﷺ ولما خرج النبي ﷺ ومن معه من المؤمنين إلى شعب أبي طالب ثلاث سنوات؛ خرج معه الكفار من بني هاشم والكفار من بني المطلب، عدا عم النبي ﷺ أبي لهب، هذه العصبية القبلية قد تنفع، وقد تكون طيبة ويستفيد منها المؤمن، ولكن لا يجوز أبداً أن ينادى بها وأن يقدم الكافر القريب في النسب على المؤمن البعيد في النسب، فتلك كما قيل: قرابة طين، وقرابة المؤمن للمؤمن: قرابة دين.



ولقد قال لهم نبي الله شعيب وهو يدعوهم إلى الله - جل وعلا -: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ﴾ [هود: ٨٨] الداعي إلى الله - جل وعلا - يكون قدوة، بل هذه هي صفات الأنبياء والمرسلين وعكسها تماماً صفات الكافرين والمنافقين، قال نوح صلوات الله وسلامه عليه: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ﴾ [هود: ٨٨] وقال الله لمحمد ﷺ: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ [طه: ١٣٢] هذه صفات المتقين، وصفات الأنبياء، وأما أعداؤهم وأعداء الصالحين فقال الله لهم: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَٰبَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [البقرة] وقال الله - جل وعلا -: ﴿يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾﴾ [الصف] وقال النبي ﷺ: «**يؤتى بالرجل فيلقى في النار فتندلق أقتاب بطنه فيحملها ويدور بها كما يدور الحمار بالرحى، فيجتمع إليه أهل النار فيقولون: يا فلان ألم تكن تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر قال: بلى، ولكني كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه، وكنتم أنهاكم عن المنكر وآتيه**»[١] وذُكر أن رجلاً جاء إلى عبد الله بن العباس رضي الله عنهما فقال: إني أريد أن أُذكِّر الناس فقال له عبد الله بن عباس: إذا لم تخش أن تُفتضح بثلاث آيات فافعل وهي: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٤٤]، ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ﴾ [هود: ٨٨]، ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾﴾ [الصف][٢].

وقد قيل:

يا واعظ الناس عما أنت فاعله ... يا من يُعد عليه العمر بالنفس

احفظ لشيبك من عيب يدنسه ... إن البياض قليل الحمل للدنس

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢٦٧)، ومسلم (٢٩٨٩) من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنه.

(٢) «تفسير ابن كثير» (١/ ٢٤٩).



كحامل لثياب الناس يغسلها وثوبه غارق في الرجس والنجس
تبغي النجاة ولم تسلك طريقتها إن السفينة لا تجري على اليبس

تهديد ووعيد:

قال الله تعالى على لسان قوم شعيب: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾ [الأعراف: ٨٨] ابتلاء، نخرجكم من قريتنا أو تعودون في ملتنا.

وهنا قولهم: ﴿لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا﴾ [الأعراف: ٨٨] لا يعني أبداً أن شعيباً كان كافراً يوماً من الأيام أبداً، بل إن الله ـ جل وعلا ـ أعلم حيث يجعل رسالته، وما كان نبي من الأنبياء كافراً قط في يوم من الأيام، ولكنهم يريدون مَنْ مع شعيب ممن آمن.

قال لهم شعيب: ﴿أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ۝٨٨ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا﴾ [الأعراف: ٨٨، ٨٩] ويتكلم هنا بلسان قومه الذين آمنوا به، وذلك أن الإيمان إذا خالطت بشاشته القلوب فإنه لا يخرج منها أبداً، ولذلك قال النبي ﷺ لخباب: «**قد كان فيمن كان قبلكم يؤتى بالرجل فيُنشر بالمنشار نصفين من مفرق رأسه إلى أخمص قدميه لا يرده ذلك عن دينه أبداً**»[1]، وقال هرقل لأبي سفيان: «وكذلك الإيمان إذا خالطت بشاشته القلوب فإنه لا يخرج منها أبداً»[2]، عبد الله بن حذافة لما طلب منه قيصر أن يترك دينه ويعطيه نصف ملكه أبى وقتل أمام عينيه بعض أصحابه فأبى أن يرجع عن دينه فلما أخذوه ليقتلوه دمعت عينه فقال قيصر: ردوه لعله يريد أن يكفر، فقال: ما لك بكيت؟ قال بكيت أنه لا نفس لي إلا واحدة وتموت وينتهي الأمر، وقد تمنيت أن لو تكون أكثر من نفس كلها تموت في سبيل الله ـ جل وعلا ـ.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦١٢) من حديث خباب بن الأرت رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري (٧)، ومسلم (١٧٧٣) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.



شعيب يطلب النصر من الله:

قال شعيب عليه السلام: ﴿وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ﴾ [الأعراف: ٨٩] أي: انصرنا على قومنا، افصل بين الحق والباطل، قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾﴾ [الشعراء]، وقال: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴿٩٤﴾﴾ [هود]، فهلك قوم شعيب، وبعد هلاكهم مرَّ عليهم شعيب، خاطبهم وهم أموات كما خاطب النبي ﷺ أهلَ قليبِ بدر، وقال: «**هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً، فإنا قد وجدنا ما وعد ربنا حقاً**»(١)، فقال شعيب: ﴿يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ [الأعراف: ٩٣].

صنوف العذاب على أهل مدين:

ذكر الله ـ جل وعلا ـ أنه عذبهم بثلاثة أنواع:

النوع الأول: الرجفة.

النوع الثاني: الصيحة.

النوع الثالث: عذاب يوم الظلة.

قال الله تبارك وتعالى عن الرجفة: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٧].

وقال عن الصيحة: ﴿وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ﴾ [هود: ٩٤].

وقال عن عذاب يوم الظلة: ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ﴾ [الشعراء: ١٨٩]. قال الحافظ ابن كثير رحمه الله: «أصابهم حرٌّ شديد، وأسكن الله

---

(١) أخرجه البخاري (٣٩٧٦)، ومسلم (٢٨٧٥) من حديث أنس رضي الله عنه.



هبوب الهواء عنهم سبعة أيام، فكان لا ينفعهم مع ذلك ماء ولا ظل، ولا دخولهم في الأسراب، فهربوا من محلتهم إلى البرية، فأظلتهم سحابة، فاجتمعوا تحتها ليستظلوا بظلها، فلما تكاملوا فيه؛ أرسلها الله ترميهم بشرر وشهب، ورجفت بهم الأرض، وجاءتهم صيحة من السماء، فأزهقت الأرواح، وخربت الأشباح»(١).

وهذه سنة الله ـ جل وعلا ـ مع أنبيائه وأتباعهم وأعدائهم، وذلك أن الله ـ جل وعلا ـ ذكر أن أنبياءه ينقسمون إلى قسمين في دعوتهم أقوامهم:

قسم من الأنبياء من يأمرهم الله بالجهاد ضد الطغاة، وهؤلاء ينصرهم الله في معاركهم ويهزم أعداءهم، كما قال ـ جل وعلا ـ: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾﴾ [آل عمران] وقال ـ جل وعلا ـ: ﴿وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة] وقال ـ جل وعلا ـ: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الصافات]، ولنا في سيرة نبينا محمد ﷺ أعظم العبرة في هذا الأمر.

القسم الثاني: الذين لم يؤمروا بقتال الأعداء من الكفار، بل أُمروا بالصبر والصفح، وهذا القسم ينصره الله ـ جل وعلا ـ بهلاك عدوه كما فعل الله تبارك وتعالى مع نوح، وهود، وصالح، ولوط، وشعيب، وغيرهم، فإن الله تبارك وتعالى ينزل العذاب العام على أقوامهم.

وليس نبي الله شعيب هو صاحب موسى ـ كما يظن البعض ـ الذي

---

(١) «البداية والنهاية» (١/٢١٩).



زوّجه ابنته؛ لأن بين شعيب وموسى مئات السنين، إن لم تكن آلاف، فالمشهور أن شعيباً عليه السلام بعد لوط مباشرة، قريب وقته من وقت لوط عليه السلام.

واشتهر عند الناس كثيراً: «عسى عمرك عمر شعيب النبي»، والمشهور أن نوحاً صلوات الله وسلامه عليه هو الذي كان ذا عمر طويل، أما شعيب فلم يُذكر شيء من ذلك.

الدروس والعبر المستفادة من قصة شعيب عليه السلام

أولاً: أن الصبر والإيمان عاقبته النصر والنجاة كما فعل الله بشعيب ومن آمن معه.

ثانياً: مدة الظالم في الأرض قصيرة ـ وإن طالت فيما يظهر للناس ـ لكنها في النهاية قصيرة جداً.

ثالثاً: مِلَّةُ الكفر واحدة، فلو نظرنا إلى ردِّ قوم شعيب عليه، ثم إلى رد قوم لوط عليه، وقوم صالح، وقوم هود، وقوم نوح، وهكذا؛ لوجدنا أن ملةَ الكفر واحدة في ردها على أنبياء الله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

رابعاً: أن المعصية التي تقع من الإنسان، والتي لا يكون لها مبرر ولا داعي لها في نفسه أشدَّ عقوبة عند الله ـ جل وعلا ـ، وأشد جرماً، ولذلك قال النبي ﷺ: «**ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا ينظر إليهم، ولا يزكيهم، ولهم عذاب عظيم، قال: ملكٌ كذاب، وعائل مستكبر، وشيخٌ زانٍ**»[1]، فالملك لا يحتاج إلى الكذب، والغني المستكبر له دافع، والناس تريد رضاه، فيدفعه هذا إلى الكبر، أما الفقير لا دافع له،

(١) تقدم تخريجه ص٢٠٥.



والشاب يزني؛ لأن عنده شهوة، أما الشيخ؛ فإما أنه ذاق الحلال أو ضعفت شهوته، ولذلك كان عذاب هؤلاء الثلاثة أشد من عذاب غيرهم.

وكذلك قوم شعيب: أغنياء ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيۡرٖ﴾ [هود: ٨٤]، ومع هذا يأخذون أموال الناس بالباطل، فصار عقابهم أشدَّ من عقاب غيرهم؛ لأنه لا داعي لأكل أموال الناس بالباطل كما فعلوا.

خامساً: أن الصلاة تنهى عن الفحشاء ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأۡمُرُكَ أَن نَّتۡرُكَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوۡ أَن نَّفۡعَلَ فِيٓ أَمۡوَٰلِنَا مَا نَشَـٰٓؤُاْۖ﴾ [هود: ٨٧] إذاً صلاته هي التي أمرته بهذا ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

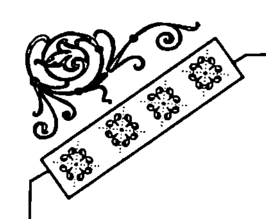
سادساً: الداعية إلى الله يجب أن يكون قدوة، وهذا عمر رضي الله عنه لما كانت سنة المجاعة في زمنه؛ منع أهله، وقال: لا والله، لا يذوق أهل عمر الطعام حتى يذوقه الناس، ولا يأكل أهل عمر اللحم حتى يأكله الناس، حتى قيل: إنه صار في وجهه لون سواد من كثرة ما يأكل الزيت مع الخبز.

سابعاً: الأنبياء جميعاً بُعثوا للصلاح والإصلاح، إصلاح المجتمعات، وإصلاح ما بينهم وبين الله وإصلاح ما بينهم وبين الناس.

وأخيراً: من يدعو إلى الله تبارك وتعالى يحتاج أن يكون حليماً حسنَ الخلق مع قومه كما كان أمر شعيب صلوات الله وسلامه عليه.








قصة أيوب عليه السلام

حديثنا في هذا المقام عن قدوة الصابرين، نبي الله أيوب صلوات الله وسلامه عليه الذي صار مضرب المثل في الصبر، حتى إذا بلغ الصبر بالإنسان مبلغه؛ قال: يا صبر أيوب، يعني اللهم أعطني صبر أيوب.

وأيوب عليه السلام من ذرية إبراهيم على الصحيح، وعلى المشهور هو من ذرية العيص بن إسحاق بن إبراهيم.

قال الله ـ جل وعلا ـ عن إبراهيم عليه السلام: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَـٰرُونَ﴾ [الأنعام: ٨٤].

ورَدَ ذكره في القرآن أربع مرات، والصحيح المشهور أنه نبي، قال الله ـ جل وعلا ـ: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ﴾ [النساء: ١٦٣] ولم يذكر الله تبارك وتعالى رسالته، ولا بُعث إلى مَنْ، ولا ذكر دعوته لقومه، ولا ذكر ردَّهم عليه، ولذلك ذهب بعض أهل العلم إلى أن أيوب ليس بنبي، ولكنه رجل صالح كلقمان، وذي القرنين، وغيرهما من الصالحين الذين ذكرهم الله ـ جل وعلا ـ من بني إسرائيل، أو ذكرهم النبي ﷺ، وأياً كان الأمر؛ فالمشهور أنه نبي، ونحن نذكر قصته صلوات الله وسلامه عليه.

ابتلاء الله عز وجل لأيوب عليه السلام:

كان في أرض حوران في الشام، ويقترن اسمه بالصبر؛ لأنه كان



أشد الأنبياء بلاءً في جسده صلوات الله وسلامه عليه، ذُكر عن أيوب أنه كان كثير المال من جميع أصنافه، من أراضٍ، ومزارع، وأنعام، وذهب، وفضة، وغيرها.

وله كذلك أولاد كُثُر، وأهلون كُثُر، فسَلَبه الله ـ جل وعلا ـ جميع ذلك، هذا هو **الأمر الأول**.

الأمر الثاني: أنه ابتُلي في جسده بأنواع البلاء، حتى قيل: إنه لم يبقَ من جسده مما لم يُصب إلا لسانه، وقلبه.

الأمر الثالث: طال بلاؤه جداً.

الأمر الرابع: ملّ الناس زيارته لطول البلاء، وقيل: لخشية العدوى منه، ونحن نلاحظ أن بعض الناس إذا دخل إلى المستشفى أو مَرِضَ؛ يزوره الناس أول جمعتين، أو أول شهر، ثم بعد ذلك يملُّ الناس من زيارته، ثم يصير الطيب من الناس من يذكره في كل شهر مرة، ثم بعد ذلك ينساه الناس تماماً؛ لأن الناس يملون، فما يبقى معه إلا مَنْ يحبه، وأيوب هجره جميع الناس، ما بقي معه إلا امرأته، وهذه لا شك مصائب يصيب الله بها العباد، ولكن هذه المصائب في نظر العاقل المتدبر هي نعمٌ لمن صبر واحتسب؛ لأنها أجر يقدمه الإنسان لنفسه يوم القيامة، وهي كالدواء المُر يشربه المريض، ولكن في النهاية عاقبته إلى خير.

اختلف أهل السير والتاريخ في مدة بلائه، فقيل استمر بلاؤه ثلاث سنين، وقيل استمر سبع سنين، وقيل استمر ثمان عشرة سنة، وكل هذه الأقوال لا دليل عليها، لا من كتاب، ولا من سنة، وإذا لم يكن ثمة خبر من الله ـ جل وعلا ـ أو من نبيه ﷺ، فكل ما بقي رجمٌ بالغيب، لكننا نعلم علم اليقين أنه ابتلي.



صبر أيوب عليه السلام:

ومع هذا الابتلاء ظلَّ أيوب عليه السلام صابراً محتسباً للأجر عند الله تبارك وتعالى، ويكثر من ذكر الله ـ جل وعلا ـ ليله ونهاره، لم يفتُرْ لسانه ولا قلبه عن ذكر الله ـ جل وعلا ـ، وهو كما قال النبي ﷺ: «**أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الصالحون، ثم الأمثل فالأمثل، يُبتلى المرء على قدر دينه، فإن كان في دينه صلابة شُدِّدَ عليه في البلاء**»[1]، إذاً الابتلاءات هذه لا تدل على أن الله لا يحب هذا الإنسان، بل لعل العكس هو الصحيح، وذلك أنه جاء في الحديث عن النبي ﷺ: «**من يرد الله به خيراً يُصب منه**»[2]؛ أي: يبتليه ﷻ، كالذهب يعرض على النار، فتنقي النار هذا الذهب من الشوائب حتى يصير بعد ذلك خالصاً من هذه الشوائب التي كانت عالقة فيه.

وظلَّت امرأة أيوب عليه السلام صابرةً محتسبةً معه، وقامت بحقِّ زوجها خيرَ قيام مع طول المدة، وشدة البلاء إلا أن أيوب عليه السلام لم يسأل ربَّه كشف ذلك الضر، وهذا جائز، فيجوز للإنسان أن يصبر ويحتسب الأجر، ويجوز له أن يدعو الله ـ جل وعلا ـ فيُذهب عنه ما يجد، وذُكر أنه قال: عشتُ سبعين سنة صحيحاً، فهل قليل علي أن أصبر سبعين سنة؟

وقد جاء عن عمران بن حصين الصحابي رضي الله عنه أنه جلس في فراشه ثمان عشرة سنة، فقيل له: ألا تدعو الله أن يشفيك، قال: حتى تتم سنوات عافيتي مع سنوات مرضي، ولكن هل استمرَّ أيوب ولم يدعُ الله ـ جل وعلا ـ؟

---

(١) تقدم تخريجه ص٢١٤.

(٢) أخرجه البخاري (٥٦٤٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.



أيوب عليه السلام يرفع يديه بالدعاء بعد صبر طويل:

ضعُفَ حال امرأته، وقلَّ كسب يدها، وما كانت تجد من يُنفق عليها، كانت تعمل لتطعم نفسها وتأتي لتطعم أيوب صلوات الله وسلامه عليه، حتى ملَّها الناس، بل خافوا منها أن تعديهم لكثرة ترددها على هذا المريض أيوب صلوات الله وسلامه عليه، فلم تجد بُداً من أن تبيع شعرها، وقالوا: كان لها شعرٌ حسنٌ فباعتْ ضفيرتيها لبعض نساء الأشراف في تلك البلاد، وأخذت المال واشترتْ به طعاماً لها ولزوجها.

جاءت أيوب ومعها طعام حسن لا كما كانت تأتيه في كل يوم، فشك في أمرها وحلف لا يأكل من هذا الطعام حتى تخبره من أين أتت به، فكشفت عن رأسها وأرتْه أنها باعت ضفيرتيها، فلما رآها؛ رفع رأسه إلى السماء، وقال: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٣] دعا الله ـ جل وعلا ـ، قلنا: لم يصبر، لا أنه لم يصبر لشدة الألم، ولكن لِمَا رأى من حال زوجته، فقال: ﴿مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾ أي: في أهلي، وفي هذا أن الإنسان إذا ضاقتْ به الدنيا أنه لا ملجأ ولا منجا إلا إلى الله تبارك وتعالى، فلجأ هذا العبد التقي إلى ربه تبارك وتعالى، وكما قال الله ـ جل وعلا ـ: ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُم بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ وَٱلۡجُوعِ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٥ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ١٥٧﴾ [البقرة]، ولو طبقنا هذه الآية لوجدناها على أيوب مطابقة تماماً.

وقيل: إنه سبب آخر، قام رجلان قريبان من أيوب، كانا يترددان عليه، فقال أحدهما: لو كان الله علم من أيوب خيراً؛ ما ابتلاه بهذا، فجزع أيوب من قولهما جزعاً لم يجزع مثله، وخرَّ لله ساجداً، وقال: اللهم بعزتك لا أرفع رأسي أبداً حتى تكشف عني، فما رفع رأسه حتى



كشف الله عنه ما يجد، جاء في هذا حديث مرفوع عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن نبي الله أيوب لبث به بلاؤه ثماني عشرة...، فرفضه القريب والبعيد إلا رجلين من إخوانه كانا من أخص إخوانه له، كانا يغدوان له ويروحان، فقال أحدهما لصاحبه: نعلم والله لقد أذنب أيوب ذنباً ما أذنبه أحد من العالمين، فقال له صاحبه: وما ذاك؟ قال: منذ ثمان عشرة سنة لم يرحمه ربُّه فيكشف عنه، فلما دخلا على أيوب صلوات الله وسلامه عليه لم يصبر الرجل حتى ذكر له ذلك، قال أيوب: لا أدري ما تقول غير أن الله عز وجل يعلم أني كنت أمر على الرجلين يتنازعان، فيذكران الله ـ هذا يحلف وهذا يحلف ـ فأرجع إلى بيتي، فأكفر عنهما كراهية أن يذكر الله إلا في حق»**[1].

قال النبي ﷺ: **«وكان يخرج في حاجته فإذا قضاها؛ أمسكتْ امرأته بيده، حتى يرجع، فلما كان ذات يوم أبطأت عليه، وأوحى الله إلى أيوب** في مكانه: ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾﴾ [ص]» أي: اضرب برجلك الأرض، **«فضرب برجله الأرض، فنبعت عين، قال: ﴿هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ فاستبطأته، فتلقته تنظر، وأقبل عليها، وقد أذهب الله ما به من البلاء، وهو على أحسن ما كان، فلما رأته قالت: بارك الله فيك، هل رأيت نبي الله هذا المبتلى، فوالله القدير على ذلك؛ ما رأيت رجلاً أشبه به منك إذ كان صحيحاً، قال: فإني أنا هو، أنا نبي الله المبتلى»**.

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله: «رفع هذا الحديث غريب جداً»[2].

والأشبه أن يكون موقوفاً، يعني من روايات بني إسرائيل، وليس من قول النبي ﷺ.

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره (٢١/ ٢١١)، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٧).

(٢) «تفسير ابن كثير» (٥/ ٣٦٢).



حقيقة مرض أيوب عليه السلام:

نسب الناس إلى أيوب أشياء كثيرة، قالوا ـ كما يوجد في بعض الكتب ـ: إنه مرض حتى عافه الناس لقذارته ونتنه، وقالوا: كان الدود في جسده كثيراً حتى إنه خرجت دودة وسقطت في الأرض، فأخذها ووضعها في جسده مرة ثانية.

وقيل: إنه لما أنتنت رائحته من كثرة ما أنتن من لحمه أن قومه أخذوه وألقوه في الزبالة.

وقيل: تساقط لحمه كله حتى لم يبق إلا العظم والعصب.

وكل هذه ترّهات لا يجوز أن تقبل، على الحالين؛ إذا قلنا: إنه نبي، وإذا قلنا: إنه رجل صالح، فمثل هذا كيف يقبل الناس دعوته، والذي نؤمن به ونصدقه أن الله ابتلى أيوب عليه السلام بمرض شديد، وبفقد أمواله، وطالت مدة مرضه، ولكن لا يتصور أبداً أن يكون نبي يبلغ به هذا الحال أن يكون قذراً مستقذراً، هذا لا يمكن أن يصدق، إلا إذا قيل: إن هذا كان قبل النبوة، ولا حاجة لنا لهذا الاحتمال؛ لأن هذه الروايات لو كانت في القرآن أو عن النبي ﷺ لقلنا: على العين والرأس، لكن لما كانت من روايات بني إسرائيل؛ فتضرب بعرض الحائط، ولا كرامة.

يقول القاضي أبو بكر بن العربي رحمه الله: «لم يصح عن أيوب في أمره إلا ما أخبرنا الله عنه في كتابه في آيتين:

الأولى: قول الله ـ جل وعلا ـ: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾ [الأنبياء: ٨٣].

والثانية: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ [ص:٤١]، هذا الذي صح عن أيوب عليه السلام.

أما النبي ﷺ فلم يصح عنه أنه ذكره بحرف واحد، إلا قوله: «بينا



أيوب يغتسل إذ خرّ عليه رجل من جراد من ذهب»[(١)]، وإذا لم يصح فيه قرآن ولا سنة إلا ما ذكرناه؛ فمن الذي يوصل السامع إلى خبر أيوب، أم على أي لسان سمعه؟! والإسرائيليات مرفوضة عند العلماء على البتات، فأعرض عن سطورها بصرك، وأصمم عن سماعها آذانك فإنها لا تعطي فكرك إلا خيالاً، ولا تعطي فؤادك إلا خبالاً».

هذا ما ذكره القاضي أبو بكر العربي، ونِعْمَ ما قال رحمه الله ورضي عنه.

هل يعارض الدعاءُ الصبر؟

قال الله ـ جل وعلا ـ: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾﴾ [ص]، وقال الله ـ جل وعلا ـ: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ﴾ [الأنبياء: ٨٣].

هل هذا يتنافى مع قول الله ـ جل وعلا ـ في شأن أيوب: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٤٤] هل يتنافى هذا مع الصبر؟

والجواب: هو صابر مع ذكر هذه الآيات، لا تعارض أبداً؛ لأنه لا تعارض بين الدعاء والصبر، والدعاء لا ينافي الصبر، والذي ينافي الصبر الشكوى إلى الخلق، أما الذي يشتكي إلى الله، فهذا هو الصابر المحتسب.

وأيوب لم يشتكِ إلى الخلق، بل لجأ إلى الله ﷻ، وأيوب كان داعياً، ولم يكن شاكياً، بدليل أنه لما قال هذا الكلام؛ قال الله تعالى: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ﴾ [الأنبياء: ٧٦]، والاستجابة لا تكون إلا للدعاء، فهو دعا، ولم يشتكِ صلوات الله وسلامه عليه، بل إنه لما جمع في دعائه بين حقيقة التوحيد وإظهار الحاجة والفاقة إلى الله ـ جل وعلا ـ، بل والتوسل إليه بأسمائه وصفاته؛ استجاب الله ﷻ له.

(١) أخرجه البخاري (٢٧٩) من حديث أبي هريرة ﷺ.



هل الشيطان يمس بالشر؟

وهنا قوله: ﴿مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ﴾، ﴿مَسَّنِيَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ﴾ فهل الشيطان يمس بالشر أم أن الأمر كله بيد الله ـ جل وعلا ـ؟

والجواب: إن الأمر كله بيد الله ـ جل وعلا ـ، خلق الخير وخلق الشر، بل رأس الشر الشيطان، والذي خلقه هو الله تبارك وتعالى، هو النافع الضار تبارك وتعالى، ولكن هذا الكلام من أيوب صلوات الله وسلامه عليه جاء من باب الأدب مع الله ـ جل وعلا ـ كما جاء في دعاء النبي صلى الله عليه وسلم: «**والخير كله في يديك والشر ليس إليك**»[(١)]؛ أي: لا يُنسب إليه تبارك وتعالى.

قال الله ـ جل وعلا ـ عن إبراهيم: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾﴾ [الشعراء]، ولم يقل: وإذا أمرضني مع أن الذي أمرضه هو الله، والذي شفاه هو الله، ولكنه أدباً مع الله ـ جل وعلا ـ قال: ﴿مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾.

وقال تبارك وتعالى عن الخضر: ﴿وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾﴾ [الكهف]، فنسب الفعل إلى نفسه؛ لأن ظاهر الفعل شر، وهو قتل غلام، لكن لما جاء إلى الجدار قال: ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ﴾ [الكهف: ٨٢]، ولم يقل: فأردنا؛ لأنه خير محض، وهذا من حسن الأدب مع الله ـ جل وعلا ـ.

استجابة الله عز وجل لأيوب عليه السلام:

كان يخرج لحاجته مع امرأته وأنه في يوم من الأيام أبطأت عليه، فأوحى الله إليه أن ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ﴾ [ص: ٤٢] اضرب برجلك، ﴿هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ

(١) أخرجه مسلم (٧٧١) من حديث عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه.



بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ الذي نبع من الأرض هو مغتسل بارد، وهو أيضاً شراب، نبعتْ من الأرض عين، فلما اغتسل منها برأ ظاهره، ولما شرب منها برأ باطنه، فهما عينان، عين اغتسل منها وعين شرب منها صلوات الله وسلامه عليه.

بعد أن شافاه الله ـ جل وعلا ـ قال: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾﴾ [ص] في معناها ثلاثة أقوال:

القول الأول: رد الله عليه ماله وولده الذين ماتوا، أحياهم الله له مرة ثانية، ثم كثرهم.

القول الثاني: رد لزوجته شبابها.

القول الثالث: آجره الله فيمن بقي من أهله، وجمع بينه وبينهم في الآخرة.

قال الله ـ جل وعلا ـ: ﴿وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٤٣]، وقال في سورة الأنبياء: ﴿وَذِكْرَىٰ لِأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾، فالعابدون هم أولوا الألباب؛ أي: تذكرة لمن ابتلي فصبر؛ فإن له مثل ما لأيوب عليه السلام.

واحفظوا أيمانكم:

قال الله له بعد أن شفاه ورد عليه أهله: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾﴾ [ص]، ذُكر أن أيوب حلف ليضربنّ امرأته مئة سوط؛ لأنها باعت ضفائرها، أو أنها تأخرتْ عليه يوماً، فحلف ليضربنها، أو جاءها الشيطان، فقال لها: إن شفيتُ لك أيوب هل تقولين إني أنا شفيته؟ فقالت: أسأل أيوب، فسألته، فحلف ليضربنها، يعني كيف تقبلين مثل هذا الكلام، والشافي هو الله ـ جل وعلا ـ، وأياً كان فالله أعلم بالسبب الذي من أجله حلف أيوب صلوات الله وسلامه عليه.

وهذه كلها روايات بني إسرائيل، فلا تُصدَّق ولا تُكذَّب، ولكن الذي جاء في كتاب الله ـ جل وعلا ـ قوله تعالى: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ﴾ [ص: ٤٤]، الضغث قيل: هي أعواد النخيل يعني الجريد أو السعف الجاف.

وقيل: الضغث هو الحشيش الذي يَبُس، جمع مئة عود، فضرب بها زوجته ضربة واحدة، بدل أن يضربها مئة سوط، حتى لا يحنث في يمينه، وهو كما قال الله ـ جل وعلا ـ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق: ٢].

جراد من ذهب:

قال رسول الله ﷺ: «**بينما يغتسل أيوب عرياناً خرّ عليه رِجْل من جراد من ذهب**» أي: مجموعة من جراد من ذهب، فجعل يحثي في ثوبه، ناداه ربه فقال: «**يا أيوب ألم أكن أغنيتك عما ترى**» يعني: في القناعة التي جعلتها في قلبك، قال: «**بلى، ولكن لا غنى لي عن بركتك**»[1].

الدروس والعبر المستفادة من قصة أيوب عليه السلام

أولاً: قصة أيوب هي قصة الإيمان الكامل، والصبر الجميل.

ثانياً: كفارة اليمين لم تُشرع لمن قبلنا، على الأقل لأيوب، فإن الإنسان إذا حلف يميناً؛ فإنه يُكفّر عنها إذا لم يستطع أن يوفيها أو كانت يمين على غير خير، ووجد غيرها خيراً منها، يقول النبي ﷺ: «**ما حلفتُ على شيء ووجدت غيرها خيراً منها إلا كفرت عن يميني وأتيت الذي هو خير**»[2]،

---

(١) أخرجه البخاري (٢٧٩).

(٢) أخرجه البخاري (٣١٣٣)، ومسلم (١٦٤٩) من حديث أبي موسى رضي الله عنه.



ولو كان هذا مشروعاً في زمنهم لكفر أيوب عن يمينه، ولكن لم يجد بُداً من تنفيذ ما حلف عليه، ولذلك ضرب زوجته بهذا الضغث.

ثالثاً: من لا يحتمل إقامة الحد عليه لضعفه؛ فإنه يُقام عليه مسمى ذلك، يعني أيوب لما رأى أن هذا الضرب لا تستحقه هذه المرأة جعل الله له مخرجاً بهذه الأعواد، فلو قُدِّر أن مريضاً لا نستطيع أن نقيم عليه الحد، برأي الطبيب أنه لن يبرأ، لا يُترك الحد، بل يقام عليه مسمى الحد، بأقل ما يكون؛ لأن المقصود من الحد هو التنكيل، العذاب النفسي، حتى يرى غيره، ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٢] وليس المقصود من الحد الإتلاف، ولذلك كان شارب الخمر إنما يُضرب بالسعف والنعال.

رابعاً: المرء يبتلى على قدر دينه.

خامساً: من يتق الله يجعل له مخرجاً، ويرزقه من حيث لا يحتسب، فهذه المرأة لما اتقت الله ـ جل وعلا ـ؛ جعل الله لها مخرجاً، بأن جمع لها أيوب هذه الأعواد وضربها بها ضربة واحدة حتى لا يحنث في يمينه، وجعل الله لأيوب أيضاً مخرجاً، ورزقه من حيث لا يحتسب.

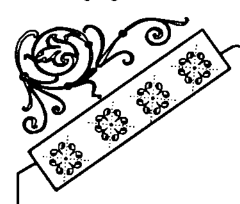
سادساً: الدعاء لا ينافي الصبر؛ لأن الله مدحه بالدعاء، ومدحه كذلك بالصبر.

سابعاً: ما بين غمضة عين والتفاتتها يغير الله من حال إلى حال، ذهب معها مريضاً، أبطأت عليه، ورجعت وإذا هو معافى ليس به بأس، ﴿ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ۝٤٢﴾ [ص]، فكان كأن شيئاً لم يكن.

ثامناً: جواز الاستكثار من الحلال، لما قال أيوب: «**لا غنى لي عن بركتك**».








قصة داود عليه السلام

ذكر نبي الله داود في كتاب الله تبارك وتعالى ست عشرة مرة، وقد طالت مدة ملكه صلوات الله وسلامه عليه، حتى قالوا: إنها بلغت أربعين سنة.

مقدمة لابد منها:

والكلام على قصة داود صلوات الله وسلامه عليه، يستلزم أن نقدم بمقدمة، وذلك أن بني إسرائيل انتشرت عندهم الجرائم، وعظمت المظالم، وقتلوا من قتلوا من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، فسلط الله تبارك وتعالى عليهم من لا يرحمهم من جبابرة الملوك، يقال لهم: العماليق، فكان أن بلغ الأذى مداه، فذهبت بنو إسرائيل إلى نبي لهم، المشهور أن هذا النبي اسمه: شمويل، وقيل اسمه: سمعون، وسمي: سمعون؛ لأن الله تبارك وتعالى استجاب وسمع دعاء أمه له، فرزقها هذا الولد فسمته سمعون، ولا يعرف اسم هذا النبي على الحقيقة، بحيث لم يأتِ في كتاب الله تبارك وتعالى تسمية له، ولا في سنة النبي ﷺ، ولكن الذي جاء أن بني إسرائيل ذهبوا إلى نبي من أنبيائهم، وطلبوا منه أن يُعَيِّن لهم ملكاً يتبعونه ويقاتلون الجبابرة من العماليق تحت رايته، قال الله تبارك وتعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٤٦] هذا جهاد الدفع.

وأما جهاد الطلب فهو خاص بأمة محمد ﷺ؛ لأنهم هم الذين



بعث الله نبيهم للأسود والأحمر، أما الأنبياء السابقون؛ فإنهم بعثوا إلى أقوامهم خاصة، فما كانوا يجاهدون لنشر دينهم، وإنما كان الجهاد عندهم دفاعاً، ولذلك ما أحل الله لهم الغنائم، وكانوا إذا انتصروا في معاركهم جمعوا الغنائم في مكان ما، ثم نزلت نار من السماء، فأخذتها، ولذلك قال النبي ﷺ: «**فُضّلْتُ على الأنبياء بخمس**»، وذكر منها: «**وأحلت لي الغنائم ولم تحل لنبي قبلي**»(١).

قال لهم نبيهم: ﴿قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا ۖ قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا﴾ [البقرة: ٢٤٦] أي: أن دواعي القتال موجودة، وهي: أن الأعداء أخرجونا من ديارنا، وأخذوا أبناءنا سَبياً، قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٦].

ثم ذكر الله تبارك وتعالى أن نبيهم قال لهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ﴾ [البقرة: ٢٤٧]، فجاء الاعتراض، ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ ۚ﴾ [البقرة: ٢٤٧]، اعترضوا لأمرين اثنين: أنهم أحقُّ بهذا الملك، وأن طالوت لم يؤتَ سعة من المال، فإذا كان الأمر كذلك كيف يكون له الملك علينا، ولا شك أن عنادهم وردَّهم لأقوال الأنبياء وعدم طاعتهم، ديدنهم، وسبب اعتراضهم أن طالوت لم يكن من نسل الأنبياء، وهو أن الأنبياء في ذلك الزمن، كانوا من نسل لاوي بن يعقوب، ولم يكن طالوت كذلك من نسل الملوك، وذلك أن ملوك بني إسرائيل كانوا من نسل يهوذا بن يعقوب، وطالوت على المشهور أنه من نسل بنيامين، أخي يوسف الشقيق، فالملك والنبوة كلها في نسل يعقوب، فبنو إسرائيل كلهم أولاد يعقوب صلوات الله وسلامه عليه كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ

(١) تقدم تخريجه ص١٤.



لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ [المائدة]، وهذا اختبار من الله لهم هل يستجيبون لأمر نبيهم أو يعاندون كما هي عادتهم، فلما ردّوا عليه بهذا الكلام أجابهم أن القضية ليست قضية نسل ملوك ونسل أنبياء، القضية باختصار: هذا السبب الأول الذي من أجله تم اختيار طالوت.

السبب الثاني: ﴿وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ﴾ [البقرة: ٢٤٧].

السبب الثالث: ﴿وَٱلْجِسْمِ﴾ أي: وزاده بسطة في الجسم.

ثم حذرهم قائلاً: ﴿وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٤٧] أي: ليس الأمر إليكم، الأمر لله، يؤتي ملكه من يشاء وينزع المُلك ممن يشاء، يعز من يشاء ويذل من يشاء، ولكن أين بنو إسرائيل من هذا؟ نعم استجابوا ولكن بعد تردد وعناد.

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ﴾ [البقرة: ٢٤٩] أي: وصل إلى مكان قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ﴾ [البقرة: ٢٤٩] وقيل: إن هذا النهر يقال له: نهر أدمي بين الأردن وفلسطين.

قال: ﴿فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ﴾ [البقرة: ٢٤٩] ثم استثنى: ﴿إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٤٩]، وذلك أنهم أصابهم عطش، قال سنَمُرُّ على نهر، والله مبتليكم به لا تشربوا منه، لماذا؟ حتى يختبر طاعتهم، فإذا أطاعوه هنا فسيطيعونه في المعركة، وإذا عصوه هنا سيعصونه في المعركة، ليس على طريقتي، ولا هديي، ولا سنتي، ولا يتبعني، ﴿وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ﴾، ثم أخذته الشفقة عليهم؛ لأنهم عطاشى، فقال: ﴿إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ﴾ قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ [البقرة: ٢٤٩]، وهذه المعصية الثالثة[1].

(١) المعصية الأولى: تولي الأغلبية عن القتال، والثانية: معارضتهم لملك طالوت، والثالثة: شربهم من النهر.



يقول الله تبارك وتعالى: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ﴾ أي: النهر ﴿هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾ الذين لم يشربوا أو اغترفوا غرفة بأيديهم ﴿قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٤٩]، أربعة مواقف متصلة كلها فيها كسر وتحطيم للعزيمة وأذى، وأيّ أذى.

وقيل في كتب التفسير وقصص الأنبياء: إن عدد الذين جاؤوا لنبيهم وقالوا: ﴿ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٤٦] ثمانون ألفاً، ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا﴾ فنقص العدد.

ثم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ۚ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ﴾ [البقرة: ٢٤٩] فنقص العدد.

ثم ﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ﴾، فنقص العدد حتى صاروا ثلاثمئة وثلاثة عشر، من ثمانين ألفاً لم يبق إلا ثلاثمئة وثلاثة عشر رجلاً.

ولذلك قال البراء بن عازب ﷺ حدثني أصحاب محمد ﷺ من شهد بدراً أنهم كانوا عدة أصحاب طالوت الذين جاوزوا معه النهر بضعة عشر وثلاثمئة[(١)].

وأخرج البخاري كذلك بلفظ آخر: كنا نقول معاشر أصحاب رسول الله ﷺ: إن عدد أصحاب بدر هم عدد أصحاب طالوت[(٢)].

قال لهم موسى عليه السلام: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَـٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا۟ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ﴾ [المائدة].

---

(١) أخرجه البخاري (٣٩٥٧).　(٢) أخرجه البخاري (٣٩٥٨).



وقالوا: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدٗا مَّا دَامُواْ فِيهَا فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤].

وقالوا لعيسى: ﴿يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ هَلۡ يَسۡتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيۡنَا مَآئِدَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِۖ قَالَ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [المائدة: ١١٢].

وفي المقابل ماذا قال أصحاب رسول الله ﷺ: لو خُضتَ هذا البحر لخضناه معك، لو خضت برك الغماد لخضناه معك، والله لا نقول لك كما قال أصحاب موسى لموسى: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون، ولكن نقول اذهب أنت وربك فقاتلا فإننا معكما مقاتلون[(١)]، ولذلك صار أصحاب رسول الله ﷺ خير أصحاب الأنبياء.

قال الله ﷻ: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٤٩] والظن هنا بمعنى اليقين القطعي، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهۡ ۝٢٠﴾ [الحاقة] أي: اعتقدت اعتقاداً جازماً. ويأتي الظن بمعنى: الاعتقاد الجازم، ويأتي الظن بمعنى: غلبة العلم بالشيء.

قال ﷻ: ﴿كَم مِّن فِئَةٖ قَلِيلَةٍ غَلَبَتۡ فِئَةٗ كَثِيرَةَۢ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝٢٤٩ وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ﴾ [البقرة]، وجالوت زعيم العماليق الذين أسروا أبناءهم وأخذوا ديارهم. ﴿وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٢٥٠ فَهَزَمُوهُم بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة]، إذاً القضية ليست قضية عدد، الثمانون ألفاً عجزوا، وبضعة عشر وثلاثمئة انتصروا، ليست قضية عدد ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٨٢﴾ [يس].

---

(١) أخرجه الإمام أحمد (٣٦٩٠، ٤٠٥٩، ٤٣٦٣)، والبخاري (٣٩٥٢).



بداية داود عليه السلام مع بني إسرائيل:

يقول الله تعالى: ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ﴾ [البقرة: ٢٥١] هنا ظهر اسم داود عليه السلام، وكان من الصفوة، من الذين ثبتوا مع طالوت، وهذا يدلنا على أنه يمكن للنبي أن يكون تابعاً لغير النبي، ولكن هذا كان قبل نبوة داود، ولكن مع هذا جعل الله طالوت ملكاً عليهم بأمره تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾.

داود عليه السلام يُؤتى المُلك والنبوة:

قال الله عز وجل: ﴿وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [البقرة: ٢٥١]، المُلك في الدنيا، ملك الدنيا، مَلكَ بعد طالوت، وآتاه الحكمة، وهي: النبوة.

ذُكر أن داود إنما حضر القتال مع إخوته، وكانوا ثلاثة، وكان داود صغيراً في ذلك الوقت له سبع عشرة سنة فقط، فلما دخل هذه المعركة؛ قيل: إن جالوت خرج إليهم، وقال: من يبارزني؟ وتحدى الناس، فقام داود وقال: أنا له، فأشفق عليه طالوت، وقال: إنك صغير، قال: بل أنا له، قال: إنك صغير، قال: أنا له، قال: اخرج، وذُكر أن طالوت قال له: إن قتلته فأنت الملِكُ بعدي، وأزوجك ابنتي، وهذا جائز، فيجوز للمَلِك أن يُحفّز الجنود بالعطايا، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: **«من قتل قتيلاً فله سَلَبُه»**[1] يشجعهم.

وخرج داود عليه السلام إليه، فلما واجهه نظر إليه جالوت، وقال: أنت صغير كيف تجرؤ أن تقاتلني؟ قال: أنا الذي سيقتلك، فغضِبَ جالوتُ من هذا الكلام، وأراد أن يضرب داود، فامتنع عن ضربته، ثم رماه

(١) أخرجه البخاري (٣١٤٢)، ومسلم (١٧٥١) من حديث أبي قتادة رضي الله عنه.
والسَّلَب: هو ما يكون مع المقتول من سيف، وفرس، ومال، وغير ذلك.



بالمقلاع(١) على المشهور، فرماه وأصابه، فَخَرَّ صريعاً قتيلاً، ثم كبّر المسلمون، فوقعت الهزيمة في جيش جالوت.

وداود ـ عليه الصلاة والسلام ـ من نسل يهوذا بن يعقوب بن إسحاق، جمع الله له الملك والنبوة، كما قال الله تعالى: ﴿وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٥١].

ما مَنَّ الله به على داود عليه السلام:

مَنَّ الله تعالى على داود بأشياء كثيرة، منها:

أولاً: قال الله تبارك وتعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ﴾ [ص: ١٧]، فَذَكَّره بداود؛ لأنه كان صابراً، اقتدِ بداود، صبر على ما ابتليناه به، وعلى أذى قومه.

ثانياً: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ﴾ [ص: ١٧]، فوصفه الله أنه كان قوياً، في طاعة الله كان يصوم يوماً ويفطر يوماً، حتى قال النبي ﷺ: **«أحب الصيام إلى الله صيام داود، كان يصوم يوماً ويفطر يوماً، وأحب الصلاة إلى الله صلاة داود كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه»**(٢).

وكان قوياً كذلك في أمره ونهيه وحُكمه ومُلْكِه، وكان قوياً في صبره على ما ابتلاه الله عز وجل به، فكان قوياً من كل جهة صلوات الله وسلامه عليه.

ثالثاً: قال الله عنه: ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ١٧] أي: رَجَّاع إلى الله تعالى.

رابعاً: قال تعالى: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾﴾ [ص]، ثم قال: ﴿وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾﴾ [ص] الطير كذلك نادیناها

(١) المقلاع: هو أن توضع الحجارة في شيء من الجلد، ثم يديرها، ويرمي بها.
(٢) أخرجه البخاري (١١٣١)، ومسلم (١١٥٩) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.



لأجله، وكلها أواب؛ أي: رَجَّاع يُرَجِّع ما يقول، يسبِّح فتُسبِّح، يذكر الله فتهتز لذكر الله ﷻ، الطير والجبال.

خامساً: قال تعالى: ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ﴾ [ص: ٢٠] قويناه، قواه من ناحيتين:

الناحية الأولى: جعل هيبة لملْكِهِ في قلوب الناس جميعاً.

الناحية الثانية: شَدَّ الله مُلْكَه بجنده، فكان به جند كثيرون، وحكم أربعين سنة.

سادساً: قال الله عنه: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ﴾ [ص: ٢٠]، أي: النبوة، وقد قال ﷻ: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩].

سابعاً: أعطاه الله فصل الخطاب، وفصل الخطاب قيل: هو الفهم القوي الثاقب، فإذا جاءت أمامه قضية يعرف كيف يحكم فيها صلوات الله وسلامه عليه. وقيل: حسن الخطاب يتكلم الكلام القليل، وتكون فيه المعاني الكثيرة صلوات الله وسلامه عليه.

ثامناً: أعطاه الله الزبور، ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ [النساء: ١٦٣]، فمَنَّ الله عليه بهذا الكتاب.

ويقول الله ﷻ في تفصيل ما وقع لداود صلوات الله وسلامه عليه: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ۝١٠ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا﴾ [سبأ: ١٠، ١١]، وقال كذلك: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ۝١٨ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ۝١٩﴾ [ص]، هذا التسبيح من الجبال هل هو على حقيقته: كانت تقول: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، لا حول ولا قوة إلا بالله، أو أنه كناية عن وقوف الطير في السماء مع ذكر داود عليه السلام؟

الصحيح الذي عليه أهل العلم أنها كانت تسبح على الحقيقة، وليس هذا على الله بعزيز، الذي أنطق البشر ليس بعاجز عن أن يُنطق



الطير والجبال ﷻ، كما قال: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾ [الأحزاب: ٧٢]، وقال ﷻ: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١]، وقال ﷻ: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ٤٤] أي: على الحقيقة ولكن القضية ماذا؟ ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤]، وكما قالت النملة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ﴾ [النمل: ١٨].

وكما ذكر الله تعالى الحجارة فقال: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤]، ثم مدح الحجارة في مقابلهم فقال: ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٤] مع أنها حجارة، ولكن الله ـ جل وعلا ـ يجعل فيها هذا الإحساس، فتستطيع أن تسبح.

ولذلك النبي ﷺ كان يُخبر عن حجر كان يُسَلِّم عليه[(١)]، والجذع أنَّ وبكى لفراق النبي ﷺ له لما بُني وصُنع له المنبر صلوات الله وسلامه عليه[(٢)].

ألم يُنكر الهدهد على ملكة سبأ أنها عبدت غير الله ﷻ؟

فنحن نؤمن بهذا ونصدقه ونقول: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٠]، أليس يُنطق ﷻ أيدي الكفار وجلودهم فتنطق بما كانوا يعملون، حتى يقول الكافر لجلده ويده ورجله: تباً لَكُنَّ عنكُنّ كنت أدافع[(٣)] فتقول له هذه كلها: ﴿أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [فصلت: ٢١].

قال رسول الله ﷺ عن أبي موسى الأشعري: «**لقد أوتي هذا مزماراً**

---

(١) أخرجه مسلم (٢٢٧٧) من حديث جابر بن سمرة رضي الله عنه.
(٢) أخرجه البخاري (٣٥٨٥) من حديث جابر رضي الله عنه.
(٣) أخرجه مسلم بنحوه (٢٩٦٩، ٢٩٦٨) من حديث أبي هريرة وأنس بن مالك رضي الله عنهما.



من مزامير آل داود»[1].

قال الله ﷻ عن داود عليه السلام: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ۝١٠ أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ﴾ [سبأ]، ذُكر أن داود عليه السلام كان يفتل الحديد ولا يحتاج إلى نار أو مطرقة، ألانَ الله له الحديد كما ألان لغيره العجين، ﴿وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ﴾ يعني: حِلَق مقدرة، ثم المسامير واجعلها متناسبة، ﴿اعْمَلْ سَابِغَاتٍ﴾ دروع، هكذا أمر الله داود صلوات الله وسلامه عليه.

وقال ﷻ: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّن بَأْسِكُمْ﴾ [الأنبياء: ٨٠] في هذه الآية ثلاث قراءات:

القراءة الأولى: «وعلمناه صنعة لبوس لكم لتُحصنكم» [بالتاء] أي: الملابس.

القراءة الثانية: «وعلمناه صنعة لبوس لكم لنُحصنكم» [بالنون] أي: الله ﷻ.

القراءة الثالثة: «وعلمناه صنعة لبوس لكم ليُحصنكم» [بالياء] أي: داود عليه السلام.

فإما أن يكون الفاعل هو الله ﷻ «لنُحصِنَكم»، أو داود «ليُحْصِنَكم»، أو اللبوس نفسه، «لتُحْصِنَكم»، وكلها قراءات ثابتة عن رسول الله ﷺ.

نبأ الخصم:

ذكر الله تبارك وتعالى قصةً حدثت لداود، وهي أشهر قصص داود عليه السلام:

---

(١) أخرجه البخاري (٥٠٤٨)، ومسلم (٧٩٣).



يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ﴾ الخطاب للنبي محمد ﷺ، ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَؤُا الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ﴾ [ص]، هذه فتنةٌ وقعت لداود صلوات الله وسلامه عليه، ذُكر أن داود عليه السلام كان قد قسم الأيام إلى ثلاثة: يوم يقضي فيه بين الناس، ويوم يعبد ربه تبارك وتعالى، ويوم يُسَيِّر به أمور الرعية.

فكان اليوم الذي يتفرغ فيه لعبادة ربه تبارك وتعالى لا يدخل عليه أحد، فقدر الله أن تسور عليه المحراب رجلان، فدخلا عليه فجأة، ففزع منهما وخاف، وهذا الخوف الطبيعي، ولا يضر ولا يعيب، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿يَا مُوسَىٰ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ﴾ [القصص: ٣١].

قال: ﴿فَفَزِعَ مِنْهُمْ﴾، قالوا: لا تخف، خصمان، بغى بعضنا على بعض، قال بعض أهل العلم أنهم كانوا جماعة وليس اثنين والله أعلم، ولكن ظاهر الأمر أنهما كانا اثنين فقط، ﴿خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا﴾، فالأول قال: إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجة، أما أنا فلي نعجة واحدة، فقال لي أخي أكفلنيها ماذا تفعل بواحدة، وعزّني في الخطاب أي: غلبني في الكلام، لديه حجة، والآن أنا لست راضياً، قال: ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾، هذا الأصل أنه إذا كانت خُلطة يصير فيها الطمع.

قال ﷻ: ﴿وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ﴾ أي: اختبرناه في هذه القضية، وأين الاختبار؟ قيل: الاختبار أن داود ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ كان متزوجاً من تسع وتسعين امرأة، ثم صعد يوماً على السطح، فرأى امرأة



حسناء، وهي تستحم، فأُعجب بها، فسأل عنها: مَنْ هذه؟ قالوا: هذه امرأة أوريا، فأمر بأوريا أن يخرج مع الجيش للقتال، وأمرهم أن يجعلوه في الصف المقدم، فإذا بدأ القتال يرجعون عنه حتى يُقتل، ويأخذ داود زوجته، وهذه من أكاذيب بني إسرائيل على داود؛ لأنه لا يمكننا أبداً أن نصدق أن الله ﷻ يختار رجلاً ويمدحه بكل تلك الممادح، ثم يفعل مثل هذا الفعل الشنيع، بل هذا لا يقبل من رجل صالح من المسلمين، فكيف يُقبل هذا مِنْ نبي كريم كداود صلوات الله وسلامه عليه، فلا شك أن هذا باطل من أصله.

وقالوا: إن القصة فيها لمزاً لداود عليه السلام وذلك أن داود لما أخذ امرأة أوريا أرسل الله إليه ملكين، فاجتمعا عنده، فقال الأول: يا داود إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجة يعني: أنت يا داود عندك تسع وتسعون امرأة، ولي نعجة واحدة، امرأة أوريا، فغلبني وأخذها، حسدني حتى على هذه الواحدة، فتذكر داود أنه هو الذي فعل هذا الأمر، ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ [ص: ٢٤]، وهذا باطل كما ذكرنا.

التفسير الصحيح للفتنة:

والآية عند أهل العلم تحتمل معنيين:

المعنى الأول: أنهما هما رجلان كظاهر الآية، أحدهما له تسع وتسعون نعجة، والآخر له نعجة واحدة، ودخلا على داود وسألاه، وأجابهما بما علم، أو بما ظهر من المسألة، والفتنة كانت في إجابته قبل سماعه للرأي الآخر، سمع الأول الذي قال: ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾﴾ [ص] ولم يقل للثاني: ما رأيك؟ لم يسمع من الطرف الآخر.

وهذا شريح القاضي رحمه الله جاءه رجل ـ وقد فُقئت عينه ـ يقول: إن



فلاناً ضربني وفقأ عيني، فقال: اذهبوا ائتوا بالرجل، قال قائل: ولِمَ؟ المسألة واضحة، عينه مفقوءة، قال: وما يدريك لعل الآخر فُقئتْ عيناه.

وهذا له جواب: وهو أن داود صلوات الله وسلامه عليه التفت إلى الثاني فسكتْ، فدل هذا على أنه مصدق لما قال الأول، فحكم بناءً على هذا، أو أن داود صلوات الله وسلامه عليه قال: إن كان كما تقول فقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه إن كان كما تقول، وتكون الفتنة هنا أن داود نجح في هذا، وخرّ راكعاً وأناب إلى الله ﷻ، فتكون مدحاً.

المعنى الثاني: أنهما ملكان، وهذا الذي عليه جمهور المفسرين، ولذلك تسورا المحراب دون أن يعلم بهما، وهذان الملكان سألا داود اختباراً هل يجيب قبل أن يسمع من الطرف الثاني أو ينتظر حتى يسمع، فتسرّع وأجاب قبل أن يسمع من الطرف الثاني، فاختفيا، فعلم داود أنهما أرادا اختباره وهذا ظاهر، وهذا الذي عليه أكثر أهل العلم، ولذلك استغفر وركع وأناب؛ أي: رجع وتاب، والله أعلم.

عبادة داود عليه السلام:

قال رسول الله ﷺ: **«أحب الصلاة إلى الله صلاة داود كان ينام نصف الليل، ويقوم ثلثه وينام سدسه، وأفضل الصيام عند الله صيام داود كان يصوم يوماً ويفطر يوماً»**(١).

وقصة داود لم تنته؛ لأن لها تعلقات مع سليمان صلوات الله وسلامه عليه فنؤجل ما كان مع سليمان إلى قصة سليمان صلوات الله وسلامه عليهما.

---

(١) تقدم تخريجه ص٢٩٣.



الدروس والعبر المستفادة من قصة داود عليه السلام

أولاً: إن قهر الله للجبابرة قد يجعله في أضعف خلقه، كما هزم جالوت وجنوده العماليق بثلاثمئة وبضعة عشر، وجعل داود الذي لم يجاوز السابعة عشرة من عمره هو الذي يقتل جالوت.

ثانياً: أن الضعيف لا ييأس من رحمة الله، ولا ييأس من النجاح أبداً، بل قد ينصره الله ـ جل وعلا ـ كما فعل لداود مع جالوت.

ثالثاً: انتصار داود لم يُغَيِّرْه، بل كان عابداً لله تبارك وتعالى، عارفاً لفضل الله ـ جل وعلا ـ عليه.

رابعاً: طاعة الله ﷻ وشكره يوجب المزيد، ولما زاد داود من طاعته لله ـ جل وعلا ـ زاده الله من فضله: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧].

خامساً: الابتلاء سنة الله في خلقه، للأنبياء وغير الأنبياء، ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [العنكبوت].

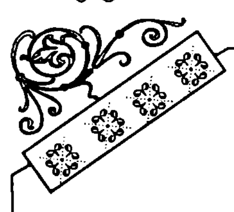
سادساً: احتمال الأنبياء للأذى كما وقع لشمويل صلوات الله وسلامه عليه من بني إسرائيل لما قالوا له: ﴿ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٤٦].

سابعاً: مكانة أصحاب محمد ﷺ مقارنة مع بني إسرائيل.

ثامناً: إمكان اجتماع النبوة والمُلْك في شخص واحد كما وقع هذا لداود عليه السلام.

تاسعاً: أن نعلم أن الله ﷻ على كل شيء قدير.






قصة سليمان عليه السلام

ذُكِر نبي الله سليمان في القرآن سبع عشرة مرة، وقصصه كثيرة وتحتاج إلى وقفات:

أولاً: قصته مع ملكة سبأ.

ثانياً: حاله مع خيله الصافنات.

ثالثاً: فتنته.

رابعاً: بيان ما وهبه الله تبارك وتعالى من المُلْك.

خامساً: ما اتُهِمَ به من الكفر.

سادساً: بعض أحكامه.

سابعاً: وفاته.

قال الله تبارك وتعالى عن نبيه سليمان: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ﴾ [النمل: ١٦]، الوارث هو نبي الله سليمان، والموروث هو أبوه نبي الله داود، وهذا الميراث ليس ميراث مال، وإنما هو ميراث الحكمة، ميراث النبوة، ميراث العلم، بدليل أنه قد عُلم من كتب السير أن داود عليه الصلاة والسلام كان له من الأولاد كثير، حتى إنه قيل: له تسعة عشر ولداً، فكيف يكون الوارث سليمان وحده، ثم كذلك قد نص النبي الكريم ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ على أن الأنبياء لا يورثون فقال: «**نحن معاشر الأنبياء لا نورث**»[1]، وقال: «**إن الأنبياء**

---

(١) أخرجه البخاري (٣٠٩٣)، ومسلم (١٧٥٩) من حديث عائشة رضي الله عنها.



لم يورثوا درهماً ولا ديناراً»[١]، ثم لو كان الميراث المذكور في السورة من القرآن هو ميراث المال لكان ذكره دون فائدة؛ لأنه معلوم من الضرورة أن الولد يرث أباه، وإنما أراد ميراثاً آخر، ألا وهو ميراث النبوة، والعلم، والحكمة.

من فضائل سليمان عليه السلام:

وامتاز نبي الله سليمان بالفطنة والحكمة في معالجة الأمور، وكذلك بالعدل بين الرعية، وقد ذكر الله تبارك وتعالى قصته لما مَرَّ على وادي النمل ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ١٨﴾ [النمل]، وهذا كلام بين النمل تفهمه النمل، ووهب الله تبارك وتعالى نبي الله سليمان موهبة ألا وهي أنه يفهم منطق الطير، كما قال: ﴿عُلِّمۡنَا مَنطِقَ ٱلطَّيۡرِ﴾ [النمل: ١٦].

قالت نملة تخاطب النمل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ﴾ [النمل: ١٨] أي: خشية أن يحطمكم ﴿سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ﴾، ثم اعتذرت له، وقالت: ﴿وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ﴾، لا يقصدون إيذاءكم؛ لأنه ليس من هدي الأنبياء ـ صلوات الله وسلامه عليهم ـ أن يتعرضوا إلى إيذاء أحدٍ، بل جاؤوا مشاعل نور، وجاؤوا بالخير العميم، فكيف يكون منهم هذا الإيذاء، فاعتذرت له تلك النملة، سمع وفهم صلوات الله وسلامه عليه كلامها، فتبسم ضاحكاً من قولها، ثم شكر الله ـ جل وعلا ـ على ما وهبه من هذه النعمة، وقال: ﴿رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ﴾ [النمل: ١٩]، ولم ينس كذلك ما أنعم الله به على والده بالنبوة، فقال: ﴿وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ﴾.

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٦٤١)، والترمذي (٢٦٨٢)، وابن ماجه في (٢٢٣) من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه، وهو في «صحيح الجامع» (٦٢٩٧).



وعن رسول الله ﷺ أنه قال: «**خرج نبي من الأنبياء بالناس يستسقون، فإذا هم بنملة رافعة إحدى قوائمها**» ـ على ظهرها ورافعة إحدى قوائمها ـ وفي رواية: «**تستسقي، تدعو الله أن يسقي الأرض، فقال: ارجعوا، فقد كُفيتم بدعاء هذه النملة**»، وفي رواية: «**ارجعوا فقد سقيتم بدعوة غيركم**»(١)، وجاء عن الزهري مرسلاً أن هذا النبي هو سليمان صلوات الله وسلامه عليه، وهذا أخرجه ابن عساكر في «تاريخه»(٢).

قصة سليمان عليه السلام مع ملكة سبأ:

قال ﷻ: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ۝٢٠ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ۝٢١﴾ [النمل] وهذا يدل على أنه ذا رعاية وعناية بجيشه عليه السلام، ومن حَزْمِهِ وحسنِ نظامِهِ، تفقد جنده، ومن هؤلاء الجند: الطير، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ﴾ [النمل: ١٧]، كل هؤلاء من جنود سليمان صلوات الله وسلامه عليه، كيف يغيب الهدهد دون أن يستأذن، ولذلك رتب عليه العقوبة، فقال: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾، وهذا من عدله صلوات الله وسلامه عليه، وهو أنه إن كان له عذر؛ فإنه يعذر بهذا العذر الذي يقدمه.

قال تعالى: ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ [النمل: ٢٢] مَنْ الذي مكث غير بعيد؟ يحتمل معنيين:

---

(١) أخرجه الطحاوي في «مشكل الآثار» (٧٣٢)، وضعفه الشيخ الألباني في «إرواء الغليل» (٣/ ١٣٧).

(٢) «تاريخ دمشق» (٢٢/ ٢٨٨).



المعنى الأول: أن الذي مكث غير بعيد هو سليمان ﷺ، حتى جاءه الهدهد بالخبر.

المعنى الثاني: أن الذي مكث غير بعيد هو الهدهد، فقال: ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾ [النمل: ٢٢].

وهذا يبين أن هذه الطيور تعلم علم اليقين أن الذي لا يغيب عنه شيء هو الله ﷻ، وأما غير الله ـ جل وعلا ـ من مخلوقاته فإنه لا يعلم الغيب، ولو كان نبياً كريماً كسليمان الذي ملك الأرض(١)، ولم ينكر عليه نبي الله سليمان هذه المقالة؛ لأنه يعلم علم اليقين أنه لم يحط بكل شيء، ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥].

قال: ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ [النمل: ٢٢] سبأ مدينة معروفة في اليمن، وسليمان كان في بيت المقدس، هذا هو السبب الذي تغيب لأجله، فأراد ـ أولاً ـ أن يبين أنهم ليسوا أناساً عاديين، وليست مملكة صغيرة حتى يظهر لنبي الله سليمان عظم الجرم، فقال: ﴿إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [النمل]، هدهد وأنكر عليهم غاية الإنكار أنهم عبدوا غير الله، فدل هذا على أن هذه الطيور وهذه الحيوانات مُوَحّدة لله تبارك وتعالى، بل ومسبحة لله ـ جل وعلا ـ: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ٤٤].

وهذه الحيوانات تحبّ المؤمنين، وتبغض الكافرين المكذبين للمرسلين.

---

(١) ملوك الأرض أربعة، اثنان مسلمان، واثنان كافران: فالمسلمان: ذو القرنين وسليمان ﷺ، والكافران: النمرود وبختنصر.



جاء هذا الهدهد بهذا الخبر، وهو يحتمل الصدق والكذب، ولذلك لم يقل له: كذبت، ولم يقل له: صدقت؛ لأنه غيب بالنسبة لنبي الله سليمان، ﴿قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [النمل]، أصدقت فيما تقول، أم تكذب لتنجو من العذاب والذبح: ﴿ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [النمل]، لم يبين لنا ماذا كتب، ولكن سيتبين لنا عندما تقرأه ملكة سبأ، ذهب الهدهد بالكتاب، ألقاه إليهم، تعجبوا!! طير يأتي بكتاب!! أخذتِ الكتابَ الملكةُ، فقرأته ثم جمعت كبار القوم وهم الملأ، ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾ [النمل]، وقالت عن الكتاب: إنه كريم؛ لأنها تعرف أن سليمان كان من أكبر ملوك الأرض ﴿إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ﴾ [النمل: ٣٠]، فكأن سليمان كان معروفاً عندهم ﴿وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [النمل: ٣٠] دل على أنه يستحب للإنسان إذا قدم أو أراد أن يكتب كتاباً أن يقدم بين يديه هذه البسملة.

وذكر فيه: ﴿أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ [النمل] عبارة مختصرة وجيزة كاملة البيان، وخير الكلام: ما قلَّ ودلَّ ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾﴾ [النمل]، وهذا يدل على كمال عقلها ورجحانه، ماذا ترون، ﴿قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [النمل]، إن شئت حرباً فنحن أولوا قوة، وأولوا بأس شديد، وإن شئت سِلْماً، فالأمر إليك، فانظري ماذا تأمرين، قالت: ﴿إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا﴾ [النمل: ٣٤] سبي، وقتل، وسجن، ﴿وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [النمل: ٣٤]، أي: هذا هو ديدن الملوك وهذه عادتهم؛ لأنها لا تعرف إلا الملوك الذين من هذا الصنف، فأرادت أن تجرب هذا الملك، وما كانت تسمع عنه من عدله ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ، ولذلك وصفتْ كتابه بأنه: ﴿كِتَٰبٌ كَرِيمٌ﴾، فدعوا الحرب، ﴿وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾



[النمل]. قال أهل العلم: أرادت بهذه الهدية أن تعرف أهو من ملوك الدنيا الذين يريدون جمع المال، والخدم، والحشم، وما شابه ذلك، أو أن الأمر غير ذلك؛ لأنه إنما قال لهم: ائتوني مسلمين، فهو دعاهم إلى الله تبارك وتعالى.

جاءت الرسل إلى سليمان بالهدية، فلما جاء سليمانَ ـ أي: الرسولُ الذي أرسلته ملكة سبأ ـ غضب سليمان، أنا ما طلبت هدايا، أنا طلبت ألا تعلوا علي، وأن تأتوني مسلمين، ولذلك قال: ﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم﴾ [النمل: ٣٦]، ولم يقل: ما عندي خير مما عندكم، وإنما قال ما أتاني الله خير مما آتاكم، فالذي عندكم من الله، والذي عندي من الله، والله أعطاني خيراً مما أعطاكم، فقال للرسول: ﴿ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [النمل]، ارجع إليهم أي: بالهدية، وارجع بهديتهم، فأبلغهم ما كان من سليمان، وما قال، فعرفت ملكة سبأ أنه نبي، وأنه ليس ممن يريد الهدايا.

والتفتَ سليمان بعد أن أرجع الرسول بهديته، قال للذين حوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾ [النمل: ٣٨] من يستطيع أن يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين. قال أهل العلم: وسليمان إنما عرف أنهم سيأتونه مسلمين، لما رأى من رجحان عقلها أنها أرسلت الهدية، ولم تعلن حرباً عليه صلوات الله وسلامه عليه، وكذلك رأى من رجحان عقل هذا الرسول الذي جاءه، وسمع منه فظن أنهم سيأتونه مسلمين، وهذا مما غلب على ظنه صلوات الله وسلامه عليه، فقال لمن حوله: ﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾ [النمل: ٣٨] إذ إنه قد بلغني أنهم سيخرجون وسيأتون مسلمين، أو أنهم خرجوا، ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾﴾ [النمل]



قالوا: العفريت هو شديد القوى، يقال له: عفريت، والجن فيهم المسلمون، وفيهم الكافرون، وكلهم مُسَخَّرون لسليمان، مؤمنهم وكافرهم، كما قال الله تبارك وتعالى: وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير. وأما كفار الجن فقال فيهم: ﴿وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾﴾ [ص].

قال هذا العفريت ـ والأكثر على أنه كافر ولكنه خادم، رغماً عنه ـ: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ﴾ أي: العرش ﴿قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾ قالوا: مقامه من بعد الشروق إلى الزوال، وقت الضحى، يجلس ويسمع من الناس مشاكلهم، ويقضي بينهم، وينظر في حاجاتهم، خلال هذه الساعات القصيرة القليلة، وهم في اليمن وأنت في الشام، ثم حتى لا يظن أحد أن هذا مجرد كلام قال: ﴿وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ [النمل] قالوا: هو أبعد ما يصل إليه النظر، إذا بلغه يكون العرش عنده، أو عندما يرمش، ولا شك أن هذا شيء عجيب، ولذلك ما قال: اذهب وائت به، وإنما رتب عليه الحصول: ﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى﴾ [النمل: ٤٠] ولكن من هذا الذي قال: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾؟

لأهل العلم أربعة أقوال في هذا القائل:

القول الأول: إن القائل رجل صالح من بني آدم، يقال له: آصف، وكان من المقربين لنبي الله سليمان، وأنه سأل الله ـ جل وعلا ـ باسمه الأعظم الذي إذا سئل به أجاب.

القول الثاني: إن القائل هو جني مؤمن، لما قال العفريت من الجن: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾ [النمل: ٣٩]، قام جني مؤمن فقال: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾.



القول الثالث: إن القائل جبريل عليه السلام أو ملك من الملائكة آخر، وذلك أنه لما قام هذا العفريت، وقال أمام الناس: أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك، كأنه يفتخر بقوته، وقدرته نزل جبريل من عند الله تبارك وتعالى: فقال له: يا سليمان لا يغرنك هذا، أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك.

القول الرابع: إن القائل سليمان، وأراد أن يختبر قوتهم وقدرتهم، حتى يظهر لهم فضل الله عليه، فقال: ﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ﴾ [النمل] وهو سليمان، ﴿أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ﴾ [النمل: ٤٠] فسليمان يخاطب عفريت الجن، فيقول له: إن كنت تأتيني به قبل أن أقوم من مقامي أنا آتيك به بهذه السرعة.

وكل هذه الأقوال محتملة، وليس هناك نص قاطع من عند الله ـ جل وعلا ـ أو من عند الرسول ﷺ يحسم هذه المسألة، ولا يهم، المهم أنه رآه مستقراً عنده خلال لحظات صلوات الله وسلامه عليه.

سليمان عليه السلام يُري آية:

قال سليمان عليه السلام: ﴿نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾ [النمل: ٤١] نكروا لها عرشها، زادوا ونقصوا، ﴿فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ﴾؟ نظرت إليه وإذا هو عرشها ثم توقفت لأن فيه تغييرات ولذلك أتت بعبارة محتملة، وهذا أيضاً دليل على فطنتها ﴿قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ﴾ [النمل: ٤٢]، لم تقل ليس هو من شدة الشبه، ولم تقل هو للتغير الذي حدث فيه ثم للبعد، فالمسافة بعيدة هي في سبأ والآن جاءت إلى الشام.

سكت سليمان عليه السلام ثم قال لها: ادخلي الصرح، ﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ﴾ [النمل: ٤٤]، الصرح: المجلس الكبير العظيم لسليمان عليه



الصلاة والسلام، من القائل؟ إما أن يكون القائل سليمان عليه السلام، وإما أن يكون القائل من وُكِّل بها لأن هؤلاء الملوك يوكل بهم من يقوم بشؤونهم، ﴿فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً﴾ [النمل: ٤٤] حسبته ماءً، ﴿قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ﴾ [النمل: ٤٤] ليس ماءً، ولكنه ممرد بالقوارير، قيل إنه جاء إلى البحيرة وعمل فوق البحيرة قوارير، يعني الأرضية شفافة، يُرى ما تحتها، ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [النمل: ٤٤].

براءة سليمان من فرية باطلة:

هنا قول الله تبارك وتعالى ﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا﴾ [النمل: ٤٤] ولماذا كشفت عن ساقيها؟ تظنه ماء فرفعت الثوب، قال بعضهم: تعمد سليمان أن يدخلها هذا المكان يريد أن ترفع ثوبها حتى يرى ساقها؛ لأنهم قالوا له: إن ساقها فيه شعر كثير كأنها رجل، فأراد أن يرى ذلك بأم عينيه وهذا كذب وزور، فليس هذا من خلق الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، بل هذه من الإسرائيليات المكذوبة على نبي الله سليمان عليه السلام.

قال: ﴿إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾، وما رأت من عرشها والكتاب الكريم الذي جاءها من سليمان وأنه لا يريد منها دنيا وما أكرمها به وما رأته من حاله وكيف يخدمه الإنس والجن والطير، عند ذلك علمت علم اليقين أنه نبي ولذلك قالت: ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [النمل: ٤٤] وهذا دليل على أن جميع الأنبياء إنما جاؤوا بالإسلام، من لدن نوح عليه الصلاة والسلام إلى محمد ﷺ، وإنما اختلفوا في الشرائع أما الإسلام فدين الله الذي لا يتغير كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩] وقال: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥].



وهل تزوجها سليمان صلوات الله وسلامه عليه، وهل كان اسمها بلقيس؟ العلم عند الله، كل ما قيل فهو رجم بالغيب، ويحتمل أن سليمان عليه الصلاة والسلام تزوجها، ويحتمل أن اسمها بلقيس.

سليمان عليه السلام والصافنات الجياد:

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَٰنَ ۚ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَىَّ ۖ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾﴾ [ص] يخبر الله تبارك وتعالى، عن قصة حدثت لنبي الله سليمان عليه الصلاة والسلام، قال: ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ﴾ عرض على سليمان وهو الملك، والعشي من زوال الشمس إلى غروبها، يقال عن صلاة الظهر وصلاة العصر: صلاتا العشي. ﴿ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ﴾ الصافن من الجياد هي التي تقف على ثلاثة أرجل والرجل الرابعة تقف على طرف حافرها، وقفة يحبها أهل الخيل، وقفة فيها نوع من التكبر، فيُخبر الله تبارك وتعالى عن خيل سليمان أنها كانت صافنات جياد، فقال: ﴿إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ﴾ الخير اسم من أسماء الخيل، ولذلك قال النبي ﷺ: «**في نواصيها الخير**»(١) ولما جاء زيد الخيل للنبي ﷺ قال: «**أنت زيد الخير**»(٢) وقيل: لها الخير لأنها تأتي به. سماها بما تأتي به، فقال: ﴿إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَىَّ ۖ فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ﴾ [ص] أربعة أقوال لأهل العلم في تفسير هذه الآية:

الأول: ﴿إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ﴾ أي: الخيل ﴿بِٱلْحِجَابِ﴾ يعني: تمشي أمامه حتى بعدت عنه، ﴿رُدُّوهَا عَلَىَّ﴾: ردوا

---

(١) أخرجه البخاري (٢٨٤٩)، ومسلم (١٨٧١) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه ابن أبي عاصم في «السنة» (٤١٥)، وضعفه الشيخ الألباني.



الخيل علي مرة ثانية، ﴿فَطَفِقَ مَسْحًا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ﴾، يمسح عنها الغبار، وهذا لشدة عنايته بالخيل.

فيكون معنى «عن» هنا أي «مِنْ» وأحرف الجر تتناوب، فيكون قوله: ﴿إِنِّيٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ﴾ [ص: ٣٢] يعني: الخيل، (مِنْ ذكر ربي)؛ أي: أن هذا مِنْ ذكر ربي؛ لأنها كانت تُعَد للجهاد، ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ﴾ أي: الخيل بعدما عرضت عليه تمشي وتجري ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَيَّ﴾ ولفرحه وحبه لها صار يمسح بسوقها وأعناقها، وهذا اختاره ابن جرير[1]، والرازي[2].

الثاني: عُرضت عليَّ الخيل حتى شغلتني هذه الخيل عن ذكر ربي، ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ﴾ [ص: ٣٢] أي: الشمس، ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ﴾ ردوا الشمس عليّ حتى أصلي الصلاة في وقتها، ﴿فَطَفِقَ مَسْحًا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ﴾ [ص: ٣٣] أي: بعد ذلك قتل الخيل.

الثالث: نفس الثاني تماماً، ﴿فَقَالَ إِنِّيٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَيَّ﴾ الخيل وليس الشمس، ﴿فَطَفِقَ مَسْحًا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ﴾ [ص: ٣٣] أي: قتل الخيل[3].

الرابع: لما عرضت عليه بالعشي الصافنات الجياد قال: ﴿إِنِّيٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ﴾ الخيل ﴿عَن ذِكْرِ رَبِّي﴾ أي: مِنْ ذكر ربي ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ﴾ أي: الخيل ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ﴾ أي: الشمس، وهذا بعيد جداً.

وكذلك القول بأنها حتى توارت الشمس بالحجاب ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ﴾ أي: ردوا الشمس عليّ وهذا أيضاً بعيد.

بقي قولان، وهما أشهر قولين عند أهل العلم.

---

(١) «تفسير الطبري» (٢١/ ١٩٦). (٢) «مفاتيح الغيب» (١٣/ ١٨٩).

(٣) الرد هنا للخيل، وفي الثاني الرد للشمس.



القول الأول: قلنا اختاره ابن جرير والرازي وغيرهما وهو أنه: ما فاتته صلاة ولا شيء أبداً، وإنما عُرضت عليه الخيل صلوات الله وسلامه عليه، وتوارت أي: الخيل، وتبقى إشكالية في ﴿عَن ذِكْرِ رَبِّي﴾ [ص: ٣٢] قالوا: (عن) هنا بمعنى (مِنْ)، فهي مِنْ ذكر ربي، واستدلوا على هذا بأدلة منها:

أولاً: قالوا: الخيل مذكورة ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِيِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾﴾ والصافنات الجياد هي الخيل، ﴿فَقَالَ إِنِّيٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ﴾ أي: الخيل ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ﴾ أيضاً الخيل، ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ﴾ أيضاً الخيل، فأين ذُكرت الشمس؟ لا ذكر للشمس في الآيات أبداً فمن أين أتيتم بقضية الشمس؟

ثانياً: لا يليق بالأنبياء أن يؤخروا الصلاة وتشغلهم الدنيا أو النظر في الخيل عن أداء الواجبات.

ثالثاً: الأصل أن يعود الضمير إلى أقرب مذكور، ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِيِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ﴾ الخيل ﴿فَقَالَ إِنِّيٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ﴾ [ص: ٣٢] الخيل ﴿عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّىٰ تَوَارَتْ﴾ المفروض: الخيل ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ﴾ الخيل.

رابعاً: إذا فاتته الصلاة فلماذا يعاقب الخيل ويقتلها؟ وما ذنب الخيل؟ لأنه هو الذي فاتته الصلاة، بل كان عليه أن يتوب إلى الله تبارك وتعالى.

خامساً: وأما مسحه عليها تشريفاً لها وتكريماً، أو أنه مسح صلوات الله وسلامه عليه لتواضعه مع أنه الملك أو أنه كان عليماً بأحوال الخيل فكان ينظر إليها هل هي مريضة، حتى يطمئن عليها.

القول الثاني: اختاره الحافظ ابن كثير[١] وغيره من أهل العلم

(١) «تفسير ابن كثير» (٧/ ٦٦).



قالوا: ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِيِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ﴾ الخيل ﴿فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ﴾ الخيل ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ﴾ أي: الشمس ﴿بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾ رُدُّوهَا عَلَىَّ﴾ أي: الخيل ﴿فَطَفِقَ مَسْحًۢا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ﴾ عرقبها وقتلها، وما الدليل على هذا القول؟ قالوا:

أولاً: قوله ـ جل وعلا ـ ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِيِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ﴾ ذكر العشي له معنى، والعشي هو وقت الزوال إلى الغروب، فلما ذكر العشي ثم توارت بالحجاب إذاً هي الشمس لارتباط الشمس بالعشي، ثم كذلك قوله: ﴿إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى﴾، «عن» على ظاهرها، والأصل أنها عن ذكر ربي وليس مِنْ ذكر ربي، فهي شغلته عن ذكر ربه تبارك وتعالى، قالوا: ويحتمل أنها صلاة العصر ويحتمل أنه ورد كان يصليه، وليس شرطاً أن يكون ترك واجباً، لكن ممكن أن يكون ترك أمراً مستحباً، والأصل أن تؤخذ الآية على ظاهرها ﴿عَن ذِكْرِ رَبِّى﴾ ولماذا قتلها إذاً؟ قالوا: قتلها، وأمر الناس أن يأكلوها، ولماذا فعل ذلك؟ قالوا لئلا تشغله مرة ثانية، ولذلك جاء عن عمر رضي الله عنه أنه لما تأخر عن الصلاة تبرع ببستانه لئلا يشغله مرة ثانية عن الصلاة، فقالوا: فعل ذلك سليمان حتى لا تشغله مرة ثانية عن الصلاة، قالوا: وقد يكون هذا سائغاً في شريعتهم لأن الشرائع تختلف، بل قد جاء في شريعتنا ما يؤيد ذلك، وذلك لما ذهب النبي ﷺ إلى تبوك ومروا بمدائن صالح طبخوا في القدور، فأمر بكسر القدور وإراقة الطعام صلوات الله وسلامه عليه حتى قالوا له: أو نغسلها ولا نكسرها، فقال: اغسلوها. لكن أمر بإراقة الطعام؛ لأنهم لا يجوز لهم أكله، ومع هذا أمر بكسر تلك القدور[1]، ودليل ذلك أن من ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه، ولذلك جاءت الآية التي بعدها أن الله عوضه بالريح، ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ

(١) أخرجه الإمام أحمد (٥٩٤٨)، وليس فيه الأمر بكسر القدور، ومسلم (٢٩٨١).



أَصَابَ ﴿٣٦﴾ [ص] فلما ترك الخيل لله ـ جل وعلا ـ عوضه الله بالريح، والريح أقوى من الخيل وأسرع ولا تحتاج مؤونة ولا كلفة ولا عناية ولا شيء، فعوضه الله خيراً من الخيل لما تركها لله ـ جل وعلا ـ.

فالقصد أن كلا الأمرين محتمل، يحتمل أنه أراد حتى توارت بالحجاب: الشمس، ويحتمل حتى توارت بالحجاب الخيل والعلم عند الله ـ جل وعلا ـ.

الكلام على فتنة سليمان عليه السلام:

قال الله ـ جل وعلا ـ: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾﴾ [ص] وهذا على سنة الله ـ جل وعلا ـ كما قال: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾﴾ [العنكبوت] إذاً الفتنة سنة جارية.

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾﴾ [ص] ما الجسد الذي ألقي على كرسيه؟

القصة الأولى: وهي قصة مكذوبة باطلة، زور وبهتان، قالوا: إن سليمان عليه السلام كانت قوته وملكه في خاتمه، ولذلك اشتهر عند الناس: «خاتم سليمان»، وأنه بدون هذا الخاتم لا يستطيع أن يفعل شيئاً، وكان لا يدخل به إلى الحمام، فأراد يوماً أن يدخل الحمام فأعطاه زوجته جرادة، فجاءها الشيطان وتصور بصورة سليمان، فقال لها: أين الخاتم، فأعطته الخاتم، فلبسه الشيطان ثم صار هو الملك، الكلُّ يخدمه وسُخِّر له الريح وسُخِّر له كل شيء، فلما خرج سليمان قال: أين الخاتم؟ قالت: ألست أخذته، فذهب يهيم على وجهه وحكم الشيطان مدة طويلة مكان سليمان عليه الصلاة والسلام حتى ذهب يوماً إلى البحر، فاصطاد سمكة وفتحها فوجد الخاتم فيها وكان الشيطان ألقاه في البحر، فلبسه وعاد له ملكه، قالوا هذه فتنة سليمان، وهذه قصة باطلة وزور؛ لأن



الشيطان لا يمكن أن يتمثل بصورة سليمان عليه السلام، ولذلك قال النبي ﷺ: «**إن الشيطان لا يتمثل بي**»(١) أي: لا يمكن أن يتمثل بصورة الأنبياء وإلا كان الأمر في غاية الفوضى يتشكل الشيطان بصورة نبي ويأتي يأمر الناس بالكفر، ويأمرهم بمعصية الله تبارك وتعالى ولا يعرف الناس هل هذا نبي أو شيطان.

الكلام الصحيح في فتنة سليمان عليه السلام:

قال سليمان عليه السلام: «**لأطوفن الليلة على تسعين امرأة تأتي كل واحدة منهن بفارس يقاتل في سبيل الله**» يعني: من زوجاته.

قال رسول الله ﷺ: «**ولم يقل إن شاء الله**» نسي أن يقول إن شاء الله «**فولدت واحدة منهن نصف إنسان**»(٢)، وهو الصحيح، وأن الذي أُلقي على كرسي سليمان هو هذا الصبي الذي هو نصف آدمي، ثم أناب: أي رجع إلى الله عز وجل؛ لأنه نسي أن يقول إن شاء الله.

سليمان عليه السلام يريد الدنيا لتعينه على آخرته:

قال سليمان بعد ذلك صلوات الله وسلامه عليه: ﴿رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ﴾ [ص: ٣٥] طلب ملكاً لا يكون لأحد من بعده.

وقد يسأل سائلٌ كيف يطلب نبي الله الدنيا، والمعلوم أن أنبياء الله عليهم السلام أزهدُ الناس في الدنيا.

فالجواب: أنه ما أراد الدنيا لأجل الدنيا وإنما أراد الدنيا ليتقرب بها إلى الله تبارك وتعالى، وهذا حق، ولذلك كان سعد بن عبادة رضي الله عنه

(١) أخرجه البخاري (١١٠)، ومسلم (٢٢٦٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) أخرجه البخاري (٣٤٢٤)، ومسلم (١٦٥٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وهو المعروف بسيد الخزرج الذي منذ أن هاجر النبي ﷺ إلى المدينة إلى أن توفاه الله ـ جل وعلا ـ قريباً من عشر سنين، ما مر يوم كما ذكر أهل السير إلا وسعد بن عبادة يهدي للنبي ﷺ في كل يوم، وذكروا أنه من دعائه رضي الله عنه: «اللهم إني لا أصلح للفقر ولا يصلح لي الفقر، فاللهم أغنني من فضلك» وذلك أنه كان كريماً رضي الله عنه، وسليمان صلوات الله وسلامه عليه ما أراد الدنيا للتكثر منها.

ولكن كما مر بنا في الحديث السابق أنه قال: «**لأطوفن الليلة على تسعين امرأة تلد كل واحدة منهن مجاهداً يقاتل في سبيل الله تبارك وتعالى**»، إذاً إنما طلب مُلْكَ الدنيا صلوات الله وسلامه عليه ليقيم الحق، ليقيم الدين، لينشر العدل، كما قال أخوه عليه السلام: ﴿ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٥] فهذا جائز لا شبهة فيه.

واستجاب الله تبارك وتعالى دعاء نبيه سليمان، وما أنكر عليه هذا الدعاء؛ لأنه الله تعالى عرف لماذا طلب سليمان الملك فقال ـ جل وعلا ـ: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ۝٣٦﴾ [ص] وقال في آية أخرى: ﴿وَلِسُلَيْمَـٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا ۚ﴾ [الأنبياء: ٨١] وقال: ﴿وَلِسُلَيْمَـٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ﴾ [سبأ: ١٢]، كانت الريح تتجه حيث أراد نبي الله سليمان صلوات الله وسلامه عليه من بلاد الشام المباركة، قال قتادة: «تغدو مسيرة شهر وتروح مسيرة شهر في يوم واحد»، تغدو: أي فترة الغدو في الفجر مسيرة شهر، تقضيها في هذه الفترة القصيرة، كذلك مسيرة شهر في الرواح وهو عودة الطيور إلى أوكارها بعد غدوها كما قال النبي ﷺ: «**تغدو خماصاً وتروح بطاناً**»[1].

وذكر الله تبارك وتعالى أنه مما أعطى سليمان صلوات الله

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٤٤)، وابن ماجه (٤١٦٤) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وهو في «صحيح الجامع» (٥٢٥٤).



وسلامه عليه ﴿وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ﴾ [سبأ: ١٢] وهي عين من نحاس أسالها الله له وذُكر أنها كانت في اليمن، أسيلت له ثلاثة أيام، ثم قال: ﴿وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾ [سبأ: ١٢]، الجن خدم بين يدي سليمان صلوات الله وسلامه عليه، على مختلف أشكالهم مؤمن الجن وكافر الجن، كلهم يعملون تحت يديه، إما أن يعمل باختياره وإما أن يُرغم على العمل وإما أن يسجن، كما قال الله تبارك وتعالى ﴿وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ﴾ [سبأ]. الجفان هي: الصحون الكبيرة، ﴿كَٱلْجَوَابِ﴾: كالحياض، والحياض هي أماكن شرب الإبل، ﴿وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ﴾ القدر الذي يعمل فيه الطعام، ﴿رَّاسِيَٰتٍ﴾ أي ثابتات، قدور كبيرة ثابتة، وقال الله - جل وعلا - عن الجن بل عن شياطين الجن وهم الكفرة من الجن: ﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾﴾ [ص] بعض الجن من الشياطين بناؤون يبنون لسليمان وآخرون غواصون يغوصون في البحر يخرجون له درر البحر، قال: ﴿وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾﴾ [ص] وهم الذين يعصون أمره يكبلهم ويقيدهم في الأصفاد.

عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قام فينا رسول الله ﷺ فصلى إحدى الصلوات، فسمعناه يقول: «**أعوذ بالله منك، ألعنك بلعنة الله**» وكرر هذا ثلاث مرات، ثم بسط يده كأنه يُمسك بشيء فلما فرغ من الصلاة؛ قلنا: يا رسول الله سمعناك تقول في الصلاة شيئاً لم نسمعك تقوله قبل ذلك، ورأيناك بسطت يدك فقال صلوات الله وسلامه عليه: «**إن عدو الله إبليس جاء بشهاب من نار ليجعله في وجهي، فقلت: أعوذ بالله منك ثلاث مرات، ثم قلت: ألعنك بلعنة الله ثلاث مرات، فلم يستأخر**» يعني: ما ابتعد الشيطان يقول: «**ثم أردت أخذه**» يعني: لما بسط يده صلوات الله وسلامه عليه «**والله لولا دعوة أخينا سليمان لأصبح موثقاً**»، يعني:

لأمسكته وأوثقته، «**يلعب به ولدان أهل المدينة**»، تذكر دعوة أخيه سليمان ﴿وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ﴾ [ص: ٣٥][(١)]، وتركه تأدباً مع أخيه سليمان صلوات الله وسلامه عليهما.

ما اتهم به سليمان من الكفر:

ذكر أهل التفسير أن نبي الله سليمان كان يتتبع ما في أيدي الشياطين من السحر، وذكروا أنه كان يدفنه تحت كرسيه صلوات الله وسلامه عليه، وكانت الشياطين تعجز عن أن تصل إلى هذا السحر، فلما مات صلوات الله وسلامه عليه قالت الشياطين: إن سليمان كان يسخر الريح والشياطين بالسحر الذي يدفنه تحت كرسيه، يعني: هو الذي كان يعمل السحر، وكان الناس على قولين، بين متهم لنبي الله سليمان وبين مبرء له، أيصدقون ما تقوله الشياطين عن نبي الله سليمان أنه فعلاً كان يستخدم السحر الذي وجدوه تحت كرسيه أو أنهم يكذبون عليه.

واتُهِم كذلك بتهمة ثانية ﷺ، وهي أنه عبد الأصنام، وهذا ما اتهمه به اليهود جاء في العهد القديم وهذا في سفر الملوك الإصحاح الحادي عشر: «وكان في زمان شيخوخة سليمان أن نساءه أملن قلبه وراء آلهة أخرى ولم يكن قلبه كاملاً مع الرب إلٰهه كقلب داود أبيه، فذهب سليمان وراء عشتروش إلهة الصدونيين وملكوم رجس العمونين وعمل سليمان الشر في عيني الرب ولم يتبع الرب تماماً كداود أبيه، حينئذ بنى سليمان مرتفعة لكموش رجس المُآبيّين على الجبل الذي تجاه أورشليم، ولملوك رجس بني عمول، وهكذا فعل لجميع نسائه الغريبات اللواتي كن يوقدن ويذبحن لآلهتهن، فغضب الرب على سليمان؛ لأن قلبه مال عن الرب إلٰه إسرائيل الذي تراءى له مرتين»، إلى آخر هذا الهذيان وهذا الكفر

(١) أخرجه مسلم (٥٤٢) من حديث أبي الدرداء ﷺ، وبنحوه البخاري (٤٦١)، ومسلم (٥٤١) من حديث أبي هريرة ﷺ.



الذي طفح به هذا الكتاب، وهو ما يسمونه التوراة وهم كذبوا على الله تبارك وتعالى وكذبوا على سليمان وحرفوا وزوروا في هذه التوراة.

استمر هذا الاتهام لسليمان عليه الصلاة والسلام هل كفر صلوات الله وسلامه عليه أم أنه بريء؟ استمر هذا الأمر حتى برأه الله ـ جل وعلا ـ على لسان محمد ﷺ حينما أنزل الله قوله ـ جل وعلا ـ: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ﴾ [البقرة: ١٠٢] هذا الذي يسمى بالتولة، وقال النبي ﷺ: «**التولة شرك**»(١)، والتولة هو السحر الذي يصنع للزوجين إما لتقريب القلوب وإما لتفريقها، يقول الله ـ جل وعلا ـ: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ﴾ [البقرة: ١٠٢] أي: في دينهم ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٠٢] فبرأ الله ﷻ سليمان عليه السلام مما اتهم به من السحر، فقال: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ﴾ [البقرة: ١٠٢] الذين اتهموه وكذبوا على الناس هم الذين كفروا، لأنهم هم الذين كانوا يعلمون الناس السحر.

بصيرة سليمان عليه السلام في الحكم:

الحكم الأول: في قول الله ـ جل وعلا ـ: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ﴾ [الأنبياء] قضية طرحت على

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٨٨٣)، وابن ماجه (٣٥٣٠) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، وهو في «صحيح الجامع» (١٦٣٢).



نبي الله داود عليه السلام أن رجلين جاءا لنبي الله داود عليه السلام، فقال أحدهما له: إن غنم هذا دخلت إلى حقلي، وأفسدت زرعي، قال: ﴿نَفَشَتْ﴾ ولم يقل عاثت فساداً، ولم يقل دخلت، وإنما قال: ﴿نَفَشَتْ﴾، هذا معناه أنها دخلت ليلاً، والإنسان مسؤول عن إبله وغنمه ودوابه ليلاً، وغير مسؤول عنها نهاراً، ففي النهار يجب على صاحب المزرعة أن يحمي مزرعته؛ لأن هذه دواب وبهائم يتركها صاحبها ترعى، وعلى صاحب الدواب أن يمنعها من الخروج ليلاً، فهذا تركها تخرج ليلاً، فأفسدت حقل صاحبه، فقال له نبي الله داود: ما تقول؟ قال: هو كما قال، فسأل نبي الله داود عن قيمة هذا الزرع، فذكر له مبلغ، ولنفرض أنه أربعون ألفاً، فنظر في الغنم كم قيمتها؟ فإذا قيمة الغنم كقيمة ما أفسدت، يعني كانت قيمتها أربعين ألفاً، فقال: خذ غنمه مكان ما أفسد من الزرع، هذا حكم داود عليه السلام، وهو صواب، فلما حكم داود عليه السلام سكت الرجلان وقبلا، وكان مَلِكاً قاضياً.

وهنا تدخل سليمان، وقال: يا أبي تسمح لي أن أحكم؟ قال: نعم احكم، قال: يأخذ صاحب المزرعة غنم هذا الرجل فيستفيد منها في الفترة التي يقوم صاحب الغنم بإصلاح المزرعة كما كانت، يعني: صاحب الغنم يصلح المزرعة، وخلال فترة إصلاحه المزرعة حتى لا يتباطأ في إصلاحها ولا يتماهل يأخذ صاحب المزرعة الغنم فيستفيد من لبنها خلال هذه الفترة، ثم بعد ذلك يعيد له المزرعة كما كانت ويعيد له الغنم كما كانت، فيتحمل هذا ما أفسدت الغنم في العمل على إصلاح هذه المزرعة، ويستفيد صاحب المزرعة الفترة التي أفسدت فيه مزرعته يستفيد من لبن الأغنام، ففرح داود بهذا الحكم، فحكم داود صحيح وحكم سليمان أصح، لذلك قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ﴾ [الأنبياء] أي: فهمنا سليمان الحكم الأصح في هذه

المسألة، ثم حتى لا يعيب أحد على داود عليه السلام حكمه؛ قال ـ جل وعلا ـ: ﴿وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [الأنبياء: ٧٩].

الحكم الثاني: أخبر النبي ﷺ أنهما كانتا امرأتان معهما ابناهما، هذه لها ابن وهذه لها ابن، فجاء الذئب فأكل أحدهما، فاختصمتا كل واحدة تقول: الذئب أكل ابن الأخرى، فاختصمتا عند داود صلوات الله وسلامه عليه، فصار يسألهما، سأل هذه وسأل هذه، ثم بعد ذلك تبين له من خلال ما سمع صلوات الله وسلامه عليه أن الابن الذي أخذه الذئب هو ابن الصغرى وقضى بالابن للكبرى، وكان سليمان حاضراً فقال: يا أبي أحكم بينهما؟ قال: نعم احكم بينهما، وكان يرى فيه النجابة والعلم والفهم، فأمر بالسكين فأُوتي بها فقال: سأقطع الولد نصفين لأنه يحتمل أن الذئب أخذ ابن الكبرى، ويحتمل أنه أخذ ابن الصغرى، فإن أعطيناه الكبرى أو أعطيناه الصغرى ظلمنا الأخرى إذا كان خطأ وليس هناك دليل قاطع يحكم من خلاله أهو للكبرى أو للصغرى، فقال: فقالت الكبيرة: نعم لا مانع اقطع، أما الصغرى فقالت: لا تفعل هو ابنها، فعرف سليمان صلوات الله وسلامه عليه أن الابن للصغرى وذلك أن شفقة الأم ظهرت ولو كان ابن الكبرى لم تقل اقطعه[1].

القضية الثالثة: التي قضى بها سليمان وهي من مرويات بني إسرائيل، ليست في القرآن ولا في السنة، ومرويات بنى إسرائيل نقول فيها: لا نُصَدِّق ولا نُكَذِّب، ونقول: الله أعلم.

وهذه القصة مفادها أن امرأة من بني إسرائيل حسناء راودها أربعة من رؤسائهم عن نفسها، فأبت عليهم، فذهب هؤلاء الرؤساء إلى داود عليه الصلاة والسلام قالوا: إن هذه المرأة عندها كلب دربته تدريباً،

(١) تقدم تخريجه ص٢٥٦.



بحيث أنه يفعل معها الفاحشة، ورأيناها تفعل الفاحشة مع الكلب، فأمر برجمها.

وقد يقول قائل: أين حكم داود عليه الصلاة والسلام؟ وفي الغنم فهمها سليمان وفي الولد أيضاً فهمهم سليمان، والآن هنا أمر بقتلها وهي بريئة، نقول: لا ننسى أن الأحكام التي حكم فيها داود وأصاب صلوات الله وسلامه عليه كثيرة، حيث حكم أربعين سنة وهذا إن صحت هذه القصة، وبالنسبة للغنم قلنا: إن حكم داود صحيح وحكم سليمان أصح، وأما في الغلام، فهو كما قال النبي ﷺ: «**إنكم تختصمون إليّ ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأحكم له، فإذا قضيت له فإنما هي جمرة من النار فليأخذها أو ليدعها**»(١) فالنبي صلوات الله وسلامه عليه سواء كان محمداً أو داود أو سليمان أو غيرهم من الأنبياء لا يعلمون الغيب، الذي يعلم الغيب هو الله ـ جل وعلا ـ.

لما شهد هؤلاء الأربعة عنده على هذه المرأة أنها زنت مع هذا الكلب، أمر برجمها، وشك سليمان عليه الصلاة والسلام ووقع في قلبه أنها بريئة، وهذه قصة ذكروا أنها كانت في صغره، أول قضية تَدَخَّل فيها، فشك بأن هؤلاء الرجال كَذَبَة فيما ادعوا على هذه المرأة، فجمع مجموعة من أصحابه، صبية معه ونادى والده وقال: أنه عمل مثل التمثيلية، فقال لهم: تعالوا اشهدوا عندي وأنا القاضي أن فلاناً فعل كذا مع الكلب فقالوا: نعم، فجاؤوا وشهدوا عنده فقال لهم: اخرجوا، فأمر بإخراجهم فأدخلهم واحداً واحداً فلما دخل الأول قال له: ما لون الكلب؟ قال: أحمر، فنادى الثاني قال: ما لون الكلب؟ قال: أسود، قال: اخرج، قال: ما لون الكلب، وقال الثالث: أصفر، وقال الرابع: أحمر، فاختلفوا في لون الكلب ففطن داود عليه الصلاة والسلام

(١) تقدم تخريجه.



فاستدعى الرؤساء بعدما رجمت المرأة، فسألهم عن لون الكلب، وقد تكون هناك أسئلة أخرى، ما لون الكلب، متى كان هذا؟ بأي مكان؟ في أي ساعة؟ كيف رأيت؟ وهكذا لكن المهم أنه سألهم، كل واحد منهم على انفراد، فاختلفوا، فعرف أنهم كَذَبَة فقتلهم بها، هذه هي بعض القضايا التي حكم فيها سليمان صلوات الله وسلامه عليه.

هل بنى سليمان عليه السلام بيت المقدس:

المشهور عند الناس أن نبي الله سليمان هو الذي بنى بيت المقدس وهذا صحيح وغير صحيح، صحيح هو بنى بيت المقدس، لكن غير صحيح أنه أول من بنى بيت المقدس، وإنما هو جدد بناءه، والذي بنى بيت المقدس هو نبي الله يعقوب صلوات الله وسلامه عليه، كما جاء في حديث أبي ذر أنه سأل النبي ﷺ، أي مسجد في هذه الأرض أول؟ فقال: «**المسجد الحرام**» قال: ثم أي؟ قال: «**المسجد الأقصى**»! قال: كم بينهما؟ قال: «**أربعون سنة**»[1] أربعون سنة هي الفترة التي بين إبراهيم عليه الصلاة والسلام الذي بنى المسجد الحرام وبين حفيده يعقوب الذي بنى بيت المقدس، وإلا فإن سليمان بينه وبين إبراهيم أكثر من ألف سنة، فالصحيح أن الذي بنى بيت المقدس هو يعقوب صلوات الله وسلامه عليه، وإنما سليمان جدد بناءه وثبت أركانه.

وفاة سليمان عليه السلام:

قال الله ـ جل وعلا ـ: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾﴾ [سبأ] قدر الله تبارك وتعالى أنه مات وهو مستند على عصاه، ولا يعلم أحد أنه ميت فاستمروا في العمل حتى

(١) تقدم تخريجه ص١٥٥.



جاءت دابة الأرض أي: الأرضة[1] فصارت تأكل العصا من أسفل سقط نبي الله سليمان وعرفوا أنه كان قد مات، وهذا فيه أن الله أراد أن يبين للناس أن دعوى الجن أنهم يعلمون الغيب كذب وزور، ﴿لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾ إذ لو كانوا علموا أن سليمان قد مات كانوا خرجوا وتركوا العمل، كم المدة التي بقي فيها سليمان على كرسيه مستنداً على عصاه؟ لا تعلم هذه المدة، قيل سنة وقيل غير ذلك، ولكنه بعيد جداً أن تكون سنة فهو عنده زوجات وعنده أولاد ويأكل ويشرب وينام، فصعب جداً أن يكون لمدة سنة مستنداً على عصاه، فلا يصح في هذا شيء، المهم أنها فترة زمنية كان فيها سليمان صلوات الله وسلامه عليه ميتاً والجن تعمل تظنه حياً، هذا الذي يهمنا في هذا الأمر وهو أن الله فضحهم في دعواهم أنهم يعلمون الغيب.

الدروس والعبر المستفادة من قصة سليمان عليه السلام

أولاً: كمال اعتناء الله بأنبيائه ورسله، من التربية والرعاية.

ثانياً: ما مَنَّ الله به على سليمان صلوات الله وسلامه عليه من كمال الدين وكمال الخلق والفطنة والفهم.

ثالثاً: أن سليمان صلوات الله وسلامه عليه قدم محبة الله على كل شيء، وهذا على القول بأنه قتل الصافنات الجياد، ذبحها تقرباً لله ـ جل وعلا ـ لأنها ألهته عن طاعته.

رابعاً: أن كل ما شغل عن الطاعة فعلى الإنسان أن يفارقه، كما فعل نبي الله سليمان صلوات الله وسلامه عليه.

---

(١) **الأَرَضَة**: دودة أو دُوَيْبَة تأكل الخشب ونحوه، ويقال: خشبة مأروضة. «المعجم الوجيز» (ص١٣).



خامساً: من ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه، فلما ترك نبي الله سليمان الخيل عوضه الله الريح.

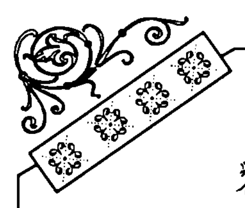
سادساً: أن تسخير الشياطين لا يكون لأحد بعد سليمان، وكل من ادعى أنه يسخر الشياطين وأنها تخدمه رغماً عنها كذاب؛ لأن سليمان صلوات الله وسلامه عليه قال: ﴿وَهَبْ لِي مُلْكًا لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِيٓ﴾ [ص: ٣٥]، فأي إنسان يأتيك ويدعي أنه تخدمه الشياطين؛ فاعلم أنه كذاب فهي إن خدمته فباختيارها لا بتسخيره لها، وإنما تخدمه لأنه يخدمها فيكون هناك تبادل منافع أو مضار؛ لأنها لا تخدمه إلا إذا كفر بالله ـ جل وعلا ـ أما أن تسخر له الشياطين وأنها ترغم على خدمته فهذا باطل.

سابعاً: أن الله تبارك وتعالى أعطى سليمان مُلْكاً عظيماً ومع ذلك ما غره ذلك المُلْك بل كان عبداً تقياً لله ـ جل وعلا ـ.

ثامناً: أن الإنسان لا يستعجل في الأمور ويستشير من معه كما فعلت ملكة سبأ لما استشارت قومها وقالت لهم: أشيروا عليّ.






قصة كليم الله موسى عليه السلام

هو أعظم أنبياء بني إسرائيل، كليم الله، أحد أولي العزم من الرسل، النبي الرسول الكريم الذي ما ذُكر نبي في القرآن بعد رسول الله ﷺ أكثر من ذكره، حتى ورد ذكره في كتاب الله تبارك وتعالى ستاً وثلاثين مرة بعد المئة.

هو: موسى بن عمران من نسل يعقوب عليه الصلاة والسلام.

ذكره الله تبارك وتعالى كثيراً في كتابه العزيز، وجاء التفصيل في ذكره في أربع سور: في سورة البقرة، والأعراف، وطه، والقصص، وذُكِر في سور أخرى كثيرة.

أمته التي أرسل فيها هي أعظم الأمم بعد أمة نبينا محمد ﷺ، وهي أفضل الأمم في زمانها كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [البقرة] أي: في زمانهم. وأمة نبينا محمد ﷺ خيرٌ منهم، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، كتابه التوراة التي خطها الله تعالى بيده.

السبب في كثرة ذكر موسى عليه السلام:

تكرر اسمه كثيراً في كتاب الله تبارك وتعالى مما يدلّ على أن الله يريد منا أن نتدبر أحواله، وما لاقى من المشاقّ، والتعب، والأذى، والفتنة، حتى قال الله تبارك وتعالى له: ﴿وَفَتَنَّٰكَ فُتُونٗا﴾ [طه: ٤٠]، فَفُتِنَ موسى عليه السلام كثيراً كما سيأتي ذلك مفصلاً في حديثنا عنه صلوات الله وسلامه عليه.



وأُرسلَ موسى إلى أعتى ملوك الأرض في زمانه، ولعله كذلك أعتى ملوك الأرض بعد زمانه، أُرسل موسى ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ في بني إسرائيل، وبنو إسرائيل أمَّةٌ سكنتْ مصرَ، ومكَّن الله لها في الأرض، وهم نسلُ يعقوب عليه الصلاة والسلام، فيعقوب هو إسرائيل.

بنو إسرائيل تسلط عليها فرعون الطاغية المتجبر أعتى ملوك الأرض، وأقدمهم عرشاً، وأثبتهم مُلْكاً، وأعرقهم مدينة، وأشدهم تعبداً للناس واستكباراً في الأرض، ادّعى الربوبية، وادّعى الألوهية، قال جلا وعلا عنه: ﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ [النازعات]، وقال كذلك: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: ٣٨]، واستهزأ برسول الله موسى عليه السلام، وادّعى أنه خيرٌ منه، فقال: ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَـٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾﴾ [الزخرف]، وهكذا ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الزخرف].

مَرَّ بنا في قصة يوسف عليه السلام أنه استقرّ هو وأبوه وإخوته في مصر، وكان ملوك مصر يعرفون ليوسف قدره، ومكانته، وفضله، وذلك أنه بفضل الله تبارك وتعالى أوَّلَ رؤيا الملك، وكان في تأوليه لتلك الرؤيا أن عمّ الخير على مصر دون سائر البلاد، وتميزت عن غيرها، وقد فرح به الملك كثيراً، حتى جعل يوسف عزيزاً على مصر ـ أي: وزيراً مقرباً ـ، وراحت سنون، وجاءت سنون أخرى حتى جاء فرعون آخر لمصر، وذلك أن كل ملك لمصر يقال له: «فرعون»، حتى جاء فرعون الذي يقال له: الوليد بن مصعب، وهو فرعون موسى عليه السلام، نَسي فضل يوسف، ولم يعرف لبني إسرائيل قدراً، وبلغه أن رجلاً من بني إسرائيل سيكون على يديه ذهاب مُلْكه، وذلك في رؤيا رآها أزعجته.

قال سعيد بن جبير: سألت عبد الله بن عباس عن قول الله عز وجل لموسى عليه السلام: ﴿وَفَتَنَّـٰكَ فُتُونًا﴾ [طه: ٤٠] فسألته عن الفتون ما هو؟ فقال لي:



استأنَفَ النهارُ يا ابن جبير ـ يعني: نحن الآن في وسط النهار ـ فإن لها حديثاً طويلاً فاتركني، يقول: فلما أصبحت غدوت على ابن عباس لأتنجز منه ما وعدني من حديث الفتون، فقال ابن عباس: تذاكر فرعونُ وجلساؤه ما كان الله ﷻ وعد إبراهيم أن يجعل في ذريته أنبياء وملوكاً، فقال بعضهم: إن بني إسرائيل ينتظرون ذلك، وما يشكون فيه، وكانوا يظنون أنه يوسف بن يعقوب ﷺ فلما هلك، قالوا: ليس هكذا كان وعد إبراهيم، فقال فرعون: فكيف ترون؟ فأتَمِروا[١]، فأتَمَروا وجمعوا أمرهم على أن يبعث رجالاً معهم الشِفار ـ أي: السكاكين ـ يطوفون في بني إسرائيل، فلا يجدون مولوداً ذكراً إلّا ذبحوه، خوفاً من أن تصدق مقولة إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه، ففعلوا ذلك فلمّا رأوا أن الكبار من بني إسرائيل يموتون بآجالهم والصغار يُذبحون قالوا: تُوشِكون أن تُفنوا بني إسرائيل، فتصيروا أن تباشروا من الأعمال والخدمة التي كانوا يكفونكم، فاقتلوا عاماً كل مولود ذكر، ودعوا عاماً فلا تقتلوا منهم أحداً.

هكذا أمر فرعون بعد أن أشار عليه حاشيته بقتل الذكور فقتلوهم، ثمّ بعد ذلك صاروا يقتلون عاماً، ويتركون عاماً آخر؛ خوفاً من فناء بني إسرائيل الذين كانوا معبدين لخدمة القبط، فترك عاماً وقتل عاماً، قال ﷻ: ﴿نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۝٣ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٤﴾ [القصص] وكان لا يذبح الإناث؛ لأنه لا خوف من النساء في ذلك الزمان.

---

(١) أي: اعقدوا مؤتمراً.



ميلاد موسى عليه السلام وخوف أمه عليه:

ولد موسى صلوات الله وسلامه عليه في العام الذي يُذبح فيه الأولاد الذكور، وولد هارون قبله في العام الذي ما كان يذبح فيه فرعون، فلما حملتْ أم موسى بموسى صلوات الله وسلامه عليه؛ خافت عليه؛ لأنه العام الذي يقتل فيه فرعون كل مولود ذكر، فماذا تصنع أم موسى؟ وكان الله تبارك وتعالى قد أخفى حملها، فلم تعلم القابلات[1]، لم يشْعُرْنَ بحملها، فلما وضعته خافتْ عليه خوفاً شديداً، ماذا تصنع به؟

قال الله تبارك وتعالى لموسى عليه السلام: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِى ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ ﴿٣٩﴾﴾ [طه] أمْرٌ من الباري ـ جلا وعلا ـ لأم موسى: اجعلي موسى في تابوت، واجعلي التابوت الذي هو الصندوق في النهر ـ نهر النيل ﴿وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ﴾ [القصص: ٧]، فصنعت ما أمرها الله به، وذكر بعض أهل التفسير أنها كانت وضعته في التابوت، وربطت في التابوت حبلاً، فإذا جاء أتباع فرعون يسألون عن الأولاد؛ تركت التابوت يسير، والحبل مربوط، فإذا ذهبوا جرّت الحبل، وأخرجت موسى من التابوت، فذكروا أنهم جاؤوها يوماً، فوضعته في التابوت، ونسيت أن تربط الحبل، فلما رجعت إليه وإذا قد سار به الماء.

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّى وَعَدُوٌّ لَّهُۥ﴾، وقال في آية أخرى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ﴾ [القصص: ٧] أي: إذا وُلِدَ ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ﴾ [القصص: ٧] يعني: من قتل فرعون له ﴿فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ﴾ [القصص: ٧]، وهذا أمر عجيب، بدَل أن يقول لها: فإذا خفت عليه فأخفيه، يقول لها: ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ﴾، ابتلاءٌ من الله

(١) أي: النساء اللاتي ينظرنَ في الحُمَّل من النساء.



تبارك وتعالى لأم موسى صلوات الله وسلامه عليه ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِيٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

ثم قال تبارك وتعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ﴾ هذا الوحي وحي إلهام، وليس هو الوحي الذي يأتي الرسل، وهو مثل قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾ [النحل: ٦٨].

ألهم الله تبارك وتعالى أمّ موسى أن تفعل هذا الأمر، لا أن الملك نزَل إليها وكلّمها.

وفي هذه الآية ـ كما يقول أهل العلم ـ أمران، ونهيان، وبشارتان في سطر واحد:

فالأمران في قوله: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ﴾.

والنهيان في قوله: ﴿وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِيٓ﴾.

والبشاراتان في قوله: ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾، وهذه هي بلاغة الكتاب العزيز، بلاغة القرآن الكريم.

موسى عليه السلام يُربى في بيت عدوه:

يقول الله جلَّ وعلا: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ﴾ [القصص: ٨] قَدَّرَ الله ألا يلتقطه أحد غير آل فرعون ﴿وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ﴾ [القصص: ٩] وكانت امرأة صالحة، وهي: آسية بنت مزاحم، وذلك بمجرد أن رأته امرأة فرعون ألقى الله ـ جلّ وعلا ـ محبةَ موسى في قلبها، فأحبته حباً شديداً بمجرد أن رأته، فقالت: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ [القصص: ٩]، وقد ذُكر أن فرعون لم يكن له أولاد، فقالت: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾ [القصص: ٩] أي: هذا الغلام إذا كَبُرَ ﴿أَوْ

نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ [القصص: ٩] يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [القصص] لا يشعرون أن ذهاب ملك فرعون سيكون على يد هذا الولد.

يقول ابن عباس: والذي أحلف به لو قال فرعون: نعم قرةُ عينٍ لي ولكِ؛ لكان في هذا هدايته، قلت: ولكن كما قيل: القدر موكل بالمنطق، وذلك أنها لما قالت: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ﴾ قال: أما لكِ فنعم، وأما لي فلا، وكان كما قال، فكان قرة عين لآسية امرأةِ فرعون، فكان دخولها الجنة بسببه، وكان هلاكاً ودماراً على فرعون، حتى دخل النار؛ لأنه قال: «**لا**»، فلم يكن قرة عين له، بل كان عذاباً على فرعون وهو كما قيل:

وإذا العناية لاحظتك عيونها ... نم فالمخاوف كلهن أمان

إذا كان الله تبارك وتعالى هو الذي يرعاه ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾ [طه: ٣٩] من الذي يستطيع أن يؤذيه؟ لا أحد أبداً، إذا كان الله هو الذي يرعاه تبارك وتعالى.

إذا أراد الله عز وجل أمراً كان ولا بد:

فرعون يقتل كل ولد يولد؛ خوفاً من هذا الغلام الذي يكون على يديه ذهاب مُلْكِه، ثمّ يبين الله تبارك وتعالى له أنه إذا أراد شيئاً أمضاه، فكأنه قال لفرعون: أنت لا ترد أمري أبداً، أتدري ـ يا فرعون ـ أنّ هذا الغلام الذي سيكون ذهاب مُلْكِك على يديه أنت الذي ستربيه، وأنت الذي تطعمه وتسقيه، ينشأ في بيتك، ويأكل من طعامك، ويشرب من شرابك، ويكون ذهاب مُلْكِك على يديه، مَنْ أنت حتى تمنع أمر الله تبارك وتعالى؟ وكان الأمر كما أراد الله تبارك وتعالى.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ﴾ [القصص: ٧] بشارة، اطمئني سيرجع إليك موسى، فلا تخافي، ولا تحزني، وحقّقَ الله لها البشارة الأولى: قال ـ جلّ وعلا ـ بعد أن أخذَ آلُ فرعون موسى عليه السلام:



﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا﴾ [القصص: ١٠] يقول أهل العلم: فارغاً من كل شيء إلا من ذكر موسى عليه السلام، لا تفكر في شيء إلّا موسى أين ذهب؟ أخذه اليم إلى أين؟ حيّ؟ ميت؟ هل أخذه أحد؟ هل غرق في البحر؟ ما تدري ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ أي: فلما ربط الله على قلبها لم تُبْدِ بِهِ، وذلك أنها لو أبدتْ به لقالت من وجد غلاماً في اليم؟ كادتْ أن تتكلم، كادتْ أن تصيح: ولدي أين ذهب؟ من أخذه ﴿لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ ربط الله على قلبها، سَكَّنَها، وهدأها تبارك وتعالى لتكون من المؤمنين، عند ذلك ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ﴾ [القصص: ١١] وتتبعي واسألي بين الناس، أنا ما أستطيع أخشى أنني لو خرجت أصيح بين الناس ولا أتحمل، فذهبت أخته تَقُصُّهُ تبحث عنه، قال تبارك وتعالى: ﴿فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ﴾ يعني: عن بُعْدٍ رأته، رأت موسى عليه السلام ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي: لم تشعرهم أنها تنظر إليه أو تبحث عنه كأنها لا تعرفه، المهم عرفتْ من حديث الناس أن فرعون وزوجته وجدا غلاماً، في اليم فعرفتْ أنه موسى عليه السلام.

موسى عليه السلام يرجع إلى أمه:

قال تبارك وتعالى: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ﴾ [القصص: ١٢]، قدّرَ الله تبارك وتعالى لموسى صلوات الله وسلامه عليه أموراً يريدها أن تَقعَ، وأن تَقعَ كما يريد الله عز وجل، وهي:

أولاً: يُولد في السنة التي يُقْتَل فيها الغلمان.

ثانياً: أن يكون في التابوت، في اليم.

ثالثاً: قَدَّرَ لفرعون وزوجه أن يأخذا موسى.

رابعاً: حرَّم عليه المراضع ليرده إلى أمه.

تقدير عظيم من الله تبارك وتعالى، قال: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ﴾ لا



يقبل ثدياً، كلما جاؤوا بمرضعة رفضها، فلا يقبل مرضعة، فقالت أخته: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾ [القصص: ١٢]، قالوا لها: وما يدريك أنهم له ناصحون؟ شكّوا في أمرها، قالت: لشفقتهم عليه، ورغبتهم في قضاء حاجة الملك، ورجاء المنفعة، ولذلك أتوقع هذا.

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ﴾ [القصص: ١٣] فأخذته إلى أمه، ولِمَ؟ ﴿كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ [القصص: ١٣] وذلك لما أوحى الله إليها: ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ﴾ [القصص: ٧]، ﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ لكن ما المشكلة؟ ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القصص: ١٣]، فإن الله إذا أراد أمراً هيأ الأسباب، وأزال الموانع، فيقع ما يريده الله جلّ وعلا.

وقوله ﷻ: ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ﴾ قلت: إنها بشارة من الله ـ جلّ وعلا ـ لأم موسى، وكان كما بشرها الله ﷻ أتاها ابنها إلى بيتها، ولكن بدون خوف، ولو ظل عندها في بيتها لكانت ترضعه، وتجعله في التابوت سنين عدداً، لكن هنا يأتيها معززاً مكرماً من بيت فرعون، وذلك أنهم أتوا بها إلى بيت فرعون، فأرضعته، فقبل ثديها، فقالت لها امرأة فرعون: تبقين عندي، هذا سكنكِ، حتى ترضعي الغلام، فماذا قالت لها أم موسى؟ قالت: لا، أرجع إلى بيتي.

قالت: أعطيك من المال ما تشائين.

قالت: لا، أبقوا ولدكم، وأنا أرجع إلى بيتي. الآن أصبح عندها ثقة تامة بالله تبارك وتعالى، تعرف أنه سيرد إليها بعد ذلك.

فقالت: إذاً تأخذينه معكِ، وتأخذين عليه أجرة، فهي ترضع ولدها بأمان، وتأخذ عليه أجرة، بل ويقال: «هذه أم موسى»، وكانت تخاف أن يقال: «أم موسى»، فأنتِ شرعاً أمه حقيقة، وأمه من الرضاعة أمامهم.

وهو كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ﴾ [البقرة: ٢١٦] كرهت أن تضعه في التابوت، وكرهت ولادة موسى، والآن هو خير لكِ، سيأتيك الخير من حيث لا تشعرين، بل أي شرٍّ أعظم على أم موسى من أن يمسك آلُ فرعونَ موسى؟ وهي ما ألقته في اليم إلا خوفاً من جنود فرعون، فَقَدَّرَ الله ﷻ أن يُربى في بيت فرعون، أنتِ تخافين عليه من جنود فرعون، وأنا أربيه لك في بيت فرعون، فأخذه ورباه في بيته.

موسى عليه السلام يرجع إلى قصر فرعون:

بعد ذلك تمر مرحلة طويلة من حياة موسى، لا ندري ماذا حدث فيها من يوم أرضعته أم موسى حتى بلغ سِنّ الفطام، وطلبته امرأة فرعون، ورجع إليها مرة ثانية.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: قالت امرأة فرعون لأم موسى: ائتيني بولدي، أريد أن يزورني، فواعدتها يوماً أن يأتيها، وقالت امرأة فرعون لخزانها وخدمها: لا يبقين أحدٌ منكم إلّا استقبل ابني اليوم بهدية وكرامة، فاليوم سيرجع البيت بعد سنتين من الفراق، وعلى كل واحد أن يأتيه بهدية لأرى ذلك فيه، وأنا باعثة أميناً يُحصي كل ما يصنع كل إنسان منكم، فلم تزل الهدايا والكرامة والنِحَل تستقبله من حين خرج من بيت أمه إلى حين دخل على امرأة فرعون، فلما دخل عليها نحلته، وأكرمته، وفرحتْ به، وأهدتْ لأمه كذلك لحسن أثرها عليه؛ لأنها أرضعته، ثمّ قالت: لآتين فرعون فليكرمنه ولينحلنه، فلما دخلتْ به على فرعون جعله فرعون في حجره، فأخذ موسى لحية فرعون فجرها إلى الأرض، فقال الغواة الذين يجلسون مع فرعون لفرعون: ألا ترى ما وعد الله نبيه إبراهيم؟ إنه زعم أنه يعلوك ويصرعك، فلعله هذا الغلام، وعندها أرسل إلى الذباحين ليذبحوه، يقول ابن عباس: وذلك من الفُتون ﴿وَفَتَنَّٰكَ فُتُونٗاۚ﴾ [طه: ٤٠]،



فجاءت امرأة فرعون تسعى إلى فرعون، فقالت: ما بدالك في هذا الغلام الذي وهبته لي؟

قال: إنه يزعم أنه سيصرعني. قالت: اجعل بينك وبينه أمراً يعرف فيه الحق، ائتِ بجمرتين ولؤلؤتين، فقربهنَّ إليه، فإذا أخذ باللؤلؤ واجتنب الجمرتين؛ عرفت أنه يعقل ـ وكان عمر موسى سنتين ـ، وإن تناول الجمرتين ولم يرِد اللؤلؤتين؛ علمت أن أحداً لا يؤثر الجمرتين على اللؤلؤتين وهو يعقل، فقرِّبْ ذلك إليه، فتناول موسى الجمرتين. قال: فنزعهما منه مخافة أن يحرق يديه. فقالت المرأة: ألا ترى؟ لا يعقل الغلام. قال: فصرفه الله عنه بعد أن كان همّ به.

من السنتين إلى أن بلغ موسى صلوات الله وسلامه عليه أشُدَّهُ، والله أعلم كيف كانت حياته، ولكن يكفي أنه تربى في بيت فرعون كما قال له فرعون بعد ذلك: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ﴾ [الشعراء: ١٨].

قتل القبطي:

وتمُرُّ هذه المرحلة من حياة موسى صلوات الله وسلامه عليه سريعة.

قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾﴾ [القصص]، وذلك أن بني إسرائيل كانوا قد عزّوا في زمن موسى بعد أنْ كانوا مهانين يُؤذون، ويُضْرَبُون، ويُقْتَلون؛ لأنهم يقولون نحن أخوال موسى بن فرعون، وما علموا أن موسى من بني إسرائيل أصلاً، لكنّهم يفتخرون أن امرأة من بني إسرائيل أرضعتْ ابنَ فرعون، فيقولون: نحن أخوال موسى من الرضاعة، وكان موسى يدافع عنهم، وذلك أنه يدافع عن الحق صلوات الله وسلامه عليه، وقد كانوا مظلومين، وكانت له مكانة ابن فرعون في ذلك الوقت.



يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ﴾ [القصص: ١٥]، دخل وقت الراحة، إما في الظهيرة، وإما بعد العشاء، فوجد رجلين يقتتلان: أحدهما من شيعته ـ أي: من بني إسرائيل ـ ﴿وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ [القصص: ١٥] أي: من القبط ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ [القصص: ١٥] لأن في الأصل أن القبط كانوا هم الظلمة الذين يؤذون بني إسرائيل: يقتلونهم، ويأخذون أموالهم، ويسخرونهم، ويضربونهم.

قال الله جلّ وعلا: ﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ [القصص: ١٥] يعني: ضربه بمَجْمَع يده. وقيل: لَكَمَهُ، فقضى عليه، وكان موسى قوياً صلوات الله وسلامه عليه، فما كان يقصد أن يقتله، ولكن قدَّر الله تبارك وتعالى أن مات ذلك الرجل من تلك الضربة، قال موسى ﷺ: ﴿هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾ [القصص: ١٥] ما قصدتُّ قتله، قصدت ضربه

وهنا قال موسى: ﴿رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى﴾ [القصص: ١٦] لأنه قتله بدون قصد ﴿فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [القصص: ١٦]، وكان موسى هنا قبل البعثة، فأي دين كان عليه موسى؟ دين إبراهيم، دين يعقوب، دين يوسف، دين بني إسرائيل، ثمّ قال موسى عليه الصلاة والسلام ﴿رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ [القصص: ١٧] لن أستخدم هذه القوة لكي أكون عوناً للمجرمين.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ [القصص: ١٨] يخاف أن ينكشف أمره وأنه قتل ذلك القبطي، وذلك صار حديث المدينة، من الذي قتله؟ وما اطلع على هذا إلّا ثلاثة فقط، الله جلّ وعلا، وموسى ﷺ، والإسرائيلي الذي كان معه، فلا أحدٌ يدري من الذي قتل هذا القبطي. ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ﴾ [القصص: ١٨]



يقول لموسى: انصرني على هذا القبطي يا موسى، فاستغاث به اليوم أيضاً، ولأنه كانت له مشاجرة مع قبطي آخر، قال له موسى: ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾ [القصص: ١٨]، كل يوم مشاجرة؟ أمس قُتِلَ الرجل بسببك، واليوم أيضاً مشاجرة؟ ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ۝١٨ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا﴾ [القصص] أراد أيضاً أن يضرب القبطي؛ لأن القبط ـ كما قلنا ـ كانوا يؤذون بني إسرائيل أذية ما بعدها أذية كما قال الله ﷻ: ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾ [البقرة: ٤٩].

قال القبطي: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ﴾ [القصص: ١٩] نحن قلنا: لم يعلم إلا ثلاثة، ولا يدري القبطي أن موسى قتل نفساً بالأمس.

قال أهل العلم: إنما الذي قال هذا هو الإسرائيلي، وذلك أن موسى لما غضب عليه وقال له: ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾ وجاءه مغضباً ظنَّ الإسرائيلي أن موسى سيضربه هو؛ لأنه هدده بقوله: ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ﴾، فخاف أن يقتله موسى، أو أن يضربه صلوات الله وسلامه عليه، فقال: ﴿أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ﴾، فسمع القبطي، وهنا قال: إذاً موسى هو الذي قَتَل القبطي، فهرب القبطي، وصار يصيح: موسى القاتل، موسى القاتل، وذهب إلى فرعون يخبره أن موسى هو القاتل، الإسرائيلي الذي دافع عنه موسى هو الذي فضحه، وقال: ﴿إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾ [القصص: ١٩].

عندها خاف موسى أكثر، مِنْ قبل خاف أن يُعْرف، والآن عُرِف أن موسى هو القاتل، يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ﴾ [القصص: ٢٠] أي: يمشي مشياً سريعاً أو يركب، المهم جاء سريعاً، وهذا الرجل ظاهره أنه من آل فرعون، فكما أنّ آسيةَ امرأةٌ

صالحة، كذلك لا يخلو هذا المجتمع القبطي الكبير من أن يكون فيه أناس صالحون، فجاء الرجل إلى موسى صلوات الله وسلامه عليه، قال: ﴿إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ الذي عليه أكثر أهل التفسير: أن هذا الرجل من أشراف آل فرعون، ومن كبارهم، وكيف عُرِفَ هذا؟ قالوا:

أولاً: قوله تعالى: ﴿رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ﴾ فقيل: الأشراف يسكنون الأطراف، ولا يسكنون وسط البلد، وإنما يسكنون الأماكن البعيدة حتى يأخذوا مساحات كبيرة وذلك بعيداً عن الناس وإيذائهم.

ثانياً: قوله: ﴿إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾ الملأ كبار القوم، إذاً ما يدريه إلّا أنه كان حاضراً معهم، ولكنه يكتم إيمانه ﴿فَٱخْرُجْ﴾ أي: من البلد ﴿إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾.

قال الله جلّ وعلا: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾﴾ [القصص] عندها خرج موسى صلوات الله وسلامه عليه من مصر إلى مدين.

موسى في مدين:

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾﴾ [القصص] إذاً بَيَّن الله تبارك وتعالى أن موسى صلوات الله وسلامه عليه توجه إلى مدين، ومدين بلدة في الأردن، وقيل: تُنسب إلى مديان من أولاد إبراهيم ـ عليه الصلاة والسلام ـ غير إسحاق وإسماعيل، والعلم عند الله ـ جل وعلا ـ، قال: ﴿عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ أخذ منها بعض أهل العلم أنه ما كان يقصد مدين، وإنما كان يقصد الهروب من مصر، وسأل الله ﷻ أن يوفّقه إلى بلد طيب، فوفّقه الله إلى مدين.

قال الله جلّ وعلا: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ



﴿يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ﴾ [القصص: ٢٣]، وماء مدين بئر يسقي منه أهل مدين وجد عليه أمة ـ أي: جماعة ـ من الناس يسقون، ووجد امرأتين تذودان؛ أي: تمنعان غنمهما من الدخول مع غنم الناس، ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُمَا﴾ لأن الأمر لفت نظره، أمر غريب هما جاءتا لتسقيا الغنم، وهنا تمنعان الغنم من أن تسقي أو تشرب الماء ﴿قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ﴾ [القصص: ٢٣] أي: نحن ممنوعتان من السقي، ونحن نَمْنع غنمنا؛ لأنها بهائم لا تفهم، حتى يسقي الرعاة جميعاً، ويذهبون ثمّ نأتي نحن ونسقي لضعفنا، وقبل أن يسألهما موسى ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ ما مِنْ رجلٍ يأتي ليسقي لكما؟ ما مِنْ أخٍ؟ ما مِنْ زوجٍ؟ قالتا: ﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ [القصص: ٢٣] يعني: قبل أن تسأل: السبب الذي من أجله نحن نسقي الغنم، ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا﴾ [القصص: ٢٤] أي: دخل بين الناس، وسقى لهما مع الرعاء صلوات الله وسلامه عليه، حيث أخذته الغَيْرة والحمية لهاتين المرأتين، ورأى أنَّ هؤلاء القوم فيهم غلظة، وسوء أدبٍ مع هؤلاء النساء الضعيفات، فلذلك سقى لهما صلوات الله وسلامه عليه، وذلك أنّ أول من يسقي عادة: الأقوياء، فيأخذون الأمر بالقوة، ولذلك يقول عمرو بن كلثوم:

ونشرب إن وردنا الماء صفواً ويشرب غيرنا كدراً وطيناً

يعني: نحن إذا وردنا الماء، ما مِنْ أحدٍ يتجرأ أن يشرب قبلنا لقوتنا، فدائماً الأقوياء يأخذون أطيب الماء، وأما غيرهم فيأخذون حثالة الماء بعد أن يكون قد اختلط بالطين.

يقول الله ﷻ: ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ﴾ [القصص: ٢٤] أي: بحث عن ظل يجلس فيه، ﴿فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: ٢٤] يشكو إلى الله فقره، ولكن بأدب، أنت يا رب أعطيتني خيراً عظيماً، ومع ذلك أحتاج إلى زيادة فضلٍ، ولذلك الإنسان المؤمن



دائماً لا ينسى فضل الله عليه، وإذا أراد أن يسأل الله ﷻ، فإنه يُستحب له كذلك أن يذكر فضل الله عليه.

قال الله جلّ وعلا: ﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ﴾ [القصص: ٢٥] مباشرة استجاب الله ﷻ له، و(الفاء) هنا تفيد التعقيب؛ أي: مباشرة، ﴿قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ [القصص: ٢٥] ولم يأته الأب؛ لأنه لو كان يستطيع أن يأتيه؛ لجاء وسقى الغنم ﴿إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ﴾ لِمَ؟ ﴿لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾، فذهب موسى عليه السلام إلى أبيهما ودخل عليه يقول الله جلّ وعلا: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ﴾ [القصص: ٢٥] يعني: أخبره بقصته، وكيف أنه خرج من مصر، وكيف أنّ فرعون يذبح أبناءها، ويستحيي نساءها، وأنه خرج خائفاً، وكيف ألقته أمه في اليم، وتربى في بيت فرعون وقتل الرجل، وهكذا ذكر قصته لشعيب عليه السلام أو للرجل الذي جلس عنده الذي هو أبو المرأتين ﴿وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ﴾ [القصص: ٢٥] قال له الرجل: ﴿لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [القصص: ٢٥].

زواج موسى عليه السلام:

قال الله تبارك وتعالى: ﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا﴾ [القصص: ٢٦] لما رأتْ هذا المنظر، وهذا الكلام من موسى، ومن أبيها؛ قالت: ﴿يَـٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ﴾ [القصص: ٢٦]، هو غريب محتاج إلينا، ونحن محتاجون إليه ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦] يعني: لو بحثتَ عن شخص تستأجره لما وجدت مثله، فهو قوي دخل بين الرجال وسقى لنا، وأمين حيث إنه لما سقى لنا تركنا، ولم يكلمنا، ولم يطلب أجراً.

وقيل: إنه لما ذهب مع المرأة إلى أبيها قال لها: كوني خلفي حتى لا أراكِ، وذلك أن الريح كانت تحرك ثيابها، فوجدت فيه الأمانة، فقالت: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ واقتنع الأب بكلام ابنته،



فقال له: ﴿قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖ﴾ [القصص: ٢٧] تكون أجيراً، وهذا يكون مهراً، فليس شرطاً أن يكون المهر مالاً، ولذلك النبي ﷺ زَوَّجَ امرأةً لرجل بما معه من القرآن، على أن يعلمها إياه[١]، قال: ﴿عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَۖ﴾ وجزاك الله خيراً، قال: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ﴾ [القصص: ٢٧] فليس المقصود أن أشقَّ عليك، ولكن ـ أيضاً ـ لا يمكن أن يكون زواج بدون مهر، فقال: ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [القصص: ٢٧]، قال له موسى: ﴿ذَٰلِكَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَۖ أَيَّمَا ٱلۡأَجَلَيۡنِ قَضَيۡتُ فَلَا عُدۡوَٰنَ عَلَيَّۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ﴾ [القصص: ٢٨] وتم الاتفاق بين موسى عليه السلام والرجل.

وقول البنت: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ﴾ قال عنه ابن مسعود رضي الله عنه: أفرس الناس ثلاثة: صاحب يوسف، لما قال لامرأته: ﴿أَكۡرِمِي مَثۡوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗاۚ﴾ [يوسف: ٢١] وصاحبة موسى لما قالت: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦]، وأبو بكر لما استخلف عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

قوله: ﴿أَيَّمَا ٱلۡأَجَلَيۡنِ قَضَيۡتُ﴾ يقول سعيد بن جبير: سألني يهودي من أهل الحيرة أيّ الأجلين قضى موسى؟ جلس موسى عند الرجل ثمان سنوات أو عشر سنوات؟ فقال سعيد بن جبير: لا أدري حتى أقدم على حبر العرب فأسأله، ثمّ آتيك بالجواب، قال: فقدمت فسألتُ ابن عباس، فقال: قضى أكثرهما وأطيبهما إن رسول الله إذا قال فعل[٢].

---

(١) أخرجه البخاري (٥٠٢٩)، ومسلم (١٤٢٥).

(٢) أخرجه البخاري (٢٦٨٤).



المعروف لا يضيع:

قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾ [القصص] يقول الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «جلس إلى الظل، وهو صفوة الله من خلقه، وقد ذُكِرَ أن بطنه لصق بظهره من الجوع، وكان لا يجد إلّا ورق الشجر ليأكله، وبعض البقول»(١).

ولما صنع موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ هذا الجميل في المرأتين؛ كان الجزاء من الله عَزَّ وَجَلَّ سريعاً، فبمجرد أن جلسّ إلى الظل جاءته إحداهما: ﴿إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَاۚ﴾ [القصص: ٢٥]، وهو كما قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾﴾ [الرحمٰن].

من هذا الرجل؟

تُرى من ذلك الرجل؟ أعني الشيخ الكبير والد المرأتين، هناك أقوال كثيرة لأهل العلم، أشهرها قولان:

القول الأول: إنه شعيب النبي.

القول الثاني: إنه رجل صالح من ذرية شعيب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

أما من قال: إنه شعيب النبي؛ فلأن شعيباً عُمِّر كثيراً، والمثل السائر: «عسى عُمْرُك عُمُر شعيب النبي»، ويرون أن عُمُرَ شعيب طويل جداً مع أنه لا دليل على هذا، وأكثر من جاء في طول عمره نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ جلس في قومه ألفَ سنة إلّا خمسين عاماً، وإنما أخذ الناس هذا القول ـ يعني بطول عمر شعيب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ ـ بسبب أنهم ظنوا أن هذا الرجل هو شعيب؛ لأن شعيباً عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ قريب من زمن لوط عليه الصلاة والسلام، ولوط ابن أخي إبراهيم، وإبراهيم ذريته إسحاق، ثمّ يعقوب، ثمّ أبناء يعقوب،

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٦/ ٢٢٧).



حتى جاء موسى عليه السلام، فبينه وبين يعقوب ثمانية أو تسعة آباء، يعني: بين موسى وشعيب عليهما السلام.

والذين قالوا هو شعيب النبي عليه السلام استدلوا بأمور:

الأول: قوله لموسى عليه السلام: ﴿لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص: ٢٥].

الثاني: أنه وصف نفسه بالصلاح: ﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [القصص: ٢٧].

الثالث: اسم المدينة التي ذهب إليها موسى عليه السلام مدين، وهي مدينة شعيب النبي عليه السلام، كما قال تعالى: ﴿أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ [هود: ٩٥].

الرابع: لجوء موسى عليه السلام إليه.

وقال الفريق الآخر: هو رجل صالح من ذرية شعيب عليه السلام، وكذلك استدلوا بأمور:

الأول: إهلاك الله عز وجل الكفار من قوم شعيب عليه السلام، وما بقي إلّا شعيب عليه السلام ومن آمن معه، قال تعالى: ﴿نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾ [هود: ٩٤]، فيُسْتبعد جداً أن قوم شعيب عليه السلام يرون هذه الآية على صدق نبيهم، ثمّ لا يكرمون بناتِه، فيسقون أنعامهم، ويتركون بناتِ نبيهم لا يسقين.

الثاني: البعد الزمني بين شعيب وموسى عليهما السلام، فقد قال شعيب عليه السلام لقومه: ﴿وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٩]، وبين موسى ولوط عليهما السلام مئات السنين، فيُسْتبعد أن يكون شعيب عليه السلام قد عاش كل هذه المدة.

الثالث: لو كان هذا الرجل الصالح هو شعيباً النبي لنُصّ على اسمه، ولقالت المرأة لموسى عليه السلام: إن أبي هو شعيب النبي، أو لما جاءه موسى عليه السلام كان يخبره بذلك، وكذلك لما جاءت المرأة إلى نبي الله

موسى عليه السلام قالت: ﴿إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ [القصص: ٢٥] ولم تقل: إن رسول الله يدعوك، حتى يعرف موسى عليه السلام مع مَنْ يتكلم.

واختار ابن جرير الطبري رحمه الله قولاً ثالثاً، فقال: «وهذا مما لا يُدرك علمه إلا بخبر، ولا خبر بذلك تجب حجته، فلا قول في ذلك أولى بالصواب مما قاله الله جل ثناؤه: ﴿وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ﴾. . .﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ﴾»(١).

فلا نقول هو شعيب ولا نقول ليس شعيباً، بل نقول: علمه عند ربي، والله أعلم.

جواز خطبة الرجل لابنته:

قول الرجل لموسى عليه السلام: ﴿أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَيَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ﴾ [القصص: ٢٧] فيه أن للرجل أن يخطب لابنته، ولهذا قالوا في المثل: (اخطب لابنتك ولا تخطب لابنك)، وذلك أن الابن قد يستطيع أن يدبّر حاله، والآن أصبح عند الناس أن من العيب أن يخطب الرجل لابنته، وإنما ينتظر الخطاب يأتون لابنته، ولا بأس أبداً أن تذهب إلى رجل صالح وتدعوه إلى الزواج من ابنتك، ولذلك عمر رضي الله عنه لما تأيمت حفصة رضي الله عنها بعد موت زوجها؛ ذهب إلى عثمان رضي الله عنه، فقال له: إن حفصة تأيمت فهل لك في الزواج منها؟ فقال: أفكر الليلة. جاءه عثمان فقال: أرى ألا أتزوجها، يقول عمر: فجئت إلى أبي بكر، فقلت له: إن حفصة تأيمت، فهل لك أن تتزوجها؟ يقول عمر: فسكتَ أبو بكر، فلم يردَّ عليّ، ثمّ خطبها رسول الله ﷺ، فجاء أبو بكر إلى عمر، فقال له: لعله كان في نفسك شيء، فقال له: إي

(١) «تفسير الطبري» (١٩/ ٥٦٢).



والله، فقال: والله ما منعني إلّا أني سمعت رسول الله ﷺ يذكرها، فما كنت لأُفشي سر رسول الله ﷺ[١].

وفي ذلك يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَٱمۡرَأَةٗ مُّؤۡمِنَةً إِن وَهَبَتۡ نَفۡسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنۡ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسۡتَنكِحَهَا﴾ [الأحزاب: ٥٠] فوهبت امرأة نفسها للنبي ﷺ ليس أبوها، بل هي التي وهبتْ نفسها للنبي ﷺ، ولكنه لم يتزوجها، وإنما زوجها أحد أصحابه[٢]، ولم ينكر عليها صلوات الله وسلامه عليه.

بعد ذلك مرّتْ السنون، وموسى صلوات الله وسلامه عليه في مدْين بقي فيها عشر سنوات، وقيل أكثر، حتى ذهب كثير من أهل العلم إلى أن موسى صلوات الله وسلامه عليه بقي في مدين عشرين سنة، لكن القرآن الكريم لم يذكر لنا ماذا وقع من موسى خلال هذه السنوات أبداً، كما هو الحال بالنسبة للسنوات التي قضاها في بيت فرعون إلى أن بلغ أشده.

والسبب في عدم ذكر عدد السنوات أن القرآن الكريم ليس كتاب تاريخ بحيث يذكر لك كل يوم ماذا صنع موسى، وإنما هو كتاب هداية يعطيك ما ينفعك ويذكر لك ما يقيك النار ويُدخلك الجنة.

موسى عليه السلام يتوجه إلى مصر بعد قضاء الأجل:

قضى موسى الأجل، وأتمه على أكمل وجه، كما قال ابن عباس: إن رسول الله إذا قال فعل. وبعد ذلك توجه بأهله إلى مصر حيث أسرته هناك، وقومه، وبلده الذي نشأ فيه، وهو لا يعلم في ذهابه ذلك ما سيحدث له من الإكرام من رب العزة تبارك وتعالى.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٧٠٤) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) أخرجه البخاري (٥٠٢٩)، ومسلم (١٤٢٥).



خرج من قومه خائفاً يترقب، ومرّتْ عشرون سنة، أو قريباً من ذلك، وما علم صلوات الله وسلامه عليه أن الله ـ جلّ وعلا ـ سيناديه وسيكلمه ويناجيه، وذلك بالوادي المقدس، فسار بأهله ومعه قطيع من الغنم متجهاً إلى مصر.

أيضاً لم تذكر لنا الآيات هل كان معه أولاد أو لم يكن له أولاد خلال هذه الفترة التي تزوج فيها، والمشهور في كتب أهل الكتاب أنه كان له ولدان من هذه الزوجة، المهم خرج بأهله إلى مصر، وهم في الطريق أبصر ناراً من بعيد، فقال لأهله: ﴿ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ [القصص: ٢٩]، قال أهل العلم: وهذا يدلّ على أربعة أمور:

الأول: أن موسى كان تائهاً في الطريق ﴿لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾ يعني الطريق، وفي آية أخرى: ﴿أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى﴾ [طه: ١٠] يعني: مَنْ يهديني الطريق.

الثاني: ظلمة الليل الشديدة، ولذلك أراد جذوة من النار أو قبساً من نور يهتدي به صلوات الله وسلامه عليه.

الثالث: البرد كان شديداً لقوله: ﴿لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾.

الرابع: أن أهل موسى لم يبصروا النار؛ لأن جميع الآثار ذكرت أن موسى هو الذي رأى النار، فقال لأهله: ﴿إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا﴾، فذهب وحده، وليس فيه أن أهله كذلك رأوا هذه النار، وقد ذهب كثير من أهل العلم إلى أن هذه كرامة من الله لا يراها إلا الأنبياء.

بداية الوحي لموسى عليه السلام:

قصّ الله علينا قصته، فقال جلّ وعلا: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم



مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ
مِن شَٰطِيِٕ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ
رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ
يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ﴿٣١﴾ ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ
تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ ۖ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ
مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى
قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِى هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا
فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ
بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا
ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [القصص] آياتٌ واضحةٌ تماماً تبين لنا ما حدث لموسى لما
ذهب إلى تلك النار، وقال جلّ وعلا كذلك في سورة طه: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ
حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿٩﴾ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا
بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ
إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا
لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ
فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا
وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا
فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ ۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾
وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا
ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ
لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى
﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾
وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾﴾ [طه]
هذه منّة أخرى مني لك، سأشد عضدك بأخيك، وفي هذه الآيات أمور،
منها:

الأول: إثبات صفة الكلام لله ﷻ، وأنه كَلَّمَ موسى، ولذلك يقال لموسى: (كليم الله)، والله ـ جلّ وعلا ـ يتكلم متى شاء، كيف شاء بما شاء ﷻ، وأما قول البعض أن الذي كلَّم موسى الشجرة، أو خلق الله كلاماً في الشجرة، أو أن مَلَكاً هو الذي كلم موسى، فكُلّ هذا باطل مِنْ القول وزورٌ، فلا يُعقل أنْ يُكَلِّمَ أحدٌ غيرُ الله موسى، ويقول له: ﴿إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [النمل: ٩]، أو يقول له: ﴿إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى﴾ [طه: ١٤] أبداً لا يمكن إلا أن يكون القائل هو الله ﷻ.

ولما سمِعَ موسى عليه السلام ذلك النداء أنِسَ به، واطمئنتْ نفسه، وذهبتْ وحشته عليه السلام، وقد قال موسى لأهله لما رأى تلك النار: ﴿سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ [النمل: ٧]، وقال: لعلي أجدُ عندها هدى، فلما أتاها عليه السلام ورجع إلى أهله أتاهم بخبر، ولكن أي خبر؟ وأتاهم بهدى، ولكنْ أي هدى؟ وأتاهم بقبس، ولكن أي قبس؟ إنه قبسُ النبوة والرسالة التي مَنَّ الله تبارك وتعالى بها على موسى عليه السلام.

لما أتى موسى ـ صلوت الله وسلامه عليه ـ تلك النار؛ رأى منظراً عظيماً، وشيئاً مهولاً، رأى ناراً تضطرم في شجرة، والنار تزداد توقداً، والشجرة تزداد اخضراراً، وهذا أمر عجيب، فالنار لا تأكل الشجرة! وهذا الأمر بهر موسى ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ لما رآه، ولذلك يقول ابن عباس الحَبْر رضي الله عنهما: لم تكن ناراً، وإنما كانت نوراً يتوهج.

نور يتوهج كالنار، ولذلك لم تحترق تلك الشجرة.

الثاني: قول الله تبارك وتعالى لموسى عن العصا: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ﴾ فلما ألقاها؛ فإذا هي تسعى كأنها جانّ، والجانّ هي الحيةُ العظيمةُ السريعةُ الحركة، أمْرٌ مخيف لما رآه موسى ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ، ذُهِلَ من النار ووضعِها، وذُهِلَ من الصوت، وهو لا يراه، وذُهِلَ من العصا لمّا ألقاها فإذا هي تسعى كأنها جانّ، ذُهِلَ ـ صلوات الله وسلامه



عليه ـ في هذه الليلة المظلمة، عندها قال الله جلّ وعلا: ﴿وَٱضۡمُمۡ إِلَيۡكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهۡبِۖ﴾ [القصص: ٣٢] ضع يدك على قلبك يذهب كل شيء مِنْ الرهبة والخوف، وهكذا المؤمن إذا أنسَ بالله ولجأ إليه فإنه يُذهب عنه كل شيء يرهبه، ولا شك أن هذا أمرٌ عظيمٌ وخارقٌ للعادة، وقاطع بأن الذي يكلمه هو الذي يقول للشيء كن فيكون، وهو الفعال لما يريد.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا تِلۡكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيۡهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخۡرَىٰ ﴿١٨﴾﴾ [طـه] ما المآرب الأخرى؟ يقال: إن الحجاج بن يوسف الثقفي لقي أعرابياً فقال له: من أين أقبلت يا أعرابي؟ قال مِنْ البادية: قال: وماذا في يدك؟ قال: عصاي أركزها لصلاتي، وأعُدُّها لعَدَاتي، وأسوق بها دابتي، وأقوى بها في سفري، وأعتمد بها في مشيي؛ لتتسع خطوتي، وأثب على النهر، وتؤمنني من العَسَرِ، وأُلقي عليها كسائي، فيقيني الحر، ويدفئني من القَرّ[1]، وتُدْني إليّ ما بَعُد عني، وأقرع بها الأبواب، وأتقي بها عقْرَ الكلاب، وتنوب عني الرمح في الطعن، وعن السيف عند منازلة الأقران، ورثتها عن أبي، وسأورِّثُها ابني، وأهشُّ بها على غنمي، وليَ فيها مآربُ أخرى.

ويقولون: العصى لمن عصى.

وجاء في التوراة الموجودة حالياً مثل هذه الأخبار وقريبة منها؛ لأن التوراة ـ كما قلنا ـ وإن كانت محرفة إلّا أن فيها ـ ولا شك ـ شيئاً من الحق، وافق ما في كتاب الله تبارك وتعالى، وفيها:

«وأما موسى؛ فكان يرعى الغنم لثيرون، وثيرون هو الرجل الصالح أبو البنتين كاهن مديان يرعى الغنم إلى وراء البرية، وجاء إلى جبل الله،

---

(١) أي: البرد.



وظهر له ملاك الربِّ بلهيب نار في وسط عُلّيقَة[١]، فنظر فإذا العُلَّيقَة تتوقد بالنار، والعُلَّيقَة لم تكن تحترق، فقال موسى: أميل الآن لأنظر لهذا المنظر العظيم، لماذا لا تحترق العُلَّيقَة؟ فلما رأى الربُّ أنه مال لينظر؛ ناداه الله من وسط العُلَّيقَة، وقال: موسى، موسى، فقال: ها أنا ذا فقال: لا تقرب إلى هاهنا اخلع حذاءك من رجلك؛ لأن الموضع الذي أنت فيه واقف عليه أرض مقدسة، وقال له الرب: ما هذه في يدك؟ قال: عصى. قال: اطرحها على الأرض، فصارت حية، فهرب موسى منها، ثمّ قال الرب: مُدَّ يدك، وأمسك بذنبها، فمد يده، وأمسك بها، فصارت عصى في يده، ثمّ قال له الرب: أدْخِل يدك في عِبك ـ أي: في جيبك ـ، ثمّ أخرجها، وإذا يده برصاء مثل الثلج» اهـ.

وهذه الأخبار أكثرها يوافق ما في كتاب الله جلّ وعلا إلّا قوله: «برصاء» هي لم تكن برصاء، وإنما كانت بيضاء تتلألأ مثل القمر، وذلك أن موسى عليه السلام كان آدَمَ ـ يعني: أسمر اللون ـ، والله تبارك وتعالى قال: ﴿وَٱضۡمُمۡ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٍ﴾ [طه: ٢٢] ليس برصاً، ولا بهقاً، وإنما هو نور، ولذلك قال أهل العلم: كانت مثل القمر تتلألأ.

والسبب من ذكر هذه التفاصيل في كتاب الله عز وجل:

وصف الله ـ جلّ وعلا ـ مجيء موسى إلى الوادي المقدس طوى، وذكر ما ناجى به موسى عليه السلام في كثير من المواضع في كتاب الله؛ ليُثبِّتَ بذلك قلبَ النبي محمدٍ ﷺ ليكون آية بينة، وهي أن محمداً رسول الله حقاً، وذلك أنه لم يكن مع موسى، ولا أحد من قومه، ولا كان يعرف عن موسى شيئاً، خاصة تلك الأخبار الدقيقة التي قلنا: إنها موجودة في

(١) يعني: شجرة عُلَّيقَة، وقيل: شجرة عوسج، وقيل: غيرها من الأشجار.



التوراة، وكيف أنَّ أهل التوراة يسمعون كلام النبي عن موسى، وهم يقرؤون ذلك في التوراة، وهو نبي أُميٌّ في أمة أُمية، فكيف عرف ذلك؟ إنه الوحي من الله عز وجل، ولذلك يقول الله لمحمد ﷺ: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [القصص]، فالله يبيّن أن جميع هذه الأخبار التي جاء بها النبي محمد ﷺ إنما هي من عند الله جلّ وعلا.

بقيتْ أمور، وهي قول الله تبارك وتعالى لموسى: ﴿أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [النمل: ٨] فمن كان في النار؟ ومن كان حولها؟ الصحيح في هذه المسألة ﴿أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ أي: الذين حضروا عند النار في ذلك الوقت، وهم موسى والملائكة الذين أرسلهم الله جلّ وعلا، وإن كانوا لم يُذكروا نصاً في كتاب الله تبارك وتعالى، أما الله جلّ وعلا فكلَّم موسى وهو مستوٍ على عرشه فوق سماواته جلّ وعلا؛ لأن الله لا يكون داخل النار، ولا داخل النور تبارك وتعالى؛ لأن الله ـ جلّ وعلا ـ غير متصل بخلقه تبارك وتعالى، بل منفصل عنهم فوق سماواته تبارك وتعالى، ولكن إنما يذكر الله ـ جلّ وعلا ـ موسى عندما حضر والملائكة الذين حضروا تلك القصة، أو ذلك الحال الذي كان لموسى مع ربه ـ جلّ وعلا ـ، فَبُورِك موسى وبُورِك الملائكة، وبُوركت النار، وبُورِكت البقعة التي فيها تلك النار، ﴿نُودِىَ مِن شَٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ﴾ [القصص: ٣٠] بقعة مباركة، ورجل مبارك، وملائكة مباركون، وشجرة مباركة ﴿أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [النمل: ٨].

أقسام البركة:

قال أهل العلم: البركة هي كثرة الخير، وتكون في أمور: في الأقوال، والأفعال، والأماكن، والأزمنة، وأمور أخرى:

فأما في الأقوال: فكتاب الله ﷻ كتابٌ مباركٌ، والبركةُ فيه ظاهرة، فهو رحمةٌ، وهو شفاء، وهو شفاعة، وهو أجر، عندما تقرؤه تأتيك البركة من كل جهة.

وأما في الأفعال: كطلب العلم، فيبارك الله لك في وقتك، ويبارك الله لك في علمك، ويبارك الله لك في الأجر الذي تأخذه، ويبارك الله لك فتعبد الله على بينة من أمرك.

وأما في الأماكن: فالمساجد مباركة، خاصةً المساجد الثلاثة، ومكّة مباركة، والمدينة مباركة، وهذا الوادي مبارك، والشام مباركة، فيجعل الله تبارك وتعالى البركة في هذه الأماكن ﷻ.

وأما في الأزمان: فرمضان مبارك، وليلة القدر مباركة، قال الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ [الدخان: ٣]، وعشر ذي الحجة أيام مباركة.

وأما الأمور أخرى: فماء زمزم مبارك[١]، وزيت الزيتون مبارك[٢]، ولعق الأصابع بعد الأكل فيه البركة[٣]، والخيل جعل الله فيها البركة[٤].

---

(١) أخرج مسلم (٢٤٧٣) أن النبي ﷺ قال عن زمزم: «**إنها مباركة إنها طعام طعم**»، وفي رواية: «**وشفاء سقم**».

(٢) قال الله تعالى: ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ﴾ [النور: ٣٥]، وقال ﷺ: «**كلوا الزيت وادهنوا به، فإنه من شجرة مباركة**» أخرج الترمذي (١٧٧٤) من حديث عمر رضي الله عنه.

(٣) عن جابر رضي الله عنه أنّ النبي ﷺ أمر بلعق الأصابع والصحفة، وقال: «**إنكم لا تدرون في أيِّهِ البركة**»، أخرجه مسلم (٢٠٣٣).

(٤) قال النبي ﷺ: «**البركة في نواصي الخيل**» أخرجه البخاري (٢٨٥١)، ومسلم (١٨٧٢).



وهناك أشخاص مباركون: فمحمد ﷺ مُبَارَكٌ، وموسى عليه السلام مبارك، باركه الله: ﴿أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [النمل: ٨]، وعيسى عليه السلام مبارك ﴿وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا﴾ [مريم: ٣١]، وهذه بركة يجعلها الله في أنبيائه ورسله صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

أما ما لم ينصّ الله عليه، ولم ينص عليه الرسول ﷺ فكيف نعرف أنه مبارك؟ فلا يجوز أن يأتي الإنسان لشخص ويقول: هذا شخص مبارك، أو هذا زمان مبارك، أو هنا بركة، فهذا أمرٌ غيبي، ولكن قل: نسأل الله أن يجعلك مباركاً، ونسأل الله أن يجعل هذا المكان فيه بركة، أمّا أن تنصّ أن هذا فيه بركة فلا يجوز، ولهذا لما خرج من أسلم حديثاً من كفار مكة مع النبي ﷺ من مكة إلى حنين، قالوا: اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط، لماذا يريدون ذات أنواط؟ قالوا: نتبرك بها، ونضع عليها الأسلحة، فننتصر كما كان يفعل أهل الجاهلية، فأنكر عليهم النبي ﷺ[1]، لذلك لا يجوز أن يعتقد الإنسان في شيء أنه بركة إلّا ما جعل الله فيه تلك البركة.

موسى عليه السلام يبدأ في تبليغ رسالته:

أوحى الله ﷻ إلى موسى عليه السلام وبَيَّن له أنه مبعوث من عنده، وأنه رسول وأراه الآيات الدالة على صدقه، والعصى التي ألقاها، ثمّ ﴿فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾، ثمّ أخذها فإذا هي عصى، ثمّ أدخل يده، فإذا هي بيضاء، ووضع يده على صدره، فذهب الرهب عنه، وسمع كلام الرب وأنِسَ به صلوات الله وسلامه عليه، واطمأنتْ نفسه، أدرك أهمية المسألة، وضخامة الأمر والمهمة التي أوكلها الله إليه، فذكر لله ﷻ أموراً يحذرها، ثمّ طلب أشياء من الله ﷻ.

---

(١) أخرجه الترمذي (٢١٨٠)، وصححه الشيخ الألباني في «مشكاة المصابيح» (٥٤٠٨).



فالأمور التي يحذرها: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي﴾ [الشعراء] وقال: ﴿فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾ [الشعراء: ١٤].

والأمور التي يرجوها: ﴿أَشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِيٓ أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾﴾ [طه]، وذلك أنهم قالوا: إن هارون كان أفصح من موسى؛ لأن موسى لم يعشْ مع بني إسرائيل ومع القبط كما عاش هارون، وذلك أنه عاش في أهل مدين قريباً من عشرين سنة، فهارون كان في بني إسرائيل ومع القبط، فكان أفْصَحَ من موسى صلوات الله وسلامه عليه، وقيل غير ذلك كما جاء عن مجاهد وغيره أن موسى صلوات الله وسلامه عليه كان قد اختبره فرعون لما كان صغيراً عندما أخذَ بلحية فرعون، فجرها إليه فغضب فرعون، أراد أن يفْتِكَ به ويقتله، فخافت آسية على موسى، وقالت: اختبره، ضع له جمرة وتمرة، فإن أخذ التمرة فدونك فاقتله، وإن أخذ الجمرة، فإنه لا يفقه، ولا يعي، ولا يدري ما يصنع، قال: نعم أفعل فوضعت لموسى تمرة وجمرة، فأوحى الله إليه أن يأخذ الجمرة، فأخذها ووضعها على لسانه، فكان في لسانه شيء من الثقل لأجل تلك الجمرة، ولذلك يقول عنه فرعون: ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾﴾ [الزخرف] يعني: أن كلامه ليس فصيحاً.

وقال: ﴿وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾﴾ [طه]، وأن يكون ﴿هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾﴾ [طه] يكون نبياً، ويكون لي ﴿رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ﴾ [القصص: ٣٤] إذا كذبوني.

قال الله جلّ وعلا: ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه: ٣٦]، فاستجاب الله لموسى، ووهب له أخاه هارون نبياً معه ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ [القصص: ٣٥]، وقال: ﴿إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦]، ﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [القصص: ٣٥].

فاتجه موسى عليه السلام إلى فرعون يدعوه إلى الله تبارك وتعالى، ومعه هارون عليه السلام بعد أن جعله الله عز وجل نبياً مِنّة منه عليهما.

وقد سمعت عائشة رضي الله عنها رجلاً يقول لأناس يسألهم وهم سائرون إلى الحج قال: من هو الأخ الذي له مِنّة عظيمة على أخيه، ولم يكن لأحد مِنّة مثلها؟ فسكت الناس، ولم يعرفوا الجواب، فنادت عائشة ـ وهي في هودجها ـ، فقالت: هو موسى بن عمران حين شفع في أخيه هارون فأُوحي إليه فكان نبياً، ولهذا قال الله له: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَـٰرُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾﴾ [مريم].

عندها اتجه موسى إلى مصر مطمئنَّ القلب، فقد كان رجلاً عادياً ثمّ صار نبياً رسولاً.

ذهب موسى إلى أخيه هارون، وأخبره البشارة، وهي أن الله تبارك وتعالى اختاره نبياً معه، وأنهما مأموران بدعوة فرعون، قال الله جلّ وعلا: ﴿ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَـٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾﴾ [طه] تجبر وطغى، والطغيان هو مجاوزة الحد، ولذلك يقال: طغى الماء أي تجاوز حده: ﴿إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ ۖ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ قَدْ جِئْنَـٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ ۖ وَٱلسَّلَـٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾﴾ [طه].

معية الله عز وجل لموسى وهارون عليهما السلام:

قال الله تبارك وتعالى: ﴿لَا تَخَافَآ ۖ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦] هذه هي المعية الخاصة، وذلك أن معية الله جلّ وعلا لعباده تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: معيةٌ عامة يشترك فيها الإنس والجن، بل والبهائم،



ويشترك فيها البَّر والفاجر، ويشترك فيها المسلم والكافر، وهي المعية العلمية، وهي في قول الله تبارك وتعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ﴾ [المجادلة: ٧] وهذه معية لكل الخلق لا تميز لأحد فيها، ولا فضل لأحد فيها، وكما في قول الله تبارك وتعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾﴾ [الحديد].

القسم الثاني: معيةٌ خاصةٌ بأوصاف كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [النحل]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣]، فكل تقي، وكل محسن، وكل صابر؛ فالله معه، فمن اتصف بهذه الصفات فالله معه، وهذه المعية فيها نصرة وتأييد ومحبة من الله ﷻ.

القسم الثالث: المعية الخاصة بالأشخاص، كما في هذه الآية ﴿إِنَّنِى مَعَكُمَآ﴾ [طه: ٤٦] أي: يا موسى ويا هارون أنا معكما أنتما دون غيركما، وكما في قوله تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠] أي: أنا وأنت فقط مع أن كفار قريش كانوا على باب الغار، لكن الله ليس معهم، وهذه معية خاصة بشخص معين، خَصّ الله بها موسى وهارون، وخَصّ الله بها محمداً وأبا بكر، وهي تستلزم النصرة، والمحبة، والتأييد، والتوفيق من الله تبارك وتعالى، وسيأتينا قول موسى عليه السلام حين تبعه فرعون يريد قتله ومَنْ معه: ﴿كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦٢] فما نسيها موسى صلوات الله وسلامه عليه، ولذلك بمجرد أن قال الله لموسى وهارون: ﴿إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦] علما علم اليقين أن الله ناصرهما ﷻ، ولذلك اتجها إلى فرعون دون خوف، ولا وَجَلٍ، ولا ترددٍ، مزودان بسلطان من الله ﷻ كما قال الله



جلّ وعلا: ﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا﴾ [القصص: ٣٥] فلا تنالهما يد طاغية أبداً، فرعون أو غير فرعون.

ثمّ جاءت البشارة من الله تبارك وتعالى: ﴿بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [القصص: ٣٥] ماذا تريدون إذاً ألا يكفيكم هذا؟ وتصوروا إذا قال الله شيئاً فمن ذا الذي يردُّ أمره؟ ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس]، ولذلك قال الله لموسى من قبل ﴿فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى﴾ [طه]، أنت يا موسى منذ ولادتك وأنا أرعاك، وجعلت أمك تُلقيك في اليمّ، وربَّيتُك في بيت فرعون، وأراد قتلك، فحميتك، وقتلتَ نفساً فنجيتك، فلبثت سنين في أهل مدين ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ﴾، ألا ترى أني اصطنعتك لنفسي!! فلا تخف يا موسى.

فالله تبارك وتعالى كان حافظاً لموسى عليه السلام منذ صغره، وربّاه على عينه تبارك وتعالى، ثمّ اصطفاه الله عز وجل برسالاته وبكلامه.

المواجهة بين موسى عليه السلام وفرعون:

ذهب موسى رابط الجأش قوياً، واثقاً بنصر الله له، فدخل على فرعون، ومعه أخوه هارون، فكانت المناظرة بينه وبين فرعون، قال موسى لفرعون: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ١٦]، قال فرعون: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣] يدّعي أنه لا يعرف رب العالمين!!

قال موسى: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢٤]، فالتفتَ فرعون إلى من عنده قائلاً: ﴿أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾ [الشعراء: ٢٥]، فاستنكر فرعون ذلك فموسى يقول: ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾، وفرعون يدّعي الربوبية، ألست ربكم؟ ألست إلٰهكم؟ كان يقول: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤] ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: ٣٨] هذا كلام غريب أسمعه اليوم، يدعي أن هناك رباً غيري

﴿أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾، فالتفت إليهم موسى صلوات الله وسلامه عليه، وقال لهم: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: ٢٦]، وكأنه يقول لفرعون إن كنت رباً؛ فأين آباؤك؟ أربٌّ وله أب؟ كيف يكون هذا؟ بل هذا ربك وربُّ آبائك الأولين وربكم أنتم أيها الجالسون عند فرعون ﴿وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ فماذا قال فرعون؟ قال: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ [الشعراء: ٢٧].

قال موسى ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الشعراء: ٢٨]، فلم يجد جواباً إلّا أن قال: ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩] هذا هو الجواب: منطق استخدام القوة وإظهار العضلات منطق الغاب.

قال موسى: ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَىْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [الشعراء]، وذلك أن موسى صلوات الله وسلامه عليه كان أسمر اللون، ليس بأسود، فأخرج يده، وإذا هي تتلألأ مثل القمر، لا برص فيها، بيضاء، وهنا قال فرعون: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِۦ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ [الشعراء] فرعون يستشير من عنده!! ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾؟

وفي موضع آخر يقول الله تبارك وتعالى عن فرعون أنه قال لموسى: ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾﴾ [طه].

وكان مما قال فرعون لموسى: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [الشعراء].



وهنا ذكر فرعون ثلاثة أمور:

الأمر الأول: ألم نربك فينا وليداً؟

الأمر الثاني: أنك لبثتَ فينا من عمرك سنين.

الأمر الثالث: أنك فعلت فعلتك، وأنت من الكافرين.

يريد بذلك أن له مِنّةً على موسى عليه السلام، ويُذكّره بقتله للقبطي دون سبب، وعندها قال موسى: ﴿فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الشعراء: ٢٠]، ما كنت رسولاً، وهذا كما قال الله تبارك وتعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧﴾ [الضحى] أي: ضالاً عن الرسالة، ليس ضالاً بمعنى أنه كان كافراً، فلم يكن نبيٌّ من الأنبياء كافراً، وإنما كان ضالاً عن الرسالة، لا يعرف رسالة مَنْ سبقه، ﴿قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ۝٢٠﴾ [الشعراء] قبل أن أُبعث فعلت هذه ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ﴾ [الشعراء: ٢١] لأني كنت أعلم أنكم ظلمة؛ لأني ما قصدتُّ قتله، فكنتم ستظلمونني، ولذلك خِفْتُ منكم، ففررت وتركت مصر وأهلها.

ثم قال: ﴿فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا﴾ [الشعراء: ٢١] أي: بعد أن تركت مصر وهب لي ربي حكماً ﴿وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ٢١]، ثم قال له: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ۝٢٢﴾ [الشعراء].

وهنا لأهل العلم قولان: ما معنى قول موسى صلوات الله وسلامه عليه ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ﴾؟ هل هو ينكر على فرعون أو يمتدحه بذلك الكلام؟ قولان:

القول الأول: لا فضل لك يا فرعون، فهذه النعمة التي تَمُنّها عليّ أنك ربيتني وليداً ولبثت في بيتك؛ السبب في هذا أنك كنت تقتل الأطفال، وما كان لنا من سبيل إلا أن ألقتني أمي في اليمّ، تَمُنّ عليّ أنك ربيتني؟ أنت السبب؛ لأنك كنت ستقتلني لولا إلقائي في اليمّ، فهذا يكون على سبيل الإنكار على فرعون.

القول الثاني: أن موسى بهذه الكلمات يتلطف مع فرعون، كأنه يقول له: ربيتني وليداً، ولبثت كثيراً مِنْ عمري عندكم، وفعلت فعلتي ولم تقتلوني، فأكمل معروفك وأرسل معي بني إسرائيل، وهذا مصداق قول الله تبارك وتعالى: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾ [طه].

قال موسى لفرعون: ﴿إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ [الأعراف]، فألقى موسى عصاه صلوات الله وسلامه عليه، ﴿فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾.

والآن تتدخل حاشية فرعون ـ بطانة السوء ـ بعد أن قال فرعون: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٩﴾ يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ ۖ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ [الأعراف].

قالت الحاشية: ﴿أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَٱبْعَثْ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾ [الشعراء]، هذه الحاشية بدل أن تقول لفرعون لعله صادق، لعله رسول، قالت: ﴿أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾ أمهلهما ﴿وَٱبْعَثْ فِي ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾، فالتفت إليهم موسى، وقال: ﴿أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ ۖ أَسِحْرٌ هَٰذَا وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ﴾ [يونس: ٧٧]، وهنا تكلم فرعون، وتكلمت الحاشية معه، قالوا: ﴿أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٧٨].

وبعد أن قامت الحجج على فرعون وظهر له أن موسى ﷺ ليس بساحر، قال: ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩]، وأرسل فرعون في المدائن حاشرين حتى يأتوه بكل ساحر عليم، وواعد موسى، وقال له: ﴿فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى﴾ [طه: ٥٨]، يعني: وسط، وسط المدينة لا جنوب، ولا



شمال، ولا شرق، ولا غرب، وهذا هو ما أراده موسى عليه السلام حتى يتيسر له أن يدعو الناس جميعاً، فوقع فرعون في ذلك، وأمر بجمع الناس؛ لأنه ظن أن الذي جاء به موسى سحر وغره أصحابه وحاشيته، وقالوا: نأتيك بكل ساحر عليم، ففرعون وجدها فرصة حتى يبطل ما جاء به موسى فقال لموسى: ﴿فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى﴾ وسط يحضره الجميع لا يعجز عنه أحد، ولا يتركه أحد.

قال موسى: ﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ﴾ [طه: ٥٩] مكان وسط، ووقت وسط كما تريد، وليكن أيضاً في يوم الزينة، يوم العيد حيث جميع الناس يجتمعون، جميع الناس فارغون ﴿مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى﴾ [طه: ٥٩] أي: يكون هذا الوقت في الضحى وفي النور، يجتمع فيه جميع الناس، قال فرعون: نعم، وقال موسى: نعم.

المواجهة الكبرى:

وجاء فرعون بالسحرة، وأقل ما قيل في عدد السحرة أنهم سبعون، وأكثر ما قيل في عددهم أنهم ثمانون ألفاً، ولا يوجد أي شيء قطعي في هذه المسألة، الله تبارك وتعالى ذكر السحرة، وذكر أنهم أتوا بكل ساحر عليم، لكن لم يذكر لنا الله تبارك وتعالى عددَ السحرة أبداً، وروايات بني إسرائيل متضاربة، هناك رواية تقول: سبعون، وهناك رواية تقول: ألف، وهناك رواية تقول: اثنا عشر ألفاً، وهناك رواية تقول: ثمانون ألفاً، وهناك رواية تقول: ثلاثة آلاف، وهناك رواية تقول: تسعة آلاف: ثلاثة آلاف من بني إسرائيل، وثلاثة آلاف مِنْ القبط، وثلاثة آلاف من المجوس، ولكن لا يوجد شيء قطعي، والقطعي أنهم مجموعة من السحرة، والمهم أنهم أحسن السحرة عندهم، وليس فيهم حسن.

وأول ما جاء السحرة اتجه إليهم موسى ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ، وقال: ﴿وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ [طه: ٦١] أنتم تعلمون



أن هذا سحر، أنتم تعلمون أنكم ضالون مضلون، ﴿وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾، فإن فعلتم ﴿فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ﴾ [طه: ٦١]، سحتُ الشيء استئصاله، ﴿وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ ﴿٦١﴾ فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ﴾ [طه] لما قال لهم هذا الكلام صار بينهم نزاع على ماذا؟ نزاع هل هذا ساحر أو رسول؟

قالوا: ﴿وَأَسَرُّوا النَّجْوَىٰ﴾ [طه: ٦٢] ما هي النجوى التي أسروها؟ علمُها عند ربي ﷻ، لكن يقول أهل العلم: إنهم ربما أسرّوا أنه إن كان هذا الرجل صادقاً ـ يعنون موسى ـ وأنه نبي فسنتبعه، أو ﴿وَأَسَرُّوا النَّجْوَىٰ﴾ أنهم ترددوا، هل يُلقون أو لا يُلقون؟ حتى لا يفضحهم، وقيل: إن كان هذا نبياً؛ فإن الله سيظهره، وإلا ظهرنا عليه، والله أعلم ماذا أسروا، لكنهم تنازعوا كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّوا النَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾﴾.

ثُمَّ التفتوا إلى موسى، وقالوا: ﴿إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ﴾ [طه: ٦٥] يخيرونه كأنهم يثقون بأنفسهم، تريد أن تُلقي أم تريد أن نلقي نحن، لا يختلف عندنا الأمر، ﴿قَالَ بَلْ أَلْقُوا﴾ [طه: ٦٦] وهذا يبين أيضاً ثقته التامة بالله عز وجل؛ لأنه يعلم أن الله معه ﷻ قال: ﴿أَلْقُوا مَا أَنتُم مُّلْقُونَ﴾ [الشعراء: ٤٣]، ﴿مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ﴾ [يونس: ٨١] أنتم تأتون بالسحر، وأنا آتي بالمعجزات، وآتي بآيات بينات ﴿مَا جِئْتُم بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ﴾ [يونس: ٨١]، الله معي وأنتم مَنْ معكم؟ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾ [يونس]، وفي آية أخرى: ﴿إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾ قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف]، سحروا أعين الناس، واسترهبوهم، وخوفوهم، وكيف خوفوهم؟ إذا قلنا: إن عدد السحرة ثمانون ألفاً أو اثنا عشر ألفاً أو



سبعمائة على أقل ما قيل في عد هؤلاء السحرة، تصوروا سبعمئة كلٌ يُلقي عصاه وحبله، فترى حيات تسعى، أصاب الناس رهبةٌ عظيمةٌ وخافوا خوفاً شديداً ﴿سَحَرُوٓاْ أَعۡيُنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي: أوهموهم أن هذه الحبال، وهذه العصي انقلبت إلى حيات، ﴿وَٱسۡتَرۡهَبُوهُمۡ﴾ خوفوهم بكثرة الحيات، ﴿وَجَآءُو بِسِحۡرٍ عَظِيمٖ﴾ بيَّن الله أن السحر عظيم، ولكن الذي أبطله أعظم.

قال الله تبارك وتعالى عن فرعون لما أمره موسى ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ أن يجمع الناس في يوم الزينة: ﴿فَتَوَلَّىٰ فِرۡعَوۡنُ فَجَمَعَ كَيۡدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ۝٦٠ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيۡلَكُمۡ لَا تَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا فَيُسۡحِتَكُم بِعَذَابٖۖ وَقَدۡ خَابَ مَنِ ٱفۡتَرَىٰ ۝٦١ فَتَنَٰزَعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَىٰ ۝٦٢ قَالُوٓاْ إِنۡ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخۡرِجَاكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم بِسِحۡرِهِمَا وَيَذۡهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلۡمُثۡلَىٰ ۝٦٣ فَأَجۡمِعُواْ كَيۡدَكُمۡ ثُمَّ ٱئۡتُواْ صَفّٗاۚ﴾ [طه] اتفقوا على كلمة واحدة، لا تتفرقوا، اتركوا النزاع الآن، لا وقت للنزاع، ﴿فَأَجۡمِعُواْ كَيۡدَكُمۡ ثُمَّ ٱئۡتُواْ صَفّٗاۚ﴾ حتى يكون هذا أرهب لعدوكم، وأرهب للناس، كلكم تلقون في وقت واحد ﴿وَقَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡيَوۡمَ مَنِ ٱسۡتَعۡلَىٰ﴾ [طه: ٦٤] استعلوا بما عندكم، لماذا؟ لأن كل الناس يجتمعون الآن، ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَلۡقَىٰ ۝٦٥ قَالَ بَلۡ أَلۡقُواْۖ فَإِذَا حِبَالُهُمۡ وَعِصِيُّهُمۡ يُخَيَّلُ إِلَيۡهِ﴾ [طه] حتى موسى خُيِّل إليه أنها تسعى، ﴿فَأَوۡجَسَ فِي نَفۡسِهِۦ خِيفَةٗ مُّوسَىٰ ۝٦٧﴾ [طه: ٦٧] خيفة من ماذا؟

قالوا: أوجس في نفسه خيفة من أن يظهروا عليه.

وقالوا: أوجس في نفسه خيفة أن يتأثر الناس بهم.

وقالوا: أوجس في نفسه خيفة ألا ينتظر الناس ما يظهر الله على يديه.

وأظهر الأمرين الثاني، والثالث أما موسى عليه السلام فمطمئن بنصر الله له سبحانه وتعالى.

وجاء الجواب من الله: ﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾﴾ [طه]، أنت أعلى منهم، لا يغرك كثرتهم، لا تغرك حبالهم، ولا عصيهم، ولا تخييلهم، ولا من يساندهم، أنت واحد، ولكنك الأعلى، ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ ۖ﴾ [طه]، أنت معك معجزة، معك آية بينة، معك برهان، وهؤلاء معهم السحر، ﴿إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾ [طه: ٦٩].

وهذا في زمن موسى عليه السلام وفي زمننا وإلى يوم القيامة؛ الساحر لا يفلح؛ لأنه عدو لله، ومن عادى الله هل يفلح؟! ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [الأعراف] كُلَّ الذي يأفكون، حية واحدة ابتلعت جميع العصي، وموسى عليه السلام انقلبتْ عصاه إلى ثعبان حقيقي؛ لأن الله هو الوحيد ـ سبحانه ـ الذي يغير الأشياء من حقيقة إلى حقيقة أخرى، لكن غير الله لا يملك ذلك، وإنما يملكون أن يسحروا أعينَ الناس، كما قال الله لموسى: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ [طه: ٦٦] إذاً حقيقتها أنها لا تسعى، وإنما يخيل إليهم ﴿فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [الأعراف]، فكانت المفاجأة: ﴿فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا﴾ [طه: ٧٠] أكْفَر الناس بعد فرعون سجدوا لله قال الله ﷻ: ﴿فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾﴾ [طه] لأنهم علموا أن الذي جاء به موسى عليه السلام ليس بسحرٍ، فهم أصلاً تنازعوا بينهم، وأسروا النجوى ـ والله أعلم بما أسروا ـ، لكن لما رأوا الحق ورأوا عصا موسى أنها فعلاً انقلبت إلى ثعبان حقيقي ابتلع عصيَّهم، وابتلع حبالَهم؛ عرفوا أن موسى محقٌّ صلوات الله وسلامه عليه.



نقاش فرعون مع السحرة:

والآن تعالوا نقرأ النقاش الذي كان بين فرعون والسحرة لما أتى بهم فرعون، وقال لهم: إن موسى عنده عصا تنقلب إلى حية، ويدخل يده ويخرجها بيضاء، فماذا أنتم صانعون؟ قالوا: نظهر عليه ولكن ﴿إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ [الأعراف: ١١٣] قال: نعم؛ لأنه صُدِمَ بما أتى به موسى صلوات الله وسلامه عليه ﴿قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾﴾ [الأعراف] أكدها بأربع تأكيدات:

الأول: أكدها بنعم.

الثاني: أكدها بـ «إنّ».

الثالث: أكدها باللام.

الرابع: جعلهم من المقربين.

فلما ألقى موسى عليه السلام عصاه، وظهر الحق، وذلك أن الحق أبلج، والباطل لجلج، لا يبقى، فأدركوا حقيقة الأمر، وأدركوا أن الذي مع موسى نبوة وليست سحراً ﴿فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾﴾ [طه]، فصُدِمَ فرعون وقال: سحرتي وعمدتي يؤمنون؟! ﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾ [طه: ٧١] قال: موسى هو الذي علَّمكم السحر، وهو يدري أن كلامه غير صحيح؛ لأنه قال قبل ذلك: ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ ٱلَّتِى فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾﴾ [الشعراء] إنه يدري أن موسى ولدته أمه، ثم أخذه وتربى في بيته سنين، ثم فَر والآن رجع، فمتى علمهم السحر؟! ومتى التقى بهم؟! ومتى رآهم؟! خاصةً إذا علِمنا أن السحرة هؤلاء جاؤوا من كل فجٍّ عميق، ﴿وَٱبْعَثْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ﴾ [الشعراء] حُشِروا من كل مكان، من كل صوب، ﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [الشعراء] كل واحد جاء من

مدينة، فمتى التقى بهم موسى؟! ومتى علَّمهم السحر حتى يقول هذا الكلام؟! لكنه كلام المصاب، أُصِيب في مقتل فلم يدْرِ ماذا يقول، ولم يدْرِ ما الذي يخرج من رأسه، ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ٧١] كيف تؤمنون به قبل أن آذن لكم؟ فكان الجواب من السحرة: ﴿إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٥٠] افعل ما تشاء، ﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ [الأعراف] وفي موضع آخر: ﴿قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٧٢﴾ إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿٧٣﴾﴾ [طه]، ثم قالوا: ﴿إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾ [طه]، ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾﴾ [الشعراء].

فليس من السهل على إنسان كان يدعي الألوهية أن يذعن ويرضى ويسكت عن مثل هذا الوضع، فيصير عبداً كغيره من العبيد، بعد أن كان يقول: إن الناس كلهم عبيد لي، الآن أنا أصير عبداً لغيري، أصير عبداً لله؟! ما استطاع أن يتخلى عن جميع الامتيازات التي كان يستأثر بها من دون الناس.

وهل قتل السحرة أو لا؟ روايتان:

الرواية الأولى: أنه قتلهم وصاروا شهداء.

والرواية الثانية: أنه تركهم.

المهم أنه ترك موسى عليه السلام وظل موسى بعد ذلك يدعو في مصر، وهنا فرعون أحبَّ أن يلقي آخر حباله، فنادى هامان، فقال: ﴿يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ



﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبٗا﴾ [غافر] كاذباً في ماذا؟ يظنه كاذباً أن له إلٰهاً غيره، أو كاذباً أن الله في السماء، على كل حال الذي كان ينكره فرعون أن يكون إلٰه غيره، ولذلك قال: ﴿مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي﴾ [القصص: ٣٨]، وكان يقول: ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤]، ويقول لموسى: ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذۡتَ إِلَٰهًا غَيۡرِي لَأَجۡعَلَنَّكَ مِنَ ٱلۡمَسۡجُونِينَ﴾ [الشعراء: ٢٩] إذاً هو كان يدعي الألوهية، ويدعي الربوبية، وهل بني له الصرح؟ وهل صعد على ذلك الصرح؟ لا يُعلم، الذي يُعلم أنه قال لهامان: ابن لي الصرح.

مؤمن آل فرعون:

قام رجل مؤمن من آل فرعون، فقال كلمة حق عند سلطان جائر، ولا شك أن فرعون كان جائراً، قال المؤمن: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱتَّبِعُونِ أَهۡدِكُمۡ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٞ وَإِنَّ ٱلۡأٓخِرَةَ هِيَ دَارُ ٱلۡقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنۡ عَمِلَ سَيِّئَةٗ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَاۖ وَمَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ يُرۡزَقُونَ فِيهَا بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴿٤٠﴾ وَيَٰقَوۡمِ مَا لِيٓ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدۡعُونَنِيٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدۡعُونَنِي لِأَكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشۡرِكَ بِهِۦ مَا لَيۡسَ لِي بِهِۦ عِلۡمٞ وَأَنَا۠ أَدۡعُوكُمۡ إِلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾﴾ [غافر]، مقارنةٌ عظيمةٌ وعجيبةٌ، أدعوكم إلى النجاة وتدعونني إلى النار؛ أدعوكم إلى عبادة الله الذي يستحق أن يُعْبَد، وتدعونني لأن أشرك به، وأكفر به، أدعوكم إلى الجنة، وتدعونني إلى النار، ولذلك ختم بقوله: ﴿لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِ لَيۡسَ لَهُۥ دَعۡوَةٞ فِي ٱلدُّنۡيَا وَلَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ هُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذۡكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمۡۚ﴾ [غافر] متى؟ يوم القيامة ﴿وَأُفَوِّضُ أَمۡرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾ [غافر: ٤٤]، وهكذا يجب على المؤمن أن يدعو إلى الله تبارك وتعالى ويبين ما عنده.

أمّا فرعون فهل كان مصدقاً أنه إلٰه وأنه رب؟ أو كانت مجرّد دعوى، هو ذاته لا يصدقها؟ الصحيح أنها مجرد دعوى، وفي قرارة نفسه لا يؤمن أنه إلٰه، وقد أخبر الله تبارك وتعالى عما يجول في خاطر فرعون، وما يدور في نفسه، فقال: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤] أي: أنفسهم من الداخل كانوا يعتقدون عقيدة جازمة أن موسى صادق، وأنهم مبطلون، ولكنه العناد والكبر، ولذلك قال شيخ الإسلام ابن تيمية: جلّ المعاصي وجل الأسباب التي تُدخل الناس النار ترجع إلى العناد والكبر، وفرعون هذا جمع الأمرين: جمع العناد والكبر معاً، ولذلك لما أدركه الغرق ـ كما سيأتينا ـ قال: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٩٠]، إذاً هو في حقيقة نفسه كان يدرك وجود إلٰهٍ آخر غير ما يدعي هو من الزور والبطلان.

اجعلوا بيوتكم قبلة:

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [يونس]، فأنت يا موسى ومعك أخوك هارون ﴿تَبَوَّءَا﴾ أي: اختارا لقومكما بمصر بيوتاً، اسكنوا في مصر أنتما ومن آمن معكما من بني إسرائيل: ﴿وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾، استقبلوا القبلة في بيوتكم، ولم يقل لنا هنا ما هذه القبلة، هل هي بيت المقدس؟ أو أن القبلة مكة؟ ما ذكر لنا، ولكن ذكر: ﴿وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾، وأكثر أهل العلم على أن القبلة هي بيت المقدس.

وذهب بعض أهل العلم على أن القبلة هي الكعبة بيت إبراهيم الذي بناه، وهي قبلة جميع الأنبياء، وإنما استقبل النبي ﷺ بيت المقدس في أول الدعوة؛ لأن أهل الكتاب كانوا يستقبلون بيت المقدس وكان ﷺ يحب أن يوافقهم فيما ليس في كتاب الله تبارك وتعالى، حتى نزل قول الله



تبارك وتعالى: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ [البقرة: ١٤٤] قالوا: ذلك أن المسجد الحرام هو قبلة جميع الأنبياء، وذلك مما حرفه بنو إسرائيل وجعلوا القبلة بيت المقدس دون الكعبة والله أعلم، لكنّ الشاهد من هذا أن موسى ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ أمرَ بني إسرائيل ومن آمن معهم أن يتخذوا مكاناً في مصر، وأن يجعلوا بيوتهم قبلة، وأن يقيموا الصلاة، وهل هي صلاة مثل صلاتنا، مثلاً العصر أربع ركعات؟ الله أعلم، لكن يجب أن نعلم أنها كانت صلاة، وفيها ركوع وسجود، ولكن الله أعلم بكيفية هذا الركوع، أو عدد الركعات، أو عدد الركوع، أو عدد السجود.

فرعون يهم بقتل موسى عليه السلام:

تأثر فرعون كثيراً بالذي حدث، وبالهزيمة التي وقعت عليه، فلم يجد بُدّاً من تهديد موسى ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ، فقال لمن معه ـ وكأنه يستشيرهم ـ: ﴿ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾ [غافر: ٢٦]، وكأن هناك من يمنعه، فقال: ﴿ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾ هذا الكلام يقول عنه أهل العربية: هذا كلام يُضحك الثكلى، والثكلى هي: المصابة بموت أبيها أو أمها أو زوجها أو ولدها، وهذه لا تضحك؛ لأنها مهمومة ومحزونة، وأحياناً بعض الكلمات تُضحك الثكلى؛ لغرابتها.

ففرعون يقول: ﴿ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾ لماذا تريد أن تقتله؟ قال: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾، تصوروا موسى يُظهر في الأرض الفساد، وفرعون مصلح!! كما قال فرعون: ﴿وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩]، وهذا يذكرنا بقول الشاعر:

برز الثعلب يوماً ... في ثياب الواعظينا
ومشى في الأرض يهدي ... ويسب الماكرينا



ويقول:

اطلبوا الديك يؤذن لصلاة الصبح فينا
مخطئ من ظن يوماً أن للثعلب ديناً

وكذلك مخطئ من ظنّ يوماً أن لفرعون ديناً، وأنه يريد أن يصلح، وأنه يريد أن يهديهم سبيل الرشاد، وهل فرعون كان وحده أم كان معه من يدفعه دفعاً إلى هذه الأمور.

والجواب: كانت معه بطانة السوء كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًا﴾ [الأنعام: ١٢٩] بطانة سوء لرجل سيء، ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾ [الأعراف: ١٢٧]، كيف تقبل أنت يا فرعون هذا؟ وذلك عندما سكت عن موسى، هؤلاء هم الذين دفعوه إلى قوله: ﴿سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٧].

وبلغ هذا الكلام موسى ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ، أن فرعون يريد قتله، ويريد قتل من معه ممن آمن، فماذا قال لقومه؟ قال: ﴿ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨] وكذلك محمد ﷺ لما جاءه قومه يشتكون إليه أذى قريش قال: اصبروا وذكر لهم الحديث المشهور: «**إن الرجل فيمن كان قبلكم كان يؤتى بالمنشار، فينشر نصفين من مفرق رأسه إلى أخمص قدميه، لا يرده ذلك عن دينه أبداً، ولكنكم قوم تستعجلون**»[١]، إذاً بماذا أمرهم موسى؟ أمرهم بالصبر، فالإنسان يصبر على أمر الله تبارك وتعالى وقَدَرِه.

ثم قال لهم موسى: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٩].

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦١٢).



موسى عليه السلام يدعو على فرعون ومَنْ ناصره:

وبعد أن هدّأ موسى ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ من روعهم، وطمْأنَهم؛ التفت إلى ربه يدعوه، فقال: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٨٨]، دعا عليهم موسى ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ فقد آذوه، وآذوا المؤمنين، آذوهم قبل ولادة موسى بذبح الأبناء والاستعباد، وآذوهم بعد بعثة موسى ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ أيضاً بالتقتيل، ولذلك دعا موسى عليه السلام على فرعون، وأمَّن هارون بقوله: آمين، قال الله تبارك وتعالى: ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [يونس]، والآن فرعون قرر القتل لموسى ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ، ولا بد في كل مجتمع مهما كان سيئاً أن يخرج فيه بعض الصالحين، فهذا رجلٌ مؤمنٌ من آل فرعون لم يعجبه هذا الوضع، وهؤلاء الملأ كلهم يشيرون بقتله، وهذا الرجل من آل فرعون من النُخبة، ومن الصفوة عندهم ومن المقربين مخالف لهم ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ [غافر: ٢٨] ولكنه ماذا؛ ﴿يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ﴾ [غافر: ٢٨]، يعني ما جريمته؟ فقط أنه قال: ربي الله، وهذه قالها أبو بكر لما خنق عقبة بن أبي معيط رسولَ الله ﷺ وكاد يقتله، فجاء أبو بكر، ودفعه عن رسول الله ﷺ، وقال: أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله[1]؟!

وكذلك هنا يقول هذا المؤمن من آل فرعون الذي يكتم إيمانه: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ ليس مدعياً، وإنما جاءكم ببينات، ﴿وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ﴾ [غافر: ٢٨]، قال أهل العلم: إن أبا بكر أفضل منه؛

(١) أخرجه البخاري (٣٤٠٢) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.



لأنه ما كان يكتم إيمانه، ولكنه كان يظهره، أما مؤمن آل فرعون فهو يكتم إيمانه، ولذلك ابتدأ بقوله: ﴿وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ وَإِن يَكُ صَادِقًا﴾ أنه نبي ومرسل من عند الله؛ ﴿يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ﴾ [غافر: ٢٨] يصبكم خير من هذا الرجل ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ [غافر: ٢٨] وإن كان موسى مسرفاً على نفسه بدعوى الباطل، وكان كذاباً؛ فإن الله لا يهديه، وأنتم ترون خلاف ذلك، الله هدى موسى ونصره عليكم، وأظهر الآيات التي عنده على السحر الذي عندكم، فالتفت فرعون إلى الملأ، ثم قال: ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩].

وهل هذا الرجل هو الذي حذر موسى وأمره أن يخرج من مصر لأن الملأ يأتمرون به؟ قد يكون هو، وقد يكون آخر، والله أعلم.

المهم أن فرعون لما سمع كلام هذا الرجل وخشي أن يؤثر كلامه في الناس قال: ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ أي: في قتل موسى عليه السلام، فردَّ عليه المؤمن، فقال: ﴿يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾ يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾﴾ [غافر] كلام موزون قاله هذا الرجل لقومه، يحذرهم في صنيعهم، ويحذرهم من ضلالهم، وهَدَأ فرعون، وما قتل موسى بعد هذا الحوار وسماعه هذا الكلام.

نزول صنوف من العذاب على آل فرعون:

وعاش موسى عليه السلام في مصر فترة، ولكن فرعون ظلَّ يُقَتِّل أبناءهم



ويؤذيهم، فسلط الله تبارك وتعالى على آل فرعون آيات، سلَّط عليهم الجدب، والقحط، ونقص الثمرات لعلهم يرجعون عن غيهم، قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَٰذِهِۦ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ [الأعراف] أي: من الابتلاءات التي يبتليهم الله بها ﴿يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُواْ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف] فأغلقوا الباب أمام موسى - صلوات الله وسلامه عليه -، لن نؤمن مهما تأتنا بآية لتسحرنا بها، فهم مصرون على ما هم عليه من الباطل، يقول الله تبارك وتعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ﴾ [الأعراف: ١٣٣] وهذه الابتلاءات، هي:

الطوفان: الماء خرج من النيل، فأغرق مزارعهم وبيوتهم.

الجراد: أرسل عليهم الجراد، فكان يأكل جميع محاصيلهم، ويدخل عليهم في بيوتهم حتى تأذوا منه أذية عظيمة.

القُمَّل: هو النمل الصغير الأصفر، وقيل: هو ما نسميه نحن بالقَمل نوع من الحشرات، وقيل: غير ذلك، فصار في كل مكان حتى تأذوا منه.

الضفادع: تنام معهم على فرشهم في بيوتهم، فيفتحون القِدر تخرج لهم الضفادع، ويفتحون الدرج والخِزانة يجدون الضفادع.

الدم: يفتحون الماء ينزل لهم الدم، وكان الدم في ثيابهم، وفي فرشهم، وفي مياههم، وفي النهر، كل شيء انقلب إلى دم، يقول الله تبارك وتعالى: ﴿ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ﴾ واحدة تلو الأخرى، وكلما جاءتهم آية ذهبوا إلى موسى: ادعُ الله أن يُذهب هذه ونتوب ونستغفر، فيدعو الله، فتذهب، فيعودون لما كانوا عليه، ثم تأتيهم الثانية، فيذهبون إلى موسى،

وهكذا حتى جاءتهم تلك الآيات من الله جميعاً، يقول الله تبارك وتعالى: ﴿فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ ۝ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ﴾ أي: العذاب ﴿قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ﴾ أي: واحدة من التي ذكرنا ﴿لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ۝ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنْكُثُونَ﴾ [الأعراف].

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ [الإسراء: ١٠١] اختلف أهل العلم في تحديدها:

فقال بعضهم: هي سنوات القحط التي أصابتهم، ونقص الأموال، ونقص الأنفس، ونقص الثمرات، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، هذه التسع آيات البينات.

وقال بعضهم: منها فلق البحر، وانبجاس الحجر إلى اثنتي عشرة عيناً.

وقال آخرون: العصا واليد، يعني: الذي يضيف العصا واليد ينقص اثنتين من فوق، والذي يضيف انبجاس الحجر وفلق البحر؛ ينقص اثنتين، إما نقص الثمرات ونقص الأنفس وهكذا، والظاهر أن انبجاس الماء من الحجر وفلق البحر جاءا بعد ذلك.

المهم أن موسى جاءهم بتسع آيات بينات صلوات الله وسلامه عليه.

موسى عليه السلام يقرر الخروج من مصر:

وظل موسى يدعو إلى الله تبارك وتعالى في مصر إلى أن جاء اليوم الذي قرر فيه موسى أن يخرج من مصر، أو أن فرعون قرَّر أن يقتل موسى، المهم أن موسى خرج بمن معه ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ، ولحق بهم فرعون يريد قتلهم أو ردهم إلى بلاده، وكانوا قد وصلوا إلى



البحر، وفرعون خلفهم، وتفاقم الأمرُ، واشتد الخطب، واقتربَ فرعون وجنوده حتى صار قاب قوسين أو أدنى منه، وزاغتِ الأبصار، وبلغت القلوب الحناجر، وظنوا بموسى الظنون، أنت قلت: سننجوا وستورثنا الأرض.. الآن سيهلكنا فرعون ومن معه، ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ انتهى الأمر، فقال موسى ذلك الرجل الواثق بربه وبوعده ﷻ: ﴿كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٦٢] أطلقها صلوات الله وسلامه عليه مدوية صكَّتِ الآذان هم يقولون: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ وموسى الثابت الواثق أمامه البحر وفرعون خلفه ويقول: ﴿كَلَّآ﴾، لن يحدث شيء مِنْ هذا، لن تُدركوا، كيف؟! هل سنطير؟! سنختفي؟! تنشق الأرض وتبتلعنا؟! ماذا سنفعل؟ وليس هو الذي يفعل، بل الذي يفعل هو الله ﷻ: ﴿كَلَّآ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾، فموسى عليه السلام لم ينسَ قول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦]، ولذلك باطمئنان تام وهو لا يدري كيف سيحدث الأمر؟ لكن يعلم ويدرك علماً يقينياً ثابتاً جازماً أن فرعون لن يصل إليهم ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [القصص: ٣٥].

انفلاق البحر لموسى عليه السلام:

بعد ذلك جاءت البشرى من الله تبارك وتعالى مباشرة ﴿أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الشعراء: ٦٣] فمن كان يتصور أن يحدث مثل ذلك؟ ما تصوره أحد، يأتي إلى البحر، هذا البحر العظيم، فيقول تعالى: ﴿ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ﴾ فضرب البحر بعصاه ﴿فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ﴾ طود مِنْ هاهنا، وطود مِنْ هاهنا، أرض يابسة وسط البحر.

يقول الله تبارك وتعالى في آية أخرى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ

قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾﴾ [الشعراء] أي: موسى ومَنْ كان معه، فما كان معه إلا نفر قليل هم الذين آمنوا بموسى صلوات الله وسلامه عليه ﴿وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَٰذِرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [الشعراء].

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَٰهُم مِّن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾﴾ [الشعراء] أي: مِنْ بعدهم ﴿فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [الشعراء] أي: وقت الشروق وجهة المشرق ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ [الشعراء] كان موسى ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ كما يذكرون هرب إلى ساحل البحر الأحمر، وكان إهلاك فرعون في العاشر من محرم، ولذلك لما وصل النبي ﷺ إلى المدينة وجد اليهود يصومون العاشر مِنْ المحرم، فقال لهم: «**ما هذا اليوم الذي تصومونه؟**» قالوا: هذا اليوم الذي نجى الله فيه موسى من فرعون، قال: «**نحن أحق بموسى منكم**» فأمر بصيامه صلوات الله وسلامه عليه[1].

انفلق البحر فلقتين، وبينهما أرض يابسة، وعبر موسى عليه السلام ومَنْ معه، فأتبعه فرعون، فأراد موسى أن يضرب البحر حتى لا يدخل فرعون فيه، فقال الله له: اتركه أنت تريد شيئاً، ونحن نريد شيئاً آخر يا موسى، ﴿وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا ۖ﴾ اتركه هادئاً لا تضربه، ولا تأته ﴿وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا ۖ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الدخان]، فلما تجاوز موسى البحر؛ قال الله ﷻ: الآن اضربه، فلما ضربه كان فرعون وقومه في الوسط، فغرق فرعون ومَنْ معه كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ﴾ الآن رأى فرعون الماء يأتيه

(١) أخرجه البخاري (٢٠٠٤)، ومسلم (١١٣٠).



من كل صوب، وأدرك أنه سيغرق، فماذا قال؟ ﴿قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ [يونس: ٩٠] يقول: أنا الآن أسلمت، فجاءه الجواب من الله ـ جل وعلا ـ: ﴿ءَآلۡـَٰٔنَ﴾ ؟! الآن تسلم؟ أين أنت قبل قليل؟ أين أنت لما جاءك موسى بالبينات؟ الآن؟ لما رأيت الموت؟ الآن لما أدركك الغرق؟ ﴿ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ۝٩١ فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾ [يونس] فقط لماذا؟ ﴿لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةٗۚ﴾ [يونس: ٩٢] لا لأجلك أنت، ولكن لأجل غيرك؛ لأنهم كانوا يقولون عنه: إنه إلٰه، فإذا غرق يقولون: لم يغرق، واختفى فهو إلٰه، وسيأتي بعد ذلك، ولكن الله سبحانه قال: ﴿نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾ نخرجك جثةً ببدنك حتى يعلم الناس جميعاً أنك لست بإلٰه، ولكنك مجرد عبد، شئتَ أم أبيتَ، ﴿لِتَكُونَ لِمَنۡ خَلۡفَكَ ءَايَةٗۚ﴾ علامة حتى لا يدعي أحد بعدك الإلٰهية، أنت يا منْ كنتَ تدعي الإلٰهية نخرجك جثة نتنة منتفخة من الماء ليراك الناس وليعرفوا قدرك، وليعرفوا قدرهم عندما يتعاملون مع الله تبارك وتعالى.

هل فرعون مؤمن؟

هناك من يقول فرعون آمن قبل أن يموت لما قال: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ وقُبِلَت توبته، والصحيح أنه لم تقبل توبته؛ لأن الله قال له: ﴿ءَآلۡـَٰٔنَ﴾؟! ولذلك قال الله تبارك وتعالى: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ يَأۡتِيَ رَبُّكَ أَوۡ يَأۡتِيَ بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَۗ يَوۡمَ يَأۡتِي بَعۡضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفۡسًا إِيمَٰنُهَا لَمۡ تَكُنۡ ءَامَنَتۡ مِن قَبۡلُ أَوۡ كَسَبَتۡ فِيٓ إِيمَٰنِهَا﴾ [الأنعام: ١٥٨]، وقال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝٩٦ وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ۝٩٧﴾ [يونس]، وقال: ﴿وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمۡ كُفَّارٌۚ﴾ [النساء: ١٨].

وقال النبي ﷺ: «**تقبل توبة العبد ما لم يُغَرْغِر**»[١]، فإذا غرغر رأى شيئاً لا يراه الآخرون، ولذلك لم تقبلْ توبة فرعون؛ لأنه رأى شيئاً لم يرَه غيره، رأى الموت بأمِّ عينه، وهذه سنة الله ﷻ مع الظالمين: «**إن الله يملي للظالم، فإذا أخذه لم يفلته**»[٢] وفرعون حشر ﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ۝٢٣ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٢٤﴾ [النازعات]، وقال: ﴿أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ﴾ [الزخرف: ٥١]، فأمهله الله ﷻ حتى جاء اليوم الذي أخذه فيه كما قال الله جل وعلا: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ۝٤٢ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ۝٤٣﴾ [إبراهيم].

ونجى الله تبارك وتعالى موسى عليه السلام؛ لأنه كان مع الله، ومن كان مع الله كان الله معه.

وقد ذكر الله تبارك وتعالى إهلاك فرعون في أكثر من موضع، منها قوله تبارك وتعالى: ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ۝١٣٦﴾ [الأعراف]، وقال جل ذكره: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ﴾ [يونس: ٩٠]، وقال: ﴿فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ﴾ [الإسراء: ١٠٣]، وقال: ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ۝٧٨ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ۝٧٩﴾ [طه]، وقال: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٥٥ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ۝٥٦﴾ [الزخرف]، وقال: ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ۝٤٠﴾ [الذاريات]، هذا حاله مع موسى عليه السلام.

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٥٣٧)، وابن ماجه (٤٢٥٣)، وحسنه الشيخ الألباني في «صحيح الترغيب» (٣١٤٣).

(٢) أخرجه البخاري (٤٦٨٦)، ومسلم (٢٥٨٣).



أما حال فرعون في الآخرة؛ فقال الله تبارك وتعالى: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُوا۟ فِى هَٰذِهِۦ لَعْنَةً وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ بِئْسَ ٱلرِّفْدُ ٱلْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾﴾ [هود]، وقال: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [القصص]، وقال: ﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر]، هذا حال فرعون مع موسى صلوات الله وسلامه عليه.

اجعل لنا آلهة:

وتجاوز موسى عليه السلام ومن معه البحر بعد أن خرجوا من مصر ووقعت أحداث كثيرة قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ﴾ [الأعراف: ١٣٨] مرّوا على قوم من عبدة الأصنام بعد أن جاوزوا البحر، ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨] هذا أول السيل، وأول السيل قطرة، ولكنها قطرة قبيحة، ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ أو ليس لكم إله؟! أليس إلٰهكم الله ـ جل وعلا ـ الذي نجاكم الآن من فرعون، ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ [الأعراف] يعني: عبدة الأصنام الذين مررتم عليهم ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾﴾ [الأعراف] وهذه هي أول قضية.

قال أبو واقد الليثي خرجنا مع رسول الله ﷺ قبل حنين، والذين خرجوا مع النبي ﷺ ينقسمون إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: المهاجرون والأنصار: وهم الذين خرجوا مع النبي ﷺ من المدينة إلى مكة، ففتحها الله لهم.



القسم الثاني: وهم أهل مكة الذين أسلموا بعد الفتح.

القسم الثالث: وهم قوم من قبائل عربية أخرى جاؤوا ووافقوا النبي ﷺ في مكة بعد أن خرج من مكة إلى حنين ومعه عشرة آلاف، يقول أبو واقد الليثي: وكنا حديثي عهد بجاهلية، أي: الذين معهم ليس من المهاجرين والأنصار ولكن من آخرين من أهل مكة، الذين أسلموا الآن، أو غيرهم من الذين جاؤوا من خارج مكة وكانوا حديثي عهد بجاهلية ما عرفوا الإسلام حق المعرفة، يقول: فمررنا بسدرة، قلنا: يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما للكفار ذات أنواط، فالكفار لعدم تعلقهم بالله ولتعلقهم بالترهات والتوهمات كانوا يعتقدون في شجرة سدرة ذات أنواط ـ أي لها فروع ـ يأتون إليها فيعلقون عليها الأسلحة قبل القتال اعتقاداً منهم أنهم إذا علقوا الأسلحة على هذه الشجرة فترة من الزمن ثم أخذوها؛ فإنهم ينتصرون ولا بد، وسبب نصرهم ماذا؟ أنهم علقوا الأسلحة على هذه الشجرة، فقالوا للنبي ﷺ: لماذا لا نفعل ذلك فننتصر؟ فلنعلق أسلحتنا على هذه الشجرة، فقال لهم النبي ﷺ: «**الله أكبر، هذا كما قالت بنو إسرائيل لموسى** ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ ثم قال لهم: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾»(١).

إذاً أول قضية قالها بنو إسرائيل لموسى: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا﴾ متى؟ بعد نجاتهم من فرعون مباشرة قبل استقرارهم، وعنَّفَهم موسى عليه السلام، فسكتوا، ولكن ما في قلوبهم إلى الآن يرتج عليهم كما يرتج المرجل(٢).

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ [الأعراف: ١٤٢]، ذهب موسى ليبتعد عن

---

(١) أخرجه أحمد (٥/٢١٨)، والترمذي (٢١٨٠)، والنسائي في «السنن الكبرى» (١١١٨٥)، وصححه الشيخ الألباني في «مشكاة المصابيح» (٥٤٠٨).

(٢) أي: من إصرارهم على عدم الاستقامة على الحق.



بني إسرائيل ليناجي ربه جل علا، وكان قد صام ثلاثين يوماً ثم بعد ذلك أفطر حتى تذهب رائحة الفم مما يخرج من المعدة بسبب طول الصيام، فلما جاء لميقات ربه تبارك وتعالى، قال الله له: لماذا أفطرت يا موسى؟ قال: حتى تتغير رائحة فمي، قال: أو ما علمت أن رائحة فم الصائم أفضل عندي من ريح المسك؟ ارجع صم عشرة أيام ثم تعال، فرجع موسى وصام عشرة أيام، وهي مصداق قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾ [الأعراف: ١٤٢]، ولما أراد أن يخرج ترك أخاه هارون عليه السلام في بني إسرائيل، وقال له: ﴿اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي﴾ [الأعراف: ١٤٢]، وذلك أن موسى عليه السلام هو صاحب الرسالة، وأما هارون عليه السلام فهو تابع له، وإن كان نبياً كريماً مع موسى صلوات الله وسلامه عليه، ولكن موسى هو الأصل، وهو من أولي العزم من الرسل، ﴿اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٢] وهذا ليس بعيب أن يقول الرجل لرجل صالح: «أصلح»، كما قال الله لنبيه محمد ﷺ: ﴿اتَّقِ اللَّهَ﴾ [الأحزاب: ١]، وليس في هذا منقصة لهارون لأن ﴿الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥].

مجيء موسى عليه السلام لميقات ربه سبحانه:

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٤٣] يقول أهل العلم: لما سمع لذة الخطاب اشتاق إلى رفع الحجاب؛ أي: لما سمع كلام الله اشتاقت نفسه لرؤيته ـ جل وعلا ـ، وذلك أن أعظم نعيم يُعطاه المؤمنون في الجنة رؤية الله تبارك وتعالى، فموسى اشتاق إلى رؤية الله، فقال: ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي﴾ [الأعراف: ١٤٣] لا تستطيع أن تراني، وذلك أن الله تبارك وتعالى أعطاه قوة بقدر، وهذه القوة لا يستطيع من خلالها أن يتحمل رؤية الله جل وعلا، وذلك أن الله جل وعلا كما أخبر عنه



نبيه ﷺ: «حجابه النور، لو كشفه لأحرقتْ سبحاتُ وجهه ما انتهى إليه بصره»[١]، فالله ﷻ رحمةً بموسى قال: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ أنا منعتك رحمة بك، قال الله جل وعلا: ﴿وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِي ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾ [الأعراف: ١٤٣]، جبل من حجارة يصير دكاً لماذا؟! لأن الله جل وعلا تجلى له، لم يتحمل، فكيف بك أنت أيها الإنسان الضعيف كيف تتحمل ذلك؟

قال تعالى: ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ﴾ [الأعراف: ١٤٣] سجد لله ﷻ، وقيل: أُغمي عليه، صُعِق لما رأى الجبل اندك بهذه السرعة، يقول الله تبارك وتعالى: ﴿فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٤٣] مِنْ أني سألتك هذا في هذه الدنيا.

رؤية الله سبحانه وتعالى في الآخرة:

ورؤية الله تبارك وتعالى ممكنة في الآخرة، وذلك أن الله ـ جل وعلا ـ جعل من ثواب المؤمنين في الجنة أنهم ينظرون إلى الله جل وعلا، بل هي أعظم نعمة، ولذلك قال الله تبارك وتعالى في وصف المؤمنين في الجنة: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾﴾ [القيامة] من النضرة والبهاء والنور ﴿إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة] أي: تنظر إلى الله ﷻ، وقال جل وعلا: ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [المطففين] أي: ينظرون إلى نعم الله تبارك وتعالى، وأعظم نعم الله النظر إلى وجهه ﷻ، ولذلك كان النبي ﷺ يسأل الله لذة النظر إلى وجهه الكريم ﷻ، بل إن الله ـ جل وعلا ـ جعل من عقوبة الكفار أنهم لا يرون الله ﷻ: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾﴾ [المطففين]، قال الإمام الشافعي رحمه الله: لما حَجَب الكفار، فإنه لن يحجب المؤمنين.

(١) مسلم (١٧٩).



وقال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦] والحسنى: الجنة وكل حسنٍ فيها، والزيادة كما قال النبي ﷺ: «**الزيادة النظر إلى وجه الله تبارك وتعالى**»(١)، وقال النبي ﷺ عن رب العزة تعالى: «**حجابه النور، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما ينتهي إليه بصره**»، والله تعالى إذا كان يوم القيامة كشف الحجاب للمؤمنين، فيرون وجهه تبارك وتعالى، وقال النبي ﷺ: «**إنكم سترون ربكم لا تضامون في رؤيته كما ترون القمر ليلة البدر**»(٢)، والقمر ليلة البدر لا يحتاج الإنسان أن يدافع الناس حتى يراه، فالكل يراه، والكل في مكانه، فيقول النبي ﷺ كما أنكم ترون القمر دون مزاحمة من أحد كذلك سترون ربكم، بل إذا كان الجبل الذي هو جماد مكّنه الله ـ جل وعلا ـ من رؤيته، فعباده المؤمنون أولى أن يُمَكِّنَهم الله من رؤيته جل وعلا.

رجوع موسى عليه السلام إلى قومه:

خرج موسى إلى ميقات ربه ثم رجع بعدها إلى قومه فماذا رأى؟

يقول الله جل وعلا: ﴿وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾﴾ [البقرة] وقال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّهُۥ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿١٤٨﴾ وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا۟ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا۟ قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾﴾ [الأعراف]، وقال الله ـ جل وعلا ـ: ﴿وَمَآ أَعْجَلَكَ

---

(١) أخرجه مسلم (١٨١).

(٢) أخرجه البخاري (٥٥٤)، ومسلم (٦٣٣).



عَن قَوْمِكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أُولَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَـٰنَ أَسِفًا ۚ قَالَ يَـٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا ۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى ﴿٨٦﴾ قَالُوا۟ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَـٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَـٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا۟ هَـٰذَآ إِلَـٰهُكُمْ وَإِلَـٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾﴾ [طه].

وقال الله جل وعلا: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَـٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٥٠﴾﴾ [الأعراف: ١٥٠].

وقال الله جل وعلا: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَـٰرُونُ مِن قَبْلُ يَـٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَـٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَـٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ قَالَ يَـٰهَـٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ۖ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴿٩٤﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَـٰسَـٰمِرِىُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا۟ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴿٩٦﴾ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ ۖ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَـٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا ۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾﴾ [طه].

فهذه الآيات ذُكرت في قصة موسى مع قومه وعبادتهم للعجل، وهذا من فساد رأيهم، وعطب فكرهم.

عبادة العجل:

خرج موسى لميقات ربه وترك هارون عند قومه، فماذا فعلوا؟



جاءهم السامري، وهو رجل ليس من بني إسرائيل، وإنما التحق بهم، والذي حصل أنهم لما هربوا من فرعون كان بعض الناس قد سرق ذهباً من الأقباط؛ لأنهم قالوا: طالما سنخرج نسرق ذهباً فسرقوه، ثم لما تجاوز موسى وقومه البحر، وإذا هذا الذهب معهم، وهو معنى قولهم لموسى: ﴿قَالُوا۟ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ﴾ [طه: ٨٧] هو الذهب الذي سرقوه، وقد أمرهم موسى عليه السلام بإلقائه في اليم؛ لأنه لا يحل لهم، وقال: كيف تستحلونه؟ فألقوا الذهب، فقام السامري، وجمع الذهب كله، وهذا يدل على أن الذهب كان كثيراً، فصهره ثم صنع منه عجلاً، وهذا العجل صنعه بطريقة بحيث يدخل الهواء من دبره، فيخرج صوت من فم هذا العجل، فتعجبوا، وقالوا: ما هذا؟ عجيب هذا العجل! فقال لهم السامري: هذا إلٰه موسى الذي ذهب ليلتقي به، وقال: هذا إلٰه موسى خاصة أن موسى قال لهم: ثلاثون يوماً أذهب وآتي، فتأخر موسى عشرة أيام، وبعد أن تجاوز موسى الثلاثين أخرج السامري العجل، فقالوا ما هذا العجل؟ قال: ضاع موسى نسي إلٰهه، وسيأتي موسى ويقول لكم: هذا إلٰهي. قال هارون اتقوا الله ليس هذا إلٰه موسى، هذا عجل، هذا صنم، فلم يلتفتوا إلى هارون، ولذلك قال: ﴿إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى﴾ [الأعراف: ١٥٠]، فما كانوا يخافون من هارون؛ لأنه هين لَيِّن، ويخافون من موسى كثيراً؛ لأنه كان شديداً عليهم، واستمروا على عبادة ذلك العجل عشرة أيام، والله ـ جل وعلا ـ قال لموسى: إن قومك اتخذوا العجل من بعدك، والآن ارجع إليهم تجدهم يعبدون العجل ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٥﴾﴾ [طه]، فرجع موسى إلى قومه غاضباً ﴿غَضْبَٰنَ أَسِفًا﴾ [طه: ٨٦] والأسف هو أشدُّ الغضب يقول سبحانه: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الزخرف: ٥٥] وآسفونا أغضبونا، ولما دخل عليهم؛ وجدهم يعبدون العجل، فألقى الألواح التي فيها كلام الله، ولكن بدون شعور،

وذلك مما رآه من فعل بني إسرائيل مع العجل، فالتفت فوجد هارون مع القوم، والعجل يُعبد، فقال: أين أنت يا هارون من هذا؟ ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ﴾ [الأعراف: ١٥٠] من الغضب كيف عُبِدَ العجل؟ ﴿قَالَ ٱبْنَ أُمَّ﴾ يا أخي ﴿إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ﴾ [الأعراف: ١٥٠]، وقال: ﴿لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ۖ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى﴾ [طه: ٩٤]، خشيت أن تقول لِمَ لَمْ تنتظرني؟ فانتظرتك حتى تأتي، فعذر أخاه، وذهب إلى قومه، فقال لهم: لماذا عبدتم العجل؟ أعجلتم العذاب؟ أتريدون أن يُنزل الله عليكم العذاب؟ ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا ۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى ﴿٨٦﴾ قَالُوا۟ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا﴾ [طه] نحن ألقينا الزينة التي سرقناها كما أُمرنا، ثم بعد ذلك وجدنا هذا العجل، وقالوا: إنك نسيت ربك، وهذا ربك تركته، فعبدناه على هذا الأساس، والسامري هو الذي صنع لنا هذا العجل.

ولننظر كيف كانوا مع هارون فقد استضعفوه وكادوا أن يقتلوه، والآن مع موسى هم يخافونه، وقالوا: إنه السامري، فجاء بالسامري فقال: ما أمرك؟ ﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا۟ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى ﴿٩٦﴾﴾ [طه] أي: رأيت أشياء ما رآها الناس، وما هذه الأشياء؟ قال أهل العلم: كان جبريل على فرس لما أغرق الله ﷻ فرعونَ وقومَه في البحر، وموسى عليه السلام لما جاء ليضرب بعصاه في البحر بعد أن عبروا قال له جبريل: دعهم يتقدمون لهم شأن آخر، فلما نجى الله ﷻ موسى ومن معه، وكان معهم جبريل، وهنا السامري انتبه أن هذا ليس إنساناً عادياً رغم أن جبريل كان بصورة بشر، فقال: هذا يأمر موسى ويطيعه موسى مَنْ هذا؟ فلما وضعت فرس جبريل حافرها على الأرض جاء وأخذ أثراً من هذا المكان وجعله في العجل فظهر له الصوت، ولذلك قال: ﴿بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا۟ بِهِۦ﴾ وهو جبريل

وفرسه ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ﴾ وهو جبريل وأثر قدم فرسه ﴿فَنَبَذْتُهَا﴾ أي: في جسد العجل؛ فكان الصوت ﴿وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِى نَفْسِى﴾ [طه: ٩٦].

فعرف الآن موسى عليه السلام قصة العجل، إذاً هذا الصوت الذي يخرج من العجل بسبب ما أخذه من أثر فرس جبريل عليه السلام، فقال له موسى: أنت الآن لك عقوبة خاصة ﴿وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ﴾ [طه: ٩٧] سيكون لك موعد وعذاب عند الله جل وعلا، وهذا العجل الذي تزعم أنه إلٰه سأحرقه حتى يعلم الجميع أنه ليس بإلٰه ﴿لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِى ٱلْيَمِّ نَسْفًا﴾ [طه: ٩٧]، ثم أحرق العجل، ثم نسفه في اليم ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ، وانتهى أمر العجل، وتابوا، ورجعوا، وكما أن المعوج لا يستقيم؛ كذلك هؤلاء القوم فيهم اعوجاج شديد.

بنو إسرائيل يُؤْمَرون بقتل أنفسهم:

قالوا تبنا يا موسى قال: ﴿فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٥٤] هذه التوبة عند الله تبارك وتعالى، فجاءتهم ظلمة، فصار بعضهم يقتل بعضاً، حتى قيل: إنه قُتِلَ منهم قريب من سبعين ألفاً، ورفعت الظلمة، وقالوا: يا موسى هل تاب الله علينا؟ قال تاب الله عليكم، ولكن الآن سأختار منكم جماعة: ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا﴾ [الأعراف: ١٥٥]، أخذ موسى سبعين رجلاً مِنْ خيرة بني إسرائيل، وذهب بهم وقال: انتظروا هنا حتى أناجي ربي، قالوا: أسمعنا كلام ربك، لابد أن نسمع معك، فقال: تعالوا معي، فاقترب موسى، ثم كلم الله موسى، فسمعوا الكلام، فقالوا: يا موسى مَنْ هذا الذي كلمك؟ قال: ربي، قالوا: ﴿يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: ٥٥] وهؤلاء أحسن الناس في بني إسرائيل، قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [البقرة]، فلما رأى موسى

السبعين هلكوا، وهم أحسن الناس في بني إسرائيل؛ قال: يا رب ماذا أقول عندما أرجع لبني إسرائيل؟ أقول لهم: إن الله أهلك السبعين؟ اللهم أحيهم واقبل توبتهم، وبدأ يدعو الله تبارك وتعالى ويستجير به ﷺ، فاستجاب الله لموسى وأحياهم ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [البقرة]، فأحياهم الله تبارك وتعالى مرة ثانية.

والله ﷻ ذكر الإحياء خمس مرات في سورة البقرة في هذا الموضع، والثانية في قصة البقرة: ﴿فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾﴾ التي ستأتينا، والثالثة الجماعة من بني إسرائيل ﴿ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ ۚ﴾ [البقرة: ٢٤٣] والرابعة طيور إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه قال: ﴿رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٠]، والخامسة قصة صاحب الحمار لما أماته الله ﷻ وحماره، ثم أحياه أمام عينيه ﴿أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِا۟ئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِا۟ئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾﴾ [البقرة]، وهذه كانت الأولى في بني إسرائيل.

بنو إسرائيل والتيه:

التيه فترة من الزمن أخبر الله تبارك وتعالى بها عن بني إسرائيل، وذلك لما أمرهم موسى أن يدخلوا بيت المقدس، فرفضوا ذلك، وقالوا له: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ﴾ [المائدة: ٢٤] ضرب الله عليهم التيه



يمشون لا يدرون أين هم لمدة أربعين سنة، فجاعوا، فرزقهم الله المنَّ والسّلْوى.

والمنُّ: حبات بيضاء من السماء يأكلها الشخص، فيجد فيها لذة.

والسّلْوى: العسل، وقيل: السلوى هو: بعض الطيور كالسمان بدون تعب وهم جلوس يأتيهم المنّ والسّلْوى، فماذا قالوا: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ﴾ [البقرة: ٦١] مَللنا من المنّ والسّلْوى، إذاً ماذا تريدون؟ ﴿فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا﴾ [البقرة: ٦١] هم عندهم المنّ والسَّلْوى ويريدون البصل، والبقل، والعدس، والثوم، والقثاء، فقال موسى: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ﴾ [البقرة: ٦١] وليس مصرَ الدولة المعروفة وإنما مصر من الأمصار يعني: هذه الأطعمة التي تريدون موجودة في كل مكان، ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ﴾ [البقرة: ٦١] وهذا لتَعَنُّتِهم وعنادِهم، وكذلك لما صنعوا بموسى، يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَـٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ [البقرة: ٩٣]، فهذه أمة غريبة للغاية، الآن جاءهم، وقال: خذوا التوراة. قالوا: لا نأخذ التوراة، فنتق الله عليهم الجبل ـ أي رفعه ـ، وصار معلقاً في الهواء. قالوا: سمعنا وعصينا!! قال: أُنزل عليكم الجبل؟ قالوا: الآن سمعنا وأطعنا.

قصة البقرة:

ثم حدث في بني إسرائيل أن وجدوا قتيلاً، ولم يدروا من الذي قتله، فأمسكوا بشخصٍ ظنوه هو القاتل، فقال قائل منهم: هل تعرفون أن هذا هو القاتل لتتهموه؟ عندكم موسى اذهبوا إليه هو نبي وسيعلم، وهنا إما أنهم سألوا موسى على سبيل الصدق أو أنهم سألوه على سبيل



الاستهزاء والسخرية؟ فجاؤوا إلى موسى، وقالوا: يا موسى قُتِلَ لنا قتيل فمن الذي قتله؟ وموسى لا يعلم الغيب صلوات الله وسلامه عليه، فالذي يعلم الغيب هو الله ﷻ قالوا: ﴿ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ يخبرنا مَن الذي قتل قتيلنا؟ ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً﴾ [البقرة: ٦٧] قالوا: نقول لك قتل قتيلنا، وتقول اذبحوا بقرة!! ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾ [البقرة: ٦٧] أتسخر منا؟

فقال: ﴿أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [البقرة: ٦٧] قال: أرأيتم مني هذا؛ كم سنة عشتُ معكم، فهل مرة سخرت منكم؟ هل وقع مني هذا لكم من قبل؟ فقال لهم: اذبحوا بقرة، ولماذا بقرة؟ لماذا لم يكن حملاً أو شاة أو أسداً أو نمراً لماذا بقرة؟ لأنهم عبدوا العجل، فحتى يخرج حب العجل من قلوبهم.

قال الله تبارك وتعالى حكاية عنهم: ﴿قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾﴾ [البقرة] لا هي كبيرة، ولا صغيرة، فهي وسط ﴿فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوْنُهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ﴾ [البقرة] قالوها: زِدْنا مِنْ صفاتها، هذا لا يكفي، فقال: ﴿إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا ۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ﴾ [البقرة: ٧١]، الآن نبحث عنها.

قال لهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً﴾ فلو ذبحوا أي بقرة لكانوا قد نفذوا الأمر، ولكنهم تعنّتوا، أي بقرة تُذبح؟ قال لهم: لا فارض، ولا بكر، شدّدوا على أنفسهم وتعنتوا، فقالوا: ما لونها؟ قال: صفراء، ولكن فاقع لونها تسر الناظرين، فوجدوا مجموعة قليلة من الأبقار تنطبق عليها هذه الصفات، فقالوا بعد ذلك: أخبرنا أيضاً عن صفات هذه



البقرة، قال: ﴿لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ﴾ [البقرة: ٧١] ليست مذللة، ولا تحرث الأرض، فهي بقرة مذللة، ﴿وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا﴾ لا تعمل بسقي الزرع.

وقيل ﴿لَا شِيَةَ فِيهَا﴾: لا عيب فيها ﴿قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ [البقرة: ٧١] وجدوا الأوصاف التي يبحثون عنها، ولأنهم شددوا على أنفسهم فشدد الله عز وجل عليهم، فقال صاحبها بعد أن زاد فيها أكثر من مرة: لا أبيعها حتى آخذ وزنها من الذهب، فجمعوا ذهبهم كله، ووزنوها له وأعطوه، فلما أعطاهم البقرة؛ أخذها موسى ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ، فذبحها، ثم أخذ جزء من البقرة، والله أعلم ما هو؟ قيل الذراع، وقيل الفخذ، المهم أنه أخذه، وضرب به الميت، فقام حياً بقدرة الله عز وجل، وقال موسى: الآن هو الذي يخبركم مَنْ الذي قتله؟ فقام المقتول بين أظهرهم، وقال قتلني فلان، فأخبر بقاتله ثم مات.

اذهب أنت وربك فقاتلا!!

أمر الله تبارك وتعالى موسى أن يقول: ﴿اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا﴾ [المائدة: ٢٠] على الأرض بعد أن كانوا مستعبدين مضطهدين صاروا ملوكاً، ﴿وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ [المائدة: ٢٠]، ثم بعد كل هذا أمرهم بأمر، فقال: ﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿٢١﴾﴾ [المائدة]، وهي بيت المقدس، وكانوا قد طردوا منها، فأمرهم أن يدخلوها، وهذا الجهاد هو جهاد الدفع ـ يعني دفع الكفار عن أرضهم ـ، وأما جهاد الطلب؛ فلا يكون إلا في أمة محمد ﷺ.

فالجهاد نوعان: جهاد دفع، وجهاد طلب.

وجهاد الدفع عند كل الأمم تدافع عن نفسها، وأما جهاد الطلب



ـ وهو نشر الدعوة ـ فلم يكن إلا في أمة محمد ﷺ، ولذلك كان كل نبي يُبعث إلى قومه خاصة والنبي ﷺ هو الذي بُعِثَ إلى الناس كافة، يجاهد ويخرج من بلاده إلى بلاد أخرى حتى ينشر الله الإسلام على الأرض كلها.

فهنا أمرهم أن يدخلوا الأرض المقدسة ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ﴾ [المائدة]، ولم يقولوا: يا نبي الله، ولم يقولوا: يا رسول الله، وإنما نادوه باسمه، وهذا سوء أدب منهم مع موسى صلوات الله وسلامه عليه ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [المائدة]، ثم قال الله تبارك وتعالى مبيناً أنه ما يزال فيهم صالحون ﴿قَالَ رَجُلَانِ﴾ [المائدة: ٢٣] فقط، حتى إنه قال البعض: هذان الرجلان **أحدهما**: نبي، وهو: يوشع بن نون، **والثاني**: رجل صالح، وبعضهم قال: إنهما هارون ويوشع عليهما السلام، ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ﴾ أي: يخافون الله تبارك وتعالى ﴿أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا﴾ أنعم الله عليهما أن وفقهما لهذه المقولة ﴿ٱدْخُلُوا۟ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ﴾ [المائدة: ٢٣]، وكأن قوم موسى ما سمعوا شيئاً، فقالوا ثانية: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا﴾ [المائدة: ٢٤] تكلم هذان أو لم يتكلما ﴿لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا﴾، ويا ليتهم سكتوا، لكنهم زادوا، فقالوا كلمة الكفر: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ [المائدة: ٢٤]، فبعد كل هذا الذي رأوه من موسى، ومن الله ﷻ؛ يقولون: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ﴾ فماذا تركوا لفرعون؟ وماذا تركوا للنمرود؟ وماذا تركوا لقارون؟ وماذا تركوا لهامان؟ هكذا يقولون لنبي الله موسى ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ، وانظروا إلى قولهم: ﴿أَنتَ وَرَبُّكَ﴾، ولم يقولوا: أنت وربنا، وكأنه ليس برب لهم والعياذ بالله.



وهنا غضب موسى ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ، فقال ـ يعتذر إلى الله من فعل قومه ـ: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِيۖ﴾ [المائدة: ٢٥] فقط، فماذا أصنع بهم يا رب؟ ﴿فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [المائدة: ٢٥]، فسماهم فاسقين، والفاسق هو الخارج عن الشيء، وهم خارجون عن الطاعة، عن طاعة موسى ﷺ، فجاء الجواب من الله تبارك وتعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْۛ﴾ [المائدة: ٢٦] أي: هذه الأرض المقدسة محرمةٌ عليهم، فالذين يقولون هذا الكفر لن يدخلوها أبداً، ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْۛ أَرْبَعِينَ سَنَةًۛ يَتِيهُونَ فِي ٱلْأَرْضِۚ﴾ [المائدة: ٢٦].

قال بعض أهل العلم: ﴿مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْۛ أَرْبَعِينَ سَنَةًۛ يَتِيهُونَ فِي ٱلْأَرْضِۚ﴾، فيجعلون التيه أربعين سنة، ثم يدخلون الأرض المقدسة، فتكون العقوبة محددة بأربعين سنة، أو تكون ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْۛ﴾ ويقف، فتكون محرمة عليهم إلى الأبد: وزيادة على ذلك ﴿أَرْبَعِينَ سَنَةًۛ يَتِيهُونَ فِي ٱلْأَرْضِۚ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [المائدة: ٢٦] لا تأسَ عليهم أبداً؛ لأنهم يستحقون ما سيصيبهم، وهؤلاء الذين قال الله فيهم ﷻ: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ٤٧﴾ [البقرة]، فهؤلاء خير أتباع الرسل في ذلك الزمان، ولكم أن تتصوروا كيف كان يُصنع بالرسل غير موسى ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ.

ولما خرج النبي ﷺ يوم بدر ـ خرج يريد العير أي: القافلة ـ، وقدر الله تعالى أن تَسْلَم العير، وأن تأتي قريش بحدها، وحديدها، وبرجالها، وفلذات أكبادها، فيختار الله تبارك وتعالى قريشاً، ويختار الناس العيرَ، ولا يقع إلا ما يختاره الله تبارك وتعالى، والنبي ﷺ إنما



أخذ البيعة من الأنصار أن يدافعوا عنه، لا أن يقاتلوا معه، واستشارهم بعد أن جمعهم، وقال: «**فلتت العير، وجاءتكم قريش بفلذات أكبادها فماذا ترون؟ نقاتلهم أو نرجع؟**» يريد ألا يُجبر الأنصار على شيء خلاف ما تم الاتفاق عليه، فتكلم أبو بكر ﵁ وأحسن، فسكتَ النبي ﷺ، وقال: «**أشيروا عليّ**»، فتكلم عمر ﵁ وأحسن، فسكت النبي ﷺ، وقال: أشيروا عليّ، فوقف سعد بن معاذ ﵁ وقال: كأنك يا رسول الله تعنينا، تريد الأنصار؟ قال: «**نعم**»، فتكلم سعد بن معاذ ﵁ فأحسن، وقال: والله يا رسول الله لو خُضتَ بنا بَرْكَ الغماد؛ خضناه معك[1]، وقام المقداد بن عمرو ﵁، وقال: يا رسول الله، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى ﵇: ﴿فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ ولكن امض ونحن معك.

وفي رواية عند أحمد[2]: ولكن نقول لك: اذهب أنت وربك فقاتلا، إننا معكما مقاتلون.

قال عبد الله بن مسعود ﵁: فكأنه سري عن رسول الله ﷺ[3].

وفي رواية: ولكنا نقاتل عن يمينك، وعن يسارك، ومن بين يديك، ومن خلفك. حتى قال عبد الله بن مسعود ﵁: والله لتمنيت أني قلتُ هذه الكلمات من شدة إعجابه ﷺ.

ولذلك فَضَّل الله أصحاب محمد ﷺ على أصحاب جميع المرسلين، وسيأتينا في قصة عيسى ﵇ أن الحواريين الذين أنزل الله

---

(١) أخرجه مسلم (١٧٧٩) وفيه أن القائل هو: سعد بن عبادة ﵁.

(٢) «مسند أحمد» (١٨٠٧٣).

(٣) أخرجه البخاري (٤٢٤٣) من حديث عبد الله بن مسعود ﵁.



تبارك وتعالى فيهم: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾﴾ [المائدة]، الحواريون الذين قال عيسى صلوات الله وسلامه عليه: ﴿مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ﴾ [الصف: ١٤] الصفوة من أتباع عيسى عليه السلام ماذا يقولون لعيسى عليه السلام: ﴿إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۖ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾﴾ [المائدة]، فهؤلاء هم الصفوة من أتباع الرسل.

كذلك ما ورد في قصة طالوت مع قومه، وهو رجل صالح، وكان معه نبي وهو شمويل، ونبي آخر وهو داود عليه السلام، عندما يأمرهم أن يقاتلوا قوم جالوت وجنوده، ثم بعد ذلك يقول لهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ۚ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ﴾ [البقرة: ٢٤٩]، وهم الصفوة ﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ۚ﴾ [البقرة: ٢٤٩]، وهؤلاء هم صفوة الصفوة، وانظر حال الصفوة من أصحاب محمد ﷺ، فهم خير أصحاب الرسل مطلقاً، ولذلك يدخلون الجنة بعد الأنبياء مباشرة؛ لأنهم خير أتباع الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

موسى يضرب بعصاه الحجر:

قال الله تبارك وتعالى عن بني إسرائيل: ﴿وَقَطَّعْنَـٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ ۖ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ﴾ [الأعراف: ١٦٠]، وقال الله جل وعلا: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَـٰمَ﴾ [الأعراف: ١٦٠]، إذاً سقاهم الماء العذب بمعجزة، ثمّ ظلل عليهم الغمام،



وهذا في التيه، في الأربعين سنة التي كانوا فيها تائهين، يقول: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَامَ﴾ حتى صارت الصحراء ليست صحراء، بل مظللة بالغمام، لا تأتيهم الشمس ﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ﴾ [الأعراف: ١٦٠]، وهم في الصحراء لا يحتاجون الصيد، والماء موجود، وكذلك المنّ والسلوى، فماذا يريدون أكثر من ذلك؟! في الحضر قد لا تجد هذا الشيء فكيف في الصحراء؟! كل شيء موجود ﴿كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٠]، بعد أن أكلوا قالوا أين الشراب؟ فانبجستْ مِنَ الأرض اثنتا عشرة عيناً، وبعد أن طعموا قالوا: أين الظل؟ فظلل الله عليهم بالغمام، وهكذا ظلُّوا في التيه طوال هذه الفترة، ثمّ بعد ذلك قال لهم يوشع بن نون ﷺ: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ﴾، وذلك أن هارون ﷺ قد مات في التيه، وكذلك موسى ﷺ مات في التيه، وخَلَفَ هارونُ وموسى نبياً آخر، وهو يوشع بن نون ﷺ، وقد استطاع أن يقنعهم أن يدخلوا الأرض المقدسة، وقد ملّوا أربعين سنة، حتى يقال: إن الجيل كله مات، وهذا على القراءة التي قلنا فيها بالوقف على ﴿مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ﴾ [المائدة: ٢٦] يعني: لن يدخلوها أبدَ الآبدين، ثمّ جاء جيل آخر، وهو الذي دخل بيت المقدس مع يوشع بن نون.

وإذا قلنا: ﴿مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ فبقية منهم والجيل الذي بعدهم، ولكن الأشهر أن جميع ذلك الجيل قد ماتوا، وخرج جيل جديد، لكن الجيل الجديد هذا جيل من بني إسرائيل، فمن شابه أباه فما ظلم، وهذا الجيل الجديد مع يوشع بن نون نبي الله، يقول لهم الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ﴾، وهي بيت المقدس ﴿فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ٥٨].



استجابتهم ليوشع بن نون عليه السلام:

جاؤوا ليوشع ﷺ، فقالوا: ندخل فقد مللنا من الصحراء، نريد الرجوع إلى بلادنا وأهلينا، قال: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ﴾ [المائدة: ٢١] لابد أن تجاهدوا، فقاتلوا مع يوشع ﷺ، ودخلوا الأرض المقدسة، فماذا قال الله جلّ وعلا لهم: ﴿وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا﴾ شُكراً لله تبارك وتعالى ﴿وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ﴾ أي: اللهم حُطَّ عنا ذنوبنا، واغفر لنا ما مضى، فماذا فعلوا؟ دخلوا الأرض المقدسة يزحفون على مقاعدهم عناداً، كما قال النبي ﷺ: «**فدخلوا يزحفون على إستاهم**»(١). الله ﷻ يقول: اسجدوا، وهم يزحفون على مقاعدهم عناداً لأنبياء الله جلّ وعلا، والله يقول لهم: ﴿وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ﴾ أي: يا رب حُطَّ عنا ذنوبنا، فقالوا: حنطة حبةٌ في شعرة(٢)، ودخلوا الأرض، ولذلك قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [البقرة].

قصة قارون:

وكان في قوم موسى ﷺ رجل ذَكر الله قصته، يقال له: قارون.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ [القصص: ٧٦] ذكر أهل الكتاب أن قارون كان ابن خالة موسى أو ابن عمته، وكان قارون هذا قد آتاه الله من الأموال الشيء العظيم، وكانت عنده كنوز، مفاتيحها يصعب على الرجال الأقوياء حملُها، وكان موسى ﷺ يعظه، ويذكره بالله دائماً كلما رآه، ويذكره بالدِّين وترك الفجور والكفر والعصيان، وهو معاند إلى أن ملّ مِنْ دعوة موسى ﷺ

(١) أخرجه البخاري (٣٤٣)، ومسلم (٣٠١٥).
(٢) التخريج السابق.



له، فجاء بجارية وأعطاها مالاً، وقال لها: اتهمي موسى بأنه اعتدى عليك، فوافقت وادَّعَتْ على موسى أنه زنى بها، فقال الناس: موسى؟! هذا غير معقول، فبعضهم صدق وَقَبِلَ، وبعضهم لم يصدق، فدعى موسى ربه أن يظهر الحق، فأصابتْ هذه الجارية رجفةٌ وخوفٌ شديد، فاعترفتْ، وقالت: لا، لم يصنع بي موسى شيئاً، قارون هو الذي أعطاني المال، وأراد أن يفضح موسى عليه السلام.

وقد ذكر الله عز وجل قصته، وقصة الكنوز التي أعطاها الله له، فقال: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوأُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي ۚ﴾ [القصص] ما آتاني الله شيئاً، إنما أخذته على علم عندي.

قال الله: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ ۖ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ وهذا فضل العلم ﴿وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ﴾ فكانت النتيجة: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ﴾ [القصص]، وهو كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس] فانتهى الأمر.

قال الله جل وعلا: ﴿فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ﴾ [القصص: ٨١]، فلا أحد ينصره، ولا هو يستطيع نصر نفسه ﴿وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ



﴿لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُۖ لَوۡلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا لَخَسَفَ بِنَاۖ﴾ [القصص: ٨٢]؛ لأنهم تمنَّوا مكانه وتمنوا أن يكونوا قد خرجوا في زينته كما يخرج، فلما رأوا ما صنع الله به خافوا وأذعنوا لله عز وجل.

فالله تبارك وتعالى لا يحب المتكبرين؛ لأنه لا يحق لأحد أن يتكبر، الذي له أن يتكبر هو الله وحده تبارك وتعالى، فهو صاحب الكمال والجلال، وأما الإنسان فكما قيل: أوله نطفه مذرة، وآخره جيفة قذرة، وهو فيما بين ذلك يحمل العذرة، فهو جيفة إن تركتها ولم تدفنها أنتنت، فهذا هو الإنسان تقتله شرقة، تؤذيه بقة، فعلى ماذا يتكبر؟!

قالوا: ﴿وَيۡكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُۖ لَوۡلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا لَخَسَفَ بِنَاۖ وَيۡكَأَنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ۝٨٢ تِلۡكَ ٱلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ نَجۡعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فَسَادٗاۚ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣].

موسى والخضر عليهما السلام:

روى البخاري ومسلم(١) عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: حدّثنا أُبي بن كعب رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أن موسى عليه السلام قام خطيباً في بني إسرائيل، خطبة ذرفت منها العيون، وخشعت منها القلوب، فقام رجل من بني إسرائيل، فلحق بموسى، ثمّ سأله، فقال: أي الناس أعلم؟

فقال موسى: أنا.

يقول النبي محمد صلى الله عليه وسلم: **«فعتب الله عليه، إذ لم يَرُدَّ العلم إليه»**، وهذا عتاب من الله تعالى لموسى، كأن الله يقول له: هلا قلت: الله أعلم، أو قلت: أنا والعلم عند الله، لماذا تجزم بقولك: أنا، والناس يتعلمون منك، وأنت نبي كريم؟ بل عَلِّم الناس أن ينسبوا العلم دائماً إلى الله تبارك وتعالى، فعتب الله عليه في هذه الكلمة.

(١) أخرجه البخاري (١٢٢)، ومسلم (٢٣٨٠).



فقال الله له: «**بلى لي عبد في مجمع البحرين هو أعلم منك، فما كان من نبي الله موسى إلّا أن قال: أي ربِّ ومن لي به**»، وهذا يدلّ على أن موسى كان متواضعاً صلوات الله وسلامه عليه، وإنما قال: أنا ليس من باب الاستعلاء على الناس، وإنما أخبر بما يعلم، وإنما عتب الله عليه أنه لم يقل: الله أعلم.

فقال الله له: «**تأخذ حوتاً فتجعله في مكتل وحيثما فقدت الحوت فهو ثَمَّ**»، والحوت هو السمكة، وكل ما يعيش في البحر يقال: له حوت، ومنه قول النبي ﷺ عن طالب العلم: «**إنه يستغفر له كل شيء، حتى الحيتان في البحر**»(١) أي: الأسماك التي تعيش في البحر، وليس الحوت المعروف الذي هو أكبر الأسماك، والمِكتل هو: الزِمبيل، وجاء في بعض الأحاديث أنه حوت مُمَلَّح، وفيها أنه حوت ميت، وفيها أن الله قال: متى ما بَعَثْتُ الروح في هذا الحوت تجدُ صاحبك، إذاً أخذ حوتاً ميتاً مملحاً حتى لا يتعفن، قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ۝٦٠﴾ [الكهف]، وذلك أنه أُخبر أنه سيجده عند مجمع البحرين ﴿أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا﴾، يعني: دهوراً؛ أي: أستمر حتى أجد هذا الإنسان.

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾ [الكهف: ٦١].

قال النبي ﷺ: «**ثمّ انطلق هو وفتاه يوشع بن نون، حتى إذا أتيا الصخرة؛ وضعا رؤوسهما، فناما فاضطرب الحوت، فسقط في البحر** ﴿فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا﴾ [الكهف: ٦١]، **فأمسك الله عن الحوت جرية الماء**» أي: أمسك عنه جريان الماء، فوقف مثل الطاق «الخشبة»، يراه

(١) أخرجه أبو داود في (٣٦٤١)، والترمذي (٢٦٨٢)، وابن ماجه (٢٢٣)، وهو في «صحيح الجامع» (٦٢٩٧).

فتى موسى، «**فانطلقا يمشيان بقية يومهما وليلتهما، حتى إذا كان من الغد** ﴿قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾ [الكهف: ٦٢]»، فتى موسى رأى الحوت، وهو يخرج وموسى ما رآه، فقد كان نائماً، لكن فتى موسى ﷺ نسي أن يقول له: إني فقدتُ الحوتَ في ذلك المكان، فاستمرا في المشي، وليس الغداء هو الحوت، وفتاه عندما ذهب إلى الزِمبيل تذكر أن الحوت قد ذهب من الأمس، وأنه نسي أن يقول لموسى صلوات الله وسلامه عليه.

قال النبي ﷺ: «**ولم يجد موسى النصب حتى جاوزا حيث أمرهما الله**»، فالله ﷻ يُسَهِّل الطريق طالما أننا نريد الخير، فموسى يريد الخير، يريد طلب العلم، وهذا يؤكد أنه «**من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً؛ سهل الله له به طريقاً إلى الجنة**»[1].

قال له فتاه: ﴿أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ﴾ [الكهف: ٦٣] عندما نمنا عند الصخرة، ﴿فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ﴾ [الكهف: ٦٣] يعني خرج الحوت، ونسيتُ أن أخبرك، ثمّ اعتذر لنبي الله موسى ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ، فقال: ﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا﴾ [الكهف: ٦٣] يعني: أمره عجيب، ولماذا؟ لأنه:

أولاً: ﴿فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا﴾، يعني: سلك في الماء لكن لماذا، ﴿عَجَبًا﴾؛ لأنه كان ميتاً، والميت لا يتحرك، ولكن نفخ الله فيه الروح.

ثانياً: وقف في الماء، وكأنه طاق لم يتحرك، فقد أوقف الله الماء حتى رأيته بأم عيني، وهذا أيضاً عجب يقول: ﴿وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا﴾ [الكهف: ٦٣].

---

(١) انظر التخريج السابق، وأيضاً وردت هذه الفقرة في ثنايا حديث أخرجه مسلم (٢٦٩٩).



قال النبي ﷺ: «**فكان للحوت سرباً ولهما عجباً**».

قال: ﴿ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ [الكهف: ٦٤] أي: رجعا يقصان آثارهما ليعرفا مِنْ أين مشيا حتى يصلا إلى المكان الذي ناما عنده، والصخرة التي فقدا عندها الحوت، حتى انتهيا إلى الصخرة، ووصلا إلى المكان بعد مسيرة يوم وليلة، فإذا رجل مُسجى بثوب، فسلم موسى قال: «**السلام عليكم**»، فرد عليه، وقال: «**وأنى بأرضك السلام**» أي: ما سمعتُ السلام في هذه الأرض، فقال له نبي الله موسى: «**أنا موسى قال: نبي بني إسرائيل؟ قال: نعم، أتيتُك لتعلّمَني مما عُلِّمْتَ رُشْداً. قال: يا موسى إني على علم علمنيه الله لا تعلمه، وأنت على علم من علم الله علمك الله لا أعلمه**»، فكل واحد منهما تميز بعلم لا يعلمه الآخر.

وهذا الرجل اسمه الخضر، وقيل: إن (الخضر) لقب، وليس اسماً له، المهم سماه النبي الخضر قال النبي ﷺ: «**إنما سمي خَضِراً؛ لأنه جلس على فروة بيضاء، فإذا هي تهتز من خلفه خضرة**»[1]، ولهذا سمى بالخَضِر.

فقال له موسى: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ۝٦٦ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا﴾ [الكهف]، فقدم له العذر، ثمّ قال له: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ۝٦٨﴾ [الكهف]، الأمور ستكون صعبة، وأنا أعذرك لو لم تصبر، فقال: ﴿سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ۝٦٩ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ [الكهف].

بداية مواقف موسى مع الخضر:

انطلقا ـ موسى والخضر ـ يمشيان على ساحل البحر، فمرت بهما

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٠٢).



سفينة، فقال أهل السفينة لموسى والخَضِر: تركبان معنا نوصلكما للضفة الأخرى؟ قالا: نعم، فعرفوا الخضر، وهو رجل صالح عندهم، وهو ـ على الصحيح ـ نبي مِنْ أنبياء الله، «**فعرفوا الخضر فحملوه بغير نَولٍ**[1]، **فلما ركبا في السفينة؛ جاء عصفور فوقع على طرف السفينة، فنقر في البحر نقرة أو نقرتين، فقال الخضر لموسى: يا موسى ما نقص علمي وعلمك من علم الله إلّا مثل ما نقص هذا العصفور بمنقاره مِن البحر**»، فسبحانه لا إله إلّا هو العليم، ولذلك الله عز وجل لما يذكر نفسه تعالى يقول: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٩]، ﴿أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢]، بل علم موسى وعلم الخضر عليهما السلام إنما هو من العليم الخبير كما قال سبحانه: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾ [النحل: ٧٨].

قال ﷺ: «**فلم يفجأ موسى إلّا وأن خلع لوحاً بالقَدُوم**» بالفأس «**فاستغرب موسى وقال له: ما هذا الذي تصنع؟ قوم حملونا بغير نَولٍ فعمدت إلى السفينة فخرقتها** ﴿لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا﴾ [الكهف]» والإمر: الشيء العظيم، والشيء السيء.

فقال له الخضر عليه السلام: ﴿أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ۝٧٢ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ۝٧٣﴾ [الكهف] فسكت الخضر، قال النبي ﷺ: «**فكانت الأولى من موسى نسياناً، فلما خرجا من البحر مرَّا بغلام يلعب مع الصبيان، فأخذ الخضر برأسه، فقلعه**» أي: خلعه، فقال له موسى: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا﴾ [الكهف: ٧٤] **والنُّكر**: هو الشيء العظيم، وهو أعظم من الأول، فهنا عدم صبر موسى ليس نسياناً، لم ينسَ؛ لأن قتل الغلام لا يمكن أن يسْكت عنه، فقال له الخضر: ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ۝٧٥﴾ [الكهف]، فأنا أنذرتُك من البداية أنك لن تستطع معي صبراً، فسكت

(١) أي: بغير أجرة.



موسى، وقال: ﴿إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا﴾ [الكهف: ٧٦]، فاستحيى موسى أن يقول له: سامحني، فوضع حداً، وقال: ﴿إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِى قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا﴾.

قال النبي ﷺ: «**كانت الأولى من موسى نسياناً والوسطى شرطاً وقع منه**».

قال: ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا﴾ [الكهف: ٧٧]» قرية لؤم كما قال ابن عباس: أهلها لئام ما يضيفون للضيف، ولذلك قالوا: «أشرُّ القُرى التي تبخل بالقِرى» يعني: بالضيافة، فالضيافة في الإسلام واجبة، يجب أن يكرم الضيف يومه وليلته، وثلاثة أيام مستحبة.

والظاهر أنها كذلك في شريعة موسى ﷺ، ولذلك عابهم موسى ﷺ.

قال: ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ [الكهف: ٧٧] مائلاً يريد أن يسقط، فأشار إليه بيده، ومسح عليه، فاعتدل الجدار، فقال موسى ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ للخضر ﷺ: «**قوم أتيناهم فلم يطعمونا ولم يضيفونا وعمدت إلى حائطهم فأصلحته** ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ [الكهف: ٧٧]»، فقال له الخضر ﷺ: هذا يكفي ﴿هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ﴾ [الكهف: ٧٨]، فالأولى نسياناً، والثانية وضعت شرطاً، والثالثة عمداً.

قال الخضر لموسى: ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٧٨]، وقال النبي ﷺ: «**وددنا أن موسى كان صبر فقص الله علينا من خبرهما**».

قال الخضر: ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ﴾ [الكهف: ٧٩]، والمسكين أحسن حالاً من الفقير:

فالفقير: هو الذي لا يملك شيئاً كما قال الله ﷻ: ﴿لِلْفُقَرَآءِ



﴿ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ﴾ [الحشر: ٨]، فلا دار، ولا مال.

والمسكين: فهو الذي يملك شيئاً، ولا يكفيه، ولهذا هؤلاء يملكون سفينة، وسماهم الله مساكين، ومنه قول الله عز وجل: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ [التوبة: ٦٠]، فقدم الفقراء على المساكين؛ لأنهم أحوج من المساكين.

قال: ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِى ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم﴾ [الكهف: ٧٩] ﴿وَرَآءَهُم﴾ هنا يقول ابن عباس: بمعنى أمامهم، فكان هناك ظالم إذا مرّت عليه سفينة صادرها، فأراد الخضر عليه السلام أن يعيب هذه السفينة ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ بحيث إذا رآها الشُرط، وهم جنود الملك لا تعجبهم، فيتركونها لهم، فلأن يتركوا لهم السفينة معيبة أفضل مِنْ أن يأخذوها كلها، والمقصود بكل سفينة: أي كل سفينة صالحة يغصبها منهم الملك.

وأما الغلام: ﴿وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾﴾ [الكهف] وهذا الغلام الظاهر من قول الله تبارك وتعالى أنه دون سن التكليف، ولذلك سماه: غلاماً، والغلام هو: الوليد الصغير، والبنت يقال لها: جارية، هذا الغلام أبواه كانا مؤمنين، فخشي الخضر عليه السلام أن يرهقهما؛ لأنه إذا كَبُر كما علم الله عز وجل أنه سيكفر، ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٣٥] فأمر الخضر عليه السلام أن يقتله صغيراً رحمةً بوالديه؛ لأنه سيرهقهما طغياناً وكفراً، وقد يكفران بسببه، لحبهما له، فيطيعانه في كل شيء حتى لو طلب منهما أن يَكْفُرا لكَفَرا.

والجدار: قال: ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾ [الكهف: ٨٢]، فإن القرية أهلها لئام،



ولكن لا بد أن فيها بعض الصالحين، وهذا الصالح الذي فيها مات منذ زمن بعيد، قالوا: هو الجد السابع، وقيل: العاشر، فالله ﷻ يحفظ الابن بجده العاشر، وهذا من رحمة الله ﷻ ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٣٠].

وماذا سيحدث إذا سقط الجدار؟ إذا سقط الجدار سيخرج الكنز، ﴿وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا﴾ فإذا وجدوا كنزاً لغلامين صغيرين؛ فقد يأخذون المال كله، خاصة وهم أشرار، فالأفضل أن نصلح الجدار حتى يكبر الغلامان، وبعد ذلك يسقط الجدار بأمر الله ﷻ ويخرج الكنز، وفي ذلك الوقت لن يستطيع أحد أن يتعدى عليهما.

وهذه أمور لو تأملها الإنسان ـ حقيقة ـ فإنه يعذر موسى عليه السلام، فهي أمور لا يستطيع أحد أن يصبر عليها، إلّا أنها من أمور الغيب الذي لا يعلمه إلا الله ﷻ، ولهذا الخضر ﷺ منذ البداية قال: لن تستطيع ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ۝٦٨﴾ [الكهف].

أدب الخضر عليه السلام مع الله ﷻ:

وهنا وقفة عند قول ـ الله تبارك وتعالى ـ عن الغلام قال الخضر: ﴿وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۝٨٠ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ۝٨١﴾ [الكهف].

أردنا: أدخل نفسه في الخطاب، وأما عند الجدار فماذا قال؟ قال: ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ﴾ [الكهف: ٨٢] فهنا قال: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ﴾ وهناك قال: ﴿فَأَرَدْنَآ﴾ فما الفرق؟

قالوا: هذا من حسن الأدب مع الله ﷻ مع أن كلا الأمرين مِنْ الله ﷻ، فالله هو الذي أمره أن يقتل الغلام، والله هو الذي أمره أن يقيم الجدار، لكن الخضر ﷺ عالم بالله ونبي كريم لم ينسب قتل



الغلام لله ﷻ؛ لأنه في الظاهر عمل سيء، فما أراد أن ينسب السيء إلى الله تبارك وتعالى بينما بناء الجدار ظاهره عمل حسن، ولذلك موسى ﷺ أنكر عليه أنه فعله بدون مقابل، فالشيء الذي ظاهره خير نسبه إلى الله وحده ﷻ والشيء الذي ظاهره سيء نسبه إلى نفسه أدباً مع الله ﷻ.

ومن ذلك ما ورد عن الجن قالوا: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ۝١٠﴾ [الجن] مع أن المريد واحد وهو الله ﷻ، فالأمر كله بيد الله ﷻ، ولكن من أدب الجن مع الله ﷻ أنهم نسبوا الرشد لله ﷻ، ولم ينسبوا الشرَّ إليه سبحانه، ونقول في دعائنا: «**والخير كله في يديك والشر ليس إليك**»[(١)]، مع أنه في يديه، لكنه ليس إليه.. لماذا؟ أدباً، نتأدب مع الله، فلا ننسب الشرَّ إليه فعلاً، وإن كان يُنسب إليه خلقاً، فمن الذي خلق إبليس الذي هو رأس الشر؟ خلقه الله ﷻ، والله لا يفعل الشر وإن كان خلقه جل وعلا.

همة موسى ﷺ في طلب العلم:

لما جاء موسى إلى الخضر عليه السلام قال: أريد أن أتعلم منك قال: من أنت؟ قال: أنا موسى، قال: موسى نبي بني إسرائيل؟ قال: نعم، قال: عندك التوراة فيها حكم كل شيء، وتأتيني تتعلم مني؟ قال: نعم جئت لأتعلم، وهذا الحرص من موسى صلوات الله وسلامه عليه يدلنا على أن طلب العلم من الأشياء المحببة للنفس، ولذلك السلف ـ رحمهم الله تعالى ـ سعوا إلى طلب العلم سعياً حثيثاً، وهذا موسى صلوات الله وسلامه عليه سافر لطلب العلم عند هذا الرجل وهو الخضر عليه السلام[(٢)].

---

(١) أخرجه مسلم (٧٧١).

(٢) الرحلة في طلب العلم مِنْ سنن العلماء كما هو مشهور، ومِنْ ذلك قول ابن =

المفاضلة بين موسى والخضر عليهما السلام:

موسى أفضل أم الخضر عليهما السلام؟ خاصة أن الله قال لموسى عندما سُئل من أعلم أهل الأرض؟ قال: أنا. قال الله: عبدي فلان أعلم منك، اذهب إليه.

فقال البعض: الخضر أعلم من موسى، وهذا خطأ، فموسى أعلم من الخضر، وأفضل وأعظم عند الله ـ جل وعلا ـ ولكن الخضر أعلم في جانب دون جانب، والخضر بيّن هذا، فقال: «**أنا على علم الله علمنيه لا تعلمه أنت، وأنت على علم لا أعلمه أنا**»، لكن الجوانب التي يعلمها موسى أعظم بكثير من الجوانب التي يعلمها الخضر ﷺ، ولذلك نصَّ أهل العلم أنه مِنَ الجهل أن يقال: إنّ الخضر ﷺ أعلم من موسى ﷺ، وذكروا لذلك أسباباً كثيرة:

أولاً: أن موسى ﷺ هو كليم الله ﷻ، وهذه منزلة جليلة لم ينلها الخضر.

ثانياً: موسى ﷺ من أولي العزم من الرسل، بينما الخضر قد اختلفوا في نبوته، هل هو نبي أم رجل صالح؟ فلا شك أنه أفضل من الخضر عليه السلام بكثير، وإذا قلنا بأن الخضر عليه السلام رجل صالح، فمهما بلغ من الصلاح؛ فلا يُفَضَّل أحد من غير الأنبياء على الأنبياء عليهم السلام، وذلك أن الله ﷻ اصطفى الأنبياء على الناس واجتباهم واختارهم، قال تبارك وتعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤]، وقال: ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ﴾ [الحج: ٧٥] وموسى ﷺ هو سيد أنبياء بني إسرائيل، من سبق ومَن لحق، فجميع أنبياء بني إسرائيل من بعد موسى ﷺ هم تبع له، وهم: داود، وسليمان، وأيوب، وعيسى،

= مسعود رضي الله عنه: «ولو أعلم أحداً أعلم مني بكتاب الله تبلغه الإبل لركبت إليه» أخرجه البخاري (٥٠٠٢)، ومسلم (٢٤٦٣).

وزكريا، ويحيى عليهما السلام، حتى عيسى ﷺ مع أنه من أولي العزم من الرسل؛ فهو تابع لموسى ﷺ، كما قال: ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عمران: ٥٠]، فموسى ﷺ هو أعظم أنبياء بني إسرائيل على الإطلاق.

ثالثاً: الله ﷻ أخبر خبراً عظيماً عن موسى ﷺ، فقال: ﴿إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى﴾ [الأعراف: ١٤٤]، ولم يذكر ذلك عن الخضر عليه السلام.

رابعاً: أخبر النبي ﷺ أن «**الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق، فأجد موسى واقفاً قد أخذ بقوائم العرش**»(١).

وهذا لا يعني أن موسى ﷺ أفضل من النبي محمد ﷺ، كما ورد أن «**أول من يكسى من الخلائق إبراهيم** عليه السلام»(٢)، فالله ﷻ يعطي فضائل لكل واحد في جانب من الجوانب، ولكن ينظر في مجمل الفضائل.

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: استب رجلان، رجل من المسلمين ورجل من اليهود، فقال المسلم: والذي اصطفى محمداً على العالمين، فقام اليهودي وقال: والذي اصطفى موسى على العالمين، فغضب المسلم فرفع يده وصكَّ اليهودي ـ أي: لطمه ـ، فذهب اليهودي مباشرة إلى النبي ﷺ يشتكي؛ لمعرفته بأنه ﷺ نبيُ عدلٍ ورحمة، فذكر له ما حدث، فقال ﷺ: «**لا تخيروني على موسى**»(٣)، وهذا مع أنه القائل: «**أنا سيد ولد آدم**»(٤)، وهذا النهي منه ﷺ إنما هو على سبيل التواضع، أو «**لا تخيروني**» من باب التنقيص لموسى ﷺ، أما إذا خرج مخرج الإخبار دون تنقص؛ فهذا لا حرج فيه.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٦٣٨)، ومسلم (٢٣٧٣).
(٢) أخرجه البخاري (٣٣٤٩)، ومسلم (٢٨٦٠).
(٣) أخرجه البخاري (٢٤١١)، ومسلم (٢٣٧٣).
(٤) أخرجه مسلم (٢٢٧٨).



فلا شك أن موسى ﷺ أفضل من الخضر بدرجات، ولكن الخضر عليه السلام على علم لا يعلمه موسى صلوات الله وسلامه عليه، وهذا يحدث كثيراً، فقد يكون الإنسان عالماً في مسألة علِمَها، ولا يعلمها غيره، ولا يلزم أنه الأفضل، وكما قالوا: كم ترك الأول للآخر.

موسى عليه السلام وملك الموت:

لم يذكر الله عز وجل لنا كم مكث موسى ﷺ في بني إسرائيل، ولكن ذكر لنا النبي ﷺ أن الله عز وجل قد أرسل ملك الموت إلى موسى ﷺ، قال رسول الله ﷺ: «**جاء ملك الموت إلى موسى ﷺ، فقال له: أجب ربك. قال: فلطم موسى ﷺ عين ملك الموت، ففقأها. قال: فرجع الملك إلى الله تعالى، فقال إنك أرسلتني إلى عبد لك لا يريد الموت، وقد فقأ عيني. قال: فرد الله إليه عينه. وقال: ارجع إلى عبدي، فقل الحياة تريد؟ فإن كنت تريد الحياة؛ فضع يدك على متن ثور، فما توارت يدك من شعره؛ فإنك تعيش بها سنة. قال: ثمّ مَه؟ قال: ثمّ تموت، قال: فالآن من قريب، ربِّ أمتني من الأرض المقدسة رمية بحجر**»[١].

فموسى ﷺ بعد هذا العناء، وبعد هذه الحياة الطويلة، وكيف أنه كان مستهدفاً في زمن فرعون وبعده، ثم الإيذاء الذي وقع له ﷺ، ثمّ يدخل عليه أحد في بيته ويقول له: أجب ربك، سأقتلك، وأقبض روحك، فقام موسى ﷺ فلطمه، ففقأ عينه، فقأ عين مَنْ؟ إنه ضرب الآدمي الذي أمامه، فقد آتاه ملك الموت على صورة آدمي، فلم يعرفه، ثمّ إن ملك الموت تأدَّب مع موسى ﷺ فما قبض روحه، فهو كليم الله عز وجل، وله منزلته، فرجع إلى ربه، فقال: رب إنك أرسلتني إلى عبد لك لا يريد الموت، وقد فقأ عيني، فرد الله عينه، فالضربة لم تأتِ

(١) أخرجه البخاري (١٣٣٩)، ومسلم (٢٣٧٢).



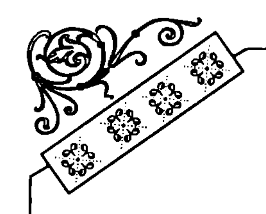
على الملك، وإنما على صورة الآدمي؛ لأن الملك خُلِقَ من نور، لكنه يتشكل بصورة الآدمي، فردَّ الله له عينه، وقال له: ارجع إلى موسى، فقل له: الحياة تريد؟ فإن كنت تريدها؛ فضع يدك على متن ثور، فما توارى تحت يدك من شعره، فإنك تعيش بها سنة، لك بكل شعرة سنة، فرجع الملك إلى موسى ﷺ وعينه قد رجعت صحيحة، قال: يقول لك ربك: ضع يدك على ظهر ثور، ولك بكل شعرة تواريها يدك سنة، قال موسى: ثمّ مَه؟ قال: ثمّ تموت، قال: «فالآن من قريب»، وجاء عن النبي ﷺ أنه قال: **«لا يموت نبي إلّا ويخيره الله بين الحياة والموت»**[1]، واختار موسى صلوات الله وسلامه عليه الموت، ثمّ قال: **«رب أمتني من الأرض المقدسة برمية حجر»** يعني: أريد أن أموت قريباً من المكان المبارك، من الأرض المقدسة، وهذا يدلّ على أن الإنسان كلما دُفن في مكان مبارك كان أفضل.

فقال له سبحانه: لك هذا، فدفن موسى عليه السلام في ذلك المكان وهكذا تُوفي نبي الله موسى صلوات الله وسلامه عليه.



(١) أخرجه البخاري (٤٤٣٧)، ومسلم (٢٤٤٤).






قصة يونس عليه السلام

هو يونس بن مَتَّى كما جاء في الحديث عن النبي محمد ﷺ[(١)]، وقال بعضهم: إن «مَتَّى» اسم أمه، وأكثر أهل العلم على أن مَتَّى اسم أبيه، وهذا هو الصحيح، فهو يونس بن مَتَّى نسبة إلى أبيه لا نسبة إلى أمه.

نسب يونس عليه السلام:

ويونس صلوات الله وسلامه عليه مِنْ نسل يعقوب صلوات الله وسلامه عليه فهو مِنْ أنبياء بني إسرائيل، وقيل: إنه من أولاد بنيامين بن يعقوب أخي يوسف من أمه وأبيه.

ذكر يونس عليه السلام:

ذكره الله ـ تبارك وتعالى ـ في كتابه العزيز باسمه أربع مرات، وذكره مرتين بوصفه بنسبته إلى الحوت كما قال جل وعلا: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَـٰضِبًا﴾ [الأنبياء: ٨٧] فنسبه إلى النون، وقال: ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ [القلم: ٤٨] فنسبه إلى الحوت، والحوت هو: النون.

دعوة يونس عليه السلام لقومه وغضبه عليهم:

يونس صلوات الله وسلامه عليه كغيره من إخوانه الأنبياء الذين أرسلهم الله ـ تبارك وتعالى ـ يدعون الناس إلى عبادة الله وحده، وألا

(١) أخرجه البخاري (٣٤١٥)، ومسلم (٢٣٧٣).



يشركوا به شيئاً، فكان أن واجهه قومه كما واجه سائر الأقوام أنبياء الله ـ جل وعلا ـ، فكفروا به، وكذّبوه، وامتنعوا عن متابعته صلوات الله وسلامه عليه.

ذكر أهل العلم أن يونس عليه السلام أُرسل إلى قرية في الموصل يقال لها: نينوى في العراق، واستمر في دعوته ما شاء الله له، ثم بعد ذلك خرج مغاضباً، وذلك لما استعصى عليه قومه وامتنعوا عن متابعته صلوات الله وسلامه عليه، فخرج من بين أظهرهم، وتوعدهم بعذاب ينزل عليهم من الله عز وجل حالهم في ذلك حال سائر الأقوام الذين كذبوا أنبياء الله جل وعلا.

توبة قوم يونس عليه السلام بعد انصرافه عنهم:

لما خرج صلوات الله وسلامه عليه مِنْ بين أظهرهم قذف الله ـ جل وعلا ـ في قلوبهم التوبة والإنابة والخوف، وذلك لما شاهدوا مقدمات هذا العذاب الذي توعدهم به يونس صلوات الله وسلامه عليه، وعند ذلك تابوا إلى الله ـ جل وعلا ـ وأنابوا ولجؤوا إليه، وخرج النساء والرجال يبكون خوفاً من الله تبارك وتعالى أن يُلْحق بهم العذاب، فلما رأى الله ـ جل وعلا ـ منهم ذلك كشف عنهم العذاب، ولم يعذبهم، وذلك رحمة منه، قال جل ذكره: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [يونس: ٩٨]، وقوله: ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ﴾.

قال أكثر أهل العلم: إنها استثناء منقطع أي: لكن قوم يونس مع أنهم رأوا العذاب، ومع هذا كشف الله عنهم العذاب لما تابوا إليه، وقيل: إنها بمعنى «غير»، فيكون متصلاً، وهم مستثنون مِنْ عامة الناس.



عدد قوم يونس عليه السلام:

أرسله الله تعالى إلى مئة ألف، قال جل وعلا: ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ۝١٤٧﴾ [الصافات] يزيدون كم؟ قيل: يزيدون بعشرين ألفاً أو ثلاثين أو أربعين.

قال أهل العلم: معنى «أو» هنا أي: في نظر الرائين، يعني إذا رآهم الرائي قال: هؤلاء مئة ألف أو يزيدون قليلاً، كما قال النبي ﷺ في بدر لمن سأل عن قريش: كم هم؟ قال: لا أدري هم كثير، قال: كم يذبحون ـ يعني من الإبل ـ؟ قال: تسعة أو عشرة، فقال النبي ﷺ: «**هم ما بين التسعمئة إلى الألف**»، أي: في نظر الرائي.

القول الثاني: هو أن «أو» هنا للإضراب، بمعنى «بل» أي: وأرسلناه إلى مئة ألف بل يزيدون، أي: يزيدون عن المئة ألف، وهذا مثل قول الله جل وعلا في وصف الكفار من بني إسرائيل ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤] فـ«أو» هنا بمعنى: «بل»؛ أي: هي كالحجارة، بل أشد قسوة، بدليل أن الله ـ جل وعلا ـ أثنى على الحجارة في مقابل قلوبهم، فقال: ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٤] ويكون المعنى: وأرسلناه إلى مائة ألف بل يزيدون على المائة ألف، وهذا ظاهر واضح.

التقام الحوت هل كان قبل النبوة أم بعدها؟

واختلف أهل العلم في يونس صلوات الله عليه هل التقمه الحوت قبل أن يرسله الله إلى قومه أم أرسله قبل ذلك ثم ذهب مغاضباً فابتلعه الحوت؟ يقول الله جلا وعلا: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٣٩ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ۝١٤٠ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ۝١٤١ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ۝١٤٢ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ۝١٤٣ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝١٤٤ فَنَبَذْنَٰهُ



بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾﴾ [الصافات]، وهذه الآيات العشر هي خلاصة قصة يونس صلوات الله وسلامه عليه.

يخبر الله جل وعلا أن يونس عليه السلام كان من المرسلين: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾﴾ [الصافات]، وذلك لما دعا قومه إلى عبادة الله تبارك وتعالى وأبوا عليه غضب لله جل وعلا، غضب عليهم لأنهم لم يؤمنوا، ولكن قبل أن يأذن الله له، كما هو الحال في قصة لوط عليه السلام لما أمره الله عز وجل أن يخرج، وقصة نوح عليه السلام عندما أمره الله أن يركب السفينة وغيرهما من الأنبياء، فالله جل وعلا يأمرهم بالخروج لأنه سيُنزل على قومهم العذاب، ويونس عليه السلام هنا خرج قبل أن يأذن الله له بالخروج، فركب سفينة في البحر وكادوا يغرقون، عند ذلك دار الأمر إما أن يبقوا جميعاً في السفينة ثم تنكفأ ويغرقون جميعاً، وإما أن يُلقوا بعضهم في البحر فتخف السفينة فتبقى ولا يغرق أحد، وقيل: إنهم أُلقي في روعهم أن فيكم من عصى الله جل وعلا فألقوه حتى تنجوا مِنْ هذا العذاب، وعند ذلك لم يروا بُداً من القرعة، وذلك أن هذا هو الاختيار الثاني أن يلقوا بعضهم بدلاً مِنْ أن يلقى الجميع حتفه، فعملوا قرعةً فوقعت القرعةُ على يونس صلوات الله وسلامه عليه كما قال الله جلا وعلا: ﴿فَسَاهَمَ﴾ أي: مع من ساهم ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ﴾ [الصافات:١٤١] أي: من المغلوبين في هذه القرعة، كل واحد يضع سهمه ثم يخرج سهم الذي سَيُلقي بنفسه.

وذكر بعض أهل العلم أنه لما وقعت القرعة على يونس صلوات الله وسلامه عليه وكانوا يعرفون له قدره، وقيل أنه كان غريباً عنهم، فاستحيوا منه فقالوا: نعيد القرعة، فأعادوا القرعة مرة ثانية فوقعت عليه، وعند ذلك قال لهم: هذا أمر الله عز وجل فألقى نفسه في البحر صلوات الله



وسلامه عليه لأمر يريده الله جل وعلا، ولما ألقى يونس عليه السلام نفسه في البحر التقمه الحوت مباشرة أمام أعين الناس قال الله جل وعلا: ﴿فَٱلۡتَقَمَهُ ٱلۡحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٞ ١٤٢﴾ [الصافات] ابتلعه الحوت وأمره الله جل وعلا كما قال أهل العلم ألا يكسر له عظماً وألا يأكل له لحماً[1] فبقي بجسده كما هو في بطن الحوت.

يونس عليه السلام في بطن الحوت:

ولما استقر في بطن الحوت حسب أنه قد مات فحرك جوارحه فإذا هي تتحرك، فخر لله ساجداً وقال: رب اتخذت لك مسجداً لم يعبدك أحدٌ في مثله.

مدة بقائه عليه السلام في بطن الحوت:

كم لبث يونس في بطن الحوت؟ هذا غير معلوم وإنما الذي ذكره الله جل وعلا فيه العبرة هو أنه التقمه الحوت وهو مليم، وهو أنه لبث في بطنه فترة ثم خرج صلوات الله وسلامه عليه كما قال جل وعلا: ﴿فَلَوۡلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُسَبِّحِينَ ١٤٣ لَلَبِثَ فِي بَطۡنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ١٤٤﴾ [الصافات] إذاً لبث وقتاً معيناً وهو غير معلوم، وكل من ادعى وقتاً فلا دليل عنده، ولكن المشهور عند أهل العلم أنه التقمه الحوت ضحى وألقاه عشياً يعني: فترة قصيرة في يوم واحد، وقيل: التقمه الحوت ثلاثة أيام، وهذان أشهر قولين في هذه المسألة، والعلم عند الله جل وعلا، وهذه مِنْ أخبار بني إسرائيل وأخبارهم كما مر بنا كثيراً لا نقبلها ولا نرفضها، ونقول: علمها عند ربي جل وعلا.

---

(١) ورد حديث مرفوع بهذا المعنى، ولكنه لا يصح مرفوعاً.



معنى قوله تعالى: ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾:

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [الأنبياء] ذو النون: صاحب النون، والنون هو الحوت إذاً هو يونس صلوات الله وسلامه عليه ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا﴾ أي: ذهب مغاضباً قومه ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ تحتمل ثلاثة معانٍ:

الأول: ظن ألن نستطيع أن نهلكه، وهذا باطل بالإجماع لأن هذا لا يليق بآحاد المسلمين بل لا يكون مسلماً مَنْ ظن أن الله لا يقدر على ذلك، فكيف يمكن أن نظن هذا في نبي من الأنبياء أنه دار في خُلده أن الله عز وجل لا يقدر؟!

الثاني: ألا نضيق عليه كما قال جل وعلا: ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ [الروم: ٣٧] أي: يبسط لبعض الناس ويُضيق على آخرين، ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ﴾ [الطلاق: ٧] أي: من ضُيق عليه رزقه، وقال جل وعلا: ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ﴾ [الطلاق: ٧]، فيكون هنا مِنْ التقدير وهو التضييق، وهذا ممكن، أي: ظن يونس عليه السلام أنه لن نُضيق عليه؛ لأنه فعل ما بوسعه أن يفعله، فقد أدى رسالته وهم كفروا به فتوعدهم بالعذاب وخرج وما ظن أن الله سيضيق عليه، وظن أن الله عز وجل سيرسله إلى قوم آخرين يؤمنون به ويتبعونه ويعبدون الله جل وعلا، وهذا معنى مقبول.

الثالث: ألن نقضي عليه، مِن القضاء والقدر ومنها قوله جل وعلا: ﴿فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ [القمر: ١٢] أي: حُكم وقُضي فيه، ومنه سُميت ليلة القدر أي: التي تقدر فيها الأقدار وتُحسم كما قال جل وعلا: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [الدخان] وهذا المعنى أيضاً مقبول.



نداء يونس عليه السلام في بطن الحوت:

يقول الله جل وعلا: ﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ [الأنبياء: ٨٧] نص أهل العلم أنها ثلاثة ظلمات:

١ ـ ظلمة بطن الحوت.

٢ ـ وظلمة البحر فالحوت في البحر.

٣ ـ وظلمة الليل وهذا يقوي أن يونس عليه السلام مكث في بطن الحوت إلى الليل.

فاجتمعت هذه الظلمات على يونس صلوات الله وسلامه عليه في مكان واحد كما قال يونس عليه السلام: اتخذت لك مسجداً في مكان لم يتخذه أحد قبلي، بُعْدٌ تام عن الرياء والسمعة في بطن الحوت في لجة البحر وفي الليل الذي لا يراه أحد ثم نادى يونس صلوات الله وسلامه عليه ربه قال: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧] وقد قال الله جل وعلا: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾﴾ [الصافات]، والإباق هو خروج العبد عن طاعة سيده، عبدٌ آبق: إذا خرج عن طاعة سيده وهرب وتركه وقد جاء في الحديث عن النبي ﷺ: «**ثلاثة لا يقبل الله لهم صرفاً ولا عدلاً**» منهم: «**عبد آبق من سيده**»[1] وسماه الله عبداً آبقاً هنا لأنه خرج دون أن يأذن الله له ﷻ، ولذلك قال جل وعلا: ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ [الصافات: ١٤٢] أي: مستحق للملامة مِنْ الله جل وعلا والعتاب لأنه لم يصبر الصبر الذي كان يجب عليه أن يصبره، ولذلك قال الله جل وعلا لنبيه ﷺ: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾ [القلم: ٤٨] أي: لا تفعل فعلة صاحب الحوت، حيث إنه لم يصبر الصبر اللائق بالأنبياء عليهم السلام.

---

(١) بنحوه أخرجه الترمذي (٣٦٠)، وحسنه الشيخ الألباني في «صحيح الترغيب» (٤٨٧) وأخرج مسلم (٧٠): «**إذا أَبَقَ العبدُ لمْ تُقْبَل له صلاة**».



فضل التسبيح:

قال جل وعلا: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ۝١٤٣ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝١٤٤﴾ [الصافات] قال أهل العلم: أي: لولا أنه قال تلك الكلمة الطيبة: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧] وقبل أن يدخل بطن الحوت ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ۝١٤٣﴾ [الصافات]، في ماضيه ﴿لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝١٤٤﴾ [الصافات]، ولذلك قال أهل العلم: اذكروا الله تعالى في الرخاء يذكركم في الشدة ﷻ، فإن يونس كان من الذاكرين الله كثيراً والحافظين لحدود الله جل وعلا فكان مسبحاً ذاكراً لله قبل أن يدخل بطن الحوت ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ۝١٤٣ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ۝١٤٤﴾ [الصافات]، وعلى العكس فإن فرعون كان عبداً طاغياً ناسياً لله جل وعلا فلما أدركه الغرق قال: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٩٠]، فماذا فعل الله به؟ أهلكه، بينما نجى الله ﷻ يونس عليه السلام ﴿فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ۝١٤٥ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ۝١٤٦﴾ [الصافات] وماذا قال لفرعون: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ﴾ [يونس: ٩١] فلم يقبل الله من فرعون مع أنه قَبِلَ سبحانه من يونس عليه السلام لما مضي من فرعون وما مضي من يونسَ عليه السلام.

دعوة مستجابة:

وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: مررت بعثمان في المسجد فسلمت عليه فملأ عينه مني ثم لم يرد عليَّ السلام، فأتيت عمر فقلت له: يا أمير المؤمنين هل حدث في السلام شيء؟ قال: لا ولماذا ذاك؟ قال: إني مررت على عثمان فسلمت عليه فلم يرد عليَّ السلام، فأرسل عمر إلى عثمان فجاء عثمان، فقال له عمر: ما منعك ألا تكون رددت على أخيك السلام؟ فقال عثمان: ما فعلت ولا سلم عليّ، فقال سعد: بلى مررت عليك فسلمت عليك فملأت عينك مني وما رددت عليَّ

السلام، قال: والله إني ما رأيتك، فحلف عثمان وحلف سعد، ثم بعد ذلك تذكر عثمان فقال: بلى واستغفر الله وأتوب إليه، إنك مررت بي آنفاً وأنا أحدث نفسي بكلمة قالها رسول الله ﷺ لا والله ما ذكرتها قط إلا تغشى قلبي وبصري غشاوة، قال سعد: فأنا أنبئك بها، إن رسول الله ﷺ ذكر لنا أول دعوة، فجاء أعرابي فشغله، حتى قام رسول الله ﷺ، فاتبعته فلما أشفقت أن يسبقني إلى البيت قبل أن أصل إليه ضربت بقدمي الأرض، [فهو لا يستطيع أن ينادي النبي ﷺ أدباً]، حتى ينتبه لي النبي ﷺ، فالتفت إليّ رسول الله ﷺ فقال: مَنْ هذا أبو إسحاق؟ قلت: نعم يا رسول الله، قال: فمه؟ قال: قلت: لا والله إلا أنك ذكرت لنا أول دعوة ثم جاء هذا الأعرابي فشغلك وما سمعنا هذه الدعوة فقال النبي ﷺ: «**نعم، دعوة أخي ذي النون إذ هو في بطن الحوت: لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين فإنه لم يدع بها مسلم ربه في شيء قط إلا استجاب له**»[1].

ومع أن دعوة يونس صلوات الله وسلامه عليه ذكر ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، وسماها الله دعاءً لأنها متضمنة للدعاء، ولذلك قال النبي ﷺ لما سأله الصحابة عن شيء يدعون به ربهم جل وعلا في عرفة قال: «**خير ما قلت أنا والنبيون من قبلي لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير**»[2] ولم يذكر دعاءً وإنما ذِكْرٌ متضمن للدعاء كدعوة يونس صلوات الله وسلامه عليه، وكما قال أيوب صلوات الله وسلامه عليه ﴿أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ فإنه ذكر فيه تضرع لله جل وعلا يتضمن كذلك الدعاء لله جل وعلا.

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٥٠٥)، والنسائي في «السنن الكبرى» (١٠٤٩٢) مختصراً، وبتمامه أخرجه أحمد (١/ ١٧٠)، وهو صحيح كما في «صحيح الترغيب» (١٦٤٤).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٥٨٥) وحسنه الشيخ الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٥٠٣).



يونس عليه السلام يخرج من بطن الحوت:

قال يونس عليه السلام هذه الكلمات وهو في بطن الحوت وعندها قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾﴾ [الصافات] أي: ألقيناه في مكان مقفرٍ ليس فيه أحد ﴿وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ أي: مريض قد نَحَل جسمه وضعف بعدما كان في بطن الحوت، وهذا يؤيد قول من قال أنه جلس أياماً في بطن الحوت والعلم عند الله جل وعلا، المهم أنه ألقاه الحوت وهو سقيم ضعيف الجسم صلوات الله وسلامه عليه ﴿وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾﴾ [الصافات]، قال المُبَرِّد والزجاج: كل شجر لا يقوم على ساق، وإنما يمتد على وجه الأرض فهو يقطين قال: ومنه الدُباء والقرع والبطيخ والحنظل وجميع هذه النباتات تمشى في الأرض كلها تُسمى يقطيناً وسُميت يقطيناً لأنها تقطن الأرض أي: اتخذت الأرض مكاناً لها، فلا، ترتفع ويقال: فلان قطن هذا المكان أي: استقر فيه والتزمه.

يونس عليه السلام يرجع إلى قومه:

لما ألقاه الحوت أمره الله جل وعلا أن يرجع إلى قومه، وذلك أن الله تبارك وتعالى يقول: ﴿وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾﴾ [الصافات] أي: كان الإرسال بعد أن ألقاه الحوت، وقيل: وهو المشهور عند أهل العلم أنه أرسله الله مرة ثانية إلى قومه بعد أن تابوا وتضرعوا إلى الله جل وعلا ﴿وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾﴾ [الصافات] وجاء في آية أخرى قول الله جل وعلا: ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [يونس: ٩٨] يعني: هل سيعذبون في الآخرة؟ هذا أمر وارد ولكن يقطع على هذا قول الله جل وعلا: ﴿كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ وطالما أنهم آمنوا فهم ناجون



يوم القيامة، وهذا هو الصحيح أن قوم يونس عليه السلام آمنوا فنجاهم الله من عذاب الدنيا ونجاهم كذلك مِنْ عذاب الآخرة.

لا يجوز لأحد أن يتهم يونس عليه السلام بالتقصير:

عندما يقرأ الإنسان المسلم هذه الآيات في يونس عليه السلام: ﴿إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾﴾ [الصافات] فشبهه بالعبد الهارب مِنْ سيده، وقال جل وعلا: ﴿فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ أي: ملام على ما فعله وهو تركه قومه قبل أن يأمره الله جل وعلا، وقول الله لنبيه ﷺ ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾ [القلم: ٤٨] فقد يلقي الشيطان في روع الناس أن يونس عليه السلام قصر في دعوته، وهذا منُ الباطل، فليس لأحد أن يتنقص نبي الله يونس لمثل هذه الأمور، ولذلك نبه النبي ﷺ على هذا فقال: «**ما ينبغي لعبد أن يقول إنه خير من يونس بن مَتَّى**»(١)؛ أي: ليس لأحد أن يفضل نفسه على يونس؛ لأنه نبي كريم صلوات الله وسلامه عليه.

وجاء في حديث «**لا تفضلوني على يونس**»(٢) وهو غير صحيح بل محمد ﷺ خير من يونس عليه السلام، بل خير من جميع الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

قال ﷺ: «**أنا سيد ولد آدم**»(٣)، ويقول الله جل وعلا: ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣] فالله فَضَّل بين الرسل عليهم السلام، ولكن لا يجوز التفضيل بين الرسل إذا كان على سبيل التنقيص لهم والطعن فيهم، فهذا لا يجوز، أخرج الإمام البخاري أن رجلاً من اليهود عرض سلعته ليبيعها فجاءه رجل فعرض عليه سعراً فغضب اليهودي فقال: لا والله لا

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٩٦)، ومسلم (٢٣٧٧) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، وهو أيضاً في الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) هذا الحديث لا أصل له كما في «شرح الطحاوية» ص١٦٢.

(٣) أخرجه مسلم (٢٢٧٨).

أبيعها والذي اصطفى موسى على البشر، فسمعه رجل من الأنصار قال: أتقول هذا حتى على محمد؟! فلطم اليهوديَّ فذهب اليهودي إلى النبي ﷺ يشكو إليه هذا الأنصاري فقال: يا أبا القاسم أليس لنا ذمة وعهداً؟ فقال النبي ﷺ: «**بلى لكم الذمة والعهد**»، فقال اليهودي: فسل هذا لِمَ لطمني؟ فناداه النبي ﷺ فقال له: «**لِمَ لطمته**»؟

قال: إنه قال: والذي اصطفى موسى على البشر وذكرك من سائر البشر، فرؤي الغضب في وجه النبي ﷺ وقال: «**لا تفضلوا بين الأنبياء**»[1]، فإذا كان هذا التفضيل على سبيل التنقص فلا يجوز، وأما إن أراد الإخبار عن ذلك وهو أن محمداً ﷺ أفضل من موسى صلوات الله وسلامه عليه عند ربه فهذا حق لا شيء فيه.

العبر والدروس:

أولاً: إن عتاب الله تبارك وتعالى ليونس صلوات الله وسلامه عليه كان عتاباً لطيفاً، ومنه أن الله جل وعلا جعله في بطن الحوت، وأمره ألا يكسر له عظماً وألا يأكل له لحماً، ثم أخرجه من بطن الحوت، وفيه آية عظيمة تدل على كرامته عند الله جل وعلا ولذلك آمن به قومه عليه السلام.

ثانياً: إن العبد إذا تعرف على الله عز وجل في الرخاء عرفه الله في الشدة.

ثالثاً: فضل دعوة يونس ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

رابعاً: الإيمان ينجي العبد من المهالك.

خامساً: جواز القرعة وهذا في شريعة يونس صلوات الله وسلامه عليه، وكذلك في شريعة النبي محمد ﷺ، فقد كان النبي ﷺ إذا أراد

(١) أخرجه البخاري (٣٤١٥)، ومسلم (٢٣٧٣).



سفراً أقرع بين نسائه[١]. وكذلك من المشهور أيضاً من قول النبي ﷺ: «**لو يعلمون ما في الأذان والصف الأول ثم لم يجدوا إلا أن يستهموا عليه لاستهموا**»[٢]؛ أي: عملوا قرعة.

فوائد ومسائل متعلقة بقصة يونس عليه السلام:

المسألة الأولىٰ: لو وقع الآن مثل الحادثة التي وقعت ليونس عليه السلام في القارب، وقالوا: يجب على أحدنا أنْ يُلْقِي بنفسه، فهل يجوز ذلك؟

والجواب: لا يجوز لأنه لا يُدرى أنه إذا ألقى أحد نفسه هل تنجو السفينة؟ فهي على هذا النحو قضية قتل نفس[٣].

المسألة الثانية: ما حكم أن يتهم أحد نبي الله يونس بأنه كان عصبي المزاج؟

والجواب: أن ذلك لا يجوز بحال، فإن هذا سوء أدب مع نبي الله عليه السلام، والصحيح أنه كان غضباً لله، لكن لا يقال: عصبي المزاج، ولذلك قال الله جل وعلا عن موسى صلوات الله وسلامه عليه: ﴿وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ﴾ [الأعراف: ١٥٠] وفيها كلام الله عز وجل.

وهناك كلمة طيبة لشيخ الإسلام ابن تيمية عن موسى صلوات الله وسلامه عليه إذ قال: إن موسى وقع منه أنه أخذ برأس أخيه يجره إليه وأخوه نبي كريم يقول: ﴿قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓ﴾ [طه: ٩٤]

---

(١) أخرجه البخاري (٢٥٩٤)، ومسلم (٢٤٤٥).

(٢) أخرجه البخاري (٦١٥)، ومسلم (٤٣٧).

(٣) قال القرطبي رحمه الله في تفسيره للآيات (١٣٩، ١٤٠) من سورة الصافات: «**المسألة السابعة: الاقتراع على إلقاء الآدمي في البحر لا يجوز، وإنما كان ذلك في يونس وزمانه مقدمة لتحقيق برهانه، وزيادة في إيمانه... وقد ظن بعض الناس أن البحر إذا هال على القوم فاضطروا إلى تخفيف السفينة أن القرعة تضرب عليهم، فيطرح بعضهم تخفيفاً، وهذا فاسد، فإنها لا تخفّ برمي بعض الرجال، وإنما ذلك في الأموال، ولكنهم يصبرون على قضاء الله عز وجل**».



وأخوه نبي كريم فكيف يفعل هذا بنبي الله ﷻ؟ ﴿وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ﴾ [الأعراف: ١٥٠] وفيها كلام الله، وقتل رجلاً يعني: لما وكزه، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: لما كان لموسى مِنْ الفضائل العظيمة ومن الجهاد العظيم والدعوة والصبر لله جل وعلا، لذلك هذه الأمور التي وقعت من موسى كأنها لا شيء عند الله تبارك وتعالى وذكر بيتاً من الشعر يقول:

وإذا أتي الحبيب بذنب واحدٍ ... جاءت محاسنه بألف شفيع

فموسى صلوات الله وسلامه عليه له من المحاسن العظيمة ما تشفع له مثل ما وقع منه مِنْ هذه الأمور.

المسألة الثالثة: هل عُذِبَ قوم يونس قبل أن يؤمنوا؟

الجواب: إنهم رأوا بادرة العذاب، فلجؤوا إلى الله ﷻ لجوء الصادقين فسامحهم الله وكشف عنهم العذاب.

المسألة الرابعة: هل يرد القضاء؟

الجواب: نعم فحديث النبي ﷺ واضح في ذلك: «**لا يرد القضاء إلا الدعاء**»[1] فهم لما دعوا الله ولجؤوا إليه كشف عنهم العذاب.

فما معنى الدعاء: «**اللهم إني لا أسألك رد القضاء ولكن أسألك اللطف فيه**»؟

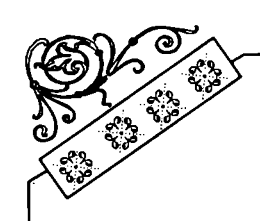
الجواب: هذا باطل لا يجوز الدعاء به، بل نسأل الله رد القضاء ونسأل الله العافية وأن يرفع عنا[2].



(١) أخرجه الترمذي (٢١٣٩)، وحسنه الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٥٤).

(٢) ومما يرد هذا الدعاء أيضاً ما جاء في الصحيحين من قوله ﷺ: «**تعوذوا بالله من سوء القضاء..**» أخرجه البخاري (٦٣٤٧)، ومسلم (٢٧٠٧).






قصة زكريا ويحيى عليهما السلام

العلاقة بين أسرة عمران وأسرة زكريا عليه السلام:

أسرتان كريمتان ذكرهما الله تبارك وتعالى في كتابه العزيز، كانت لهما صلة ببعضهما وهما أسرة عمران، وأسرة زكريا عليه السلام فزكريا نبي كريم من أنبياء بني إسرائيل رزقه الله تبارك وتعالى ولداً نبياً وهو يحيى صلوات الله وسلامه عليه، وصاهر زكريا أسرة عمران فتزوج أخت مريم وقيل: تزوج خالتها، ومن مريم عليها السلام ولد رسول الله عيسى صلوات الله وسلامه عليه.

فسيكون حديثنا أولاً عن زكريا وابنه يحيى عليهما السلام. ثم يكون الحديث عن مريم وابنها عيسى عليه السلام وسنجد أن هناك أموراً مشتركة بين عيسى ويحيى صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

زكريا عليه السلام يسأل الله الذرية:

ذكر زكريا سبع مرات وذكر يحيى خمس مرات، قال الله تبارك وتعالى في ذكر زكريا وابنه يحيى: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ۝٢﴾ [مريم] أي: اذكر يا محمد رحمة ربك الظاهرة في عبده زكريا ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ۝٣﴾ [مريم] نادى زكريا ربه نداءً خفياً، والنداء الخفي أقرب إلى الإخلاص وأقرب مِنْ ثَمَّ إلى الإجابة، جاء في بعض روايات بني إسرائيل أنه قال: يا رب يا رب فكان الله يقول له: لبيك لبيك لبيك اطلب ما تريد، وذلك لأنه كان عبداً صالحاً ونبياً كريماً، وهكذا يصنع الله تبارك وتعالى بأوليائه جل وعلا.



قال: ﴿رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي﴾ [مريم: ٤] يُكَنِّي عن كبر سنه ﴿وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾ [مريم: ٤]، قال: اشتعل، ولم يقل شاب رأسي وإنما قال: اشتعل لسرعة الشيب إليه ومن هذا قول الشاعر:

أما ترى رأسي حاكى لونه طرة صبح تحت أذيال الدُجى
واشتعل المبيض في مسوده مثل اشتعال النار في شجر
وآض عود الهم يبساً ذاوياً من بعد ما قد كان مداد الثرى

ثم قال: ﴿وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ [مريم: ٤] يعني ما عودتني يا رب أن أكون شقياً بدعائك بل عودتني إذا دعوتك استجبت لي، ثم قال: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥﴾ [مريم] والموالي: هم الكبار في بني إسرائيل، فخاف من بني إسرائيل، وذلك أن بني إسرائيل كانت تسوسهم الأنبياء(١)، وزكريا نبي واشتعل الرأس شيباً ووهن العظم منه وخاف الموت وخاف من الموالي، وذلك أنه ما كان يثق بهم، فخشي أنهم يفسدون على بني إسرائيل دينهم، فسأل الله تبارك وتعالى أن يرزقه ولداً نبياً فيرث منه النبوة ويستمر الصلاح والخير في بني إسرائيل، ولذلك قال: ﴿خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ [مريم] أي: والحال أن امرأتي عاقرٌ، فهو سبب مانع للحمل والولادة، وهو غير ممكن في الغالب، لا لأن الله لا يقدر؛ فهو أعلم الناس بالله جل وعلا بل لأن العادة لا تقتضي أن يولد لمثل هذا الرجل، فقد وهن العظم منه واشتعل الرأس شيباً وامرأته عاقر وهو يريد خرق العادة.

ولماذا سأل خرق العادة؟ قالوا: لأنه رأى الله تبارك وتعالى خرق العادة لمريم حيث كان مسؤولاً عنها كما سيأتي، يقول الله جل وعلا:

(١) أخرجه البخاري (٣٤٥٥)، ومسلم (١٨٤٢).



﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا﴾ [آل عمران: ٣٧] كان يجد عندها فاكهة الشتاء في الصيف وفاكهة الصيف في الشتاء وهو المسؤول عن إطعامها، فمن الذي يأتيها بهذا الطعام؟ ﴿قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٣٧]، فهنا تنبه زكريا عليه السلام أن أمر الله كن فيكون، فقام من الليل يصلي لله جل وعلا ثم رفع يديه إلى السماء وقال: ﴿فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ [مريم] سأل الله على الحالة التي هو عليها وحال زوجته؛ لأنه رأى الكرامة التي أعطاها الله لمريم ولا يمنع أبداً أن يعطيه تبارك وتعالى كرامة مثلها فهو نبي كريم.

ميراث زكريا عليه السلام:

قال زكريا: ﴿فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ [مريم] قال: أريد غلاماً يرثني، وليس الميراث هنا ميراث المال، وإنما ميراث النبوة بدلالة قوله: ﴿وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ﴾ [مريم: ٥]، ولماذا نقول: إنه لا يطلب ميراث مال؟

أولاً: أن النبي ﷺ قال: «**إنا معاشر الأنبياء لا نورث**»[١] وزكريا من الأنبياء فهو لا يورث أيضاً، ولو ترك مالاً لا يرثه أولاده وهذه قضية محسومة عند زكريا صلوات الله وسلامه عليه، فكيف يطلب ولداً يرث ماله وهو يعلم أنه لا يورث أصلاً؟

ثانياً: إن زكريا كما أخبر النبي ﷺ في الحديث الذي أخرجه مسلم «**كان نجاراً**»[٢] يأكل مِنْ عمل يده، فلم يكن صاحب مال ليطلب ولداً يرثه.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٠٩٣)، ومسلم (١٧٥٨، ١٧٥٩).

(٢) أخرجه مسلم (٢٣٧٩).



ثالثاً: لا يليق برجل صالح عابد أن يسأل الله ولداً لمجرد أن يرث المال، فكيف يليق ذلك بزكريا صلوات الله وسلامه عليه.

فماذا كان الميراث إذاً؟

الجواب: هو ميراث النبوة والعلم، ولذلك قال: ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ [مريم: ٦]، فلم يتميز آل يعقوب بالأموال وإنما تميزوا بالنبوة فيعقوب نبي وولده يوسف نبي ومن نسله موسى نبي عليه السلام، ومن نسله الأسباط أنبياء، وداود وسليمان، فهو يريد ميراث النبوة وليس المال، ثم بنو إسرائيل هم آل يعقوب، ويعقوب هو إسرائيل فهل يُعقل أن آدمياً يقول: أريد ولداً يرثني ويرث من بني إسرائيل وكم هم بنو إسرائيل؟ هم ألوف؛ عشرات الألوف، بل ملايين، فكيف يقول يرثني ويرث من آل يعقوب؟! هذا لا يُعقل أن يكون ميراث المال.

البشارة بيحيى عليه السلام:

قال تعالى: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾﴾ [مريم] فوجئ زكريا بهذه الإجابة السريعة ﴿ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ﴾ سميناه لك أيضاً ﴿لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٧] لم يتسمَ أحد بهذا الاسم من قبل ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾﴾ [مريم] هو لا يخبر الله بشيء لا يعلمه الله، فالله يعلم أن امرأته عاقر وأنه بلغ من الكبر عتياً، بل هو صرح بذلك في بداية الأمر عندما قال: ﴿وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾ [مريم: ٤] وقال: ﴿وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا﴾ [مريم: ٥] لكنه استغرب هذه الإجابة على الرغم من أنه طلب ذلك فالمفروض أنه في انتظار الإجابة، قال: ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ﴾ [مريم: ٩] فهو هين على الله ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس] فهو سبحانه لا يحتاج لأسباب ومقدمات ﴿كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ﴾، أتريد الدليل على



هذا؟ ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ [مريم: ٩] إذاً انتهى الأمر ﴿قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً﴾ [مريم: ١٠] علامة يعلم بها أن امرأته ستحمل وأنها علقت بهذا الجنين، ﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ [مريم: ١٠] فهذه علامة، سيأتيك يوم تفجأ فيه وأنت صحيح البدن والجوارح ويمتنع لسانك من الكلام، فإذا رأيت هذا اليوم الذي تعجز فيه عن النطق وعن كلام الناس فسيكون معنى هذا أن زوجتك حملت بهذه النطفة، وسيكون ذلك في ثلاثة أيام بلياليهن.

وذهبت الأيام وحملت امرأته وامتنع لسانه ولم يستطع الكلام ولكنه يستطيع أن يُسَبِّح ويذكر الله، فذكر الله لم يُحبس لسانه عنه، وإنما حُبِسَ عن كلام الناس، وذلك كبعض الأعاجم اليوم يقرأ القرآن قراءة صحيحة ويحفظه عن ظهر قلب ولكن لا يحسن الكلام العربي ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٨٤].

عند ذلك خرج من المحراب ودل هذا على أن أكثر وقته كان في المحراب، ﴿قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ﴾ [آل عمران] والمحراب: هو المكان المخصص للصلاة في البيت أو المسجد أو العمل في أي مكان، أما هذا الذي في المساجد يسميه الناس الآن محراباً فاسمه الطاق ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ﴾.

ولادة يحيى عليه السلام:

قال الله ليحيى بعد أن وُلِدَ: ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ﴾ [مريم: ١٢] أعطاه الله الكتاب ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ [مريم: ١٢] فأعطاه الله الحكم وهو صبي.

ذُكِرَ أن يحيى عليه السلام جاءه غلمان من أصحابه في سنه فقالوا له: هيا بنا نلعب، فقال لهم: ما لهذا خُلقنا، لم نخلق للعب بل خُلقنا لعبادة الله،



فتركهم ولم يلعب معهم، فالله آتاه الحكم صبياً، وقد مر الشعبي على أناس يلعبون فقال لهم: ماذا تصنعون؟ قالوا نلعب، قال: ما بهذا أُمرتم وإنما قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ۝٨﴾ [الشرح].

قال تعالى: ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا﴾ [مريم: ١٣] أي: رحمة من عندنا ﴿وَزَكَوٰةً وَكَانَ تَقِيًّا ۝١٣ وَبَرًّا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ۝١٥﴾ [مريم].

وهناك كلام طيب جداً للحافظ ابن كثير رحمه الله عن هذه الآية وعن قول عيسى: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ۝٣٣﴾ [مريم] قال: «هذه الأوقات الثلاثة ـ وقت الميلاد، ووقت الموت، ووقت البعث ـ أشد ما تكون على الإنسان، فإنه ينتقل في كل منها من عالم إلى عالم آخر، فيفقد الأول بعدما كان ألفه وعرفه، ويصير إلى الآخر، ولا يدري ما بين يديه، ولهذا يستهل صارخاً عندما يخرج من بطن أمه إذا خرج من بين الأحشاء، وفقد لينها وضمها» فقد كان يعيش في محيط معين يعرفه في بطن أمه، وأول خروجه تتغير عليه الأمور فيخاف مِنْ هذا العالم الجديد لماذا أُخرجت من هذه الضمة الطيبة؟.

قال: «ثم ينتقل إلى هذه الدار الدنيا ليكابد همها وغمها، وكذلك إذا فارق هذه الدار الدنيا وانتقل إلى عالم البرزخ ـ دُفِنَ في قبره ـ بينها وبين دار القرار ـ فهذا البرزخ وسط بين الدنيا والآخرة ـ وصار بعد الدور والقصور إلى عرصة الأموات سكان القبور، وانتظر هناك النفخة في الصور ليوم البعث والنشور، فمن مسرور ومحبور ومن محزون ومثبور، وما بين جبير وكسير، وفريق في الجنة وفريق في السعير»[1].

(١) «البداية والنهاية» (٢/ ٦٠).



فيحتاج يوم يموت أن يسلم في هذا الوقت، إذا سلم في هذا الوقت سلم في اليوم الذي بعده، ولذلك كان عثمان بن عفان إذا ذَكر القبر بكى، وإذا ذُكرت الآخرة لا يبكي كبكائه عند ذكر القبر، فقيل له: لماذا تبكي عند ذكر القبر أكثر من ذكر الآخرة؟ فقال: من نجى في هذا نجى في ذاك، ومن هلك في هذا هلك في ذاك.

إذاً يحتاج الإنسان السلامة من الله يوم يولد، وكذلك يحتاج السلامة حين يموت وكذلك يحتاج السلامة يوم يُبعث حياً وذلك يوم النشور، وهم فريق في الجنة، وفريق في السعير:

ولدتك أمك يا ابن آدم باكياً ... والناس حولك يضحكون سروراً

فاعمل لنفسك أن تكون إذا بكوا ... في يوم موتك ضاحكاً مسروراً

فأنت تُولد تبكي والناس حولك يضحكون، فهم سيبكون عليك حين تموت، ولكن ليكن يوم هُمْ يبكون أنت تضحك مسروراً؛ لأنه إذا خرجت هذه الروح تلقتها ملائكة الرحمٰن يبشرك الله بروح وريحان ورب راضٍ غير غضبان في جنات تجري من تحتها الأنهار.

ويقول الحافظ ابن كثير: «ولما كانت هذه المواطن أشق ما تكون على ابن آدم؛ سلَّم الله على يحيى في كل موطن من هذه المواطن»[(١)].

وذكر الله قصة يحيى عليه السلام في مكان آخر كما في آل عمران قال جل وعلا: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٧) هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ (٣٨) فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ [آل عمران]، ما الكلمة؟ إنها «كن».

(١) المصدر السابق.



ثم قال: ﴿وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [آل عمران: ٣٩] وأما السيادة فهي سيادة النبوة، وأما الحصور فقد قال أكثر أهل العلم الحصور هو: العفيف المحافظ على فرجه الذي لا يأتي الحرام أبداً، وهنالك قول آخر أن الحصور هو: الذي لا يستطيع أن يجامع النساء، أي: «عنين» وهذا خطأ لأن هذا لا يُمدح به الإنسان، بل عيب يجوز للمرأة أن تطلب الطلاق بسببه، وإنما يُمدح الإنسان الذي يستطيع أن يأتي النساء، ولكن يمتنع عن ذلك يريد رضا الله ﷻ.

قال زكريا عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً ۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ۗ﴾ [آل عمران] هناك ثلاث ليالٍ وهنا أيام فهي ثلاثة أيام بلياليها. ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ [آل عمران: ٤١] وقال: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٩] يقول جل وعلا: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

قال أهل العلم: إصلاح الزوجة هنا؛ لأنها كانت لا تحيض لكبر سنها، وكانت عاقراً فأصلحها الله فحاضت وقال البعض: كان فيها أذىً لزكريا وفيها عسارة تؤذيه بلسانها فأصلحها الله فصارت هينة لينة معه، ولكن أكثر أهل العلم على أن إصلاحها كان بحيضها.

من أسباب استجابة الدعاء:

قال ﷻ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠] يبين الله لنا السبب الذي لأجله استجاب الله دعاءه، وكأنه سبحانه يقول لنا: من أراد أن يستجيب الله له كما استجاب الله دعاء زكريا فليكن مثل زكريا ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا

خَٰشِعِينَ﴾، فلا يمكن أن يعصي الإنسان بالليل والنهار ثم يقول سألت الله فلمْ يستجب لي، كما قال النبي ﷺ وقد ذكر الرجل: «**يطيل السفر أشعث أغبر يرفع يديه إلى السماء: يا رب يا رب ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغذي بالحرام فأني يستجاب له؟**»[١].

ابنا الخالة:

وعيسى ابن خالة يحيى كما قال النبي ﷺ في حديث الإسراء قال: «**فرأيت ابني الخالة عيسى ويحيى**»[٢]، وكانا في زمن واحد، أم يحيى أخت مريم، وإما أن تكون خالة مريم فالله أعلم بذلك، المهم أن يحيى وعيسي كانا في زمن واحد واستمرت دعوتهما معاً صلوات الله وسلامه عليهما حتى مات يحيى ورُفِعَ عيسى.

خمس كلمات:

قال النبي ﷺ: «**إن الله أمر يحيى بن زكريا بخمس كلمات أن يعمل بهن، وأن يأمر بني إسرائيل أن يعملوا بهن، وكاد أن يبطء في التبليغ فقال له عيسى ﵇: إنك قد أُمرت بخمس كلمات أن تعمل بهن وتأمر بني إسرائيل أن يعملوا بهن، فإما أن تبلغهن وإما أن أبلغهن أنا.**

قال يحيى: إني أخشى إن سبقتني أن أُعذب أو يُخسف بي فلا تفعل أنا أُبلغ.

فجمع يحيى بني إسرائيل في بيت المقدس حتى امتلأ المسجد، فقعد على الشرفة، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: إن الله ﷻ أمرني بخمس كلمات أن أعمل بهن، وآمركم أن تعملوا بهن، وأولهن: أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، فإن مثل ذلك مثل من اشترى عبداً من

---

(١) أخرجه مسلم (١٠١٥).

(٢) أخرجه البخاري (٣٨٨٧)، وأخرجه مسلم (١٦٢).



خالص ماله بوَرِق[١] أو ذهب، فجعل يعمل ويؤدي غلته إلى غير سيده، فأيكم يسره أن يكون عبده كذلك؟ إن الله خلقكم ورزقكم فاعبدوه ولا تشركوا به شيئاً. وآمركم بالصلاة فإن الله ينصب وجهه قِبَل عبده ما لم يلتفت، فإذا صليتم فلا تلتفتوا، وآمركم بالصيام، فإن مثل ذلك كمثل رجل معه صرة من مسك في عصابة كلهم يجدوا ريح المسك، وإن خلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك، وآمركم بالصدقة، فإن مثل ذلك كمثل رجل أسره العدو فشدوا يده إلى عنقه وقدموه ليضربوا عنقه فقال: هل لي عندكم أن أفتدي نفسي منكم؟ فجعل يفتدي نفسه منهم بالقليل والكثير حتى افتدى نفسه، وآمركم بذكر الله عز وجل كثيراً، فإن مثل ذلك كمثل رجل طلبه العدو سراعاً في أثره، فأتى حصناً حصيناً فتحصن به».

قال رسول الله محمد ﷺ: «**وأنا آمركم بخمس أمرني الله بهن: بالجماعة، وبالسمع والطاعة، والهجرة في سبيل الله تبارك وتعالى، فإن من خرج عن الجماعة قيد شبر فقد خلع الإسلام من عنقه إلى أن يرجع، ومن دعى بدعوي الجاهلية فهو من حثالة جهنم**» قالوا: يا رسول الله وإن صلى وإن صام؟ قال: «**وإن صلىٰ وإن صام وزعم أنه مسلم، ادعوا المسلمين بأسمائهم بما سماهم الله تعالى المسلمين المؤمنين عباد الله عز وجل**»[٢].

قتل يحيى بن زكريا عليه السلام:

بعد ذلك لم تستمر دعوة يحيى كثيراً صلوات الله وسلامه عليه وقد كان في سن الشباب، فقد قرر ملكهم في ذلك الزمان أن يتزوج إحدى محارمه: خالته أو عمته أو بنت أخيه أو بنت أخته، لا يُعْلَم لكنها من محارمه التي يحرم عليه أن يتزوجها فسُئِلَ يحيى عن ذلك فقال: «حرام

---

(١) الورق: هي الفضة.

(٢) أخرجه الترمذي في (٢٨٦٣)، وأحمد (٤/ ١٣٠)، وهو صحيح كما في «صحيح الترغيب» (٥٥٢).



هي لا تحل له» وكانت المرأة تريد الملك، فجاءت الملك في يوم من الأيام حتى أغرته وصار هيناً ليناً معها، فقالت: أريد منك شيئاً واحداً، قال: كل ما تريدينه أُعطيك إياه، ماذا تريدين؟ قالت: أريد رأس يحيى!! قال: أو غير ذلك.اطلبي غيره، قالت: ليس إلا ذلك، ما أريد إلا رأس يحيى، هذا مهري منك، وعندها أطرق قليلاً ثم قال: لكِ ذلك، ثم أمر بيحيى صلوات الله وسلامه عليه، فقُتِلَ وقُدِّمَ رأسه صلوات الله وسلامه عليه مهراً لتلك البغيِّ.

قتل زكريا عليه السلام:

وأما والده زكريا فالمشهور أنه قُتِل أيضاً كما قال الله تبارك وتعالى في وصف بني إسرائيل أنهم كانوا يقتلون الأنبياء فَذُكِرَ أنهم قتلوا زكريا صلوات الله وسلامه عليه في قصة مريم، وذلك لأنهم اتهموه بمريم فقتلوه لذلك بعد أن فَرَّ منهم.

وعاشت بنو إسرائيل بعد ذلك فترة من الزمن زاد فيها انحرافها وذلك أن الانحراف كان متأصلاً فيهم، وكان كبراؤهم ينقسمون إلى خمسة أقسام:

١ ـ **الصِدِّيقيون**: وهؤلاء الذين كانوا بعكس اسمهم فهم الذين كانوا منغمسين في اللذات والشهوات.

٢ ـ **الفريسيون**: فهم الذين كانوا يظهرون الزهد وحقيقة الأمر أنهم كانوا يبتزون أموال الناس.

٣ ـ **والرهبان**: وهم عباد منقطعون غالبهم ضُلّال لا يعرفون كيف يعبدون الله تبارك وتعالى، وكان فيهم تنطع كثير في دين الله تبارك وتعالى كما قال عز وجل: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا﴾ [الحديد: ٢٧].



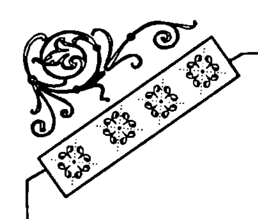
٤ ـ **والكتبة**: هم الذين كانوا يكتبون التوراة ويكتبون الأحكام ولكنهم كانوا يطلبون بها الدنيا على حساب الدين.

٥ ـ **والكهنة**: وهم الذين يحرضون الفقراء بأن يقدموا النذور فيأكلوها هم.

وهذا كله جاء في كتاب الله تبارك وتعالى في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلۡأَحۡبَارِ وَٱلرُّهۡبَانِ لَيَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۗ﴾ [التوبة: ٣٤].

وقال جل ذكره: ﴿فَبِظُلۡمٖ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا عَلَيۡهِمۡ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتۡ لَهُمۡ وَبِصَدِّهِمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرٗا ۝١٦٠ وَأَخۡذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدۡ نُهُواْ عَنۡهُ وَأَكۡلِهِمۡ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِۚ﴾ [النساء].






قصة عيسى عليه السلام

في هذا المجتمع المليء بالمعاصي، والمليء بالفسق والفجور؛ بعث الله تبارك وتعالى عيسى صلوات الله وسلامه عليه، وعندما نريد أن نقرأ حياة نبيه عيسى عليه السلام؛ نجد أن الكتاب الذي بُعث به عيسى ﷺ هو الإنجيل، وسنحاول أن نقرأ الأناجيل الموجودة، وأن ننفض عنها الغبار المتراكم لمدة أكثر من ألفي سنة، فعندما ننفض هذا الغبار عن هذه الأناجيل، وليست إنجيلاً واحداً، بل أناجيل تعدَّتِ السبعين إنجيلاً، أشهرُها خمسة، يؤمن أكثرهم بأربعة: لوقا، ومرقس، ويوحنا، ومَتَّى، ويكفرون بالخامس وهو: برنابا.

من هو عيسى؟ وماذا يريد؟ بماذا أمر؟ وعن ماذا نهى؟ كيف كانت حياته؟

أولاً: ننظر في الأناجيل، فنجد الأناجيل جميعاً لا يوجد لها أسانيد يُعتمد عليها، بل فقدت الأسانيد بعد رفع عيسى عليه السلام بخمسين سنة فقط.

ثانياً: لا توجد أي مخطوطات لهذه الأناجيل بحيث ينظر فيها.

ثالثاً: ليست إنجيلاً واحداً وإنما أناجيل، وهذه الأناجيل بينها اختلافات واضطرابات بحيث لا يمكن الجمع بينها والخروج بنتيجة صحيحة.

رابعاً: الأناجيل الموجودة لا أحكام فيها، وإنما هي قصة عيسى عليه السلام، إذاً كتبها غيره، وليس هو الذي أتى بذلك الكتاب من الله تبارك وتعالى الذي قال عنه عز وجل: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ﴾ [المائدة: ٤٦]، وفيه قوله:



﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عمران: ٥٠] فلا نجد شيئاً من هذا في هذه الأناجيل.

وفي النهاية نقول: هي لا تستحق كل هذا الجهد الذي نبذله في نفض الغبار والنظر، ويكفيك أن تعلم أن أول ما تنظر في أي إنجيل من هذه الأناجيل؛ فإنك تجد تفاهة عظيمة من تفاهاتهم تدل على طغيانهم وخبثهم وكفرهم، وأنهم عندما يذكرون عيسى عليه السلام يذكرون نسبه إلى يوسف النجار، ويوسف النجار هو الذي اتُهمت به مريم عليها السلام، وهؤلاء الخبثاء يصدقون اليهود في دعواهم أن عيسى ابن زنا ـ والعياذ بالله ـ وأنه مِنْ ظهر يوسف النجار، وليس هو كلمة الله ألقاها إلى مريم.

ذكر عيسى ابن مريم عليه السلام في القرآن:

ذُكِر عيسى ابن مريم في كتاب الله خمساً وثلاثين مرة، وذُكِرَتْ أمه مريم تسع مرات، ولا مجال للفصل بينهما، بل نذكرهما على أنهما قصة واحدة.

وقد اختلف الناس في عيسى على ثلاثة أقوال:

١ ـ قالت اليهود: هو ابن زنا لعنهم الله.

٢ ـ وقالت النصارى: هو ابن الله لعنهم الله.

٣ ـ وقال المسلمون: هو عبد الله ورسوله رحمهم الله.

أما مريم أم عيسى؛ فهي صديقة كما سماها الله جل وعلا ﴿وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ﴾ [المائدة: ٧٥]. وهي قانتة كما قال جل وعلا ﴿وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾ [التحريم: ١٢]. وهي من سلالة داود عليه السلام.

ونحن إذا أردنا أن ننسب عيسى؛ فإننا ننسبه إلى أمه كما نسبه الله تبارك وتعالى، فقال: ﴿عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ [النساء: ١٧١].



امرأة عمران تنذر ما في بطنها لله ﷻ:

تبدأ القصة عند قول الله جل وعلا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٣٣ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝٣٤ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا﴾ [آل عمران] وعمران هو عابد من عباد بني إسرائيل ورجل صالح والمشهور أن امرأته أيضاً صالحة واسمها حنا قالت: ﴿إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا﴾ [آل عمران: ٣٥]، تقول لربها ﷻ وهي لا تعلم ماذا يكون في بطنها؟ وتوقعت أن يكون الحمل ذكراً، فنذرت هذا الذَّكَرَ لبيت المقدس؛ ليكون خادماً للرب؛ لأن خدمة الرب تعني عبادته.

فالمهم أنها نذرت ما في بطنها محرراً من الدنيا؛ لأن الدنيا تستعبد الإنسان، ولذلك قال النبي ﷺ: «**تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم، تعس عبد الخميصة**»[1]، أما هذا فمحرر من كل قيود الدنيا، متفرغ لعبادة ربه جل وعلا: ﴿نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [آل عمران: ٣٥]، لكن الذي وقع أنها ولدتْ أُنثى، فلما وضعت قالت: ﴿رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ﴾ [آل عمران: ٣٧]، أي: النسمة أو النفس التي ولدتها ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾ [آل عمران: ٣٦]، وفيها قراءتان:

الأولى: بسكون التاء ﴿وَضَعَتْ﴾.

الثانية: بضم التاء «وضعتُ».

والقراءة الأولى تكون جملة معترضة، فكان هذا الكلام الذي دخل هو كلام الله ﷻ، فهي لما قالت: ﴿إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ﴾ فيجيب الله تبارك وتعالى ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾، فالله يدري أنها أنثى.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٨٨٧).



وعلى القراءة الثانية: يكون من كلامها هي، فتقول: رب إني وضعتها أنثى، والله أعلم بما وَضَعْتُ.

قالت: ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾ [آل عمران: ٣٦]؛ أي: كما أني نذرت هذا المولود ليكون خادماً للرب؛ فكذلك المولود الذي صار أنثى تكون خادمة للرب؛ لأنها نذرتْ ما في بطنها.

ومعنى مريم: خادمة الرب في لغتهم.

ومتى أسمتها؟

الجواب: أسمتها أول ما وضعت، وهذا دليل على أن الإنسان يجوز له أن يُسَمِّي ولده أول ما يولد. ولما جاء أنس بن مالك رضي الله عنه بأخيه عبد الله أول ما وضعته أمه؛ جاء به ليحنكه رسول الله ﷺ، فسماه عبد الله في الوقت نفسه(١).

وجاء في الحديث عن النبي ﷺ أن الصبي أو المولود يُسَمَّى يوم سابعه(٢)، فيجوز أن يُسَمَّى في أول يوم يُولد، ويجوز أن يُسَمَّى في سابعه.

قالت: ﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ٣٦ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾ [آل عمران]؛ أي: فاستجاب الله دعاءها جل وعلا، قال النبي ﷺ: «**ما من مولود إلا والشيطان يمسه حين يولد، فيستهل صارخاً من مس الشيطان إياه إلا مريم وابنها**»(٣)، فمريم لما استعاذت أمها من الشيطان أن يمسها، وكذلك استعاذت أن يمس ذريتها، فلم يمسها ولم يمس ذريتها، وهو عيسى صلوات الله وسلامه عليه.

---

(١) أخرجه البخاري (٥٤٧٠)، ومسلم (٢١٤٤).

(٢) أخرجه أبو داود في (٢٨٣٧، ٢٨٣٨)، والترمذي في (١٥٢٢)، والنسائي (٤٢٢٠)، ابن ماجه (٣١٦٥)، وهو في صحيح «إرواء الغليل» (١١٦٥).

(٣) أخرجه البخاري (٤٥٤٨)، ومسلم (٢٣٦٦).



يقول الله جل وعلا: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ [آل عمران: ٣٧] أي: رباها وكَفَّلَهَا زكريا، وهو خير بني إسرائيل في ذلك الوقت وهو نبي. وفي قراءة أخرى: «وَكَفَلَهَا زكريا» إذاً إما أن يكون الله كَفَّلَ لها زكريا، وإما أن يكون زكريا هو الذي كَفَلَها، وعلى كل حال فزكريا عليه السلام هو الذي اعتنى بها.

كفالة زكريا عليه السلام لمريم عليها السلام:

المشهور أن عمران ـ والد مريم ـ مات وهي حمل في بطن أمها أو بعد أن ولدتها مباشرة، وذلك أن امرأة عمران نذرت ما في بطنها دون الرجوع لزوجها، وسمتها كذلك دون الرجوع لزوجها، مع أن زوجها كان مصطفى كما قال الله جل وعلا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ﴾ [آل عمران: ٣٣]، وهو رجل صالح، بل كان من عُبَّاد بني إسرائيل، فكيف لا ترجع إليه في النذر ولا في التسمية.

قالوا: وذلك أنه قد توفي ومريم حمل في بطن أمها، أو أنه مات بعد الولادة مباشرة، والظاهر أنه مات وهي حمل في بطن أمها.

وتسابق العُبَّاد في بيت المقدس إلى كفالتها، وذلك لمكانة أبيها، فقد كان من عُبَّادهم وعلمائهم.

ونظير هذا ما تقدم في قصة موسى مع الخضر عند قول الله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾ [الكهف: ٨٢] فالله يحفظ النسل بصلاح الآباء والأمهات، فبصلاح الأب والأم تسابقَ الناس إلى كفالة مريم، فكان زكريا عليه السلام ممن طلبها مع الناس، فنازعوه إياها، فقالوا: لا حتى تكون هناك قرعة، فعملوا قرعة كما قال تبارك وتعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [آل عمران: ٤٤]، وضع كل واحد منهم قلمه، ونادوا صبياً لم يبلغ الحُلم، وقالوا له: اختر



قلماً مِنْ هذه الأقلام، والذي يخرج قلمه هو الذي يكفلها، فجاء الصبي ونزع القلم، فإذا هو قلم زكريا عليه السلام، فنازعوه وقالوا: لابد مِنْ قرعة أخرى. فقال: كما تريدون. قالوا: نرمي أقلامنا في الماء، والقلم الذي يمشي عكس التيار هو الذي يكفل مريم؛ لأن هذا أمر الله، فألقوا أقلامهم، فكلها جرت مع التيار إلا قلم زكريا عليه السلام جرى بعكس التيار. فقال: إذاً آخذ مريم. فقالوا: لابد مِنْ قرعة ثالثة. قال: كما تشاؤون. قالوا: نرمي أقلامنا، والقلم الذي يمشى مع التيار هو الذي يأخذ مريم، فمشى قلم زكريا مع التيار، ومشت أقلامهم جميعاً عكسه ﴿لِيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾، هكذا جاء في روايات بني إسرائيل والله أعلم، ويكفينا قوله تعالى: ﴿إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَـٰمَهُمْ﴾، وقوله: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾.

فضل مريم عليها السلام:

قال النبي ﷺ: «**كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون ومريم بنتُ عمران، وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام**»(١) إذاً هي ممن كَمُل مِنْ النساء، كفلتْ رسولاً من أولي العزم من الرسل؛ فآسية كفلت موسى عليه السلام، ومريم كفلت عيسى عليه السلام، ولذلك كانت لهما هذه المنزلة العظيمة.

الخلاف في نبوة مريم عليها السلام:

اختلف أهل العلم في مريم هل هي امرأة صديقة أو أنها امرأة نبية:

فذهب بعض أهل العلم إلى أنها نبية؛ وذلك لأمور:

(١) أخرجه البخاري (٣٤١١)، ومسلم (٢٤٣١).



أولاً: لأن الوحي جاءها على صور، فمرة يكلمها الله، ومرة يكلمها جبريل، ومرة تأتيها البشارة، ومرة يتمثَّل لها.

ثانياً: إن الله وصفها بأنها صِدِّيقة، ووصفها بأنها قانتة وهذا يدل على أنها نبية.

ثالثاً: لم يُسَمِّ اللهُ امرأةً باسمها غيرها في القرآن، فجاء فيه ذكر امرأة فرعون، وامرأة العزيز، وامرأة لوط، وامرأة نوح، ونساء النبي، وبنات النبي، وخالاته، وعماته، ولم يُذكرنَ بالاسم، وإنما بالوصف، بينما مريم ذكرت باسمها تسع مرات.

وذهب أكثر أهل العلم إلى أن مريم صِدِّيقة كما قال الله تبارك: ﴿وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌۖ﴾ [المائدة: ٧٥] فلم تكن نبية، ولو كانت نبية لكان شَرَّفها الله تبارك وتعالى بهذا اللقب ـ أي: لقب النبوة ـ ولناداها به ﷺ، ودليل ذلك قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا﴾ [يوسف: ١٠٩] فكل الذين أرسلهم الله ﷻ كانوا من الرجال، وهذا الصحيح، فمريم لم تكن نبية، وإنما كانت صِدِّيقة، وكانت امرأة صالحة تقية نقية.

اصطفاء الله ﷻ لمريم عليها السلام:

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصۡطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٤٢﴾ [آل عمران]، الاصطفاء الأول في ولادتها وكيف أنها كانت محفوظة بحفظ الله لها بتكليف زكريا عليه السلام برعايتها، وطهرها من خُبْثِ الأخلاق، وطهرها من الشرك، وطهرها بأنها كانت من أعفّ النساء، بل أعفهن في زمانها، واصطفاها الاصطفاء الثاني وهو: أن أخرج منها عيسى عليه السلام دون زوج، واصطفاء مريم على نساء العالمين؛ أي: عالمين زمانها، وليس كل نساء العالمين.



البشارة بعيسى عليه السلام:

قال الله تبارك وتعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [آل عمران] هكذا جاءت هذه البشارة لمريم بعد أن نشأت وترعرعت وتربت في بيت المقدس.

فوجئت بأن رجلاً يدخل عليها ويقول لها: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾، وجاء في سورة مريم أن الذي جاءها واحد من البشر، مَلَكٌ في صورة بشر ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾﴾ [مريم] فهنا مَلَكٌ وهناك ملائكة.

والصحيح أن الذي جاءها واحد، أما قول الله تبارك وتعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ أي: واحد من الملائكة؛ جنس الملائكة، وليس المقصود جماعة الملائكة، وهو على الصحيح جبريل عليه السلام.

ولما جاءت هذه البشارة استغربت مريم عليها السلام كيف يكون هذا ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ﴾ [آل عمران: ٤٧] لا بحلال ولا بحرام ما مسني بشر، فهي بكر، ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٤٧] هذه أسباب لا بد منها، لا بد من زواج ولا بد من جماع، ولا بد من نطفة ولا بد أن تلتقي النطفة مع البويضة، ولكن هذه الأسباب في البشر، أما الله تبارك وتعالى فلا يحتاج لهذه الأسباب أبداً؛ لأن أمره إذا أراد شيئاً ﴿أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾، وينتهي كل شيء بالنسبة لله تبارك وتعالى، وهو كما قال: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾﴾ [آل عمران].



فالله جل وعلا يُجري الشمس والقمر، والشمس تُشرق كل يوم من مشرقها، وسيأتي اليوم الذي لا يأذن الله لها أن تشرق، فتخرج من مغربها، فالله ﷻ لا تُسَيِّره الأسباب، ولكن هو الذي يُسَيِّر الأسباب، فهو مسبب الأسباب.

مريم تحمل بعيسى عليه السلام:

حملت مريم بهذه النطفة المباركة وهو عيسى صلوات الله وسلامه عليه، ولذلك يقال: عيسى كلمةُ الله ألقاها إلى مريم، وكلمة الله هي: «كن» فكان كما قال الله ﷻ.

وأول ما وُلِدَ عيسى عليه السلام علم بذلك المنجمون، وذلك أنهم كانوا ينتظرون قدوم نبي أخبر به الأنبياء السابقون، ويكون خراب مُلْك مَلِكِهم على يديه، فجاؤوا وأخبروا الملك، وكان اسمه «هيرودس» أنهُ وُلِدَ مَلِك اليهود الذي على يديه تنتهي مملكتك، فأمر بقتل كل صبي يولد كما وقع الأمر بالنسبة لموسى ﷺ، ففرت به مريم وهو حمل، أو فرَّت بعد ولادته، وهو الصحيح، المهم أن مريم خافت على ولدها عيسى صلوات الله وسلامه عليه.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ۝٥٠﴾ [المؤمنون] قيل: هذه الربوة هي مصر، وبقيت هناك سنوات حتى مات هيرودس، ثم رجعت إلى الغوطة في دمشق.

وقيل: إنها لَمْ تفر به، وأن الربوة ذات القرار والمعين هي التي قال الله تبارك وتعالى عنها: ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ۝٢٤﴾ [مريم] وهو النهر الصغير الذي أجراه الله ﷻ، والعلم عند الله جل وعلا.



ميلاد عيسى عليه السلام:

خلْقُ الله تبارك وتعالى كما ذكر أهل العلم على أربعة أنواع:

١ ـ من غير ذكر ولا أنثى وهو آدم عليه السلام.

٢ ـ من ذكر دون أنثى وهي حواء.

٣ ـ من أنثى دون ذكر وهو عيسى عليه السلام.

٤ ـ من ذكر وأنثى، وهم جميع ولد آدم عدا عيسى.

ذكر الله تبارك وتعالى أن مريم عندما ولدته ﴿فَٱنتَبَذَتۡ بِهِۦ مَكَانٗا قَصِيّٗا﴾ [مريم: ٢٢] أي: انفردت شرقي المسجد الأقصى، ثم ولدت هذا الولد، وذلك أنها خافت من كلام الناس، فسيتهمونها من أين لكِ هذا الولد؟ لا نعلم لك زوجاً، فهل كان مِنْ زنا؟ مَنْ هو والده؟ وهكذا، فخشيت مِنْ هذا كله، وهذا الأمر ثقيل عليها، تُتَّهم امرأة في عرضها، وأي امرأة؟ صِدِّيقة، قانتة، تربت في مكان عفيف، في مكان شريف مُقَدَّس.

ويُذكر أن زكريا، وقيل: أختها زوجة زكريا، وقيل: ابن خالتها، المهم: أحد هؤلاء جاءها بعد أن ولدت عيسى فقال لها: يا مريم هل يكون زرع من غير بذر؟ قالت: نعم، فمَنْ خلق الزرع الأول، قالوا لها: فهل يكون شجر من غير ماء؟ قالت: نعم فمَنْ خلق الشجر الأول؟ فقالوا لها: فهل يكون ولد من غير ذكر؟ قالت: نعم إن الله خلق آدم من غير ذكر ولا أنثى، فسكتوا، لكن هؤلاء مَنْ؟ هؤلاء الذين يحبونها، وأقنعتهم أن الله على كل شيء قدير، وأن هذا أمر الله ﷻ، فاعتزلتْ قومها، وذلك أن هؤلاء أقرب الناس إليها، ووقع في قلوبهم شيء مِنْ هذا الحمل، فكيف بالأبعدين؟ كيف بالفساق وبالفجرة؟ ماذا سيقولون عنها.

وذهبت على المشهور إلى بيت لحم، فلما وصلت إلى هناك قالت: ﴿يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا﴾ [مريم: ٢٣] نسياً منسياً: لا



يعرفني أحد وينساني الناس، أو نِسياً منسياً، النِسيّ هي الخرقة التي ينظف فيها الدم، وتلقى ولا يلتفت إليها أحد.

فالقصد أن مريم تمنتِ الموت لهذا الابتلاء العظيم الذي وقع عليها[1]، عندها قال الله تبارك وتعالى بعد أن قالت هذه الكلمة ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحۡتِهَآ أَلَّا تَحۡزَنِي﴾، وهذه الآية فيها قراءتان:

الأولى: ﴿مِن تَحۡتِهَا﴾ بكسر حرف الميم.

الثانية: «مَنْ» بفتح الميم.

قال الله تعالى: ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحۡتِهَآ أَلَّا تَحۡزَنِي قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيّٗا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ﴿٢٥﴾ فَكُلِي وَٱشۡرَبِي وَقَرِّي عَيۡنٗاۖ﴾ [مريم] إياك والهم، فأنت رَزَقَك اللهُ هذا الولد، ويجري لك هذا الماء، ويسقط عليكِ الرطب، فاطمأني وقَرّي عيناً.

قال: «فناداها مَنْ تحتها» أي: ولدها الذي وضعته تكلم وناداها، فقال لها: يا أمّ لا تحزني، وهذا فيه تطمين لها، فالآن وُلِدَ ويتكلم فاطمأنتْ مريم.

وقوله: ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ﴿٢٥﴾﴾ أي: حتى يتبين أن كل شيء له سبب، ولذلك ماذا قال الله لموسى عليه السلام: ﴿ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡبَحۡرَۖ﴾ [الشعراء: ٦٣] ابذل سبباً، وقد قيل:

ألم ترَ أن الله أوحى لمريم ... وهزي عليكِ الجذع يساقط الرطب
ولو شاء أحنى الجذع مِنْ غير هزة ... ولكن كل شيء له سبب

ثم قال لها: ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلۡبَشَرِ أَحَدٗا﴾ [مريم: ٢٦] لأنها اتخذتْ

---

(١) قال القرطبي رحمه الله: «وأما مريم عليها السلام فإنما تمنت الموت لوجهين: أحدهما: أنها خافت أن يظن بها السوء في دينها وتُعَيَّر، فيفتنها ذلك. الثاني: لئلا يقع قوم بسببها في البهتان والزور، والنسبة إلى الزنا، وذلك مهلك لهم، والله أعلم» «التذكرة» ص٦.



مكاناً قصياً خوفاً من البشر، ﴿فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا﴾ أي: إمساكاً عن الكلام، وهو بلسان الحال كما قال زكريا عليه السلام: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: ١١].

مريم عليها السلام ترجع إلى قومها:

رجعت مريم إلى قومها مطمئنة واثقة بالله تعالى ومعها ولدها، فقالوا: ﴿يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا﴾ والفري: الشيء العظيم، وأعظم الفري يعني: أعظم الكذب، ﴿يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾﴾ [مريم] قد تقدمت المواجهة بين مريم وبين الأقارب، وهي مواجهة المحبين، هل يكون زرع من غير بذر؟ هل يكون شجر من غير ماء؟

وأما هنا فهي مواجهة الفساق الفجرة فماذا قالوا لها؟

أول شيء قالوا: ﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾﴾ [مريم]، كأنهم يقولون لها أنتِ كذلك والعياذ بالله ﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ﴾ مَنْ هارون؟

اختُلف فيه على أقوال:

الأول: إنه أخوها اسمه هارون، ، وإما أن يكون وُلِدَ قبل مريم وأمها نذرت مريم، وإما أن يكون وُلِدَ بعد مريم، ولكن هذا يعكر عليه أننا قلنا: أن الأظهر أن عمران مات وزوجته حامل في مريم عليها السلام، إذاً احتمال أن هارون هو الأخ الأكبر لها.

الثاني: إنه النبي أخو موسى عليه السلام، فهي مريم أخت موسى وهارون، وهذا بدليل أنه موسى بن عمران، وهارون بن عمران، وهي مريم بنت عمران وقد ذكر الله ﷻ أختاً لهارون وموسى عليهما السلام ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ﴾ [القصص: ١١] واسمها مريم، فهذه هي مريم التي كانت

تقصُّ أثر موسى عليه الصلاة والسلام، فيصبح موسى وهارون أخوالاً لعيسى صلوات الله وسلامه عليه.

وهذا بعيد وليس بصحيح؛ لأنه على المشهور بين موسى وعيسى ثلاثة عشر قرناً، فبينهما من الزمن مدة طويلة.

الثالث: إن هارون عابد من عباد بني إسرائيل، ولأنها عابدة ومنذورة لبيت الله ﷻ يشبهونها بهذا الرجل الصالح، فكأنهم قالوا: أنتِ شبيهة هارون.

الرابع: إن هارون هذا كان رجلاً فاجراً عندهم، فشبهوها به.

وقد جاء في الحديثِ الصحيح أن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه سأله أهل نجران: كيف عندكم في القرآن تقولون لمريم: ﴿يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ﴾ وهارون مات قبل عيسى بقرون؟ فسكت المغيرة بن شعبة، وقال: حتى أرجع إلى رسول الله ﷺ. فرجع إلى النبي ﷺ، فقال له ذلك؟ فقال له النبي ﷺ: **«ألا تخبرهم أنهم كانوا يسمون بالأنبياء والصالحين قبلهم»**[1]، وهذا يدل على أن هارون اسم أخيها الأكبر، والله أعلم.

اتهام مريم عليها السلام بالفاحشة:

اتهموا مريم بالزنا والعياذ بالله، فمَنِ الذي اتهموه بها؟ قالوا: زكريا ولذلك قتلوه.

وقيل: اتهموها بابن خالتها وهو: يوسف النجار، وهو الذي صدق به النصارى قبحهم الله، ولذا كانوا يكتبون عيسى بن يوسف النجار.

(١) أخرجه مسلم (٢١٣٥).



عيسى عليه السلام يتكلم في المهد ويقر بالعبودية لله عز وجل:

لما أشارت إليه قالوا: ﴿كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ [مريم: ٢٩] فهذا صبي بالمهد، وتريدين منا أن نكلمه؟! فأشارت إلى عيسى عليه السلام، وعندها وقعت المعجزة، ووقعت الآية، تكلم الصبي في المهد وقال: ﴿إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ﴾، فأول كلمة قالها: إنه عبد لله، وكأن الله تبارك وتعالى يريد أن ينبهنا إلى أن هناك من سيغلو بهذا الصبي، وسيقول عنه: إنه ابن الله، فكانت أول كلمة قالها: ﴿إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ [مريم: ٣٠]، فكذّب خبرين:

الأول: كذّب من يقول: إنه ابن الله.

الثاني: وكذّب من يقول: إنه ابن زانية.

قال: ﴿ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ۝٣٠ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ۝٣١ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ۝٣٢﴾ [مريم] كما قال أخوه يحيى عليه السلام.

وقد جاء وفدٌ مِنْ نجران إلى النبي ﷺ في السنة التاسعة من الهجرة، فناظروه في عيسى صلوات الله وسلامه عليه، وذلك أن النصارى ـ كما سيأتينا ـ تعتقد أن عيسى عليه السلام إلٰهٌ في صورة بشر، وبشرٌ في صورة إله، يجتمع فيه ناسوت ولاهوت إنسي وإلٰهي في وقت واحد، فناظرهم النبي ﷺ في عيسى، فما كان منهم إلا أن طلبوا المباهلة، فأجابهم النبي ﷺ، وجاء من الغد بعليٍّ وفاطمة والحسن والحسين رضي الله عنهم، يريد أن يباهل بهم وفدَ نجران، وهذا مصداق قول الله تبارك وتعالى: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٦١﴾ [آل عمران]، ونبتهل أي: يلعن كل واحد منا صاحبَه، ويلعن نفسه إذا كان كاذباً، فالابتهال الالتعان، والمباهلة هي الملاعنة.

ولو تأملنا ما تكلم به عيسى عليه السلام لوجدناه يتضمن أموراً عشرة:

أولاً: ﴿إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ﴾.

ثانياً: ﴿ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ﴾.

ثالثاً: ﴿وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾.

رابعاً: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا﴾.

خامساً: ﴿وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ﴾.

سادساً: ﴿وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِي﴾.

سابعاً: ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾.

ثامناً: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ﴾.

تاسعاً: ﴿وَيَوْمَ أَمُوتُ﴾.

عاشراً: ﴿وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾.

عشرة أمور بيَّنها عيسى عليه السلام عندما تكلم هذه الكلمات اليسيرة في مهده صلوات الله وسلامه عليه، والمشهور عن ابن عباس وغيره أنه لَمْ يتكلم عيسى عليه السلام بعد ذلك حتى كَبُرَ، وإنما كان كلامه في هذا المقام آية على طهارة مريم عليها السلام.

المعجزات التي أيد الله عز وجل بها عيسى عليه السلام:

قال الله تبارك وتعالى عن عيسى عليه السلام: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِي ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِي ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّۦنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِي وَبِرَسُولِي قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾﴾ [المائدة].

وقال كذلك: ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۗ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾﴾ [آل عمران].

ونستخلص من هذه الآيات أن الله عز وجل جعل لعيسى عليه السلام ستَّ آيات أو ستَّ معجزات:

أولاً: كلامه في المهد.

ثانياً: يخلق من الطين كهيئة الطير.

ثالثاً: ينفخ فيه فيكون طيراً.

رابعاً: إبراء الأكمه والأبرص.

خامساً: إحياء الموتى.

سادساً: الإخبار بما يأكلون وما يدخرون في بيوتهم.

وهكذا كما أخبر يوسف صلوات الله وسلامه عليه ﴿لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ۚ﴾ [يوسف: ٣٧] وهنا كذلك نبي الله عيسى عليه السلام قال: ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ﴾ [آل عمران: ٤٩]، فهذه ست علامات تدل على أن عيسى صادق في دعوى النبوة.

ثم سكت عيسى عليه السلام بعد ذلك فترة من الزمن، وذكرنا أن مريم هاجرت به إلى مصر أو إلى دمشق أو اختبأت حتى مات المَلِك «هيرودس» الذي كان يريد قتل عيسى عليه السلام؛ لأنه كان يخافه على مُلْكِه.

ثم بعد ذلك استمر في حياته، وتركت هذه المدة الطويلة من



حياته ﷺ دون ذكر؛ لأن الذي يأتي بعدها هو الأهم؛ لأن القرآن ليس كتاب تاريخ، وإنما هو كتاب هداية؛ كتاب نور، يذكر لنا ما نحتاج إليه، وما نستفيد منه، وما نعتبر به، والمشهور أنه بُعِثَ بعد الثلاثين من عمره، واستمر في بعثته ثلاث سنوات، ثم بعد ذلك جاءت حادثة رفعه إلى السماء صلوات الله وسلامه عليه.

دعوة عيسى عليه السلام:

كان يدعو إلى توحيد الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ﴾ [آل عمران: ٥١].

وكان يدعو إلى طاعة الله ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ﴾ [المائدة].

وكان يدعو إلى الإيمان باليوم الآخر، وإلى عدم التهافت على الدنيا.

وكان يدعو إلى الزهد.

وكان يدعو إلى التواضع وعدم التكبر.

وكان يدعو إلى حسن المعاملة بين الناس.

وكان يدعو إلى عدم الظلم والعدوان على أموال الناس.

وكان يدعو إلى الالتزام بالتوراة التي جاء بها موسى عليه السلام: ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ﴾ [آل عمران: ٥٠] فنسخ بعض الأحكام التي في التوراة، ولكن في الجملة هو مصدق لما جاء في التوراة.

قصة المائدة:

وقعت حادثة في زمن عيسى عليه السلام ذكرها الله تبارك وتعالى في كتابه



العزيز: ﴿إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾ [المائدة] لا يجوز لكم أن تسألوا بهذه الطريقة وبهذا الأسلوب، فقالوا: لا يا عيسى نحن ما قصدنا التعنت وإن أسأنا المقال ولكننا: ﴿نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [المائدة: ١١٣].

قال: إن كان كذلك فدعوني أدعو ربي، فصار يدعو ربه تبارك وتعالى ويسأله أن يُنزل عليهم تلك المائدة، فقال عيسى عليه السلام: ﴿ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ﴾ [المائدة: ١١٤] أي: على صدقي وعلى نبوتي ﴿وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [المائدة: ١١٤] سأُنزل هذه المائدة ﴿فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ﴾ [المائدة: ١١٥] بهذه المائدة وبما جئت به يا عيسى ﴿أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

ولما جاءت هذه الكلمات من الله تبارك وتعالى وأخبر بها عيسى عليه السلام الناس؛ قال: إن الله جل وعلا سينزل هذه المائدة، ولكن انتبهوا هناك وعيد شديد لمن كفر بعد نزول المائدة، فإن الله سيعذبه عذاباً ما يعذبه أحداً من العالمين.

وهنا اختلف العلماء ماذا حدث بعد هذه الكلمات من الله عز وجل؟

فقال بعض أهل العلم ـ ومنهم الحسن البصري[1] ـ: إن المائدة لم تنزل، وذلك أنهم قالوا بعد التهديد الذي جاءهم من الله: لا حاجة لنا بهذه المائدة وخافوا.

والأكثر على أن المائدة نزلت بدليل قول الله تبارك وتعالى: ﴿مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة: ١٥]، والعلم عند الله جل وعلا.

ولكن الغريب أن التوراة الموجودة حالياً والإنجيل الموجود حالياً

(١) وروي عن مجاهد مثله. انظر: «تفسير الطبري» (١١/ ٢٣١).



لم يذكرا شيئاً عن هذه المائدة، وهذا يؤيد قول من قال: إنها لم تنزل، ولكن الإشكال هنا هو أن التوراة والإنجيل قد مستهما يد التحريف، فلا يوثق بهما الآن.

الحواريون:

الحواريون ذكرهم الله تبارك وتعالى في كتابه العزيز على سبيل المدح، فقال الله جل وعلا: ﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [آل عمران].

وقال الله عنهم: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾﴾ [المائدة]، وقال الله تبارك وتعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ﴾ [الصف: ١٤] فالحواري هو الناصر.

ومنه قول النبي ﷺ لأصحابه يوم الخندق لما طلب منهم رجلاً يخرج إلى الكفار ويدخل بينهم حتى يَسمع كلامهم ويأخذ أسرارهم، فندب أصحابه قال: «**من يخرج إليهم؟**» فقام الزبير بن العوام رضي الله عنه، فقال: أنا يا رسول الله فسكت النبي ﷺ، فأعادها مرة ثانية: «**من يخرج إليهم؟**» فقام الزبير بن العوام رضي الله عنه فقال: أنا يا رسول الله، فسكت النبي ﷺ، ثم أعاد الثالثة فقال: «**من يخرج إليهم؟**» فقام الزبير بن العوام رضي الله عنه فقال: أنا يا رسول الله، عندها قال النبي ﷺ: «**لكل نبي حواري، وحواريي الزبير**»(١).

كلمات عاطرة عن عيسى عليه السلام:

وقد نقلت عن عيسى صلوات الله وسلامه عليه كلمات طيبة ـ والله أعلم بثبوت بعضها عنه ـ، منها أنه قال: «**حب الدنيا رأس كل خطيئة**».

(١) أخرجه البخاري (٢٨٤٦)، ومسلم (٢٤١٥).



وقال عن الدنيا: «**اعبروها ولا تعمروها**».

وقال: «**رب شهوة أورثت أهلها حزناً طويلاً**».

وقال: «**لا يستقيم حب الدنيا وحب الآخرة في قلب مؤمن**».

وقال: «**لا يستقيم الماء والنار في إناء**».

وقال: «**طالب الدنيا مثل شارب ماء البحر كلما ازداد شرباً ازداد عطشاً حتى يقتله**».

ومرّ يوماً وأصحابه معه بجيفة فقالوا: ما أنتن ريحها! فقال عيسى عليه السلام: «**ما أبيض أسنانها!**».

وقال: «**إنما الناس رجلان: معافى ومبتلى، فارحموا أهل البلاء، واحمدوا الله على العافية**».

ورأى رجلاً يسرق فقال له: «**أسرقت؟**» فقال الرجل: كلا والذي لا إله إلا هو؛ فقال عيسى عليه السلام: «**آمنت بالله، وكذبت عيني**»[(١)].

ونُقِلَ عنه أنه ذكر ثلاثة خرجوا، فعثروا على كنز مِنْ ذهب، فاقتسموه بينهم، ثم طُلِبَ مِنْ واحدٍ منهم أن يذهب ويأتيهم بالطعام، فلما خرج جاء الشيطان صاحبيه، فطمع كلٌ منهما في الذهب، وقالا: بدلاً مِنْ أن يُقسم المال على ثلاثة لماذا لا يُقسم على اثنين، فاقتنعا وعزما على قتل صاحبهما، فلما رجع صاحبهما وجاء بالطعام قاما إليه وهو غافل، فقتلاه حتى يأخذا الذهب كله، ولكن فاتهما أن الشيطان الذي جاءهما جاء صاحبهما، فقال له: تقتلهما ثم تأخذ المال كله، قال له: وكيف لي ذلك؟ قال تضع سُمّاً في الطعام، فوضع سُمّاً في الطعام، فلما قتلاه أكلا الطعام فمات الجميع وبقي الذهب. وهذه هي نتيجة الطمع.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٤٤)، مسلم (٢٣٦٨).



مؤامرة اليهود على عيسى عليه السلام ونجاته منهم:

رسالة عيسى ﷺ لم تلقَ قبولاً عند الكثير من اليهود في ذلك الوقت، ولذلك قال الله تبارك وتعالى: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [المائدة] فعزموا على قتل عيسى عليه السلام عن طريق إثارة المَلِك عليه بقولهم: إن هذا هو الذي سيسلب مُلْكك وعزم الملك على قتله، ولكن الله تبارك وتعالى يحفظ رسله عليهم السلام، ولم يُرِد الله جل وعلا أن يسلطهم عليه كما تسلطوا على يحيى عليه السلام، وكما تسلطوا على زكريا عليه السلام، وكما تسلطوا على كثير من الأنبياء، وذلك أن الله عز وجل ألقى الشبه على آخر، فظنوه عيسى عليه السلام، فأخذوه وقتلوه، وهم يظنون أنهم قتلوا عيسى عليه السلام، وواقع الأمر أنه لم يُقْتَل كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٥٧] وهناك ثلاث روايات ذُكِرَت في كتب بني إسرائيل:

الرواية الأولى: أن كبير الحرس الذي كان حريصاً على قتل عيسى صلوات الله وسلامه عليه دخل عليه البيت يريد قتله، فرفع الله عيسى عليه السلام مِنْ روزنة بالجدار[١]، وأُلقي الشبه على هذا الرجل، فلما تأخر عليهم دخلوا البيت، فوجدوا صاحبهم، ولكن الشبه شبه عيسى، فأخذوه وقالوا: أمسكناه، قال: أنا صاحبكم، قالوا: نعم أنت صاحبنا، فأخذوه وقتلوه يظنون أنهم قتلوا عيسى عليه السلام.

الرواية الثانية: أن عيسى قال لتلاميذه: أحدكم يخونني، وهو «يهوذا الإسخريوطي»، ذهب إلى المَلِك وقال: أنا أُعلمك بمكان عيسى حتى تقتله، فلما أخبره وجاء الجند ليأخذوا عيسى أَلْقَى اللهُ الشبه على «يهوذا» فأخذوه وقتلوه يظنونه عيسى عليه السلام.

---

(١) أي: فتحة في الجدار.



هاتان روايتان تقولان أن الذي أُلقي عليه الشبه هو عدو لعيسى عليه السلام.

الرواية الثالثة: أن عيسى عليه السلام حوصر في البيت وكان معه تلاميذه، فقال لتلاميذه: أيكم يتبرع فَيُلقي اللهُ الشبه عليه فَيُقْتَل ويكون في درجتي في الجنة، فقال أحد تلاميذه وكان مِنْ أصغرهم سناً: أنا. فقال: «**أنت صاحبي**» فأُلقي الشبه على هذا الحواري، وأُخذ وقُتِلَ متبرعاً دون عيسى صلوات الله وسلامه عليه.

قال الله تعالى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ﴾ [النساء: ١٥٧] لكنه رفع عيسى كما قال جل وعلا: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [آل عمران] فالمكر منهم إرادة قتل عيسى، والمكر من الله تعالى أن ألقى الشبه على غير عيسى، سواء قلنا: ألقاه على رئيس الشرطة أو ألقاه على التلميذ الخائن، أو ألقاه على التلميذ النجيب أياً كان، المهم أن الشبه أُلقي على آخر، وهذا المكر من الله بهم أنهم أخذوه يظنون أنهم أخذوا عيسى عليه السلام، وما قتلوه كما قال الله جل وعلا: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ۖ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [آل عمران] وهنا في قول الله تبارك وتعالى: ﴿يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ دلالة واضحة على أنه ما قُتِلَ صلوات الله وسلامه عليه.

ثم قوله: ﴿وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ قال الحافظ ابن كثير: نحن الذين اتبعوه، ما قلنا إلا كما قال هو: عبد الله، ما قلنا: هو ابن الله، وليس النصارى الآن هم أتباع عيسى عليه السلام بل أعداء عيسى عليه السلام ولذلك الله تبارك وتعالى يقول لعيسى عليه السلام يوم القيامة: ﴿أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَانَكَ﴾



[المائدة: ١١٦]، وقال: ﴿إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ [المائدة: ١١٦]، وقال: ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ﴾ [المائدة: ٧٢].

إذاً أتباع عيسى عليه السلام هم الذين ساروا على نهجه واقتفوا أثره، ولما هاجر النبي إلى المدينة وجد اليهود يصومون يوم عاشوراء فقال: لماذا يصومونه؟ فقالوا: هذا اليوم الذي نجى الله فيه موسى عليه السلام من فرعون، فقال: «**نحن أحق بموسى منكم**»[1]، ونحن كذلك نقولها للنصارى: نحن أحق بعيسى منكم صلوات الله وسلامه عليه، كيف والله تبارك وتعالى يقول عنهم وعن اليهود: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾﴾ [النساء] أي: يقيناً ما قتلوه أو هم ليسوا متيقنين أنهم قتلوه، تحتمل معنيين إما ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا﴾ أي: غير متأكدين أنهم قتلوه؛ لأن هذا الذي أخذوه وصلبوه كان يصيح ويبكي، فقالوا: ما هذه عادة عيسى فتشككوا في الذي قتلوه، خاصة أن بعض تلاميذ عيسى عليه السلام الذين يعلمون أن عيسى ما قُتِلَ، وإنما رُفِعَ كانوا يتكلمون بهذا، فهم في شك ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا﴾.

أو أن يكون الكلام من الله يقطع بذلك: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا﴾ فيكون فيها تقديم أو تأخير، ويكون معنىٰ ذلك: يقيناً ما قتلوه.

رَفْعُ عيسى عليه السلام:

قال الله تعالى: ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾﴾ [النساء]

(١) أخرجه البخاري (٣٣٩٧)، ومسلم (١١٣٠).



وعن ابن عباس قال: لما أراد الله أن يرفع عيسى عليه السلام إلى السماء خرج إلى أصحابه وفي البيت اثنا عشر رجلاً منهم أي: مِنْ الحواريين فقال: إن منكم من يكفر اثنتي عشرة مرة بعد أن آمن بي، ثم قال: أيكم يُلْقىٰ عليه شبهي فيُقْتَل مكاني ويكون معي في درجتي؟ فقام شاب من أحدثهم سناً فقال له: «**اجلس**»، ثم أعاد الثانية فقام الشاب فقال: «**اجلس**»، ثم أعاد الثالثة فقام الشاب، فقال عيسى صلوات الله وسلامه عليه «**أنت هو ذاك**» فألقي عليه شبه عيسى ورفع عيسى مِنْ روزنة في البيت في السقف إلى السماء وجاء مَنْ يطلبه مِنْ اليهود فأخذوا الشبيه، فقتلوه ثم صلبوه، فكفر بعيسى أحدهم اثنتي عشرة مرة بعد أن آمن به، وافترقوا بعد ذلك إلى ثلاث فرق:

فقالت فرقة: كان الله فينا ما شاء ثم صعد إلى السماء أي: أن عيسى عليه السلام هو الله، وهذه فرقة اليعقوبية.

وقالت فرقة: كان فينا ابن الله ما شاء الله ثم رفعه إليه، قال ابن عباس: وهؤلاء النسطورية.

وقالت فرقة: كان فينا عبد الله ورسوله ما شاء الله عز وجل ثم رفعه إليه، وهؤلاء هم المسلمون[(١)].

وأناجيل النصارى كثيرة جداً، بل ذُكِرَ أن الأناجيل التي كتبت بعد رفع عيسى أكثر من مئة إنجيل، كل واحد يكتب، ولكن الأناجيل التي اعتمدت بعد ذلك سبعون، والأناجيل المعتمدة الآن أربعة: مَتَّى، ولوقا، ويوحنا، ومرقص، وهذه تسمى عند النصارى العهد الجديد.

وهناك العهد القديم، وهي التوراة والأسفار التي معها.

وهناك إنجيل خامس يقال له «برنابا» وهذا لا تعترف به الكنيسة،

---

(١) «تفسير الطبري» (٢٣/ ٣٦٦ ـ ٣٦٧).



وهو أقرب الأناجيل إلى الحق، وكل الأناجيل على باطل حتى برنابا هذا، ولكنه أقربها إلى الحق.

جاء في إنجيل برنابا: «فلما رأى الله الخطر على عبده أمر جبريل وميخائيل وروفائيل وأدرين أن يأخذوا يسوع(١) من العالم، فجاء الملائكة الأطهار وأخذوا يسوع من النافذة المشرفة على الجنوب، فجعلوه ووضعوه في السماء الثالثة في صحبة الملائكة التي تُسَبِّح الله إلى الأبد، ودخل ياهوذا بعنف إلى الغرفة التي أصعد منها يسوع، وكان التلاميذ كلهم نياماً، فأتى الله العجيب بأمر عجيب، فتغير ياهوذا في النطق والوجه، فصار شبيهاً بيسوع حتى إننا اعتقدنا أنه يسوع».

ولأن برنابا هذا هو أحد الحواريين كما يدعون؛ فبرنابا يقول: إن ياهوذا هو الذي أُلقي عليه الشبه، وهو التلميذ الخائن، وأن عيسى رُفع إلى السماء صلوات الله وسلامه عليه.

معنى قوله تعالى: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾:

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٥٤﴾ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ [آل عمران]، فما معنى مُتَوفيك؟ هل مات عيسى صلوات الله وسلامه عليه في الدنيا أم لم يمت؟ مع الاتفاق أن عيسى لم يُصلب؛ لأن هذا نص القرآن ﴿وَمَا صَلَبُوهُ﴾ فلمْ يُصلب ولمْ يُقتَل، وهذا بالإجماع، ومن قال بخلاف ذلك؛ فهو كافر مرتد؛ لأنه كَذَّب قول الله تبارك وتعالى.

ولأهل العلم في معنى قوله: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾ ثلاثة أقوال:

القول الأول: أن الله توفاه بمعنى أماته، ولكن لم يُقتَل، ولكن

(١) هم يسمون عيسى عليه السلام يسوع.



أماته الله حتف أنفه، مات ميتة طبيعية بعد أن قتل الشبيه أماته ثم رفعه إلى السماء دون أن تناله أيديهم.

القول الثاني: أن في الآية تقديماً وتأخيراً، ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ﴾ فيكون الرفع أولاً ثم الوفاة، والوفاة بعد أن ينزل إلى الدنيا ويَقْتُل الدجال يتوفاه الله، فيكون في الآية تقديم وتأخير، ويكون المعنى إني رافعك إليَّ ومتوفيك.

القول الثالث: أن الوفاة هنا هي النوم كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ﴾ [الأنعام: ٦٠] أي: أن الله أَلْقَى على عيسى النوم، ثم رفعه فتكون الوفاة هنا بمعنى النوم ﴿إِنِّى مُتَوَفِّيكَ﴾ أي: مُنيمك ﴿وَرَافِعُكَ إِلَىَّ﴾، ومصداق ذلك قوله تبارك وتعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الزمر: ٤٢] فالنوم يسمى الوفاة الصغرى أو الموتة الصغرى، فتكون الوفاة هنا بمعنى النوم مُنيمك ثم أرفعك إليّ، وهذا أقرب الأقوال إلى الصواب.

وعلى كل حال سواء قلنا بالأول أو الثاني أو الثالث فكلها أقوال لأهل العلم، ولكن الإجماع على أن اليهود ما مسوا شعرة من عيسى صلوات الله وسلامه عليه.

ورُفع عيسى عليه السلام وله من العمر ثلاثة وثلاثون سنة على المشهور.

معنى اسم المسيح:

واشتهر عيسى بلقب «المسيح»، وكلمة المسيح لها معانٍ كثيرة، فمن معانيها:

١ ـ الذي يسيح في الأرض ليس له مكان يستقر به، فينتقل من بلد إلى بلد.



٢ ـ الذي يمسح الناس فيشفيهم، وذلك أن عيسى كان يأتي لصاحب العاهة كالأكمه والأبرص، والزَمِن الذي لا يستطيع أن يمشي، والميت، فيمسح على هؤلاء فيقومون وكأنه لم يكن فيهم شيء.

٣ ـ الممسوح الأخمُص من القدم أي: أن قدمه مخموصة قطعة واحدة ليس فيها التجويف الداخلي في القدم.

٤ ـ الذي فيه مسحة من جمال، ولذلك قال النبي ﷺ عن جرير بن عبد الله: «**كأنه فيه مسحة من ملك**»[١].

صفة عيسى عليه السلام:

من صفة عيسى عليه السلام ما قاله النبي ﷺ: «**كان ربعة**» أي: معتدل لا طويل ولا قصير، «**كأنما خرج من ديماس**»[٢] كأنما الآن اغتسل وخرج من الحمام لشدة نضارته صلوات الله وسلامه عليه. وهو أبيض مشرب بالحمرة، لا هو أسمر ولا أبرص، وإنما بياض جميل كما قال الله تبارك وتعالى عن يد موسى عليه السلام: ﴿بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ﴾ [طه: ٢٢]. يصل شعره إلى منكبيه صلوات الله وسلامه عليه.

دعوة الحواريين للناس بعد رفع عيسى عليه السلام:

وبعد رفع عيسى عليه السلام تفرق الحواريون في البلاد يدعون إلى عبادة الله وإلى الإيمان به ﷻ والإيمان بالمسيح، وأنه عبد الله ورسوله؛ يدعون بدعوته صلوات الله وسلامه عليه، ولكنه وقع على تلاميذه ألوان عظيمة من الأذى والاضطهاد والقتل والتشريد، وفُعلت فيهم الأفاعيل،

---

(١) أخرجه أحمد (٤/٣٥٩ ـ ٣٦٤)، وابن حبان (٧١٩٩)، وابن خزيمة (١٧٩٧)، والنسائي في «الكبرى» (٨٣٠٢)، وصححه الشيخ الألباني في تعليقه على «ابن خزيمة».

(٢) أخرجه البخاري (٣١٨٣)، ومسلم (٢٤٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.



وكانت أعظم تلك الاضطهادات ما وقع على يد الملك «نيرون» سنة أربع وستين من الميلاد، ثم بعده في عهد الملك «تراجان» سنة ست ومئة من الميلاد، ثم على يد الملك «ديسيوس» سنة تسع وأربعين ومئتين من الميلاد، ثم على يد «قليديانوس» سنة ثمانين ومئتين من الميلاد، وهذه أشد الاضطهادات، وكانت طبعاً بوشاية من اليهود، يأتون إلى الملوك ويقولون: هؤلاء يريدون إفساد مُلْكِكم هؤلاء لا يرونكم ملوكاً، هؤلاء يرونكم على ضلال، وهكذا يفعلون بأتباع عيسى صلوات الله وسلامه عليه، سواء كان بالحورايين أنفسهم كما في عهد «نيرون» أو أتباع الحواريين الذين آمنوا بدعوتهم وآمنوا بعيسى عليه السلام مِنْ أتباعهم أو أتباع أتباعهم، وهكذا كانوا يُشردون ويُقتلون ويُضطهدون.

المسيحية التي جاء بها عيسى عليه السلام:

قال الله جل وعلا: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾﴾ [المائدة].

وقال الله جل وعلا: ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾﴾ [المائدة].

بولس يبدل الدين الذي جاء به عيسى عليه السلام:

رجل يهودي اسمه «شاوَل» كان من أعدى أعداء تلاميذ عيسى



صلوات الله وسلامه عليه، وكان يؤذيهم الأذى الشديد، ويضطهدهم ويسجنهم ويدل عل أماكنهم، وكان يسطو على الكنيسة ويأخذ الرجال والنساء إلى السجن، وكان يهدد ويقتل كل من يكون على دين عيسى صلوات الله وسلامه عليه، ثم فجأة وإذا هو أكبر داعية للمسيحية، وأكبر داعية لعيسى عليه السلام وتسمى باسم آخر وهو «بولس»، هذا «شاوَل» اليهودي جاءهم وقال: أنا «بولس» الآن، أريد أن أدعو إلى عيسى، وقال: كنت أمشي في الطريق فجاءني عيسى، فنظرت إليه في السماء، فقال لي: يا «شاوَل» إلى متى تضطهدني؟ إلى متى ما تتوب؟ فقال: إني تبت الآن، وأنا الآن أريد أن أدعو إلى المسيحية، فصار أشهر أتباع عيسى في دعواه، وصار القدوة عند غالب الناس بلا منازع، وصار الناس يقولون: «قال بولس»، «أمر بولس» حتى إنه الآن في الأناجيل الموجودة الآن رسائل بولس أكثر من اثنتي عشرة رسالة، وصار الآن أتقى واحد فيهم، وهذا التحول عجيب.

وكيف استطاع بولس أن يصل إلى هذه المرحلة أو هذه الدرجة؟

أولاً: كان الرجل نشيطاً دائم الحركة يسافر من بلد إلى بلد لا يجلس أبداً.

ثانياً: كان ذكياً بارعاً يستطيع أن يقنعك أن هذا الجدار ليس بجدار، وأنه من الذهب وغير ذلك من الأمور.

ثالثاً: كان متكلماً مفوهاً.

بل قالوا: ناصره برنابا وكان برنابا يدافع عنه، فيقال: إن «بولس» هو أول مَنْ أفسد على النصارى دينهم؛ لأنه جاء من اليهودية إلى النصرانية، وهنالك «بولس» آخر جاء في القرن الرابع الميلادي، وهو: «بولس الشمشاطي»، وهو أول مَنْ قال باللاهوت والناسوت: أن عيسى إله أو أن عيسى ابن الله.



وكان النصارى في ذلك الوقت كلهم على عقيدة واحدة، وهي أن عيسى عبد الله، وأن عيسى آية من آيات الله تبارك وتعالى، وأنه وُلِدَ من غير أب، لكن كون عيسى إله، عيسى ابن الله، الله ثلاثة، فهذه جاء بها «بولس» الآخر وهو «بولس الشمشاطي». ولذلك قال أهل العلم: «بولس الشمشاطي» هو الذي أفسد على الناس دينهم بعد أن أفسد «بولس» الأول ما أفسد، فقد كان تلاميذ عيسى عليه السلام يقولون رُفِعَ، والآن لا يستطيع أحد أن يقول: رفع.

بداية المجامع الكنسية:

بعد رفع عيسى عليه السلام وموت تلاميذه صارت خلافات كثيرة بين النصارى ووجدوا الحل في حسم تلك الخلافات أن تكون هناك مجامع كنسية أو مجامع سكسونية أو مجامع إقليمية، المهم اتخذوا المجامع، وهذه المجامع من خلالها يتخذون القرارات، فكان أول مجمع لهم هو مجمع «فينيقية» سنة خمس وعشرين وثلاثمئة، وكان هذا المجمع يناقش قضية: هل عيسى بشر رسول أو ابن الله؟

ثم خرج المجمع بالنتيجة أن عيسى ابن الله، وكل من لم يقل أن عيسى ابن الله ملعون، وكل كتاب يقول غير هذا الكلام يحرق، يعني: أن هذه عقيدة يجب أن تُقْبَل رغم كل أنف.

ثم صار المجمع الثاني المجمع «القسطنطينى»، وذلك سنة إحدى وثمانين وثلاثمئة هذا المجمع ناقش قضية أخرى وهي: قضية التثليث، وتم اعتماد التثليث: «الله»، «عيسى»، «روح القدس»، وقال بعضهم: «الله»، «عيسى»، «مريم» المهم: واحدٌ في ثلاثة وثلاثة في واحدٍ.

مناظرة الباقلاني لعلماء النصارى:

أرسل ملك من ملوك النصارى إلى أحد ملوك المسلمين فطلب منه



أن يُرْسِلَ له أحد علماء المسلمين ليناظره علماء النصارى فأرسل أبا بكر الباقلاني، فلما وصل؛ قالوا له: إذا أردت أن تدخل على المَلِك لا بد أن تلتزم شروطنا.

قال: وما شروطكم؟

قالوا: أنْ تسجد للملك، فنحن كلنا نسجد للملك إذا دخلنا عليه، فأنت إذا لم تسجد للملك فهذه إهانة.

قال: إذاً لا أدخل على الملك فأنا لا أسجد إلا لله ﷻ.

فلما وجدوه مُصرّاً على رأيه؛ قالوا: انتظر، فدخلوا على الملك، وقالوا له: هذا الرجل يرفض أن يسجد لك فهل ندخله أو لا؟

قال: أدخلوه. ولكنهم احتالوا، فجاؤوا إلى الباب، فوضعوا في وسط الباب خشبة حتى لا يدخل مستقيماً، وإنما يدخل راكعاً إلى الملك.

فجاء الباقلاني وإذا الخشبة موضوعة، فانتبه وفهم أنهم يقصدون أن يدخل راكعاً، فلا يُعْقَل أنْ يكون هذا الباب الذي يُدْخَل منه إلى الملك، فلما رأى ذلك؛ دخل بظهره، وهذا من حسن الفهم والانتباه، والمؤمن كيس فطن.

فلما دخل إلى الملك وإذا عنده الرهبان والأحبار الذين سيناظرهم فجاءهم وقال: كيف حالكم؟ وكيف حال الأهل؟ وكيف الزوجات والأولاد؟

فنظر إليه الملك نظرة استغراب، وقال: أنت الذي أرسلك مَلِكُكم لتناظر الرهبان؟

قال: نعم.

قال: أما وجد غيرك؟!



قال: ولِمَ؟

قال: أبسط الأمور التي يجب أن تعرفها أن هؤلاء لا يتزوجون، فكيف تسألهم عن الزوجات والأولاد؟

قال: ولِمَ؟

قال: هؤلاء منزهون عن الولد والزوجة.

فقال: سبحان الله! نزهتم هؤلاء عن الزوجة والولد، ولمْ تنزهوا الله عز وجل، فقلتم عيسى ابن الله!! فسكتوا.

ثم قالوا: ما هذا الذي يقال في امرأة نبيكم؟

قال: نعم، هما امرأتان اتهمتا بالزنا عائشة ومريم، أما عائشة فكانت ذات زوج ولم تأتِ بولد، وأما مريم فلم يكن لها زوج وأتت بولد، فإذا كنتم تصدقون ذلك في عائشة؛ إذاً صدقوا في مريم من باب أولى، فمن أولى بالاتهام؟ عائشة أم مريم؟ فسكتوا ولم يتكلموا.

عودة إلى المجامع السكسونية:

ثم كان المجمع الثالث في «أفسس» سنة إحدى وثلاثين وأربعمئة وقرر أن مريم أيضاً إله.

ثم جاء المجمع الرابع، مجمع سنة إحدى وخمسين وأربعمائة، وبعد هذا المجمع خرجت النتيجة النهائية وهي أن عيسى ناسوت ولاهوت، إله وبشر، فهذه عقيدة النصارى في عيسى ابن مريم، حيث جعل النصارى خاتمة أمر المسيح خاتمة شنيعة ومأساة مروعة، وجعلوا الاعتقاد بحصولها أصلاً من أصول دينهم، فلا يُقْبَل عندهم من مؤمن إيمان إلا بهذا، وهي أنه صُلب وقُتِلَ واستهزئ به، وأن اليهود قتلوه رغماً عنه، وأنه كان يبكي قبيل قتله صلوات الله وسلامه عليه.

فقالوا: إن آدم لما أكل من الشجرة وعصى الله تبارك وتعالى



أراد الله أَنْ يُكَفِّر خطيئة آدم بولده عيسى، فَقُتِلَ عيسى تكفيراً لخطيئة آدم، يتحمل عيسى ذنوب العباد كلهم، فإذا أذنب أحدهم؛ فإنه يذهب إلى القس ويدفع مبلغاً من المال، ثم يعده القس فيقول: انتهى الأمر، عيسى تحمل عنك ذنوبك، ثم يخرج الرجل ويعصي مرة ثانية، وهكذا.

نزول عيسى عليه السلام:

رفع عيسى صلوات الله وسلامه، وسيرجع مرة ثانية ليكمل مسيرة الدعوة؛ لأنه من أولي العزم من الرسل، وأولو العزم من الرسل هم الذين عانوا وتعبوا في دعوتهم؛ لأنه قد يقول قائل: أين دعوة عيسى، وأين المعاناة حتى صار من أجلها مِنْ أولي العزم؟ نقول: لم تنته دعوة عيسى بعد وسينزل ويُكْمِل دعوته صلوات الله وسلامه عليه.

قال رسول الله ﷺ: «**والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً عدلاً، فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد حتى تكون السجدة الواحدة خير من الدنيا وما فيها**»(١).

وقال كذلك ﷺ: «**كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم وإمامكم منكم**»(٢).

وقال صلوات الله وسلامه عليه عندما ذكر الدجال: «**وبينما هو كذلك** ـ أي: الدجال ـ **إذ بعث الله المسيح عيسى ابن مريم، فينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق بين مهرودتين** ـ أي: ثوبين مصبوغين بالحمرة ـ **واضعاً كفيه على أجنحة ملكين إذا طأطأ رأسه قطر، وإذا رفع رأسه تحدر منه اللؤلؤ، فلا يحل لكافر يجد ريح نَفَسِه إلا مات ونفسه**

---

(١) أخرجه البخاري (٢٢٢٢)، ومسلم (١٥٥).

(٢) أخرجه البخاري (٣٤٤٩)، ومسلم (١٥٥).



ينتهي حيث ينتهي طرفه فيطلبه ـ أي: يطلب الدجال ـ **حتى يدركه بباب لدٍ فيقتله»**[(١)].

وتستمر حياة عيسى عليه السلام بعد ذلك على المشهور ـ كما جاء عن عائشة ـ أربعين سنة، ثم يتوفاه الله تبارك وتعالى، ويموت ميتة حقيقية، ويكون قد بلغ من العمر ثلاثة وسبعين سنة.

ونختم ذكر عيسى صلوات الله وسلامه عليه بهذه القصيدة وهي عبارة عن تساؤلات تساءل بها الإمام ابن القيم رحمه الله قال:

أعباد المسيح لنا سؤال ... نريد جوابه ممن وعاه
إذا مات الإلٰه بصنع قوم ... أماتوه فما هذا الإلٰه؟!
وهل أرضاه ما نالوه منه؟ ... فبشراهم إذا نالوا رضاه
وإن سخط الذي فعلوه فيه ... فقوتهم إذن أوهت قواه
وهل بقي الوجود بلا إلٰه ... سميع يستجيب لمن دعاه؟
وهل خلت الطباق السبع لما ... ثوى تحت التراب، وقد علاه؟
وهل خلت العوالم من إلٰه ... يدبرها، وقد سمرت يداه؟
وكيف تخلت الأملاك عنه ... بنصرهم، وقد سمعوا بكاه؟
وكيف أطاقت الخشبات حمل ... الإلٰه الحق شد على قفاه؟
وكيف دنا الحديد إليه حتى ... يخالطه، ويلحقه أذاه؟
وكيف تمكنت أيدي عداه ... وطالت حيث قد صفعوا قفاه؟
وهل عاد المسيح إلى حياة ... أم المحيي له رب سواه
ويا عجباً لقبر ضم رباً ... وأعجب منه بطن قد حواه
أقام هناك تسعاً من شهور ... لدى الظلمات من حيض غذاه
وشق الفرج مولوداً صغيراً ... ضعيفاً، فاتحاً للثدي فاه؟
ويأكل، ثم يشرب، ثم يأتي ... بلازم ذاك، هل هذا إلٰه؟!

---

(١) أخرجه مسلم (٢٩٣٧).



تعالى الله عن إفك النصارى ... سيسأل كلهم عما افتراه
أعباد الصليب، لأي معنى ... يعنف أو يقبح من رماه؟
وهل تقضي العقول بغير كسر ... وإحراق له، ولمن بغاه؟
إذا ركب الإلٰه عليه كرهاً ... وقد شدت لتسمير يداه
فذاك المركب الملعون حقاً ... فدسه، لا تبسه إذا تراه
يهان عليه رب الخلق طراً ... وتعبده؟ فإنك من عداه
فإن عظمته من أجل أن قد ... حوى رب العباد، وقد علاه
وقد فقد الصليب، فإن رأينا ... له شكلاً تذكرنا سناه
فهلا للقبور سجدت طراً ... لضم القبر ربك في حشاه؟
فيا عبد المسيح أفق، فهذا ... بدايته، وهذا منتهاه

وأخيراً: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾، فهذا مبتداه وهذا منتهاه، والله أعلى وأعلم وصلى الله وسلم وبارك عليه وعلى سيدنا محمد.



فهرس الفوائد







الفائدة	الصفحة



فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة



الموضوع | الصفحة



الموضوع | الصفحة



الموضوع	الصفحة



الموضوع | الصفحة



الموضوع | الصفحة



الموضوع | الصفحة



الموضوع	الصفحة



الموضوع | الصفحة



الموضوع — الصفحة



الموضوع | الصفحة

الموضوع | الصفحة



فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ

إنها قراءة تأصيلية علمية لسِيَرَ وقصص الأنبياء عليهم السلام، الذين قال الله ﷻ فيهم: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ فمن رحمة الله ـ تبارك وتعالى ـ بخلقه أن أرسل إليهم رسلاً مبشرين ومنذرين، يُعرّفون الناس بهذا الرب سبحانه وتعالى من هو؟ ما أسماؤه؟ ما صفاته؟ ماذا يريد منا؟ عن ماذا ينهانا؟ ما جزاء من يطيع؟ ما جزاء من يعصي؟

هؤلاء الرسل هم الواسطة بين الله ـ تبارك وتعالى ـ وبين خلقه في التبليغ، يبلغون عنه ما يريد أن يوصله إلى عباده، فيعرفون الناس ما ينفعهم في معاشهم ومعادهم، يعرفونهم ما يرضي ربهم وما يسخطه، فيعمل الناس على تحقيق محابِّ الله ويعملون كذلك على تجنب ما يغضب الله سبحانه وتعالى .

المؤلف



الكويت الجهراء: هاتف: ٢٤٥٥٧٥٥٩ (٩٦٥) فاكس: ٢٤٥٥٧٥٥٨ (٩٦٥)

حولي: شارع الحسن البصري تلفاكس: ٢٢٦٤١٧٩٧ (٩٦٥)

